

لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩١٤

في فناء الإسلام

كتاب في ثلاثة أجزاء يبحث عن الحالة العقلية والسياسية والأدبية
في صدر الإسلام إلى آخر الدولة الأموية
اشترك في تأليفه : طه حسين ، واحمد أمين ، وعبد الحميد العبادي
اختص كل بكتابة جزء في ناحية من هذه النواحي الثلاث

الجزء الأول في الحياة العقلية

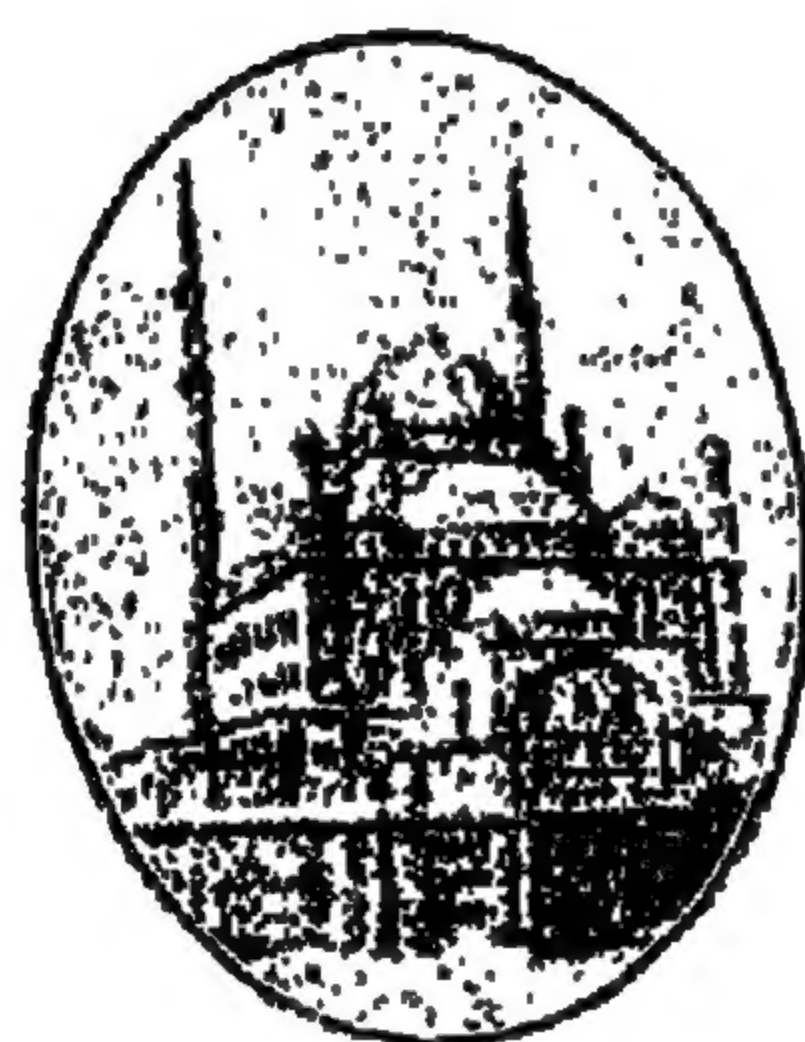
تأليف

احمد أمين

المدرس بكلية الآداب بالجامعة المصرية

حقوق الطبع محفوظة

مطبعة الإعتقاد بشارع حسن الأكبر بمصر



الفهرس

صفحة

الباب الأول — العرب في الجاهلية

- ١ الفصل الأول — جزيرة العرب . موقعها . أجزاؤها . مناخها . سكانها .
أنسابهم . حالتهم الاجتماعية
- ١٣ الفصل الثاني — اتصال العرب بمن جاورهم من الأمم . وسائل الاتصال .
التجارة . انشاء المدن العربية على التخوم . امارة الحيرة ،
الغساسنة ، اليهودية والنصرانية
- ٣٥ الفصل الثالث — طبيعة العقلية العربية . رأى الشعوبية . رأى الجاحظ .
رأى ابن خلدون . رأى أوليرى . مناقشة هذه الآراء
- ٤٦ الفصل الرابع — الحياة العقلية للعرب في الجاهلية . وصفها . أثر البيئة
الطبيعية والاجتماعية في تكوينها . في هذا الطور لا علم
ولا فلسفة
- ٥٩ الفصل الخامس — مظاهر الحياة العقلية . دلالة اللغة العربية على عقلية
العرب . دلالة الشعر . دلالة الأمثال . دلالة القصص

الباب الثاني — الاسلام

- ٨٣ الفصل الأول — بين الجاهلية والاسلام . لفظ الاسلام ومغناه . تعاليم
الاسلام . أثر هذه التعاليم في العرب . مقارنة بين المثل
الأعلى في الاسلام والمثل الأعلى في الجاهلية ، الى أى حد

تأثر العرب بالاسلام . النزاع بين النزعات الجاهلية
والاسلامية .

١٠٠ الفصل الثاني — الفتح الاسلامي وعملية المزج بين الأمم . تعاليم الاسلام
في الفتح . الرق والولاء . أثرهما في الحياة العقلية .
دخول البلاد المفتوحة في الاسلام . الاختلاط في
السكنى . أثر هذه العوامل في العقلية

الباب الثالث — الفرس وأثرهم

١١٨ الفصل الاول — دين الفرس . زرادشت . ماني والمانوية . بحث فيما تدل
عليه كلمة الزندقة . نظر الفرس الى ملوكهم . أثر هذه
الديانات في المسلمين

١٣٥ الفصل الثاني — الادب الفارسي . أثره في الادب العربي . أثر الفرس
في الحكم والاخلاق العربية . أثرهم في الغناء . أثرهم في
اللغة . مجالس اللهو عندهم وما كان لها من أثر في الادب

الباب الرابع — التأثير اليوناني — الروماني

١٤٩ الفصل الاول — النصرانية . حالتها عند الفتح الاسلامي

١٥٢ الفصل الثاني — الفلسفة اليونانية . ما كان منتشرًا منها في الشرق .
الافلاطونية الحديثة . السريانئون وقيامهم بنشر الفلسفة
اليونانية . اقتباس العرب من هذه الثقافة .

١٦١ الفصل الثالث — الادب اليوناني الروماني . السبب في تأثر العرب بالادب
الفارسي أكثر من تأثرهم بالادب اليوناني . نواحي

تأثير اليونان في الأدب العربي

الباب الخامس — الحركة العلمية في القرن الأول الهجري

وصفها ومراكزها

١٦٩ الفصل الأول — وصف الحركة العلمية اجمالاً . الامية عند العرب . أثر الاسلام في الحركة العلمية . وصف الحركات العلمية وأشهر القائمين بها . الموالى والعلم . أنواع هذه الحركات . الحركة الدينية . الحركة التاريخية . القصص في الاسلام ، الحركة الفلسفية . موقف الأمويين ازاء هذه الحركات ، التدوين في هذا العصر

٢٠٤ الفصل الثاني — مراكز الحياة العقلية . المؤثرات في هذه المراكز . الحجاز . مدرستا مكة والمدينة . حياة اللهو في الحجاز بجانب الحياة الدينية . مظاهر هذه الحياة . لماذا زاد اللهو في الحجاز عن اللهو في العراق والشام ، العراق . مدرستا البصرة والكوفة . الحياة العربية في العراق . الشام مدرسته ، مصر الحركة العلمية فيها

الباب السادس — الحركة الدينية تفصيلاً

٢٣٣

٢٣٤ الفصل الأول — القرآن وتفسيره . اختلاف العرب في فهم معاني القرآن ، أسباب الاختلاف . مصادر التفسير . طبقات المفسرين

٢٤٩ الفصل الثاني — الحديث . عدم تدوينه . الوضع في الحديث . أسباب الوضع . نهضة العلماء لمقاومة الوضع وما اتخذوه من وسائل . أشهر المحدثين

المحاولات التي اتخذت لرسمية الحديث . أثر الحديث في
نشر الثقافة

٢٧٠ الفصل الثالث — التشريع : التشريع في الجاهلية . القرآن وما فيه من

تشريع . الحديث والتشريع . الرأي والتشريع . معنى
الرأي . تخرج قوم من القول به . كيف كان يستخدم
الرأي في العصر الاول ، أشهر القائلين بالرأي وبعض
أقوالهم . محاولة تنظيم الرأي من طريق الشورى . شيوع
مذهب الرأي في العراق . مميزات هذا المذهب . مذهب
الحديث وأنصاره . شيوعه في الحجاز والسبب في ذلك .
النزاع بين مدرسة الرأي ومدرسة الحديث

أثر الفتح الاسلامي في التشريع . القانون الروماني
والفقه الاسلامي . علاقة الدولة الاموية بالقضاء . تأثير
الامصار في التشريع . تأثير الامصار في المشرع

الباب السابع — الفرق الدينية

٣٠٢

٣٠٢ كلمة في الخلافة وأنها أساس كثير من الفرق

٣٠٦ الفصل الاول — الخوارج . سبب تكونهم . فروعهم . تعاليمهم . أشهر

فرقهم . مميزاتهم . من اشتهر منهم بالشعر والخطابة
والعلم باللغة

٣١٧ الفصل الثاني — الشيعة . سبب تكونهم . تطور مذهبهم . تعاليمهم .

غلاتهم . السبب في تأليه الغلاة عليا . رأيهم في
الامام . أشهر فرقهم . الزيدية . الامامية . شعراؤهم في

هذا العصر . عملهم سرآ . معنى التقية . اضطهادهم .
أثر التشيع في الاسلام . اختلاف الآراء في الأصل
الذى نبع منه التشيع

٣٣٣ الفصل الثالث — المرجئة . معنى الارجاء . سبب تكونهم . مشايعتهم
للامويين . أهم تعاليمهم . شعراؤهم

٣٣٨ الفصل الرابع — القدريّة والمعتزلة . الجبر والاختيار . منشأ القول فيهما ،
أشهر دعاة الجبر ودعاة الاختيار

المعتزلة . منشأ هذا الاسم . أشهر الدعاة الى الاعتزال .
تعاليمهم . آراؤهم السياسية . أين نشأ الاعتزال . ما قام به
المعتزلة من دفاع عن الدين . أسباب كرههم
انتشار الجدل بين الأمة الاسلامية في العصر الأموي .
أمثلة على ذلك . صدور الفرق الاسلامية عن عقليات
مختلفة . سناجتها في العهد الأموي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الكتاب

للدكتور طه حسين

فى نفوس الناس الآن من الأدب العربى ودرسه صورة جديدة مخالفة لما كان فى نفوسهم منذ سنين ، ولكنها صورة غامضة على جدتها وطرافتها ، أوهى غامضة لجدتها وطرافتها ، فالناس جميعاً لا يطمثون الآن الى ما كانوا يطمثون اليه من أن الأديب يجب أن يروى طائفة جيدة من مختار المنشور والمنظوم ، وأن يلم بما يتصل بهذا المنشور والمنظوم من لغة وتاريخ وقصص ونسب لشرحه وتفسيره ونقده ليكون أديباً ، وإنما هم يطلبون الى الأديب شيئاً آخر ، يطلبون اليه أن يكون مرآة صافية وضاعة أمينة لخير ما فى عصره ان كان أديباً منشئاً ، وأن يكون مرآة صافية وضاعة أمينة للادب الذى يريد درسه ان كان أديباً واصفاً . وليس المختار من المنظوم والمنشور الا صوراً لالوان من حياة الافراد والجماعات فيها القوى وفيها الضعيف ، فيها الجيد وفيها الردىء ، فيها الرضى وفيها البغيض . والناس لا يريدون الآن أن يقنعوا بهذه الصور يحفظونها ويستظهرونها ويلقون عليها أبصارهم متعجلين لا يحققون ولا ينعمون ، وإنما يريدون أن يتعرفوا ما وراء هذه الصور ويتعمقوا حقائقها ويعرفوا — الى أقصى حدود المعرفة — دقائق هذه الحياة النفسية التى اضطربت بها الأفراد والجماعات فانشأت ما أنشأت من نثر ونظم .

الناس يحسون ذلك ويشعرون به ، ثم يؤدون حسهم وشعورهم بهذه الشكوى

المتصلة من ضعف الأدب العربى وفساده ، وقصوره عن أن يثبت للأدب الأجنبية ، وبهذا الازدراء المتصل بالادباء وأساتذة الادب وما ينتج اولئك وهؤلاء من أدب انشائى أو وصفى ، وبانصراف كثير منهم عن الادب العربى قديمه وحديثه الى الأدب الاجنبى يفتنون به ، ويتهاككون عليه ، ويؤثرونه لا يعدلون به شيئاً . ولكنك تسألهم ماذا يريدون من الأدب العربى ليقرأوه ويحبوه ، وماذا يريدون من الأديب العربى ليسمعوا له ويصغوا اليه ، فيجيبونك أجوبة غامضة ملتوية لا تكاد تحقق شيئاً مما يجدون فى أنفسهم الا أنهم يكرهون هذا الادب العربى ويتبرمون به ، ويرونه بعيداً كل البعد عن أن يرضى حاجات نفوسهم ، ويحقق ما لعقولهم من مطامع .

وقد أحس أساتذة الأدب أنفسهم نفور الناس من أدبهم وانصرافهم عنه منذ أول هذا القرن ، فجدوا فى أن يلائموا بين أدبهم وبين عقول الناس ، وحاولوا التجديد والاصلاح ، فنشأ فى مصر ما سموه تاريخ الادب . وتغير اسم الادب نفسه بعض الشيء فسمى فى الكتب والبرامج الرسمية هذا الاسم الجديد الغريب بعض الشيء : أدب اللغة ، أو آداب اللغة : ولكن أساتذة الادب لم يفهموا عن الناس شكواهم على وجهها ، فلم يتصوروا التجديد فى درس الادب على وجهه . وخيل اليهم أن التجديد فى درس الادب انما يكون اذا صيغت كتب الادب العربى صيغة كتب الادب الاجنبى ، وأرخ الادب العربى على نحو ما يؤرخ الادب الاجنبى ، فقسم الى عصور ، وترجم فى كل عصر لطائفة من الكتاب والشعراء النابهين ، وأشير — فى ايجاز — الى ما يسمونه المؤثرات الادبية أو العلمية التى تتميز بها العصور بعضها من بعض ، واستحدثت الفاظ جديدة هى فى حقيقة الأمر ترجمة لالفاظ أجنبية ، لا تدل فى أدبنا العربى على شيء ، وعلى هذا النحو نشأ فى مصر نوع من الادب جديد لا هو بالعربى القديم ، ولا هو بالاجنبى الحديث ، وانما هو شيء بين بين ، قصر عن ذلك ، ولم يبلغ هذا . وعشنا على هذا الادب حيناً . ولكن

شكوى الناس لم تنقطع ونفورهم من الادب العربى وانصرافهم الى الآداب الاجنبية لم يزدادا الا شدة والحاحا . وكان طبيعيا أن تتصل هذه الشكوى ، وكان طبيعيا أن يشتد هذا النفور والانصراف ، لان رقى الحياة العقلية فى مصر اطرده منذ أول هذا القرن . ولان اتصال هذه الحياة العقلية المصرية بالحياة الاوروبية اشتد واستوثقت عراه ، بينما لم يطرد رقى الادب ولم يتصل بالادب الاجنبى ، ولم يزد أساتذة الادب فى هذه الايام على ما وضعوه من صور جديدة فى أول القرن . فمضى الناس قدما وتخلف الادباء .

وقام بين الناس واساتذة الادب سور من اليأس عميق صفيق حال بينهم وبين ان يفهم بعضهم بعضا ، فأما الناس فاستيأس أكثرهم من الادب العربى ، وأخذوا يروضون أنفسهم على الاستغناء عنه والاكتفاء بالآداب الاجنبية ، وأما اساتذة الادب فاستيأسوا من الناس واستيقنوا أن الحضارة الاجنبية قد أفسدت العقول والقلوب وعكفوا على أدبهم هذا المشوه يعيدونه ويبدئون به ، ثم يعيدونه ويبدئون به ويزجون زجا فى نفوس الطلاب والتلاميذ لا يحفلون بما يتركون فى نفوس هؤلاء الطلاب والتلاميذ من أثر ، ولا يحفلون بما يستبقون لهذا الادب العربى من حياة ، ومع ذلك فليس الادب العربى أقل حياة من الآداب الاجنبية مهما تكن ، وليس الادب العربى أقل صلاحا للبقاء واستحقاقا للعناية الخصبه والدرس المنتج من الآداب الاجنبية مهما تكن . وكل عيب الادب العربى أنه مجهول لا يحسنه أصحابه ولا يتعمقونه . وكل ما يحول بين الادب العربى وبين الحياة والخصب والنفع أن مناهج البحث عنه والاستقصاء له سيئة رديئة لم تنظم بعد ، ولم يتناولها الاصلاح فى مصر كما تناول اصلاح المناهج العلمية الاخرى ، فالناس يدرسون الطبيعة والكيمياء وغيرهما من العلوم التجريبية درسا صحيحا مستقيما المناهج كما تدرس فى أوروبا ، ولكنهم لم يوفقوا بعد الى هذا الحظ من الشجاعة الذى يكفى لان يتصور الادب كما تتصور العلوم ، ولان يدرس الادب كما تدرس العلوم . ويقيننا ان لو تغير

تصور الناس للادب وتغيرت مناهجهم لاستقصائه والبحث عنه لتغير الادب نفسه ، ولكن درسه في مصر منتجاً قيمياً كما ان درس العلوم التجريبية فيها منتج قيم .

على هذا النحو من الاستعداد أقبل زملائي وأقبلت على درس الادب العربي في الجامعة حين كلفنا هذا الدرس مندرسين ، وكنا نحدث أنفسنا بأننا نحاول تجربة شاقة ، ان تفجح فقد استطعنا أن نحبي الادب العربي ونبعث فيه روحاً جديداً يمكنه من النمو والنهوض والتسلط على عقول الناس وقلوبهم ، والتعبير عن أهوائهم ، وميولهم والاخذ بحظه من الحياة القوية الغنية بين الاداب القائمة ، وان لم تفجح فلم يضع الوقت ولم تذهب الجهود عبثاً ، وإنما هي محاولة يمكن الانصراف عنها الى محاولة أخرى ، وطريق يمكن العدول عنها الى طريق أخرى كما يفعل كل عالم مؤمن بعلمه ، جاد في العناية به ، وكنا مؤمنين بالادب العربي وكنا جادين في العناية به ، كنا مخلصين في هذه التجربة ، لانحفل بما نجد فيها من مشقة ، ولا نغتر أمام ما يعترضنا فيها من عقبة ، وكنا نجد في هذه المشقات والعقاب وفي تذليلها والقدرة على اجتيازها لذة تدفعنا الى العمل وتحثنا على المضي فيه ، وكنا نجد من استعداد الطلاب وتفتح نفوسهم لهذا الادب العربي ما يضاعف هذه اللذة ويشد من عزائنا للمضي فيما نحن بسبيله ، وكنا كلما خطونا خطوة أحسنا أن أقدامنا لا تزداد الا ثباتاً ، وأن الطريق تنبسط أمامنا مستقيمة واضحة الأعلام . ويخيل إلينا أن قد قطعنا من هذه الطريق مرحلة يحسن أن نقف عندها بعض الشيء ، ويحسن أن نظهر الناس على ما وجدنا فيها . على أننا لم نقطع هذه المرحلة في سهولة أو يسر ، وإنما وجدنا أمامنا طائفة ضخمة من الانقراض بذلنا جهداً غير قليل في إزالتها لتخلص الطريق لنا ، وتستقيم أمامنا ، وكثير من هذه الانقراض كان في نفوسنا ، فكم تركت فيها تريتتنا الأولى وكم تركت فيها تعليمنا الأول . وكم حفظنا من أشياء لم يكن لنا بد من أن نخالص منها وتتحفف من أثقالها وننبذها على شيء من الألم والحزن كان يخالج نفوسنا ، وأى شيء ألم

للنفس وأثقل عليها من هذا الجهد الذي يفرق بينها وبين ما أحبت وألفت منذ عرفت البحث والتفكير ؟

وكثير من هذه الانقاض لم يكن في نفوسنا ولكنه كان في نفوس الناس ، وكان في الكتب . ولم يكن جهدنا في إزالة تلك الانقاض الخارجية أقل من جهدنا في إزالة تلك الانقاض الداخلية ، ان صح هذا التعبير .

ومهما يكن من شيء فقد يخيل إلينا أن جهودنا لم تذهب عبثاً ولم تمض سدى وأنا نستطيع أن نظهر الناس من القرن الأول للهجرة على صورة جديدة ، الا نكن قد وقفنا الى اتقانها وتحديدتها من جميع أقطارها فقد وقفنا الى أن نظهر منها المقدار الذي يمكن غيرنا من الوصول الى حيث لم نصل ، والانتهاى الى ما لم ننته اليه . والعلم لا يعرف الكلمة الأخيرة في مسألة من مسائله ، وانما حقائقه كلها إضافية موقوتة ، لها قيمتها حتى يتكشف البحث عما يزيل هذه القيمة أو يغيرها . ونحن لا نزعم لصورتنا هاته التي نعرضها من القرن الأول للهجرة أنها الصورة الأخيرة ، وانما نزعم أنها الصورة التي انتهى إليها بحثنا على ما بذلنا فيه من جهد ، وما اصطنعنا فيه من دقة ، وما تحرينا فيه من انصاف ، وقد ينكشف بحثنا وبحث غيرنا عما يغير هذه الصورة كلها أو بعضها . فان يكن ذلك فنحن أشد الناس به اغتباطاً وله ابتهاجاً . ذلك أنا لا نبغى الا الحق من حيث هو . والحق لم يوقف على فريق من الناس دون فريق ، ولم يقصر على عصر من عصور التاريخ دون عصر

ولكن ما هذه الصورة التي نريد أن نعرضها على الناس والتي نتحدث عنها في غموض وإبهام ؟ كانت القاعدة التي اعتمدنا عليها في البحث أن الادب العربي كغيره من الآداب بل كغيره من كل ما يتصل بالحياة الانسانية ، بل كغيره من كل ما يصلح موضوعاً للدرس في هذا الكون شيء لا ينبغي أن ينظر اليه على أنه منقطع الصلة عما حوله ، وانما هو جزء من كل ، وليس الى معرفة الجزء سبيل اذا لم يعرف الكل ، أو اذا لم يعرف ما يحيط به من الاجزاء الاخرى على أقل تقدير ، واذن فلا ينبغي أن نقف

جهودنا على درس الشعر والنثر وحدهما وتعرف ما لهما من قيمة فنية ، وإنما ينبغي أن يدرس الشعر والنثر من حيث هما مرآة لحياة الامة العربية في طور من أطوارها ، واذن فلا بد من أن تعرف الامة العربية في هذا الطور معرفة واسعة عميقة واضحة .

تعرف في حياتها الخاصة بينها وبين نفسها ، وتعرف في حياتها الخارجية بينها وبين الامم التي اتصلت بها ، ولا بد من أن تعرف حياتها الخارجية والداخلية معرفة دقيقة مفصلة الى أبعد حد يمكن أن تصل اليه الدقة والتفصيل . وعلى هذا قسمنا بحثنا الى ثلاثة أقسام : الاول الحياة العقلية للامة العربية في القرن الاول للهجرة ، الثاني الحياة السياسية لهذه الامة العربية في هذا القرن ، الثالث حياتها الادبية . وكل قسم من هذه الاقسام معقد شديد التعقيد ، ملئ بكثير الالتواء ؛ فلم تكن الامة العربية ابان القرن الاول للهجرة تحيا حياة عقلية يسيرة سهلة كما يظن الناس ، وإنما كانت حياتها العقلية خلاصة معقدة لطائفة كثيرة من العناصر اشتبكت وتداخل بعضها في بعض . حتى نشأ عنها هذا المزاج الذي نراه أيام بنى أمية ، وما رأيك في حياة عقلية للعرب تجد فيها أثر الحياة الجاهلية وهو كثير بعيد ، وتجد فيها أثر الاسلام وهو مركب غير بسيط ، وتجد فيها أثر المسيحية وفيها السامى واليونانى ، وتجد فيها أثر المجوسية الفارسية كما تجد فيها أثر الديانات الهندية على اختلافها ، وكما تجد فيها أثر الحضارات المختلفة لكل هذه الامم التي ذكرنا أسماءها

ولوانا كنا نريد التمويه على الناس والعبث بالعقول لأشربنا الى هذا في شيء من الإيجاز اللبق ، مكثفين بالمثل والشاهد نرويه رواية وثبته على علاقاته في غير تحقيق ولا تمحيص ، ولكننا لم نرد تمويهها ولا عبثاً ، وإنما أردنا أن نرضى ضمائرنا أولاً وحاجة الناس ثانياً ، فأخذنا أنفسنا أو بعبارة أصح أخذ زميلنا الأستاذ احمد امين نفسه بأن يحلل هذه الحياة العقلية العربية تحليلاً ليس أقل دقة واستقصاء من تحليل صاحب الكيمياء في معمله ، نعم وأخذ زميلنا نفسه بأن يرد هذه الحياة العقلية العربية ما استطاع الى عناصرها المختلفة المكونة لها ، وبأن يعرف الى أى حد

امتزجت هذه العناصر وتداخلت ، وما مقادير هذه العناصر في هذا المزاج العام ،
ما مقدار العنصر الجاهلي ، وما مقدار العنصر الفارسي ، وما مقدار العنصر اليهودي ،
وما مقدار العنصر اليوناني ، وما طبيعة هذه العناصر نفسها ، وما العناصر المختلفة
التي كونت كل واحد منها ، ثم بعد هذا كله ما المزاج العربي الذي خرج من تفاعل
هذه العناصر المختلفة فظهر في الآداب العربية كما نراه في شعر الشعراء ، وخطب
الخطباء ، وعلوم العلماء ، وأمثال الناس في أحاديثهم العامة والخاصة

ولقد أحب أن أتخلل من هذه القيود التي يأخذ بها الانسان نفسه حينما
يتحدث عن أثر من آثاره فيتكلف التواضع و يلتزم القصد فلا يتمدح ولا يثني ،
أريد أن أتخلل من هذه القيود لأشهد بأن زميلي « احمد امين » قد نهض بهذا
العبء في درس الحياة العقلية العربية كأحسن ما ينهض الرجل ذو الضمير العلي
الحى بعبء من الأعباء . نعم أريد أن أتخلل من هذه القيود فأشهد بأن زميلي
« احمد امين » قد استطاع أن يكشف لنا ببحته هذا عن رجل لم نكن نقدر أن نراه ،
فقد كنا نعرف له كفايته ومقدرته كعالم أديب ، جد حتى تثقف بالثقافة الأجنبية
الأوربية ، ولكننا لم نكن نقدر أن يكون قد أخذ من هذه الثقافة بأدق حظ
وأقربه الى الاتقان والكمال ، فاحسن العلم بمنهجها والاستعمال لهذه المناهج ، كما
أحسن العلم بمنهج القدماء في الفقه وعلوم الدين ، والاستعمال لهذه المناهج . ولست
أخفي أني لم أكن أعرف حداً لهذا الدهش الذي كنت أجده حين أرى « احمد
امين » يتصرف في المسائل الأدبية والفلسفية واللغوية بقدم ثابتة ويد صناع وعقل
يعرف كيف يفكر وكيف ينتقل من قضية الى قضية ، ومن مقدمة الى نتيجة ،
وكيف يضع الاشياء بعد ذلك كله في نصابها معتدلاً أحسن اعتدال لا يعرف
التقصير ولا يعرف الاسراف

نعم أريد أن أتخلل من هذه القيود وأن أثني على احمد امين . ومهما أفعل من

ذلك فلن يكون ثنائى شيئاً الى جانب هذا الاثر الذى سيتركه فى نفوس الناس بحته الذى أقدمه الى الجمهور سعيداً مغتبطاً بأنه أول ما يقع فى أيدي الناس من كتاب « فجر الاسلام »

أخذ احمد امين نفسه بمأرأيت من مناهج البحث فى درس الحياة العقلية للامة العربية ابان القرن الاول للهجرة فانتهى الى نتيجتين كلتاهما قيمة حقاً : الاولى أنه أظهر هذه الحياة كما كانت ، معقدة ملتوية ولكنها قوية أشد قوة ممكنة ، خصبة أشد خصب ممكن ، بعيدة كل البعد عما كان يظن الناس من هذه السذاجة الغليظة الجافة

الثانية أنه وصل بين الثقافة الادبية والثقافة الدينية والفلسفية وصلا متيناً لن يتعرض منذ الآن لضعف أو وهن ، فقد كان الناس يعلنون أن للدين والفلسفة أثراً فى الشعر والنثر. ولكنهم لم يكونوا يزدون على هذه القضية العامة . أما الآن فقد استطاع احمد امين أن يضع أيدينا على هذه الآثار القوية الخالدة التى يتركها الدين والفلسفة فى الادب ، وأصبح كتابه وسيلة قيمة الى أن تتصل الحياة الدينية الاسلامية فى وضوح وجلاء وقوة الى نفوس الشبان الذين يدرسون الادب العربى فى الجامعة أو فى غيرها من معاهد العلم العالى . ومن ذا الذى كان يقدر أن سيصل شباننا الى تعمق الفقه والتفسير والحديث والتوحيد وأثرها كلها فى الادب العربى ؟ ان كان الشبان ليسمعون هذه الالفاظ فيأخذهم شيء من الوجوم والازدراء ، أما الآن فسيقراءون وسيشوقهم ما يقرأون ، وسيحرصون الحرص كله على التزيد من البحث والانعام فى القراءة والدرس

وأنا زعيم وسعيد بأن الشبان سيكثر من قراءة القرآن ، وسيكثرون النظر فى كتب الحديث ، وسينعمون بالبحث عن مسائل التوحيد . وليس هذا بالشىء اليسير لا بالقياس الى هذه العلوم نفسها ولا بالقياس الى الادب العربى الخالض ، سيستفيد الادب من هذا الكتاب فائدة جديدة هى اشتداد الصلة بينه وبين هذه

الثقافات المختلفة ، وستستفيد هذه الثقافات نفسها لأنها ستبلغ بهذا الكتاب يثبات لم تكن تبلغها من قبل .

وليست الحياة السياسية للعرب أبان القرن الاول بأقل تعقيدا من الحياة العقلية فللعرب في هذا القرن سياسة خارجية دقيقة عويصة . ولهم في هذا القرن سياسة داخلية مشتبكة الاطراف متشعبة الانحاء ، وكلتا السياستين متأثرة بمؤثرات منها العربي ومنها الاجنبي ، منها ما كانت قبل الاسلام ومنها ما طرأ بعد الاسلام . وليست حاجة هذه الحياة السياسية الى العناية والتحليل بأقل من حاجة الحياة العقلية ، وسيرى الذين يقرأون كتاب الاستاذ عبد الحميد العبادي أن بلاءه في هذا البحث خليق بما لبلاء صاحبه احمد امين من حمد وثناء

والحياة الادبية هي الخلاصة الفنية . وهي في الوقت نفسه المرآة لكل ما اضطربت به الامة العربية في حياتها العقلية والسياسية . وهي في الوقت نفسه الخلاصة والمرآة لالوان أخرى من الحياة لا تمس السياسة ولا تمس التفكير العقلي الخالص . وهي كالحياة السياسية والعقلية محتاجة الى العناية والتحليل الدقيق وهي في الوقت نفسه محتاجة الى نوع آخر من الدرس الفني واللغوي . وأنا أرجو أن أنهض بعبي هذا البحث كما نهض صاحباي بعبي الباحثين اللذين عالجاها ومهما يكن من شيء فنحن نقدم الى القراء كتاب « فجر الاسلام » راجين الا يفرغوا من قراءة أحد أقسامه حتى يظهر لهم قسمه الثاني ثم قسمه الثالث ؛ راجين بنوع خاص أن يكون ظهور هذا الكتاب مؤرخاً لعصر جديد يدرس فيه الادب العربي هذا الدرس المفصل الدقيق الحر ، الذي لا يعرف موارد ولا احتيالا ولا التواء ، والذي لا يقصد به الا الى العلم من حيث هو علم ، والذي لا يحفل أصحابه الا بما يعنون به من البحث ، لا يعنيههم الثناء ، ولا يخيفهم

المهجاء ولا يكرهون (أستغفر الله ابل هم يتمنون) النقد الصحيح البرى .
وثلاثتنا متضامنون فى هذا الكتاب على اختلاف أقسامه . قد استقل
« احمد امين » بدرس الحياة العقلية ، ولكنه قرأه معنا وأقررناه كما أقره فنحن
شريكاه فيه على هذا النحو ، واستقل « عبد الحميد العبادى » بدرس الحياة السياسية
ولكنه قرأه علينا وأقررناه كما أقره فنحن شريكاه فيه على هذا النحو . واستقللت
بدرس الحياة الادبية ولكننا قرأناه جميعاً وأقررناه جميعاً « فنحن جميعاً شركاء
فيه على هذا النحو . وكل ما نتمناه الآن هو أن نوفق الى أن ندرس « ضحى الاسلام »
بعد أن درسنا فجر الاسلام .

طه حسين

الجزء الاول

في الحياة العقلية

الباب الأول

العرب في الجاهلية

الفصل الأول

جزيرة العرب

ليست جزيرة العرب وحدها هي مسكن العرب ، فقد كانت لهم مساكن فيما حولها ، ولكن كانت الجزيرة مسكن أكثرهم ، وأهم مساكنهم ، فأضيفت اليهم وهي اقليم في الجنوب الغربي من آسيا ، يحد من الشمال ببادية الشام ، ومن الشرق بالخليج الفارسي وبحر عمان ، ومن الجنوب بالمحيط الهندي ، ومن الغرب بالبحر الأحمر

وهي أعلى ماتكون غرباً ، ثم تنحدر الى الشرق الا عند عمان ، وليس فيها أنهار دائمة الجريان ، ولكن أودية يجري فيها الماء حيناً ويجف حيناً أكبر جزء فيها صحراؤها في وسطها، وليست طبيعة هذه الصحراء متشابهة، بل متنوعة أنواعاً ثلاثة، (الأول) الصحراء المسماة ببادية السَّماوَة، وقريب في مدلولها ما يسمى اليوم « صحراء النفود » (وهو اسم لم يكن يعرفه العرب) وهي في الشمال ، تمتد نحو ١٤٠ ميلاً من الشمال الى الجنوب و١٨٠ ميلاً من الشرق الى الغرب ، ورمالها غالباً

وَعَسَاء^(١)، ليس بها الا قليل من آبار وعيون ، والسير فيها شاق عسير ، لطبيعة أرضها ، ولأن الرياح تلعب برملها فتجعل منه كُثْبَانًا ووهاداً — تمطرها السماء شتاء فينبت في بعض بقاعها نبات صحراوي ، وأزهار صغيرة مختلفة الألوان ، وأغلب سكانها بدو ، يرحلون عنها صيفاً الى التخوم لجذبها وقيظها ، ثم يأتون اليها شتاء لرعى ابلهم وشاتهم

جنوبي بادية السماوة ما يسمى الآن جبل شمر ، وهو هلالى الشكل محدودب الى الجنوب ، مناخه معتدل ، وأمطاره غزيرة ، وأعشابه كثيرة ، نثرت فيه جملة قرى وبلدان ، وهذا الجبل هو المعروف عند العرب بجبلى طي^٢ وهما أجاً وسكلمى . سمي بشمر وهو فرع حديث من فروع طي^٣

(النوع الثانى) من الصحراء صحراء الجنوب ، وتتصل ببادية السماوة ، وهى تمتد شرقاً حتى تصل الى الخليج الفارسى ، وقد قدرت مساحتها بخمسين ألف ميل مربع ، وأرضها غالباً مستوية صلبة ، انتشرت حصبائها ، وتموجت رمالها واذا نزل المطر فى موسمها ، أنبتت الأرض كلاً ، فيخرج البدو بابلهم وشاتهم ونسائهم ، يقيمون فيها نحو ثلاثة أشهر ، تربى ماشيتهم وهم يشربون من ألبانها ، فاذا جاء الصيف جف الزرع فعادوا الى مواطنهم ، ويغلب على هذا القسم أيضاً الجذب ، وفى قليل من بقاعه أشجار وغابات ونخيل ، وقد سمته العرب جملة أسماء ، فالجزء الذى بين شرقى اليمن وحضرموت يسمى صيهدا ، والذى بين شمالى حضرموت وشرقيها يسمى الأحقاف ، والذى فى شمالى مهرة يسمى الدهناء ، ويسمى الآن جميعه بالرّبع الخالى

(النوع الثالث) من الصحراء الحرّات ، والحرّة — كما فى معجم ياقوت —

(١) الرمال الوعساء السهلة اللينة التى تغيب فيها الرجل عند السير

أرض ذات حجارة سود نَحْرَة كأنها أحرقت بالنار ، وهذه الحرات مقذوفات
بركانية تبتدى من شرق حوران وتمتد منتشرة الى المدينة ، وتقع المدينة نفسها بين
حرتين ، وهى كثيرة فى جزيرة العرب عد منها ياقوت فى معجمه نحواً من ٢٩ حرة ،
أشهرها حرّة وَاَقَم ، وهى التى تنسب اليها وقعة الحرّة (١)

إذا نحن عدونا الصحراء وجدنا غربى جزيرة العرب يتألف من جزئين :
الحجاز شمالا واليمن جنوباً . والحجاز يمتد من أَيْلَة (العقبة) الى اليمن ، وسمى حجازاً
— فيما يقولون — لأنه سلسلة جبال تفصل تِهَامَة — وهى الأرض المنخفضة على
طول شاطئ البحر الأحمر — عن نجد وهى الأرض المرتفعة شرقاً ، والحجاز قطر
فقير به كثير من الأودية ، تمتلئ بالسيل غبّ المطر ، وتسير مياهه صوب البحر ،
ولكن مياهه ليست بالغزيرة ، ومناخه فى بعض بلاده معتدل كالطائف ، وفيما عدا
ذلك حار شديد الحرارة ، وأغلب سكانه بدو رحّل ، وبدوه فى أيامنا هذه يبلغون
نحو خمسة أسداس السكان جميعاً ، والسدس فقط قار فى القرى والمدن ، وأهمية
الحجاز نشأت من وقوعه على الطريق التجارى الذى يربط اليمن ببلاد الشمال ،
وقد رحل اليه قبل الاسلام اليهود . وأنشئوا فيه مستعمرات فى خيبر والمدينة
وغيرهما ،

وفى جنوبى الحجاز بلاد اليمن ، وهى تشمل الزاوية الغربية الجنوبية من
الجزيرة ، قد عرفت قديماً بالخصب والغنى ، وأشهر مدنها صنعاء ونجران وعدن ،
وكان لسكان اليمن قديماً علاقات بالهند والشرق الأدنى
وفى شرق اليمن صقع حضرموت ، وهو صقع كثير الجبال كثير الوديان ، وبه
مدن خربة عليها كتابات بالخط المسند

(١) وقد وضعت خريطة للحرات فى جزيرة العرب نشرت فى المانيا سنة ١٨٨٢

وفي شرق حضرموت «ظَفَّار»، وهي من قديم مصدر للتوابل والطيب وبنحور
المعابد ولا يزال — الى اليوم — يرسل منها الى الهند

وفي الزاوية الجنوبية الشرقية من الجزيرة عُمان ، وهو قطر جبلى على شاطئ
البحر ، وقد اشتهر سكانه قديما بالمهارة في الملاحة — وفي الشمال الغربى من عمان قطر
البحرين ويمتد الى حدود العراق

والجزء المرتفع الذى يمتد من جبال الحجاز ويسير شرقاً الى صحراء البحرين
يسمى «نجداً» وهو مرتفع فسيح ، فيه صحراوات وجبال ، نثرت فيه اراض صالحة
للزراعة ، وهو اصح بلاد العرب وأجودها هواء

ومناخ جزيرة العرب — على العموم — حار شديد الحرارة ، يعتدل الليل
في اراضيها المرتفعة صيفاً ويتجمد ماؤها شتاء ، وأحسن هوائها الرياح الشرقية وتسمى
الصَّبَا ، وكثيراً ما تغنى الشعراء بمدحها ، وعلى العكس من ذلك ريح السَّموم ،
وأحسن أيامها أيام الربيع ، وهي التى تعقب موسم المطر فينبت الكلاً والعُشب
وترعى الابل والماشية

يسكن هذه الجزيرة العرب ، وقد ذهب بعض الباحثين الى أن العرب ومن
حولهم كانوا من أصل واحد ، ثم تحضر من حولهم وتختلفوا هم ، فقد تحضر سكان
الفرات ، وتحضر وادى النيل ، وظل العرب تغلب عليهم البداوة لَمَّا حاصرتهم
جبالهم وبحارهم

وسواء صخ هذا أو لم يصح فقد تأخر العرب عما حولهم فى الحضارة ، وغلبت
عليهم البداوة ، وعاش أكثرهم عيشة قبائل رُحَل ، لا يقرون فى مكان ، ولا يتصلون
بالأرض التى يسكنونها اتصالاً وثيقاً كما يفعل الزراع ، بل هم يتر بصون مواسم الغيث

فيخرجون بكل ما لهم من نساء وابل يتطلبون المرعى ، لا يبذلون جهداً عقلياً في تنظيم بيئتهم الطبيعية كما يفعل أهل الحضرة ، إنما يعتمدون على ما تفعل الأرض والسماء ، فإن أمطروا رعدوا ، والا ارتقبوا القدر ، وليس هذا النوع من المعيشة بالذي يرقى قومه ويسلمهم الى الحضارة ، إنما يسلم الى الحضارة عيشة القرار واستخدام العقل في تنظيم شؤون الحياة

هذه العيشة البدوية هي التي كانت سائدة في جزيرة العرب وان كان هناك أصقاع ممدنة كسكان اليمن

وهؤلاء البدو وأشباههم ينقسمون الى قبائل ، والقبيلة هي الوحدة التي انبنى عليها كل نظامهم الاجتماعي ، وهذه القبائل في نزاع دائم ، وقد تتحالف القبيلة مع قبيلة أو قبائل أخرى للاغارة على حلف آخر أو لرد غارة أو نحو ذلك من الأغراض ، وقد تمر الأجيال وتنسى القبائل المتحدة أسماءها وشخصياتها وتنضم تحت اسم واحد هو اسم أقواها ، ثم قد يزعمون فيما بعد أنهم من أب واحد وأم واحدة .

وقد عني المؤرخون بنسب القبائل وتفرعها وألفوا فيها الكتب الكثيرة ولكن هذه الانساب في مجموعها كانت ولا تزال مجالا للشك الكبير « سئل مالك رحمه الله عن الرجل يرفع نسبه الى آدم فكره ذلك وقال من أين يعلم ذلك ؟ فقيل له فالى اسماعيل فانكر ذلك وقال ومن يخبره به ؟ »

واعتماد النسابون أن يقولوا أن عرب الشمال من نسل اسماعيل بن ابراهيم وغرب الجنوب من نسل يقطان المسمى أيضاً قحطان ، وترجع هذه العقيدة الى ما ورد في التوراة في سفر التكوين — ويسمى أهل الجنوب عادة اليمنيين أو القحطانيين . وأهل الشمال العدنانيين أو النزاريين أو المعديين ، ولسنا الآن بصدد البحث في صحة هذا التقسيم ، وكل الذي نريد أن نذكره أن هناك فوارق حقيقية

بين القسمين من وجوه

(الأول) ان القسم الجنوبي كان يعيش عيشة قرار ، وتغلب عليه الحضارة ، « لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور » وأهل الشمال تغلب عليهم البداوة وعدم القرار .
(الثاني) أنهم مختلفون أيضاً في اللغة ، فلغة اليمن كانت تخالف لغة الحجاز في أوضاعها . وتصاريفها كما سنشير اليه بعد ، وكانت لغة اليمن أكثر اتصالاً باللغة الحبشية والأكادية ، ولغة الحجاز أكثر اتصالاً باللغة العبرية والنبطية

(الثالث) أنهم مختلفون في درجة الثقافة العقلية تبعاً لما هم عليه من عيشة بدوية أو حضرية ، وتبعاً لاختلافهم في اللغة والأمم المخالطة
ولسنا نغني بما ذكرنا أن هذين القسمين كانا منفصلين تمام الانفصال ، وان كل قسم كان يسكن بلاده ولا يرحل عنها الى الآخر ، بل كان الأمر على عكس ذلك ، فهم يحدثوننا أن كثيراً من أهل اليمن قبل الاسلام رحلوا الى بلاد الحجاز ، وقليل من أهل الحجاز رحلوا الى اليمن ، فأما رحلة اليمن الى الحجاز فعللوها بانهيار سد مأرب في اليمن وتفرق سكان البلاد الى أنحاء الجزيرة ، ويظن بعض المؤرخين أن من بين الأسباب التي بعثت على هذه الهجرة ما أصاب اليمن من السقوط والضعف التجاري بين القرن الثالث والرابع قبل الميلاد على أثر النشاط التجاري الذي قام به الرومانيون في البحر الأحمر في ذلك العهد ، فكان ذلك ضربة شديدة لتجارة اليمن ، وأما هجرة أهل الشمال الى الجنوب فقد يرجع الى كثرة نسل القبيلة وضيق موطنها بها فيضطرها ذلك الى الرحلة

على كل حال فقد ذكر النسابون أن التنقل بين القبائل كان من قبل الاسلام كثير الوقوع

وقد كان العداء مستحكماً بين العدنانيين والقحطانيين من قديم حتى روي
أن كلا منهم اتخذ لنفسه شعاراً في الحرب يخالف شعار الآخر ، فاتخذ المضيرون
العمائم الحمرة والرايات الحمر ، واتخذ أهل اليمن العمائم الصفراء والرايات الصفراء ، قال
الجوهري سمعت بعض أهل العلم يفسر بذلك قول أبي تمام يصف الربيع
مُحَرَّةٌ مُصَفَّرَةٌ فَكَأَنَّمَا عَصْبٌ تَيَمَّنُ فِي الْوَرَى وَتَمَضَّرُ
وأصل هذا العداء على ما يظهر هو ما بين البداوة والحضارة من نزاع طبيعي ،
وكان توالي الحوادث والوقائع الحربية يزيد في العداء ويقوى بينهم روح الشر ، ومن
أوضح المثل على هذا ما كان من العداء الشديد بين أهل المدينة — الأوس
والخزرج — وهم على ما يذكر النسابون يمنيون ، وأهل مكة وهم عدنانيون — وقد
استمر هذا التنافس بينهم بعد الاسلام ، وكان بين القومين حزازات ومفاخرات ،
وكل يدعى أنه أشرف نسباً ، وأعز نفراً ، وكان اليمنيون أحق بالفخر لما لهم من حضارة
قديمة ، وملك راسخ ، فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم وهو عدناني وكانت الخلافة
في قريش وهم عدنانيون رجحت كفة العدنانيين ، ويظهر أن اليمنيين أرادوا أن
يعيدوا شيئاً من التوازن في المفاضلة فسلكوا في ذلك جملة طرق : منها أن روايتهم
وقصاصهم لوني تاريخهم القديم بلون زاهٍ جميل ، وزعموا أن قحطان ابن هود عليه
السلام ، ومنها أنهم وصلوا نسبهم بالعدنانيين بطرق شتى كالذي ذهب اليه بعضهم
من أن اسماعيل أبو العرب كلهم حتى قحطان — وربما كانوا هم الواضعين كذلك
لنظرية تقسيم العرب الى عرب بائدة وهم قحطان وعاد وثمود وطسم الخ ويسمّون
العرب العرباء أو العرب العاربة ، أما العدنانيون فعرب في المنزلة الثانية في العربية
اذ يسمّون عرباً متعربة ، وبعضهم يذهب الى تقسيم العرب الى عاربة وهم عاد وثمود
وطسم الخ ويسمى قحطان عرباً متعربة ، وعدنان عرباً مستعربة ، أي انهم في المنزلة

الثالثة فى العربية

يستمر النسابون فيقولون أن قحطان أبو اليمنين جميعاً وأنه نسل شعبين
عظيمين شعب كهلان وشعب حمير

فشعب كهلان تفرع منه فروع كثيرة أشهرها

(١) طيٌ وهى تسكن الجبلين الشهرين أجاً وسلّمى وهما المعروفان الآن
بجبل شمر وقد سكنتهما طيٌ من قبل الاسلام بقرون ، واشتهر ذكرها حتى كان
السيان والفرس يسمون كل العرب طيئاً

(٢) همدان ومدحج ، وأغلبهم ظل يسكن اليمن ، والى مدحج ينتسب
بنو الحارث الذين سكنوا الجنوب الشرقى للطائف ، وبجيلة التى كان لها أثر كبير فى
فتوح العراق فى عهد عمر

(٣) عاملة وجذام وكانوا يسكنون بادية الشام ، والى جذام تنتسب لخم
— التى أسست ملك الحيرة على الفرات ، وكندة التى حكمت حضرموت ومدت
سلطانها على بنى أسد فى اليمامة ، والى اسرتهم المالكة ينتسب امرؤ القيس

(٤) الأزد . وهم قبيلة قوية حكمت عمان ، ومنهم الغساسنة الذين أسسوا
مملكتهم شرق الشام ، ومنهم أيضاً خزاعة التى تسلطت على مكة قبل قريش ،
ومنهم كذلك سكان يثرب وهم قبيلتا الأوس والخزرج
وأما شعب حمير فأشهر قبائله :

(١) قضاة وكانت تسكن شمالى الحجاز (٢) وتنوخ وقد نزلوا قديماً
شمالى الشام (٣) وكلب وكانوا يسكنون بادية الشام
(٤) وجهينة وعذرة وقد نزلوا وادى إضم بالحجاز ، وقد عرف العذريون
برقة عواطفهم وطهارة عشقهم

كذلك يقسم النسابون عدنان الى فرعين كبيرين ربيعة ومضر
فأما ربيعة فأشهر قبائلها (١) أسد وكانوا يسكنون شمالى وادى الرمة
(٢) ووائل وهى تنقسم الى بكر وتغلب ، وقد كانت بينهما حروب طويلة
عقب قتل كليب كادت تقنى القبيلتين جميعاً ، والى بكر بن وائل ينتسب بنو
حنيفة اليمامة

وأما مضر فأشهر قبائلها (١) قيس وهى من الشهرة بحيث يطلق اسم قيس
أحياناً على من عدا اليمانيين — والى قيس تنتسب هوازن وسليم ، وكانا يسكنان
الجزء الغربى من نجد — والى قيس أيضاً تنتسب غطفان ، وغطفان تنقسم الى
القبيلتين الشهيرتين عبس وذبيان وكان العداء بينهما شديداً ، وأشهر حروبهما
الحرب المعروفة بحرب داحس والغبراء (٢) وتميم وكانت تسكن بادية البصرة
(٣) وهذيل وكانت تسكن جبلاً قريبة من مكة وقد اشتهر الهذليون بكثرة
شعرهم وجودته (٤) وكنانة وهى تسكن جنوبى الحجاز ، ومنها قریش وهى التى
كانت تسود هذا القسم

وقد كان بين ربيعة ومضر عداً شديداً ظل قروناً طويلة أدى الى أن ربيعة
غالباً كانت تتحالف مع اليمانيين لمقاتلة المضريين

هذه خلاصة لأشهر القبائل العربية ومواطنها ، وقد ذكرنا أن هذه الانساب مجال
للشك ، ولكنها سواء صحت أو لم تصح قد اعتنقها العرب ولا سيما متأخريهم ، وبنوا عليها
عصبيتهم ، وانقسموا فى كل مملكة حلوها الى فرق وطوائف حسب ما اعتقدوا فى
نسبهم ، واصبحت هذه العصبية مفتاحاً نصل به الى معرفة كثير من أسباب الحوادث
التاريخية ، وفهم كثير من الشعر والأدب ولا سيما الفخر والهجاء ، والاسلام جاء
وكان قد تم اعتقاد العرب بانهم فى أنسابهم يرجعون الى أصول ثلاثة : ربيعة ومضر

واليمين، وأخذ الشعراء يتهاجون ويتفاخرون طبقاً لهذه العقيدة، واستغلها خلفاء بني أمية ومن بعدهم فكانوا يضربون بعضاً ببعض مما لا محل لشرحه الآن

حالة العرب الاجتماعية — قدمنا أن العرب في الجزيرة كانوا قسمين بدواً وحضرأً، وإن البدو كان هو القسم الغالب

فاما البدو فكانوا ولا يزالون يحتقرون الصناعة والزراعة والتجارة والملاحة، إنما يعيشون على ما تنتجه ماشيتهم، يأكلون لحومها بعد علاج بسيط، ويشربون ألبانها، ويلبسون أصوافها، ويتخذون منها مساكنهم، وإذا اشتد بهم الضيق أكلوا الضبَّ واليربوع والوبر — وهم يعتمدون في تغذية ماشيتهم على الطبيعة يخرجون بها في مواسم المطر إلى منابت الكلا لترعى، فإذا انتهى الموسم عادوا إلى مواطنهم ينتظرون أن يحول الحول وينزل الغيث، — وإذا احتاجوا إلى غير ما تنتجه ماشيتهم تعاملوا من طريق البدل، فكانوا يستبدلون بالماشية ونتاجها ما يتطلبون من تمر ولباس

ونوع آخر اتخذوه أيضاً وسيلة من وسائل العيش وهو الغارة والسلب — فيغيرون على قبيلة معادية — وكثيراً ما تكون المعادة — فيأخذون جمالهم ويسبون نساءهم وأولادهم، وتربص بهم القبيلة الأخرى ذلك فتفعل ما فعلوا — بل هم إذا لم يجدوا عدواً من غيرهم قاتلوا أنفسهم، ولعل خير ما يمثل ذلك قول القطامي

فمن تكن الحضارة أعجبتة فأى رجال بادية ترانا
ومن ربط الجحاش فان فينا قنا سلباً^(١) وأفراساً حسانا
وكن اذا أغرن على قبيل فأعوزهن نهب حيث كانا^(٢)

(١) قنا جمع قناة وسلبا أى أطوال

(٢) القيل الجمع من الناس

أَغْرَنَ مِنَ الضَّبَابِ عَلَى حِلَالٍ وَضَبَّةٌ أَنَّهُ مَن حَانَ حَانَا (١).

وَأَحْيَانَا عَلَى بَكَرٍ أَخِينَا إِذَا مَا لَمْ نَجِدْ إِلَّا أَخَانَا

ومن أجل هذا كثيراً ما تضطر القبيلة التي ضعفت الى الإحتماء بقبيلة قوية تدود عنها ، ولكن قل أن يدوم حلفهم أو يطول ، بل سرعان ما ينتقض اجتماعهم وتنقسم وحدتهم ، فينقلب المتحالفون أعداء متحاربين

ليس في البدوى خلق يؤهله للتجارة ، فاذا اشترك فيها اقتصر عمله على أن يكون سائقاً أو هادياً للطريق أو حامياً من اغارة أمثاله

أفراد القبيلة متضامنون أشد ما يكون من تضامن ، ينصرون أخاهم ظالماً أو مظلوماً ، يسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا

إذا جنى أحدهم جناية حملتها قبيلته ، وإذا غنم غنيمة فهي للقبيلة ولرئيسها خيرها ، وإذا أبت قبيلة أن تحميه لجأ الى قبيلة أخرى ووالاها وحسب نفسه كأنه أحد أفرادها ، فوطنية البدوى وطنية قبيلية لا وطنية شعبية ، وهذا الشعور بارتباطه بقبيلة يحميها وتحميه هو المسمى بالعصبية

والمعنى في البداوة منهم ضعيف الايمان بدين ، قل أن يؤمن الا بتقاليد قبيلته وما ورثه عن آبائه « الاعراب أشد كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ »

مثله الأعلى في الأخلاق تركز فيما سماه « المروءة » ، تغنى بها في شعره وأدبه ، ومن الصعب أن تحدها حداً دقيقاً ولكن يصح أن تقول انها تعتمد على

(١) الضباب اسم قبيلة والحلال المجاور يقال حى حلال أى مجاور مقيم بالقرب منه ، يقول أغرن على الحى المجاور لحيم من قبيلتي ضباب وضبة — وقوله من حان حانا أى من جاء أجابه فهو لا بد هالك

الشجاعة والكرم ، اما شجاعته فتتجلى في كثرة من نازله وقاتله ، وفي مواقف دفاعه عن قبيلته ، وأكثر من هذا في نجدته—وأما كرمه فيتجلى في نحر الجزور للضيف ، وإغاثة البائس الفقير ، وفوق هذا أن يعطى أكثر مما يأخذ ، وأن يغشى الوغى ويعفَّ عند المغنم »

دعاهم الكرم أن يأكلوا كثيراً ويشربوا النبيذ كثيراً ، ولكن بلاد البدو وأشباهها محدبة قليلة الانتاج ، لا تسد حاجات الكريم ، فاتصلوا باهل الشام والعراق واليمن يستعينون بما يكتسبون على جذب أرضهم وقسوة أقليمهم

مرأتهم تشارك رجلهم في شؤون الحياة ، فهي تحتطب وتجلب الماء ، وتجلب الماشية وتنسج المسكن والملبس ، وتخيظ الثياب ، وهي — على الجملة — أقرب في عقليتها الى عقلية الرجل ، ولكنها لا تُغنى غناء الرجل في الحروب ، والحروب عندهم أساس لحياتهم ، فأنحطت لذلك منزلة المرأة عن منزلة الرجل ، وكان في بعض القبائل وأن البنات . وكان فيهم من يقول الله فيه « واذا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ »

أما الحضرمين العرب فهم أرقى من ذلك كثيراً ، يسكنون المدن ويقرّون فيها ، ويعيشون على التجارة أو الزراعة ، وقد أسسوا قبل الاسلام ممالك ذات مدنية كاليمن ، والغساسنة في الشام واللخميين في العراق ، كما سندكر ذلك فيما يلي

الفصل الثاني

اتصال العرب بمن جاورهم من الأمم

شاع بين الناس أن العرب في جاهليتها كانت أمة منعزلة عن العالم ، لا تتصل بغيرها أى اتصال ، وأن الصحراء من جانب والبحر من جانب حصراها وجعلها منقطعة عمن حولها لا تتصل بهم فى مادة ولا تقتبس منهم أدبا ولا تهذيباً — والحق أن هذه فكرة خاطئة ، وإن العرب كانوا على اتصال بمن حولهم ماديا وأدبيا وإن كان هذا الاتصال أضعف مما كان بين الأمم المتحضرة لذلك العهد ، نظراً لموقعها الجغرافى وحالتها الاجتماعية

وهذا الاتصال بين العرب وغيرهم كان من طرق عدة أهمها (١) التجارة (٢) انشاء المدن العربية المتاخمة لفارس والروم (٣) البعثات اليهودية والنصرانية التى كانت تتغلغل فى جزيرة العرب تدعو الى دينها وتنتشر تعاليمها وسند ذكر كلمة عن كل منها

التجارة — من قديم كانت جزيرة العرب طريقاً عظيماً للتجارة ، فطوراً تنقل غلاتها الى الممالك الأخرى كالشام ومصر ، وأهم هذه الغلات البخور الذى يكثر فى الجنوب ولا سيما فى ظفار ، وطوراً تنقل غلات بعض الممالك الى البعض الآخر — ذلك لان طريق البحر لم يكن طريقاً آمناً ، فالتجأ التجار الى البر يسلكونه ، ولكن طريق البر نفسه كان طويلاً ، وكان خطراً ، لذلك أحاطوه بشئ من العناية ، كأن تخرج التجارة قوافل ، وإن تسير القوافل فى أزمنة محدودة وفى طرق محدودة

وكان في جزيرة العرب طريقان عظيمان للتجارة بين الشام والمحيط الهندي ، أحدهما يسير شمالاً من حضرموت الى البحرين على الخليج الفارسي — ومن ثم الى صور — والثاني يبدأ من حضرموت أيضاً ويسير محاذياً للبحر الاحمر متجنباً صحراء نجد وهجيرها ، ومتجنباً هضاب الشاطي ووعورتها ، وعلى هذا الطريق الأخير تقع مكة في المنتصف تقريباً بين اليمن وبطرة

هذه الطرق التجارية أفادت العرب فائدة كبيرة ، وفتحت لهم باباً للرزق كبيراً ، فمنهم من كان يسكن المدن الواقعة على الطريق ويتاجر لنفسه ، ومنهم من كان يُستخدم في التجارة كأن يكون سائقاً أو حارساً أو دليلاً

ومع ميل العربي للغزو والنهب ، وتهديده للممالك الممدنة على التخوم ، ومهاجمته لها من حين لآخر فان حبه للوفاء ، وشعوره بالشرف ، وتقديره للوعد الذي يصدر منه جعله يستطيع أن يتعامل مع من حوله من الأمم ، ويمهد الطريق لتجارة واسعة منظمة ، فكان كثير من القبائل يحمون القوافل من تعدى قبائل أخرى في نظير جعل يأخذونه ، وكثيراً ما يردون الجمل اذا عدا على قافلة فلم يستطيعوا رده وزاد في نجاحها علمهم بالصحراء وسبلها ، ومواضع الأمن والخوف فيها وقدرتهم على تحمل القيظ وعناء السير

كانت التجارة قديماً في يد اليمنيين ، وكانوا هم العنصر الظاهر فيها ، فعلى يدهم كانت تنقل غلات حضرموت وظفار وواردات الهند الى الشام ومصر ، ثم انحط اليمنيون لأسباب أشرنا الى بعضها من قبل وحل محلهم في القبض على ناصية التجارة عرب الحجاز ، وكان ذلك منذ القرن السادس للميلاد ، فكان هؤلاء الحجازيون يشترون السلع من اليمنيين والحبشيين ثم يبيعونها على حسابهم في أسواق الشام ومصر ، وقليل ما يبيعونها في أسواق فارس ، لأن التجارة مع الفرس كانت

في يد عرب الحيرة ، وجعل عرب الحجاز مكة قاعدة لتجارتهم ووضعوا الطريق تحت حمايتهم ، ووصل المكيون قبيل الاسلام — عند ما كان العداء بين الفرس والروم بالغاً منتهاه — الى درجة عظيمة في التجارة ، وكان على تجارة مكة يعتمد الروم في كثير من شؤونهم ، حتى فيما يترفهون به — كالحرير — وحتى يستظهر بعض مؤرخي الفرنج أنه كان في مكة نفسها بيوت تجارية رومانية يستخدمها الرومانيون للشؤون التجارية للتجسس على أحوال العرب ، كذلك كان فيها أحايش ينظرون في مصالح قومهم التجارية (١)

كان أشهر من يسكن مكة قبيلة قريش ، وأبوها النضر بن كنانة ، فكل من كان من ولد النضر فهو قرشي ، وقد رأى بعضهم انها سميت قريشاً لاشتغالها بالتجارة ، ففي لسان العرب « وقيل سميت بذلك لانهم كانوا أهل تجارة ولم يكونوا أصحاب ضرع وزرع من قولهم فلان يتقرش المال أى يجمعه »

وقد ساعد قريشاً على بلوغ هذه المنزلة موقعها الجغرافي ، فقد ذكرنا أنها تقع في منتصف الطريق ، وعين زمزم تستقي منها القوافل وتأخذ حاجتها من الماء ، ولأن قريشاً أهل الكعبة التي يدين العرب بعظمتها وتقديسها « لا يلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » قال الزمخشري في الكشاف (كانت لقريش رحلتان ، يرحلون في الشتاء الى اليمن ، وفي الصيف الى الشام ، فيمتارون ويتجرون ، وكانوا في رحلتهم آمنين ، لأنهم أهل حرم الله وولادة بيته ، فلا يتعرض لهم والناس غيرهم يتخطفون ويغار عليهم ، وقال تعالى « أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى اليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون »

كان التجار يخرجون بتجارتهم قوافل عظيمة ، وقد رآها « سترابو » وشبه القافلة منها بجيش ، وذكر الطبرى أن قافلة من هذه القوافل بلغت خمسمائة ألف بعير ، وقال ابن هشام فى غزوة بدر « ثم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع بأبي سفيان بن حرب مقبلا من الشام فى عير لقريش عظيمة فيها أموال لقريش وتجارة من تجاراتهم ، وفيها ثلاثون رجلا من قريش أو أربعون ، منهم مخزومة بن نوفل وعمرو بن العاص وكانت هذه القوافل تخرج مع عظيم استعداد وكبير حيلة ، تتقدمها الكشافات تتعرف مافى الطريق ، والهداة يهدون السبيل ، والحراس يخفرون القافلة »

وقد كان عرب الحيرة يتعهدون بحماية قوافل التجارة الفارسية عند مرورها فى بلاد العرب فى نظير جعل كبير يأخذونه من الفرس ، ويروون أن الفرس مرة استكثروا هذا الجعل فأبوا دفعه فهاجم العرب قافلة فارسية وهزموا حماتها ، وكان هذا اليوم أحد أيام العرب المشهورة ويسمى يوم ذى قار ، وبه تغنى الشعراء ، وعدوه نصراً للعرب على الفرس

كانت القوافل التى تذهب من بلاد العرب الى الشام تنزل فى أسواق معينة عينتها لهم الحكومة الرومانية لتحصل منهم الضرائب المفروضة على « الصادرات » ولتراقب الأجانب الذين يقدمون بلادها — وكانت هذه القوافل أول ما تنزل فى البلاد الرومانية تنزل فى أيلة وهى المعروفة اليوم بالعقبة ، ومنها تذهب الى غزة ، وهناك تتصل بتجار البحر الأبيض ، ومن غزة يذهب بعض التجار الى بصرى وقد رووا أن النبى صلى الله عليه وسلم سافر فى هذه القوافل مرتين : مرة وسنه اثنتا عشرة سنة الى بصرى وأخرى وسنه خمس وعشرون

أترى أن هذه التجارة تقتصر على تبادل العروض والنقود ، ولا تتعداها الى الأمور المعنوية والأدبية ؟ لسنا نرى ذلك ، بل نرى أن العرب استفادوا فوق تجارتهم المادية شيئاً من مدنية الروم والفرس وأدبهم ، وهذا طبيعي ، فالرحلات الى الأمم الممدنة تجعل دائماً تحت أعين الراحلين مدنية جديدة يقتبسون منها على قدر استعدادهم ، ولا يزال عرب اليمن والحجاز أنفسهم في أيامنا هذه يستفيدون من زيارة مصر والشام ويأخذون من مدنيّتهم وعلومهم ، بل لا نستطيع أن نصدق أن قافلة كبيرة كهذه تنتقل بتجارتها العظيمة لتتعامل مع أمة أجنبية من غير أن يكون فيها أفراد يعرفون لغة الذين يتعاملون معهم ويكونون واسطة للتفاهم بينهم — قد تقول انهم كانوا يعرفون اللغة الأجنبية كما يعرفها « التراجمة » اليوم ، وهؤلاء ليسوا أهلاً لنقل مدنية ولا أدب ، فنقول قد يكون ذلك صحيحاً الى حدّ ما ، ولكن يجب ألا ننسى أن من بين الذين كانوا ينتقلون بالتجارة أعظم قريش ثروة وعقلاً ، وقد رأينا فيما نقلنا أنه كان من بين رجال القافلة أبو سفيان ومخرّمة بن نوفل وعمرو بن العاص وهم سادة قومهم ، ومنهم من كان له يد في إدارة شؤون الأمة في الاسلام بعد ، فهم لا يقارنون بتراجمة اليوم ، وهم أكثر استعداداً لنقل مدنية بما يرون من نظام في المعيشة ومبان ضخمة ومعابد ، وبما يرون من حكومة تشرف على الأسواق وتجي الضرائب ونحو ذلك ، وبما يسمعون من قصص وأدب اذا فرغوا من تجارتهم وتنادموا ونقل من يعرف منهم اللغة حديثهم الى من لا يعرفها ، — نعم ان هذا لا يكون نقلاً صادقاً ولا ترجمة دقيقة ولا شبه دقيقة لتاريخ أو أدب ولا يستطيع أحد أن يدعى ذلك ، انما هذه النتف التاريخية والأدبية التي تنقل — وان كانت مشوهة — لا تخلو من أثر في عقلية العرب — ودليلنا الآن على هذه الاستفادة ما أخذته العرب في جاهليّتهم من كلمات كثيرة فارسية ورومانية ومصرية وحبشية

نقلها هؤلاء التجار وأمثالهم وأدخلوها في لغتهم ، وجعلوها جزءاً منها ، وأخضعوها لقوانينها ونطق بها القرآن ، وسنأتى على براهين أخرى فيما بعد

(ب) **انشاء المردة العربية على التخوم** — اذا نحن نظرنا الى مصوّر آسيا وجدنا أن جزيرة العرب كانت تقع بين أعظم مدينتين في العالم : فارس شرقاً والرومان غرباً ، وقد حاول الفرس والرومان أن يخضعوا العرب لحكمهم اتقاء لغزوهم وسلبهم ، ولكنهم كانوا يعدلون عن ذلك لما يستلزمه فتح جزيرة صحراوية من ضحايا في الأنفس والأموال ، ولأن طبيعة العيشة العربية جعلتهم لا يخضعون لقوة واحدة اذا تغلب عليها المحارب خضعت له الأمة ، بل هناك عصابات وقوات متعددة لا بد لاختضاع البلاد من الاستيلاء عليها جميعاً ، وليس ذلك باليسير — من أجل هذا رأى الفرس والرومان أن خير وسيلة لدفع شر العرب أن يساعدوا بعض القبائل المجاورة على أن يقرؤا على التخوم يزرعون ويتحضرون ، ثم يكونون رداءً لهم يصدون غارة البدو الذين يغزون وينهبون ، فتكونت امارة الحيرة على تخوم الفرس ، وامارة الغساسنة على تخوم الرومان

امارة الحيرة — كان العرب قديماً على تخوم فارس من قبل انشاء امارة الحيرة في تاريخ لا محل لسرده ، وفي عهد سابور الأول ملك الفرس (حول سنة ٢٤٠ م) أسس الفرس امارة الحيرة على نهر الفرات وأمرؤا عليها عمرو بن عدى وكان النظام المتبع أن عرب الحيرة يقدمون الطاعة للملك فارس وهو يولى عليهم أميراً من أنفسهم ، وعليهم أن يحموا فارس من كل مغير من نواحيهم ، والفرس مقابل ذلك يعفونهم من دفع الأتاوة

وقد كان نظام الفرس اذ ذاك نظاماً اقطاعياً ، يكاد يستقل كل وال بأمر مقاطعته ، ويستمر والياً عليها مدى حياته غالباً ، ويراعى الملك رغبة المقاطعة فيمن

يولّى عليها ، عكس النظام الرومانى فقد كان نظاما مركزيا
وفوق هذا كان عرب الحيرة أكثر استقلالاً ، فهم لا يرتبطون بفارس الإمبراطور
توجيه المعاهدات عليهم ، وقد اعتاد ملك الفرس أن يُنصّب من قبيلة لُخْم (وهى
قبيلة من أصل يمنى كما يذكر النسابون) وإذا مات الأمير عَيْن من يختاره من بيته
كان عرب الحيرة اذ ذاك فى رخاء يحسدّهم عليه غيرهم من العرب لخصب
أرضهم ، وغنى أقليمهم ، وكانوا هم الصلة بين الفرس وعرب الجزيرة ، يحملون
اليهم التجارة الفارسية ويبيعونها فى أسواقهم ، وييسرون بالفرس ومدنيتهم
وفى عهد يَزْدَجَرْد الأول (٣٩٩ — ٤٢٠ م) أرسل الملك أكبر أبنائه (بهرام)
الى عرب الحيرة لينشأ بينهم ، ويتعلم الصيد وينعم بجودة الهواء ، وذلك فى عهد
النعمان الأول ، وكان بهرام جور هذا يعرف العربية كما يعرف اليونانية — وقد
نازعه على الملك أخوه بعد وفاة يزدجرد فعاونوه العرب وتعصبوا له ، فلما اعتلى عرشه
لم ينس ما كان لعرب الحيرة من يد عليه فقرّبهم وأعلى شأنهم

ويظهر أن الحيرة بلغت شأوها أيام المنذر الثالث وكان معاصراً لِجُوسْتِنْيَان ،
حتى روى بعض المؤرخين أنه لما عقد الصلح بين الفرس والرومان سنة ٥٢٢ م كان
من شروطه أن يدفع الرومان قدرّاً من المال لملك الفرس وللمنذر — وبعد ذلك
بسنين أحس المنذر بضعف الفرس فتحالف مع الرومان ثم مال بعدُ الى الفرس
فأسره الرومانيون ونفوه الى صِقْلِيَّة

وبعده ولى النعمان الخامس زوج هند وهو الملقب بابى قابوس وصاحب النابغة
الذبياني ، وقد غضب عليه كسرى ففر هارباً ثم لجأ اليه فحبسه حتى مات وكان ذلك
حوالى سنة ٦٠٢ م ، وبموته الغت الحكومة الفارسية نظام امارة اللّخميّين وولت من
قبلها حاكماً فارسياً يخضع له أمراء العرب واستمر الحال على هذا حتى سنة ٦٣٣ م

حين فتحها خالد بن الوليد

كان عرب الحيرة أرقى عقلاً ومدنية من عرب الجزيرة لتحضرهم ولجاورتهم مدينة الفرس العظيمة ، واتصلهم بهم اتصالاً وثيقاً ، وكان منهم من يعرف اللغة الفارسية ويجيدها ، ففي ابن خلدون « أن عدى بن زيد (الحيري) كان من تراجمة أبرويز ، (ملك الفرس) وإن أباه زيدا كان شاعراً خطيباً وقارئاً كتاب العرب والفرس ^(١) ». ولا شك أن معرفة بعض هؤلاء الحيريين للغة الفرس كانت واسطة لنقل شئ من حضارتهم وآدابهم الى العرب

بل أن عرب الحيرة هؤلاء تسرب اليهم شئ من علوم اليونان وآدابهم ، ذلك أن الحكومة الفارسية في عهد هُرْمُز الأول أنشأت مستعمرات كوتتها من أسرى الحرب الرومانيين وكان من بين هؤلاء الأسرى من تُقِف بالثقافة اليونانية ومنهم من كان يفوق الفرس في الفن والهندسة والطب فاستخدموه في مهام شؤونهم — ومن هؤلاء الأسرى من نزلوا الحيرة ، ويظن بعضهم أنهم هم منبع النصرانية فيها ، وعلى كل حال فقد كان في الحيرة مبشرون بالنصرانية داعون اليها ، ولبي الدعوة منهم هند زوج النعمان الخامس ، وقد أنشأت ديراً سمي بدير هند كان الى عهد الطبري

وقد كان لعرب الحيرة وأمرائهم وتاريخهم أثر كبير في الأدب العربي والحياة العقلية للعرب عامة فأحاديث جديمة الأبرش وأساطير الزباء (وهما من الحيرة قبل انشاء الامارة التي ذكرناها) والخورنق والسدير والتغني بهما وبعضهما والأقاصيص حول سِنِمَار باني الخورنق والأمثال التي ضربت فيه ويوما النعمان : يوم نعيمه ويوم بؤسه ، كل هذه وأمثالها شغلت جزءاً كبيراً من الأدب العربي وكلها

تتعلق بعرب الحيرة وحياتهم ، أضف الى ذلك ما ذكره « ابن رُسْتَه » في « الأعلام النفيسة » من ان أهل الحيرة علموا قريشاً الزندقة في الجاهلية والكتابة في صدر الاسلام

وكان أمراء الحيرة مقصداً لشراء عرب الجزيرة ينفحونهم بالمال الكثير ليبشروا بهم بين البدو وفي أنحاء الجزيرة ، وديوان النابغة الذبياني مملوء بالقصائد التي قيلت في مدح النعمان والاعتذار اليه ونحو ذلك

الغساسنة — كَوْنُ الغسانيون في الشام امارة كالتى كونها اللخميون في الحيرة ، ويذكر النسابون كذلك أن أصلهم من اليمن ، وقد امتد حكمهم تقريباً على مقاطعتي حوران والبلقاء ، ويظهر أنه لم يكن لهم مقر ملك ثابت ، فأحياناً يفهم من قول الشعراء أن جَوْلان والجابية عاصمتهم ، وأحياناً يذكر جَلِّق بالقرب من دمشق على أنها هي العاصمة

وعلى العموم فتاريخ الغسانيين في الشام من الأمور الغامضة في تاريخ العرب ، وإذا قارنا بين ما رواه المؤرخون عن أمراء الحيرة وما رواه عن الغسانيين وجدنا الأول واضحاً مفصلاً والثاني ناقصاً متناقضاً ، فبينما حمزة الأصفهاني وأبو الفداء مثلاً يعدان ملوك الغساسنة واحداً وثلاثين إذا وابن قتيبة والمسعودي يعدانهم عشرة أو أحد عشر ، كذلك يعد حمزة مدة ملك الحارث بن جبلة عشر سنين بينما مؤرخو الرومان المعاصرون يعدون ملكه ٤٠ سنة وهكذا ، بل إذا نحن قارنا بين ما رواه العرب عن الفرس وتاريخهم وما يتصل بهم عامة وما رواه عن الرومان وما يتصل بهم وجدنا أن ما ذكره عن الاولين أدق وأقرب الى الصحة ، وما ذكره عن الآخرين ناقصاً مضطرباً غير صحيح في كثير من الأحيان ، ولعل السبب في هذا ان الفرس أنفسهم دونوا ملكهم وملك الحيرة وعندهم أخذ مؤرخو العرب وان لم تصل

الينا الأصول التي نقلوا عنها ، وقد جاء في تاريخ الطبرى ما نصه :

« وقد حدثت عن هشام بن محمد الكلبي أنه قال انى كنت أستخرج أخبار العرب وأنساب آل نصر بن ربيعة (الحيريين) ومبالغ أعمار من عمل منهم لآل كسرى وتاريخ نسبهم من بيع الحيرة وفيها ملكهم وأمورهم كلها (١) »

أما المؤرخون المعاصرون للغسانيين فكانوا يونانيين يكتبون باللغة اليونانية ، وكان العرب أقل اتصالاً باليونانيين منهم بالفرس

أضف إلى ذلك أن من دخل في الاسلام من موالى الفرس كانوا أكثر عدداً من الموالى اليونانيين ، وكان موالى الفرس يتعصبون لقومهم وأصلهم ويرون أن في حفظ تاريخهم ونشره رفعة لشأنهم

وعلى كل حال فقد كان للغسانيين اماره بالشام ، وكان بينهم وبين اماره الحيرة عداً شديداً ، وكثيراً ما وقعت بينهم الحروب الهائلة

وأهم أمراء الغسانيين وأول من يثق محققو المؤرخين بأمارتهم الحارث بن جبلة وقد عينه الإمبراطور جوستنيان سنة ٥٢٩ م أميراً على جميع قبائل العرب في سوريا ومنحه لقب فيلارك و بطريق Phylarch and Patricius وهو أعلى لقب بعد الإمبراطور ، وكان الحارث نصرانياً على مذهب اليعاقبة ، وكان يعد حامياً من حماة كنيستها ، وقضى أكثر أيام حكمه في محاربة المنذر الثالث أمير الحيرة ، وفي يونيه سنة ٥٥٤ م انتصر الحارث نصراً عظيماً على المنذر في قنسرين ، وربما كانت هذه الواقعة هي التي عرفت عند العرب بيوم حليمة والتي ورد فيها المثل المشهور « ما يوم حليمة يسر » وقد سافر الحارث هذا سنة ٥٦٣ م الى القسطنطينية ليفاوض

الامبراطور في شؤون الحرب التي بينه وبين الحيرة ، وفي من يخلفه على كرسيه ومات سنة ٥٦٩ أو سنة ٥٧٠ م

وخلفه ابنه المنذر فغزا عرب الحيرة فانتصر عليهم في وقعة « عَيْنُ أَبَاغ » ولم يكن الامبراطور جوستين الثاني وهو الذي خلف جوستينيان يميل اليه ، فحاول اغتياله فلم يفلح وعلم المنذر بمكيدته فثار وأبى مخالفته وظل كذلك ثلاث سنين ، ثم هدد عرب الحيرة تخوم الرومانيين فاضطروا لمصالحة المنذر والتعاقد معه في سنة ٥٨٠ م ، وبعد موت الامبراطور جوستين سافر المنذر بولديه الى القسطنطينية فاستقبلوا استقبالا حافلا وألبسه الامبراطور التاج ، ثم ساءت العلاقة بين الغساسنة والروم لأسباب يطول شرحها

ولما غزا الفرس الروم وأخذوا منهم أورشليم ودمشق (٦١٣ م ، ٦١٤ م) انحط شأن الغساسنة وضعف أمرهم ، ويذكر مؤرخو العرب « أن آخر ملوكهم هو جبلة ابن الأيهم ، وان الاسلام جاء وهو على ملكه ، ولما فتح المسلمون الشام أسلم جبلة ، واستشرف أهل المدينة لمقدمه حتى تطاول النساء من خدورهن لرؤيته ، لكرم وفادته ، وأحسن عمر نُزْلَه وأجله بأرفع رتب المهاجرين ، ثم غلب عليه الشقاء ولطم رجلا من بني فزارة ، وطى فضل أزاره وهو يسجبه في الأرض ونابذه الى عمر في القصاص فأخذته العزة بالاثم فقال له عمر لا بد أن أقيده منك فهرب الى قيصر ولم يزل بالقسطنطينية حتى مات سنة ٢٠ هـ » (١)

وكان هؤلاء الغسانيون على ما يظهر أرقى عقلية حتى من عرب الحيرة ، لانهم كانوا أقرب اتصالا بالثقافة اليونانية والمدنية الرومانية ، وكان شعراء العرب يفدون اليهم فيحسنون وفادتهم ، فقد وفد عليهم فيما نعرف النابغة الذبياني والأعشى

والترقش الأكبر وعلقة الفحل وفيهم يقول حسان

لله در عصابة نادماتهم يوما بجلق في الزمان الأول

كذلك الأدب العربي مملوء بالقصص والأساطير والأمثال التي قيلت في هؤلاء الغساسنة ، كالذي ذكروا من حكاية امرئ القيس وايداعه مائة درع عند السمؤال فطلبها ملك من ملوك غسان فأبى أن يعطيها إياه فدبح ابنه ، الى كثير من أمثال ذلك ويروى لنا أبو الفرج في الاغانى « أن حسان بن ثابت دُعى الى مأدبة سمع فيها غناء رائقة وصاحبته ، فلما عاد الى بيته قال لقد أذكرتنى رائقة وصاحبته أمراً ما سمعته أذنأى بعد ليالى جاهليتنا مع جبلة بن الأيهم... لقد رأيت عشرين قيان: خمس روميات يغنين بالرومية بالبرابط ، وخمس يغنين غناء أهل الحيرة وكان (جبلة) اذا جلس للشراب فرش تحته الآس والياسمين وأصناف الرياحين ، وضرب له العنبر والمسك فى ضحاف الفضة والذهب ، وأوقد له العود المندى ان كان شاتياً ، وان كان صائفاً بطن بالثلج ، وأتى هو وأصحابه بكساء صيفية ينفصل^(١) هو وأصحابه بها ، وفى الشتاء بفراء الفنك^(٢) وما أشبهه ، ولا والله ما جلست معه يوماً قط الا وخلع على ثيابه التى عليه فى ذلك اليوم وعلى غيرى من جلسائه ، هذا مع حلم عمن جهل وضحك وبذل من غير مسألة ، على حسن وجه ، وحسن حديث ، ما رأيت منه خى قط ولا عريدة ونحن يومئذ على الشرك^(٣) » وهذه القصة ان صححت دللتنا على قدر من الحضارة والترف — عند الغسانيين — غير يسير

وهنا يستوقف نظرنا شئ يظهر لنا غريباً : ذلك انا نرى اللخميين فى الحيرة

(١) يمتاز (٢) الفنك دابة فروتها أطيب أنواع الفراء

(٣) أنظر الحكاية بطولها فى الاغانى جزء ١٦ ص ١٤

والفسانيين في الشام عمروا قرونا ، وبلغوا من المدنية شأواً بعيداً اذا قيس بحالة العرب في الجزيرة ، وكان منهم من يخالط الفرس والروم ويتكلم بلغتهم ، ودينهم كان أرقى على العموم من دين غيرهم من العرب ، فهم إما نصارى أو مجوس — وهذا كله كان داعياً الى خصب الذهن ، وتفتق القريحة بالشعر ، وكان من المعقول أن تخرج بلادهم فجولاً من الشعراء يفتحون فيه أبواباً جديدة ، ومعاني جديدة ، مع رشاقة في اللفظ تتناسب مع حياتهم الحضرية ، ولكننا على غير المعقول لم نظفر منهم بشعر ذي خطر، فهم مثلاً يحدثونا عن عدى بن زيد الحيرى، وهو شاعر ضعيف كان الأصمى وأبو عبيدة يقولان فيه « عدى بن زيد في الشعراء بمنزلة سهيل في النجوم يعارضها ولا يجرى معها » وقل أن يحدثونا بعد عن شاعر فحل ، وجامع « شعراء النصرانية في الجاهلية » مع تلمسه كل وسيلة لعد الشاعر نصرانيا والاشادة بذكر كل شاعر نصراني لم يذكر لنا شيئاً عن غسان ، ولم يحدثنا عن شاعر واحد غسانى — وكل الذى يرويهِ لنا الأدباء إنما هو رحلة شعراء من الجزيرة — كالنابغة والأعشى وحسان — الى أمراء الحيرة وغسان . فما السر في هذا ؟

قلبنا الأمر على وجوه مختلفة من النظر ، فقلنا لعل السر أن البادية هي منبع الشعر وهي التي تحرك نفس العربى وتغذى خياله ، وتنطق لسانه ، يشعر فيها باستقلاله وعظمته ، لا ترهقه سلطة ، ولا يقيده قانون ، تنبسط أمامه رقعة الأرض فينعم بمنظرها ، فيجيش صدره ، وينطلق بالشعر لسانه ، فاذا تحضر ذك ، وعقلت من لسانه قوانين المدنية وتقاليد الحضارة ، وحرّم منظر الصحراء الجميل فحرم الشعر الجميل ، لهذا لم يك للعراقى شعر قيم ولا للفسانى شعراً ، ولكن رأينا أن هذا التعليل غير صحيح ، فما عهدنا أن الحضارة تميم الشعر ، فحضارة الفرس والروم وحضارة المسلمين في الدولة الاموية والعباسية لم تضيق خيالهم ولم تعقل من لسانهم ، والحضارة اليوم في أورو باعشت.

على الشعر ولم تقف في وجهه ، إنما كل ما يصح أن يقال أن الحضارة تميزت أنواعا من الشعر لا تعيش إلا في البادية ، كما تحيي أنواعا من الشعر لا تعيش إلا في نعيم الحضرة والتعليل الصحيح في نظرنا أن هؤلاء الحيريين والغسانيين كان فيهم شعراء ولكن كانت لهم أيضا لغة خاصة بهم ، غير لغة قريش التي سادت الحجاز ولم تستطع أن تسود الحيرة وغسان لبعده موطنهما ، ولأن الحيريين والغسانيين أرقى ممن حولهم من العرب ، فأنفوا أن يخضعوا للسان غير لسانهم ، وقد يستتبع ذلك أن تكون لهم في الشعر أوزان خاصة تتفق مع لغتهم وعقليتهم ، فلما جاء الاسلام ونزل القرآن بلغة قريش أهمل الرواة ما كان خارجا عن هذه اللغة وقواعدها وأوزانها

ولا يطعن في هذا الرأي ما يروى من شعر لعدي بن زيد ، وما يروى لنا من رحلة شعراء الجزيرة الى الحيرة وغسان وتفاهمهم ، فان عدي بن زيد كما يحدثنا الرواة له نسب في عرب الجزيرة ، ورحلة الشعراء ليست اعتراضا وجيها ، لأننا نرى أن لغة الحيرة والغسانيين مع اختلافها عن لغة الحجاز قريبة منها ، لاتفاق الأصل الذي تفرعت عنه لغات العرب ولهجاتها ، فليس ببعيد أن يكون للحيريين والغسانيين لغة خاصة وهم مع ذلك يستطيعون أن يفهموا لغة قريش اذا حدثوا بها

وذليلنا على صحة هذا الرأي أن النسايب كما ذكرنا يذهبون الى أن اللخمين والغسانيين من أصل يمني ، وثقات المؤرخين قديما وحديثا يؤكدون أن لغة اليمن كانت غير لغة قريش ، وفي ذلك يقول ابن خلدون « ولقد كان اللسان المضري مع اللسان الحميري بهذه المثابة ، وتغيرت عند مضر كثير من موضوعات اللسان الحميري وتصاريف كلماته ، تشهد بذلك الانتقال الموجودة لدينا ، خلافا لمن يحمله القصور على أنهما لغة واحدة ، ويلتمس اجراء اللغة الحميرية على مقاييس اللغة المضرية وقوانينها ، كما يزعم بعضهم في اشتقاق القيل في اللسان الحميري أنه من القول وكثير

من أشباه هذا ، وليس ذلك بصحيح ، ولغة حمير مغايرة للغة مضر في الكثير من
أوضاعها وتصاريقها وحركات اعرابها^(١) »

فلو جارينا النسابين فيما قالوا في أصل نخم وغسان كان الأمر في اختلاف اللغتين
واضحاً ، بل أكبر ظننا أن اللخمين والغسانين كانوا نبطاً لا يمنيين ولا عرباً
خلصاً وأنه كان لهم شعرهم وآدابهم باللغة النبطية

ج — اليهودية والنصرانية : من عوامل نشر الثقافة الأجنبية في جزيرة
العرب انتشار اليهودية والنصرانية

اليهودية : انتشرت اليهودية في جزيرة العرب قبل الاسلام بقرون ، وتكونت
فيها مستعمرات يهودية ، وأشهرها يَثْرِب وهي التي سميت بعد بالمدينة ، ولكن من
هم هؤلاء اليهود في جزيرة العرب ؟ هل هم من عنصر يهودي أو هم عرب تهودوا ،
وإذا كان الأول فمن أين أتوا هل من فلسطين أو من غيرها ؟ اضطربت الأخبار في
ذلك ، ويظهر أن الصنفين كانا موجودين في الجزيرة ، يهود نزحوا ، وعرب تهودوا
فياقوت في معجمه يذكر أن يهود يثرب عرب تهودوا ، ويقول صاحب الأغاني
« انه لما ظهرت الروم على بني اسرائيل جميعاً بالشام فوطئوهم وقتلوهم ونكحوا
نساءهم خرج بنو النضير وبنو قُرَيْظَةَ وبنو بهدل هاربين منهم الى من بالحجاز
لما غلبتهم الروم على الشام »

وليس هنا موضع تحقيق ذلك ، وعلى كل حال فقد كان في القرون الأولى للميلاد
مستعمرات يهودية في تيماء وفي فدك وفي خيبر وفي وادي القرى وفي يثرب وهي
أهمها ، وكان يهود يثرب ثلاث قبائل بني النضير وبنو قَيْنُقَاع وبنو قُرَيْظَةَ
وقد اشتهر اليهود في جزيرة العرب حيث حلوا بمهارتهم في الزراعة كما اشتهروا

في يثرب أيضاً بصناعاتهم المعدنية كالحدادة والصياغة وصنع الأسلحة وقد كان يثرب قبيلتا الأوس والخزرج نزحاً إليها من اليمن — كما يذكر النسابون حوالي سنة ٣٠٠ م بعد أن سبقهم اليهود إلى استعمارها ، وكانت العلاقة بين اليهود والأوس والخزرج حسنة في أول الأمر ثم ساءت قبل الهجرة لأسباب يختلف الباحثون فيها

كذلك عمل اليهود على نشر ديانتهم جنوبى الجزيرة حتى تهود كثير من قبائل اليمن ، ومن أشهر هؤلاء المتهودين ذونؤاس ، وقد اشتهر بتحمسه لليهودية واضطهاده لنصارى نجران وذكروا في سبب ذلك « أن يهوديا كان بنجران عدا أهلها على ابنين له فقتلوهما ظلما ، فرفع أمره الى ذى نؤاس وتوسل اليه باليهودية واستنصره على أهل نجران وهم نصارى فحمى له ولدينه وغزاهم ^(١) »

ويظن بعض المؤرخين أن حركة ذى نؤاس هذه كانت حركة وطنية ، ذلك أن نصارى نجران كانوا على ولاء مع الحبشة ، وكانت الحبشة تعد حامية النصرانية في نجران وقد اتخذت النصرانية وسيلة للتدخل في شؤون اليمن ، فأراد ذونؤاس وقومه محو هذا النفوذ الحبشى ، ولذلك لما قتل ذونؤاس نصارى نجران استنجد بقيتهم بالحبشة فأنجدوهم وكانت بينهم حروب ، وكان عام الفيل مما لا محل لذكره هنا نشر اليهود في البلاد التى نزلوها في جزيرة العرب تعاليم التوراة وما جاء فيها ، من تاريخ خلق الدنيا ومن بعث وحساب وميزان وجنة ونار ، ونشروا تفاسير المفسرين للتوراة وما أحاط بها من أساطير وخرافات كالتى أدخلها بعد من أسلم من اليهود مثل كعب الأحبار ووهب بن منبّه وأضرابهما — وكذلك كان لليهود أثر كبير في اللغة العربية فقد أدخلوا عليها كلمات كثيرة لم يكن يعرفها العرب

ومصطلحات دينية لم يكن لهم بها علم مثل جهنم والشیطان وابليس ونحو ذلك أضف الى هذا أن اليهودية حلت بجزيرة العرب بعد أن تأثرت بالثقافة اليونانية تأثراً كبيراً، لأنها ظلت قروناً تحت الحكم اليوناني الروماني ولأنها كانت منتشرة في الاسكندرية وعلى شواطئ البحر الأبيض حيث الثقافة اليونانية، وكان من أحبار اليهود من تعلم الفلسفة اليونانية، وتأدب بأدبها، فتسربت تلك الثقافة الى اليهودية كما تسرب اليها بعض مبادئ من القانون الروماني قال بلدوين في كتابه معجم الفلسفة « ان الشرق والغرب اختلطا في الاسكندرية وامتزجت آراء رومة واليونان والشام في المدنية والعلوم والدين بآراء الشرق الأقصى في ذلك، فنشأت قضية جديدة عمل على إيجادها بحث الغرب والهام الشرق، واتصل الدين بالفلسفة اتصالاً وثيقاً كان من نتائجه ظهور عقائد دينية لا هي من الفلسفة المحضة ولا من الدين الخالص، بل أخذت بطرف من كل، وجاء ذلك من عاملين: أحدهما ميل اليهود الى التوفيق بين معتقداتهم الدينية والعلم الغربي الذي كان متأثراً بالعلم اليوناني، وثانيهما أن المفكرين الذين استمدوا آراءهم من الفلسفة اليونانية رأوا أن يوفقوا بين معتقداتهم الفلسفية والقضايا الدينية المحضة التي جاء بها المشاركة، ومن أي الجهتين نظرنا رأينا أن النتيجة كانت فلسفة دينية لا هي فلسفة محضة ولا هي دين خالص » فلما انتقلت اليهودية الى العرب كانت تحمل في ثناياها شيئاً من ذلك

النصرانية: انقسمت النصرانية في ذلك العهد الى جملة كنائس وان شئت فقل الى جملة فرق، تسرب منها الى جزيرة العرب فرقتان كبيرتان. النساطرة واليعاقبة فكانت النسطورية منتشرة في الحيرة، واليعقوبية في غسان وسائر قبائل الشام، كذلك كانت هناك صوامع في وادي القرى

وأهم موطن للنصرانية في جزيرة العرب كان « نَجْرَان » وكانت مدينة خصبة عامرة بالسكان ، تزرع وتصنع الأنسجة الحريرية ، وتتاجر في الجلود وفي صنع الأسلحة ، وكانت إحدى المدن التي تصنع الحُكْلَ اليمانية التي تقنى بها الشعراء ، وكانت قرية من الطريق التجاري الذي يمتد إلى الحيرة

وكان يتولى أمورها رؤساء ثلاثة : السيد والعاقب والأسقف ، ويظهر أن السيد كان اختصاصه كاختصاص رؤساء القبائل ، فهو رئيسهم في الحرب ، وهو الذي يدير أمورهم الخارجية ، ويتولى أمور العلاقات بينهم وبين القبائل الأخرى ، والعاقب يتولى الأمور الداخلية الدنيوية ، والأسقف الأمور الدينية ، وهم الثلاثة يتشاورون في المسائل الهامة ، قال ياقوت في المعجم « ووفد على النبي صلى الله عليه وسلم وفد نجران وفيهم السيد واسمه وهب والعاقب واسمه عبد المسيح والأسقف وهو أبو حارثة ، وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم مبايعتهم فامتنعوا وصالحوا النبي صلى الله عليه وسلم فكتب لهم كتاباً فلما وليَ أبو بكر أنفذ ذلك لهم ، فلما ولي عمر أجلاهم واشترى منهم أموالهم »

وكان بنجران كعبة ، قال ياقوت « وكعبة نجران هذه — يقال — بيعة بناها بنو عبد المدان بن الديان الحارثي على بناء الكعبة ، وعظموها مضاهاةً للكعبة وسموها كعبة نجران وكان فيها أساقفة معتمون » ويستظهر بعض الباحثين أنها كانت كعبة للعرب تحج إليها قبل مجيء النصرانية ثم اتخذها النصارى بيعة بعد انتشار النصرانية فيها

وكان نصارى نجران — على ما يستظهر « أوليري » على مذهب البعاقبة — وهذا يعلل اتصالهم بالحبشة (لأنهم كانوا بعاقبة أيضاً) أكثر من اتصالهم بالرومان واشتهر بين العرب من رؤسائها قبل الاسلام قُسُّ بن ساعدة ويذكر أدباء

العرب أنه كان أسقف نجران ، ويقطع « لأمانس » — في كتابه عن يزيد —
ببطلان ذلك ويدكر أنه لم يكن له صلة بنجران

وقد أوقع ذونواس بأهل نجران وقتلهم كما ذكرنا ذلك عند الكلام على
اليهودية ، ويروى بعض المؤرخين أنه نزل في ذلك قوله تعالى « قُتِلَ أَصْحَابُ
الْأَخْدُودِ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ
شُهُودٌ . وَمَا تَقَمَّوْا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ » وذلك بعيد ، لأن
كلا من اليهود والنصارى يؤمن بالله العزيز الحميد ، وقد استنجد النصارى بالحبشة
فأبجدوهم ، وغزوا بلاد العرب سنة ٥٢٢ م ثم سنة ٥٢٥ م وهزموا ذانواس ،
وأنشأوا مستعمرة حبشية على شاطئ البحر الأحمر ، وحكموا تهامة واستمر حكمهم
الى سنة ٥٧٥ م حيث غزا الفرس بلاد اليمن واحتلوها وطرّدوا الحبشة منها ، واستمرت
النصرانية في نجران الى عهد عمر فأجلاهم عنها وذهب أكثرهم الى العراق

وقد نشرت المسيحية تعاليمها بين العرب ، وأوجدت فيهم من يميل الى الرهبنة.
ويبنى الأديرة، فهم يحدثوننا أن حنظلة الطائي فارق قومه ونسك ، وبنى ديراً بالقرب
من شاطئ الفرات ، ويعرف هذا بدير حنظلة ، وثرهب فيه حتى مات ، ويدكرون
أن قس بن ساعدة « كان يتقفر القفار ، ولا تكنه دار ، يتحسّى بعض الطعام ،
ويأنس بالوحوش والهوام » ، ويقولون أن أمية بن أبي الصلت كان قد نظر في
الكتب وقرأها ولبس المسوح تعبدًا ، ويدكرون أن عدى بن زيد نصح النعمان
ملك الحيرة حتى حبيب اليه النصرانية ثم وضع تاجه ، وخلع أطماره ولبس أمساحه
فلزما عبادة الله في الجبال حتى مات النعمان

وكان القسس والرهبان يردون أسواق العرب ، ويعظون ويبشرون ، ويدكرون
البعث والحساب والجنة والنار وقد ورد في القرآن كثير من الآيات تحكى أقوالهم وتفند

مذاهبهم ، مما يدل على انتشار هذه التعاليم بينهم
وكان من هؤلاء النصارى شعراء كقُسَّ بن ساعدة وأمِّية بن أبي الصلت
وعدي بن زيد ، وهؤلاء لهم مسحة خاصة في شعرهم ، عليها طابع الدين ، ومتأثرة
بتعاليمه ، تُزَهِّدُ في الدنيا وشؤونها ، وتدعو إلى النظر في الكون والاعتبار بحوادثه ،
وهذه الأشعار وإن قلد أكثرها فقد أحكم تقليدها حتى ليدلنا تقليدها على منهاج أصلها
كذلك أدخلوا على اللغة العربية ألفاظاً وتراكيب لم تكن تعرفها العرب ،
فهم يذكرون أن أمية بن أبي الصلت علم العرب باسمك اللهم ، وقس أول من قال
أما بعد ، وكان أمية يستعمل في شعره ألفاظاً مجهولة لا تعرفها العرب كان يأخذها
من الكتب القديمة فمنها قوله « قَرَوَسَا هُورٌ يَسْلُ وَيُعَمَد » وكانت يسمى الله
« السِّلْطِيط » وسماه في موضع آخر « التَّغَرُّور » الخ

كانت النصرانية — فوق هذا — من قبل دخولها جزيرة العرب تحمل في
ثناياها شيئاً من الثقافة اليونانية كما هو الشأن في اليهودية ، فانها إحدى الديانات التي
ولدت في الشرق وانتشرت في الامبراطورية الرومانية — معهد الثقافة اليونانية —
وكانت الاسكندرية هي المركز الجغرافي لمزج الدين بالفلسفة كما أشرنا الى ذلك من قبل ،
وفي العصور المسيحية الأولى كان كثير من آباء الكنيسة فلاسفة قبل أن يكونوا رجال
دين ، لأنهم رأوا من الضروري أن يؤيدوا أنفسهم وعقائدهم أمام الوثنيين ، فلبجئوا
الى الفلسفة يستمدون منها التعليل والبرهان ، فتسربت الى النصرانية فلسفة أرسطو
وأفلاطون وغيرها ، وقد امتاز الشرق بأن أنشئت فيه مدارس لاهوتية متأثرة بالفلسفة
اليونانية تقليداً للاكاديميات اليونانية ، وأشهر ذلك مدرسة الاسكندرية التي كانت
في بدء القرن الثالث للميلاد ، وأنشأ ملك كيون سنة ٢٧٠م مدرسة في أنطاكية وأنشئت
في نصيبين مدرسة أخرى سنة ٢٩٧م وهذه كانت تعلم اللغة السريانية واليونانية معاً

وكان النساطرة على الأخص أكثر الماما بعلوم اليونان . وقد ترجموا كثيراً من الكتب اللاهوتية والفلسفية عن اليونانية ، كما اشتهروا بالطب والعلوم الطبيعية ، وكان من رجال الدين النساطرة أطباء في بلاط فارس ومنهم كثيرون انتشروا في الحيرة ، ولعل هذا هو السبب في أنه بعد ضعف شأن الحيرة وانتشار الاسلام في هذه البقاع كان أول حامل للواء العلم في الاسلام « البصرة والكوفة » لجوازهما الحيرة ، وكان أول كتب استخدمت لبث الثقافة اليونانية هي المكتوبة باللغة السريانية ، والتي خلفتها هذه المدارس النسطورية ، وعلى العموم فقد كان هؤلاء النساطرة هم الصلة بين اليونان والعرب

هذه الامور الثلاثة : التجارة والامارات على التخوم واليهودية والنصرانية كانت وسائل لتسرب المدينيات المجاورة الى العرب وتفوذ ثقافتها اليهم ، قال الهمداني في كتابه الوشي المرقوم « لم يصل الى أحد خبر من أخبار العرب والعجم الا من العرب (كذا) وذلك لأن من سكن مكة أحاط بعلم العرب العاربة وأخبار أهل الكتاب ، وكانوا يدخلون البلاد للتجارات فيعرفون أخبار الناس ، وكذلك من سكن الحيرة وجاور الأعاجم علم أخبارهم وأيام حمير وسيرها في البلاد ، وكذلك من سكن الشام خبر بأخبار الروم وبنى اسرائيل واليونان ، ومن وقع بالبحرين وعمان فعنه أتت أخبار السند وفارس ، ومن سكن اليمن علم أخبار الأمم جميعاً لأنه كان في ظل الملوك السيارة » ، ولكن لم تكن معرفتهم بذلك معرفة وافرة انما كانت تتسرب هذه المدينيات من مجرى ضيق ، وقد ينال التحريف ما ينقلون من غيرهم ، كالذي نراه في بعض أمثال العرب المنقولة عن امثال سليمان ، وفي بعض القصص المنقولة عن الفرس والروم ، فلم يكن العرب يأخذون ممن حولهم علماً منظماً كما نأخذ نحن من المدينة

الغربية ، لأن هناك عوائق كانت تحول دون ذلك ، منها الحوائط الطبيعية ، بين العرب وغيرهم من بحار وجبال وصحراوات ، ومنها البعد الكبير بين العرب والفرس والروم من حيث الحالة الاجتماعية والدرجة العقلية ، وأكثر ما يكون اقتباس الحضارة والمدنية اذا تقاربت العقليتان ، ومنها انتشار الأمية بين العرب اذ ذاك حتى ندر أن تجد فيهم القارئ الكاتب ، انما كان المخالطون للفرس والروم ينقلون حكما أو قصصاً أو أمثالا أو حوادث تاريخية فما يخف حمله على الناقل ، ومما يستطيع البدوي ومن في حكمه أن يهضمه

ولعله ظهر لك مما ذكرنا أن قد كانت هناك صلة بين العرب وغيرهم من الأمم أثرت في حياتهم المادية والأدبية ، وهو ما أردنا اثباته

الفصل الثالث

طبيعة العقلية العربية

تختلف الشعوب عقلياً ونفسياً اختلافاً كبيراً ، فعقلية الانجليزى غير عقلية الفرنسى ، وهما غير عقلية المصرى وهكذا ، وهذه العقليات والنفسيات تختلف تبعاً لاختلاف البيئة الطبيعية والاجتماعية التى تحيط بالأمة ، فالشعوب تقف فى العالم على درجات متسلسلة الرقى ، وكل درجة لها مميزاتها العقلية والنفسية

وأفراد الأمة الواحدة وان اختلفوا فى المدارك والتربية والتعليم ونحو ذلك فإن بينهم جميعاً وحدة مشتركة ، وهذه الوحدة تدركها فى الملامح الجسمية حتى لتستطيع بعد قليل من المران أن تحكم بأن هذا انجليزى أو فرنسى أو مصرى ، وهناك وحدة عقلية بين أفراد الأمة الواحدة تشبه الوحدة الجسمية تماماً ، فما هذه الوحدة العقلية والنفسية للعرب؟ وبعبارة أخرى اذا اخترت عربياً ليكون نموذجاً يمثل العرب فى نفسياتهم فما تكون صفاته؟ اختلفت آراء الباحثين فى هذا اختلافاً كبيراً ونحن نستعرض لك بعضها

(١) يقول بعض الشعوبية فى العرب « لم تزل الأمم كلها من الأعاجم فى كل شق من الأرض لها ملوك تحميها ومدائن تضمها ، وأحكام تدين بها ، وفلسفة تنتجها ، وبدائع تفتقها فى الأدوات والصناعات ، مثل صناعة الديباج ولعبة الشطرنج . . . ورمانة القبان ، ومثل فلسفة الروم فى ذات الخلق والقانون والأصطرلاب ، ولم يكن للعرب ملك يجمع سوادها ، ويضم قواصيها ، ويقمع ظالمها وينهى سفيها ، ولا كان لها قط نتيجة فى صناعة ، ولا أثر فى فلسفة ، الا ما كان من الشعر ، وقد شاركتها

فيه العجم ، وذلك أن للروم أشعاراً عجيبة قائمة الاوزان والعروض الخ»^(١)

(٢) ويقول الجاحظ في الرد عليهم والمقارنة بين العرب وغيرهم « ان الهنـد لهم معان مدونة ، وكتب مجلدة ، لا تضاف الى رجل معروف ، ولا الى عالم موصوف وانما هي كتب متوارثة ، وآداب على وجه الدهر سائرة مذكورة ، واليونان فلسفة ومنطق ، ولكن صاحب المنطق نفسه بكى اللسان ولا موصوف بالبيان ، وفي الفرس خطباء الا أن كل كلام للفرس وكل معنى للعجم فانما هو عن طول فكرة ، وعن اجتهاد وخلوة ، وكل شيء للعرب فانما هو بديهية وارتيال ، وكأنه الهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ، ولا اجالة فكر ولا استعانة ، وانما هو أن يصرف وهمه الى الكلام فتأتيه المعاني ارسالا ، وتنتال عليه الألفاظ اثيالا ، وكانوا أميين لا يكتبون ومطبوعين لا يتكفون ، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر ، وهم عليه أقدر وأقهر ، . . . وليس هم كمن حفظ علم غيره واحتذى على كلام من كان قبله ، فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم ، والتحم بصدورهم ، واتصل بعقولهم من غير تكلف ولا قصد ، ولا تحفظ ولا طلب »^(٢)

(٣) رأى ابن خلدون في العرب — ولا بن خلدون رأى في العرب منشور في

مواضع عدة من تاريخه نلخصه فيما يلي بألفاظه :

يرى ابن خلدون أن حالة العرب حالة اجتماعية طبيعية . يمر عليها الانسان في نشوئه وارتقائه ، وعبر عن ذلك بقوله « إن جيل العرب في الحلقة طبعي » ويقول « انهم بطبيعة التوحش الذي هم فيه أهل اتهاب وعبت ، ينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر ، ويفرون الى منتجعهم بالقفر ، والقبائل الممتعة عليهم — بأوعار الجبال — بمنجاة من عبثهم وفسادهم ، وأما البسائط — متى

(٢) البيان والتبيين جزء ٣ ص ١٥ مختصراً

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٨٦

اقتدروا عليها بفقدان الحامية وضعف الدولة — فهي نهبٌ لهم ، يرددون عليها الغارة والنهب إلى أن يصبح أهلها مغلبين لهم ثم يتعاورونهم باختلاف الأيدي وانحراف السياسة إلى أن ينقرض عمرانهم (١)

وهم إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب ، لأنهم أمة وحشية ، فينقلون الحجر من المباني ويخربونها لينصبوه أثافيًّا للقدر ، ويخربون السقف ليُعمروا به خيامهم ، ويتخذوا الأوتاد منه لبيوتهم ، وليس عندهم في أخذ أموال الناس حد ينتهون إليه ، وليست لهم عناية بالأحكام وزجر الناس عن المفاسد ، إنما همهم ما يأخذونه من أموال الناس نهباً أو مغرماً ، فإذا توصلوا إلى ذلك أعرضوا عما بعده من تسديد أحوالهم والنظر في مصالحهم ، وهم متنافسون في الرياسة وقل أن يُسلم واحد منهم الأمر لغيره ولو كان أباه أو أخاه أو كبير عشيرته إلا في الأقل ، فيتعدد الحكماء منهم والأمراء ، وتختلف الأيدي على الرعية في الجباية والأحكام ، فيفسد العمران وينتقض ، وانظر إلى ما ملكوه من الأوطان من لدن الخليفة كيف تقوض عمرانته وأقفر ساكنه ، فالين — قرارهم — خراب الا قليلا من الأمصار ، وعراق العرب كذلك قد خرب عمرانته الذي كان للفرس أجمع والشام لهذا العهد كذلك (٢)

وهم أصعب الأمم اتقياداً بعضهم لبعض للغلظة والأثرة وبعد الهمة والمنافسة في الرياسة ، فقلما تجتمع أهواؤهم ، من أجل ذلك لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة (٣)

والمباني التي يخططونها يسرع إليها الخراب ، لقلة مراعاتهم لحسن الاختيار في اختطاط المدن ، في المكان وطيب الهواء والمياه والمزارع والمراعى ، فانه بالتفاوت في هذا

تفاوت جودة المصر ورداءته ، والعرب بمنزل عن هذا ، وإنما يراعون مراعى إبلهم خاصة ، لا يبالون بالماء طاب أو خبث ، ولا قل أو كثير ، ولا يسألون عن زكاء المزارع والمنابت والأهوية ، وانظر لما اختطوا الكوفة والبصرة والقيروان كيف لم يراعوا في اختطاطها إلا مراعى إبلهم وما يقرب من القفر ومسالك الظعن ، فكانت بعيدة عن الوضع الطبيعي للمدن ، ولم تكن لهم مادة تمتد عمرانهم من بعدهم ، وكانت مواطنها غير طبيعية للقرار ، ولم تكن في وسط الأمم فيعمرها الناس ، فلا أول وهلة من انحلال أمرهم وذهاب عصبيتهم التي كانت سياجاً لها أتى عليها الخراب والانحلال^(١) وهم أبعد الناس عن الصنائع ، لأنهم أعرق في البدو وأبعد عن العمران الحضري وما يدعو إليه من الصنائع وغيرها ، ولهذا نجد أوطان العرب وما ملكوه في الاسلام قليل الصنائع بالجملة حتى تجلب إليه من قطر آخر^(٢)

وهم أبعد الناس عن العلوم لأن العلوم ذات ملكات ، محتاجة إلى التعليم ، فاندرجت في جملة الصنائع ، والعرب أبعد الناس عنها كما قدمنا ، فصارت العلوم لذلك حضرية ، وبُعد العرب عنها وعن سوقها ، والحضر لذلك العهد هم العجم أو من في معنائهم من الموالى ، ولذلك كان حملة العلم في الاسلام أكثرهم العجم أو المستعجمون باللغة والمرابي ، ولم يقدّم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم^(٣)

وهم مع ذلك أسرع الناس قبولاً للحق والهدى ، لسلامة طبائعهم من عوج الملكات ، وبراءتها من ذميم الأخلاق ، إلا ما كان من خلق التوحش القريب المعاناة ، المنتهى لقبول الخير^(٤)

وهم أقرب إلى الشجاعة ، لأنهم قائمون بالمدافعة عن أنفسهم ، لا يكلونها إلى سواهم ، ولا يثقون فيها بغيرهم ، فهم دائماً يحملون السلاح ، ويتلفتون عن كل

(١) ص ٣٠٠ (٢) ص ٣٣٧ (٣) ص ٤٧٨ (٤) ص ١٢٧

جانب في الطرق ، قد صار لهم البأس خلقاً والشجاعة سجية . ونجد المتوحشين من العرب أهل البدو أشد بأساً ممن تأخذه الاحكام^(١)

وهم لم يزالوا موسومين بين الامم بالبيان في الكلام والفصاحة في النطق والذلاقة في اللسان ، والبيان سَمُّهم بين الامم منذ كانوا^(٢)

(٤) ويقول «أوليرى»^(٣) أن العربي الذي يعد مثلاً أو نموذجاً مادي ، ينظر

الى الاشياء نظرة مادية وضيقة ، ولا يقومها إلا بحسب ما تنتج من نفع ، يملك الطمع مشاعره ، وليس لديه مجال للخيال ولا للعواطف ، لا يميل كثيراً الى دين ،

ولا يكثر بشئ إلا بقدر ما ينتجه من فائدة عملية ، يملؤه الشعور بكرامته الشخصية

حتى ليثور على كل شكل من أشكال السلطة ، وحتى ليتوقع منه سيد قبيلته وقائده

في الحروب الجسد والبغض والخيانة من أول يوم اختير للسيادة عليه ولو كان صديقاً

حميماً له من قبل ، من أحسن اليه كان موضع تقمته لأن الاحسان يثير فيه شعوراً

بالخضوع وضعف المنزلة وأن عليه واجباً لمن أحسن ، يقول لا مانس « ان العربي

نموذج الديمقراطية » ولكنها ديمقراطية مبالغ فيها الى حد بعيد ، وان ثورته على كل

سلطة تحاول أن تحدد من حريته ولو كانت في مصلحته هي السر الذي يفسر لنا

سلسلة الجرائم والخيانات التي شغلت أكبر جزء في تاريخ العرب ، وجهل هذا

السر هو الذي قاد الاوروبيين في أيامنا هذه الى كثير من الاخطاء ، وحملهم كثيراً

من الضحايا كان يمكنهم الاستغناء عنها ، وصعوبة قيادة العرب وعدم خضوعهم

للسلطة هي التي تحول بينهم وبين سيرهم في سبيل الحضارة الغربية ، ويبلغ حب

العربي لحريته مبلغاً كبيراً حتى اذا حاولت أن تحدها أو تنقص من أطرافها هاج

كأنه وحش في قفص ، وثار ثورة جنونية لتحطيم أغلاله والعودة الى حريته —

(١) ص ١٠٦ (٢) ج ٢ ص ١٥ (٣) في كتابه Arabia before Mohammad

ولكن العربي من ناحية أخرى مخلص ، مطيع لتقاليد قبيلته ، كريم ، يؤدي واجبات الضيافة والمخالفة في الحروب كما يؤدي واجبات الصداقة مخلصاً في أدائها حسب ما رسمه العرف ، . . . وعلى العموم فالذي يظهر لي أن هذه الصفات والخصائص أقرب أن تعد صفات وخصائص لهذا الطور من النشوء الاجتماعي عامة من أن تعد صفات خاصة لشعب معين ، حتى إذا قر العرب وعاشوا عيشة زراعية مثلاً تعدلت هذه العقلية » انتهى مختصراً

(٥) وهناك غير هذا كثير من أقوال الكتاب في كتب الأدب تنسب للعرب كل فضيلة ، وتنفي عنها كل رذيلة ، كالذي ذكره الأوسى في بلوغ الأرب ، فقد قال بعد كلام طويل « والحاصل أن العرب لما كانوا أتم الناس عقولا وأحلاماً ، وأطلقهم السنة ، وأوفرهم أفهاماً ، استتبع ذلك لهم كل فضيلة ، وأورثهم كل منقبة جليلة »^(١) ويقول ابن رشيقي في العمدة « العرب أفضل الأمم ، وحكمتها أشرف الحكم ، الخ »

مناقشة هذه الآراء — لسنا نعتقد تقديس العرب ، ولا نعبأ بمثل هذا النوع من القول الذي يمجدهم ويصفهم بكل كمال ، وينزههم عن كل نقص ، لأن هذا النمط من القول ليس نمط البحث العلمي ، إنما نعتقد أن العرب شعب ككل الشعوب ، له ميزاته وفيه عيوبه ، وهو خاضع لكل نقد علمي في عقليته ونفسيته وآدابه وتاريخه ككل أمة أخرى ، فالقول الذي يمثله الرأي الخامس لا يستحق مناقشة ولا جدلاً — كذلك يخطئ الشعوية أصحاب القول الأول الذين كانوا يتطلبون من العرب فلسفة كفلسفة اليونان ، وقانونا كقانون الرومان ، أو أن يمهروا في الصناعات كصناعة الديباج ، أو في المخترعات كالاصطربلاب ، فانه ان كان يقارن هذه الأمم بالعرب في جاهليتها كانت مقارنة خطأ ، لأن المقارنة إنما تصح بين أمم في طور واحد من الحضارة

لا بين أمة متبدية وأخرى متحضرة ، ومثل هذه المقارنة كمتقارنة بين عقل في طفولته وعقل في كهولته ، وكل أمة من هذه الأمم كالفرس والروم مرت بدور بدعوة لم يكن لها فيه فلسفة ولا مخترعات ، أما ان كان يقارن العرب بعد حضارتها فقد كان لها قانون وكان لها علم وان كان قليلا كما سيأتى — انما الذى يستحق البحث.

والمناقشة هو رأى ابن خلدون وأوليرى

أما رأى ابن خلدون فخلاصته أن العربى متوحش نهاب سلاب ، اذا أخضع مملكة أسرع اليها الخراب ، يصعب انقياده لرئيس ، لا يجيد صناعة ولا يحسن علما ولا عنده استعداد للاجادة فيهما ، سليم الطباع ، مستعد للخير شجاع

وخلاصة رأى الثانى أن العربى ماضى ضيق الخيال ، جامد العواطف ، شديد الشعور بكرامته وحرية ، ثائر على كل سلطة ، كريم مخلص لتقاليد قبيلته

فهما متفقان فى وصف العرب بالمادية وثورتهم على كل سلطة ، أما الوصف الثانى فلا مجال للشك فيه ، وقد صدق « أوليرى » فى قوله أن هذه الصفة هى التى تفسر لنا الجرائم والخيانات التى شغلت أكبر جزء فى تاريخ العرب « أما المادية فكثير من المستشرقين يوافقون ابن خلدون وأوليرى على وصف العرب بها كالأستاذ « برون » فى كتاب « تاريخ الأدب عند الفرس » ويعنون بهذا الوصف انهم لا يقدرون الا المادة والا درهم والدينار ، فاما المعنويات فلا قيمة لها فى نظرهم ، وحقاً انك لتدرك هذا المعنى بجلاء فى بعض سكان البادية اليوم ، ولكن هل هذا الوصف يصح أن يعمم فى عرب الجاهلية ؟ ذلك ما نشك فيه ، فانه لو صح ما يروى لنا فى كتب الادب من حكايات الكرم والوفاء ، وبذل النفس عن سباحة فى المحافظة على تقاليد القبيلة ، لتنافى تمام المنافاة مع المادية — لذلك يظهر لنا أن كلا من أوليرى وابن خلدون أخطأ فى تحديد « العربى » الذى يصفه ، فنحن نعتقد أن عربى.

الجاهلية يخالف في أمور كثيرة عربي الاسلام ، بل عربي الجاهلية نفسه متحضراً غيره باديا ، ويدو اليوم يخالفون في أمور كثيرة بدو الجاهلية ، وابن خلدون مع دقته في بحثه لم يحدد بالضبط معنى العربي الذي يصفه ، وهذا ما جعله يضطرب في قوله ، فانك اذا قرأت قوله في بعض المواضع تفهم أنه انما يريد العربي البدوي كالذي يهدم القصور ليستعمل حجارته في الاثافي وخشب سقفها في الاوتاد ، فانما ذلك ينطبق على البدوي المعن في البداوة لا العربي المتحضر في الدولة الاموية أو العباسية ، ثم تراه يذكر العربي في أنه لا يحسن اختيار مواقع البلاد ، كما فعل عند تخطيط البصرة والكوفة وهذا كما تعلم ليس هو العربي البدوي المعن في البداوة انما هو عربي صدر الاسلام الذي فتح فارس والروم ، وليس العربي الذي يخطط المدن هو الذي يهدم القصور لاثافية — ثم هو يذكر أنه لا يحسن علما وأن الموالي هم السابقون في هذا المضمار وهذا ليس عربي البدو ولا عربي صدر الاسلام انما هو عربي الدولة العباسية وآخر الأموية — وقد ناقض ابن خلدون نفسه إذ يقرر في موضع آخر من مقدمته ما يفهم منه استعداد العربي بطبيعته للتحضر ، والاستفادة ممن يخالطه ويعاشره ، قال : « ومثل هذا وقع للعرب لما كان الفتح ، وملكوا فارس والروم ، واستخدموا بناتهم وأبناءهم ، ولم يكونوا لذلك العهد في شيء من الحضارة ، فقد حكى أنه قدم لهم المرقق فكانوا يحسبونه رِقَاعاً ، وعثروا على الكافور في خزائن كِسْرى فاستعملوه في عجينهم مِلْحاً ، وأمثال ذلك ، فلما استعبدوا أهل الدول قبلهم ، واستعملوهم في مهنتهم ، وحاجات منازلهم ، واختاروا منهم المهرة في أمثال ذلك والقومة عليه ، أفادوهم علاج ذلك والقيام على عمله والتفنن فيه ، فبلغوا الغاية في ذلك وتطوروا بطور الحضارة ،

واستجادوا المطاعم والمشارب والملابس والمباني والاسلحة والفرش والآنية (١)

فترى من هذا أن ابن خلدون فى حكمه على العربى خلط بين العربى فى
عصوره المختلفة ، وأصدر عليه أحكاما عامة ، مع أنه هو نفسه القائل بأن العربى يتغير
بتغير البيئة

ثم يقول « أوليرى » « أن العربى ضعيف الخيال جامد العواطف » — أما
ضعف الخيال فلعل منشأه أن الناظر فى شعر العرب لا يرى فيه أثراً للشعر القصصى
ولا التمثيلى ، ولا يرى الملاحم الطويلة التى تشيد بذكر مفاخر الأمة كإلياذة
هوميروس وشاهنامة الفردوسى ، ثم هم فى عصورهم الحديثة ليس لهم خيال خصب
فى تأليف الروايات ونحو ذلك ، ونحن مع اعتقادنا قصور العرب فى هذا النوع من
القول نرى أن هذا الضرب أحد مظاهر الخيال لا مظهر الخيال كله ، فالفخر والحماسة
والغزل والوصف والتشبيه والمجاز كل هذا ونحوه مظهر من مظاهر الخيال ، والعرب
قد أكثروا القول فيه كثرة استرعت الانظار وإن كان الابتكار فيه قليلا

كذلك ما ملئ به شعر العربى من الغزل ، وبكاء الاطلال والديار ، وذكرى
الأيام والحوادث ، وما وصف به شعوره ووجدانه ، وصور به التياح وهيامه ،
لا يمكن أن يصدر عن عواطف جامدة

أما رأى الجاحظ فيتلخص فى أنه يسلم بقول الشعوية فى أن ليس لهم علم ولا
فلسفة ولا كتب موروثة ، ويرى أن العرب عوضوا عن هذا بميزتين واضحتين :
طلاقة اللسان وحضور البديهة ، والحق أنهما صفتان ظاهرتان فيهم ، ويكفى أن تلقى
نظرة على ما خلفوه من آدابهم لتعترف بما منحوا من لسان ذلق وبديهة حاضرة

ولعلك من هذه المناقشة تلمح رأينا فى العرب ، فهم ليسوا فى جاهليتهم واسلامهم
فى درجة واحدة من الرقى العقلى والخلقى فلنبقتصر الآن على وصف العربى الجاهلى .

العربي عصبى المزاج ، سريع الغضب ، يهيج للشيء التافه ، ثم لا يقف في هياجه عند حد ، وهو أشد هياجا إذا جرحت كرامته ، أو انتهكت حرمة قبيلته ، وإذا احتاج أسرع إلى السيف واحتكم اليه ، حتى أفنتهم الحروب ، وحتى صارت الحرب نظامهم المألوف وحياتهم اليومية المعتادة

والمزاج العصبى يستتبع عادة ذكاء ، وفى الحق أن العربى ذكى ، يظهر ذكاؤه فى لغته ، فكثيراً ما يعتمد على اللمحة الدالة والاشارة البعيدة ، كما يظهر فى حضور بديهته ، فما هو إلا أن يُفجأ بالأمر فيفجؤك بحسن الجواب ، ولكن ليس ذكاؤه من النوع الخالق المبتكر ، فهو يقلب المعنى الواحد على أشكال متعددة فيبهرك تفننه فى القول أكثر مما يبهرك ابتكاره للمعنى ، وإن شئت فقل ان لسانه أمهر من عقله

خياله محدود وغير متنوع ، فقلما يرسم له خياله عيشة خيرا من عيشته ، وحياة خيراً من حياته يسعى وراءها ، لذلك لم يعرف « المثل الأعلى » لأنه وليد الخيال ، ولم يضع له فى لغته لفظة واحدة دالة عليه ، ولم يشر اليه فيما نعرف من قوله ، وقلما يسبح خياله الشعرى فى عالم جديد يستقى منه معنى جديداً ، ولكنه فى دائرته الضيقة استطاع أن يذهب كل مذهب

أما ناحيتهم الخلقية فيل الى حرية قل أن يحدّها حدّ ، ولكن الذى فهموه من الحرية هى الحرية الشخصية لا الاجتماعية فهم لا يدينون بالطاعة لرئيس ولا حاكم ، تاريخهم فى الجاهلية — حتى وفى الاسلام — سلسلة حروب داخلية ، وعهد عمر بن الخطاب كان عصرهم الذهبى لأنه شغلهم عن حروبهم الداخلية بحروب خارجية ، ولأنه رضى الله عنه منح فهماً عميقاً ممتازاً لنفسية العرب

والعربى يحب المساواة ولكنها مساواة فى حدود القبيلة — وهو مع حبه للمساواة

كبير الاعتداد بقبيلته ثم بجنسه ، يشعر في أعماق نفسه بأنه من دم ممتاز ، لم يؤمن
بعظمة الفرس والروم مع ما له ولهم من جذب وخصب وفقر وغنى وبداعة وحضارة ،
حتى اذا فتح بلادهم نظر اليهم نظرة السيد الى المسود — هذا وصف موجز تجد
تفصيله في الفصل الآتي

من هذا الذي ذكرنا مما للعرب من عقلية طبيعية ، ومن ذلك الذي شرحنا
من اتصال العرب بغيرهم من الأمم المتحضرة ، نبع ما لهم من حياة عقلية مظهرها اللغة
والشعر والمثل والقصص

الفصل الرابع

الحياة العقلية للعرب في الجاهلية

أشرنا فيما تقدم الى أن العرب في جاهليتهم كان أكثرهم بدواً ، وأن طور البداوة طور اجتماعي طبيعي تمر به الأمم أثناء سيرها الى الحضارة ، ونزيد الآن أن هذا الطور الطبيعي له مظاهر عقلية طبيعية

ففي مثل هذا الطور الذي كانت تمر به العرب في الجاهلية يتجلى ضعف التعليل ، أعني عدم القدرة على فهم الارتباط بين العلة والمعلول والسبب والمسبب فهماً تاماً ، يمرض أحدهم ويألم من مرضه فيصفون له علاجاً ، فيفهم نوعاً ما من الارتباط بين الدواء والداء ، ولكن لا يفهمه فهم العقل الدقيق الذي يتفلسف ، يفهم أن عادة القبيلة أن تتناول هذا الدواء عند هذا الداء ، وهذا كل شيء في نظره ، لهذا لا يرى عقله بأساً من أن يعتقد أن دم الرئيس يشفى الكلب ، أو أن سبب المرض روح شرير حل فيه فيداويه بما يطرد هذه الأرواح ، أو أنه اذا خيف على الرجل الجنون نجسوه بتعليق الأقدار وعظام الموتى الى كثير من أمثال ذلك ، ولا يستنكر شيئاً من ذلك ما دامت القبيلة تفعله ، لأن منشأ الاستنكار دقة النظر والقدرة على بحث المرض وأسبابه وعوارضه ، وما يزيل هذه العوارض ، وهذه درجة لا يصل اليها العقل في طوره الأول

هذا الضعف في التعليل هو الذي يشرح لنا ما ملئت به كتب الادب من خرافات وأساطير كانت تعتقدها العرب في جاهليتها ، فهم يحدثوننا أن سد مأرب

كان بين ثلاثة جبال تحصر ماء السيل والعيون ، وليس للماء مخرج إلا من جهة واحدة ، فسد الأوائل تلك الجهة بالحجارة الصلبة والرصاص ، فكانوا إذا أرادوا سقي زروعهم فتحوا من ذلك السد بقدر حاجتهم بأبواب محكمة ، وحركات مهندسة فيسقون حسب حاجتهم ، ثم يسدونه إذا أرادوا ، ثم يحدثوننا أن سبب خرابه جردان حمر كن يحفرن السد الذي يليها بأنبيائها ، فتقتلع الحجر الذي لا يستقله مائة رجل ثم تدفعه بمخاليب رجليها حتى تسد الوادي من الناحية التي تجمع فيها الماء ، ويفتح من ناحية السد ، — وقد عجزوا عن أن يفهموا أن ليس هناك ارتباط صحيح بين هذه الجردان الخرافية وخراب السد ، وإن السبب الصحيح إهمال تعهد السد حتى لم يعد يقوى على تحمل السيل

وكالذي قالوا إن الذي بنى الخورنق النعمان بن امرئ القيس ، بناء له رجل من الروم يقال له سِنِمَار ، فلما أتمه قال له سِنِمَار اني أعلم موضع آجرة لوزالت لسقط القصر كله ، فقال النعمان أيعرفها أحد غيرك ، قال لا ، قال لا جرم لأدعنها وما يعرفها أحد ، ثم أمر به فقف من أعلى القصر الى أسفله فتقطع ، ف ضربت به المثل (١) وقد صدقوا بهذه الخرافة مع استحالة تركيز القصر كله على آجرة واحدة — ويطول بنا القول لو عددنا ما ذكر في كتب الأدب والتاريخ من هذا القبيل مما يتعلق بانظار العرب للحوادث ، وبخاصة الحوادث التي تتعلق بالقبائل البائدة كعاد وطسم وجديس ، أو بالحوادث البعيدة التاريخ عن زمن الهجرة كجذيمة والزبأ ، ونستخلص من هذا كله انهم لم يكونوا يحسنون تحليل الحوادث ، ولا يربطون المسببات بأسبابها ربطاً محكماً ، ولم يكن هذا شأن العرب وحدهم بل شاركهم فيه غيرهم من الأمم في طور مثل طورهم ، كالليونان ، وأصبحت هذه الأشياء وغيرها

(١) أنظر المعجم في مادة مارب وامثال الميداني

موضوعاً لما يسمى « علم الميثولوجيا »

وهذا أيضاً يعلل لنا التجاهل في تعرف الحوادث الماضية والمستقبلية الى الكهانة والعرافة وزجر الطير والعيافة ، وهي أمور ليست منطقية في تعرف العلة للمعلول والسبب للمسبب .

نعم كل أمة فيها مخرفوها مهما رقيت ومهما تفلسفت ، ولكن كتب الأدب العربي تدلنا على أن هذه العقائد كانت عقائد الشعب عامة لا أفراد شواذ ، وأن الكهانة وأمثالها تكاد تكون نظاماً مقررأ لكل قبيلة من قبائلهم

قد نجد في بيت من الشعر الجاهلي أو في مثل من أمثالهم أو قصة من قصصهم فكرة راقية ، وربطاً للأسباب بالمسببات ، ولكن حتى هذه يعوزها العمق في التفكير ، كما يعوزها الشرح والتعليل — جاء في سيرة ابن هشام « أن حيا من ثقيف فزعوا للرمي بالنجوم ، فجاءوا الى رجل منهم يقال له عَمْرُو بن أمية أحد بني غِلاج ، وكان أدهى العرب ، وأمكرها رأياً ، فقالوا له يا عمرو ألم تر ما حدث في السماء من القذف بهذه النجوم ؟ قال بلى ، فانظروا فإن كانت معالم النجوم التي يهتدى بها في البر والبحر ، وتُعرف بها الانواء من الصيف والشتاء ، لما يصلح الناس في معاشهم هي التي يرمى بها فهو والله طيُّ الدنيا وهلاك هذا الخلق الذي فيها ، وإن كانت نجوماً غيرها وهي ثابتة على حالها فهذا لأمر أراد الله بهذا الخلق فما هو ؟ » ألسنت ترى معنى دقة نظر عمرو هذا في تفرقة بين نجوم يتوقف على بقائها بنظام هذا العالم وأخرى ليست لها هذه القيمة وهي الشهب ، ولكن شيئاً من ذلك ليس الشرح الفلسفي للنجوم والشهب ، ولا التعليل الواضح الجلي للارتباط بين السبب والمسبب .

لاحظ بعض المستشرقين أن طبيعة العقل العربي لا تنظر الى الأشياء نظرة عامة شاملة ، وليس في استطاعتها ذلك ، وقبله لاحظ هذا المعنى بعض المؤلفين الأقدمين من المسلمين ، فقد جاء في « الملل والنحل » للشهرستاني عند الكلام على الحكماء « الصنف الثاني حكماء العرب وهم شِرْذِمَةٌ قليلة ، وأكثر حكمتهم فَلَائِتَاتُ الطبع وَخَطَرَاتُ الْفِكْرِ » وقال في موضع آخر « ان العرب والهند يتقاربان على مذهب واحد والمقاربة بين الأمتين مقصورة على اعتبار خواص الأشياء ، والحكم بأحكام الماهيات ، والغالب عليهم الفطرة والطبع ، وأن الروم والعجم يتقاربان على مذهب واحد حيث كانت المقاربة مقصورة على اعتبار كيفية الأشياء ، والحكم بأحكام الطبائع ، والغالب عليهم الاكتساب والجهد »

فالعربي لم ينظر الى العالم نظرة عامة شاملة كما فعل اليوناني مثلا ، لقد ألقي اليوناني أول ما تفلسف نظرة عامة على العالم فساءل نفسه : كيف برز هذا العالم الى الوجود ؟ انى أرى هذا العالم جم التغير ، كثير التقلب ، أفليس وراء هذه التغيرات أساس واحد ثابت ؟ وإذا كان فما هو ؟ آلاء أم الهواء أم النار ؟ وأرى العالم كله كالشيء الواحد يتصل بعضه ببعض وهو خاضع لقوانين ثابتة فما هذا النظام وكيف نشأ ومم وجد ؟ هذه الأسئلة وأمثالها وجهها اليوناني الى نفسه فكانت أساس فلسفته ومبناها كلها النظرة الشاملة ، أما العربي فلم يتجه نظره هذا الاتجاه ، ولا بعد الاسلام ، بل كان يطوف فيما حوله فاذا رأى منظراً خاصاً أعجبه تحرك له ، وجاش صدره بالبيت أو الأبيات من الشعر أو الحكمة أو المثل فقال مثلاً :

مَنَعَ الْبَقَاءُ تَقَلُّبَ الشَّمْسِ وَطُلُوعَهَا مِنْ حَيْثُ لَا تُمَسِي
وَطُلُوعَهَا بِيضَاءَ صَافِيَةٍ وَغُرُوبَهَا صَفَرَاءَ كَالْوَرْسِ

تَجْرِي عَلَى كَبِدِ السَّمَاءِ كَمَا يَجْرِي حِمَامُ الْمَوْتِ فِي النَّفْسِ
الْيَوْمَ أَعْلَمُ مَا يَجِيءُ بِهِ وَمَضَى بِفَصْلِ قَضَائِهِ أَمْسٍ

فأما نظرة شاملة وتحليل دقيق لأسسه وعوارضه فذلك ما لا يتفق والعقل العربي وفوق هذا هو إذا نظر إلى الشئ الواحد لا يستغرقه بفكره ، بل يقف فيه على مواطن خاصة تستثير عجبه ، فهو إذا وقف أمام شجرة لا ينظر إليها ككل ، إنما يستوقف نظره شئ خاص فيها ، كاستواء ساقها أو جمال أغصانها ، وإذا كان أمام بستان لا يحيطه بنظره ولا يلتقطه ذهنه كما تلتقطه « الفوتوغرافيا » إنما يكون كالنحلة ، يطير من زهرة إلى زهرة ، فيرتشف من كل رشفة

هذه الخاصة في العقل العربي هي السر الذي يكشف لك ما ترى في أدب العرب — حتى في العصور الإسلامية — من نقص وما ترى فيه من جمال .
فأما النقص فما تشعر به حين تقرأ قطعة أدبية — نظماً أو نثراً — من ضعف المنطق وعدم تسلسل الأفكار تسلسلاً دقيقاً ، وقلة ارتباط بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً ، حتى لو عمدت إلى القصيدة — وخاصة في الشعر الجاهلي — فحذفت منها جملة أبيات ، أو قدمت متأخراً أو أخرت متقدماً ، لم يلحظ القارئ أو السامع ذلك وإن كان أديباً ، ما لم يكن قد قرأها من قبل

وهذا النقص تلمحه فيما يكتب في الموضوعات الأدبية ، فانت إذا قارنت بين ما يكتبه الجاحظ أو ابن عبد ربه أو العسكري في الخطابة أو الوصف وما يكتبه أرسطو في ذلك رأيت الطبيعتين مختلفتين تمام الاختلاف ، فأرسطو يحلل الخطابة مثلاً ويبين منزلتها من البلاغة ، وأقسام الخطابة ، وأجزاء الخطبة ، وكيف يتكون الخطيب الخ بنظر شامل بحيث تدرك للخطابة صورة كاملة ، أما كتاب العرب فيكتبون جملاً رشيقاً ودرراً منشورة في الخطابة لا يتكون منها شكل تام ، ويجب

أن تعنى — إذا أردت المقارنة الصحيحة — باستبعاد من تأثر طبعه وعقله بالفلسفة اليونانية كالسكّاكي وأمثاله

وهذا النقص أيضاً تلمحه في كتب الأدب لأنها تأثرت بطبيعة الأدب نفسه فإذا نظرت في كتاب كالأغانى أو العقد الفريد أو البيان والتبيين أو الحيوان للجاحظ لا تجد موضوعاً واحداً ألقيت عليه نظرة عامة دفعة واحدة ثم وضع في مكان واحد ، ولكن هنا لمحة وهناك لمحة ، وتدخل من باب فيسلمك إلى باب آخر لأقل مناسبة ، حتى يعيى الباحث إذا أراد أن يقف على كل ما كتب في موضوع معين ، مع اعترافنا بما في هذا التنقل من لذة وطلاوة

وهذا النوع من النظر هو الذى قصر نفس الشاعر العربى فلم يستطع أن يأتى بالقصائد القصصية الوافية ، ولا أن يضع الملاحم الطويلة كالإلياذة والأوديسا أما ما أفادهم هذا النوع من التفكير ، وخلع على آدابهم جمالا خاصا ، فذلك أن هذا النظر لما انحصر فى شئ جزئى خاص جعلهم ينفذون الى باطنه فيأتون بالمعانى البديعة الدقيقة التى تتصل به ، كما جعلهم يتعاورون على الشئ الواحد فيأتون فيه بالمعانى المختلفة من وجوه مختلفة من غير إحاطة ولا شمول ، فامتلا أدبهم بالحكم القصار الرائعة والأمثال الحكيمة ، وأتقنوا هذا النوع إلى حد بعيد ، غنى به عقلمهم ، وانطلقت به ألسنتهم ، حتى لينهض الخطيب فيأتى بخطبته كلها من هذه الأمثال الجيدة القصيرة ، والحكم الموجزة الممتعة ، فكل جملة معان كثيرة تركزت فى حبة ، أو بخار منتشر تجتمع فى قطرة ، ولما جاء الاسلام تقدم هذا النوع من الأدب واقتبسوا كثيراً من حكم الفرس والهند والروم مما سنعرض له فى موضع آخر — وعلى الجملة فالعقل اليونانى مثلاً ان نظر إلى شئ نظر إليه ككل يبحثه ويخلله ، والعقل العربى يطوف حوله فيقع منه على درر مختلفة الأنواع لا ينظمها عقد

والآن وقد علمنا طبيعة نظر العربي ننظر : هل هذا النوع من النظر طور طبيعي تمز به الأمم جميعاً أثناء سيرها إلى الكمال أو هو خاصة عقلية للجنس السامي ؟ ذلك أمر جدير بالبحث ، وليس لدينا مجال لبسط القول فيه ، ولكننا نقول إجمالاً إننا أميل إلى القول بأنه طور طبيعي ، نشأ من البيئات الطبيعية والاجتماعية التي عاش فيها العرب ، وأن ما يسمى «الوراثة» ليس الا وراثة لنتائج هذه البيئات ، ولو كانت هناك أية أمة أخرى في مثل بيئتهم لكان لها مثل عقليتهم ، وأكبر دليل على ذلك ما يقرره الباحثون من الشبه القوي في الأخلاق والعقليات بين الأمم التي تعيش في بيئات متشابهة أو متقاربة ، وإذ كان العرب سكان صحارى كان لهم شبه كبير بسكان الصحارى في البقاع الأخرى من حيث العقل والخلق ، ولنشرح لك الآن العوامل التي عملت في نفوس العرب

يعمل في تكوين عقلية الشعوب عاملان قويان : البيئة الطبيعية ونعني بها ما يحيط بالشعب طبيعياً من جبال وانهار وصحراء ونحو ذلك ، — والبيئة الاجتماعية ونعني بها ما يحيط بالأمة من نظم اجتماعية كنظام حكومة ودين وأُسرة ونحو ذلك ، وليس أحد العاملين وحده هو المؤثر في العقلية ، لذلك كان خطأ ما ذهب اليه « هيجل » من انكار ما للبيئة الطبيعية من أثر في العقل اليوناني ، والثقافة اليونانية ، مستدلاً بأن الأتراك احتلوا أراضيهم وعاشوا في بلادهم ولم تكن لهم ثقافتهم وعقليتهم ، ووجه الخطأ ان ذلك يكون صحيحاً لو كانت البيئة الطبيعية هي المؤثر الوحيد ، إذن لكان مثل العقل اليوناني يوجد حيث يوجد أقليمه ، وينعدم حيث ينعدم ، أما والعقل اليوناني نتيجة عاملين فوجود جزء العلة لا يستلزم وجود المعاول ، وقد حاول

علم الاجتماع توضيح ما لهذه العوامل من أثر في الأمم المختلفة ، ونحن لا يعيننا هنا إلا تأثيرها في العرب

فالعرب — كما أسلفنا — كانوا يسكنون بقعة صحراوية تصهرها الشمس ، ويقل فيها الماء ، ويجف الهواء ، وهي أمور لم تسمح للنبات أن يكثر ، ولا للمزروعات أن تنمو ، إلا كلاً مبعثراً هنا وهناك ، وأنواعاً من الأشجار والنبات مفرقة استطاعت أن تتحمل الصيف القاطظ ، والجو الجاف ، فهزلت حيواناتهم ، ونحلت أجسامهم ، — وهي كذلك أضعفت فيها حركة المرور ، فلم يستطع السير فيها إلا الجمل ، فصعب على المدنيات المجاورة من فرس وروم أن تستعمر الجزيرة ، وتُقيض عليها من ثقافتها ، اللهم إلا ما تسرب منها في بحار ضيقة معوجة عن طرق مختلفة بيناها قبل

وشيء آخر لا بد من النظر إليه وهو تأثير هذه الصحراء في النفوس : ذلك أن الحياة في الصحراء قليلة إذا قيست بحياة الحضر ، سواء في ذلك حياة النبات أم الحيوان أم الانسان ، قد عُرِّيت أرضها — غالباً — من آثار البشر ، فلا أبنية ضخمة ، ولا مزروعات واسعة ، ولا أشجار باسقة ، فابن الصحراء يقابل الطبيعة وجهاً لوجه ، لا شيء يحول دون التفاته إليها ، تطلع الشمس فلا ظل ، ويطلع القمر والنجوم فلا حائل ، تبعث الشمس أشعتها المحرقة القاسية فتصيب أعماق نخاعه ، ويسطع القمر فيرسل أشعته الفضية الوادعة فتبهز لبه ، وتتألق النجوم في السماء فتملك عليه نفسه ، وتعصف الرياح العاتية فتدمر كل ما أتت عليه — أمام هذه الطبيعة القوية ، والطبيعة الجميلة ، والطبيعة القاسية ، تهرع النفوس الحساسة الى رحمن رحيم ، والى باري مصور ، والى حفيظ مقبض — الى الله — ولعل هذا هو السر في أن للديانات الثلاث التي يدين بها أكثر العالم — وهي اليهودية والنصرانية والاسلام

نبعت من صحراء سيناء وفلسطين وصحراء العرب
الحق أن السكون المحيم على الصحراء يملأ النفوس المستعدة روعة ، ويكسبها
صفاء ، لا شئ في الصحراء من صنع الانسان ، بل الكل من صنع الله ، لا يقع نظر
الناظر الا على شمس تسطع ، ونجوم تناغى ، وقر يحدث ، ورياح تلعب ، في جو
فسيح مفتوح ، هنالك يستولى على النفس الصافية حالة لا يفقهها ساكن المدن
للصحراء موسيقى ذات نغمة واحدة متكررة ، موسيقى عابسة قاسية ، رهيبة
عظيمة ، فلا عجب أن ترى أهلها قد استولى عليهم نوع من انقباض النفس أو
الكآبة أو الوجد ، أو ماشئت فسمه ، ولا عجب أيضاً أن يتغنى شعراؤها بنوع واحد
من القول ، ونغمة واحدة ، لأن الصحراء توقع على نفوسهم صوتاً واحداً فيشعرون
— كما تلقوا — شعراً واحداً كما سنبينه بعد

هم نتيجة أقليم طليق لا يصد هواءه بناء ، ولا يحجب شمس غيم ، ولا يحبس
أمطاره وسيوله سد ، كل شئ فيه حر على الفطرة ، فهم كذلك أحرار كأقليمهم ،
لم يحبسهم زرع يتعهدونه ، ولا صناعة يعكفون عليها ، كذلك تحررت نفوسهم من
قنود حكومة ونظام ، اللهم الا شيئين قيذا عقولهم ونفوسهم : قيد دينهم الوثني وما
يتطلبه من شعائر وتكاليف ، وقيد تقاليد القبيلة وما تستلزمه من واجبات شاقة ،
وقد كانوا لتقاليد قبيلتهم أشد إخلاصاً ، وأقوى إيماناً

هذا النوع من البيئة حدد نوع معيشتهم ، فهم رُحَّل يتطلبون الكلاً ، وهم
فقراء ، ثروتهم في كثرة ماشيتهم ، وهذه الثروة تحت رحمة الطبيعة ، فقد تنفق
الماشية ، وينضب ماء الآبار ، ويقل المطر فيقل المرعى ويسوء العيش ، وبحق سموّا
المطر غيثاً وهذا النوع من البيئة أيضاً حدد نوع أخلاقهم وعقليتهم ، أليس البؤس

هو الذى جعل الكرم وإطعام الطعام وإيقاد النيران يهتدى بها الضيفان فى مقدمة الفضائل ؟ أوليس هذا الفقر هو الذى حبب اليهم الاغارة فأشادوا بذ كرحمى القبيلة ، وعَيَّرُوا من قصر فى الدفاع عنها ، واسترخصوا النفوس فى سبيل حمايتها ، وإذا كانت الحياة بين اغارة ودفع مغير ، والسبل كلها غير آمنة ، ولا حكومة تقتص من جانٍ أو تحمى طريقاً ، أفليسوا اذن فى حاجة لأن يعدّوا الشجاعة والوفاء والعفو من كبرى الفضائل ؟ وهكذا قل فى عقليتهم ، فالعدل والظلم والخير والشر وما يذم وما يمدح كله تابع لما تواضعوا عليه ، وما تواضعوا عليه تابع لنوع معيشتهم —

وأنت اذا نظرت الى اللغة العربية والأدب العربى فى ذلك العهد رأيت نتيجة طبيعية لتلك الحياة ، وصورة صادقة لهذه البيئة ، فالفاظ اللغة مثلاً فى منتهى السعة والدقة اذا كان الشئ الموضوع له اللفظ من ضروريات الحياة فى المعيشة البدوية ، وهى قليلة غير دقيقة فيما ليس كذلك ، فالابل هى عماد الحياة البدوية ، هى خير ما كلهم ومشربهم وملبسهم ومركبهم — فحياة العرب فى الصحراء تكاد تكون مستحيلة لولا فضل الجمل ، من أجل هذا ملئت اللغة العربية بالابل فلم يترك العرب صغيرة ولا كبيرة مما يتعلق بها الا وضعوا لها اللفظ أو الألفاظ ، فوضعوا الألفاظ لها ولحمّلها ونتاجها ، ووضعوا الأسماء لأسنانها (أعمارها) وحلبها ، ورضاعها وغطامها ، ونعوتها فى طولها وقصرها ، وسمنها وهزالها ، وأصواتها وأوبارها ، وعكفها واجترارها ، ورعيها وبروكها ، وأبوالها وحركة أذنانها ، وأنواع سيرها ورياضتها ، والرّحال وما فيها ، وكل ما يشد عليها ، وقيودها ونزع قيودها ، وسماتها وعيوبها ، وجربها وامراضها ، وأدوائها الخ ولم يقتصروا على اللفظ الواحد للمسمى الواحد بل وضعوا له الأسماء المتعددة — فاذا أنت انتقلت من الجمل الى السفينة رأيت اللغة العربية فى غاية القصور ، فهم لم يوفوها حقها كما وفوا حق الجمل ، ولم يصفوا كل أجزائها ، ولم

يضعوا أسماء لكل نوع من أنواعها ، نعم هناك ألفاظ تتعلق بذلك ولكنها لا تكاد تذكر إذا قيست بالألفاظ الموضوعية للابل وشؤونها ، بل انك اذا فحصت الألفاظ المستعملة في السفن ومتعلقاتها وجدت كثيراً منها معرباً غير عربي ، كالسَّيَاحَةِ واليَمَاسِرة والأَنْجَر ، وكثير منها لا نشك في أنه وضع بعد العصر الجاهلي

هذا مثل واضح وهناك أمثلة عديدة من هذا القبيل ، فالأرض الصحراوية بما فيها من رمال ومرتفعات ومنخفضات ، وما فيها من كلاً وأعشاب وحشرات وهوام ، كل ذلك وصفه العرب ، ووضعوا له الأسماء المختلفة ، فالأرض الصُّلْبَةُ والغليظة والمستوية ، والواسعة والمطمئنة ، والمجدبة والمخصبة ، والهضاب والوديان ، قد شرح كل نوع منها ووضع له اسم وأسماء ، أما البحار وما حوته من أنواع الأسماك والأصداف والأمواج ، ومختلف المياه ، فليست اللغة غنية فيها ، الى كثير من هذه الأمثلة ، وحسبك دليلاً على هذا انك اذا نظرت في كتاب كالمخصَّص لابن سيده — وميزته أنه يجمع الكلمات المتعلقة بموضوع واحد في موضع واحد — أمكنك أن تقارن هذه المقارنة بوضوح ، فقد استغرق فيه الكلام على الابل وما يتعلق بها ١٧٦ صفحة كبيرة عدا ما ذكر متفرقا في مواضع أخرى منه ، على حين أن السفينة استغرقت منه أقل من سبع صفحات ، وبعبارة أخرى أن الكلام على الابل أخذ نحو جزء من أجزاء الكتاب السبعة عشر ، فانت اذا قلت أن ما ورد في كلام العرب مما يتعلق بالابل جزءاً من سبعة عشر جزءاً من مجموع اللغة العربية لم تكن بعيداً عن الحقيقة ، وهي نسبة جدٌ كبيرة ولكنه الجمل عماد الحياة العربية البدوية

هذا في المحسات ، وانك تجد مثله في المعنويات ، فكلمات السرور واللهم واللعب والمزاج أقل من كلمات البؤس والقتال والفاقة والحزن والويل ، ألم ترهم تفننوا في الداهية فصاروا يخترعون لها من الأسماء ما أتعب اللغويين ؟ حتى جمع حمزة

من أسماؤها ما يزيد على أربعمائة ، وحتى قالوا أن كثرة أسماء الدواهي من الدواهي ،
ذلك لأن طبيعة البيئة تستدعي ذلك ، فهي بيئة شقاء وفقر ، لا بيئة رخاء ونعيم
وان أنت نظرت الى الأدب العربي في الجاهلية رأيت هذا بعينه ، فكم
استغرق الجمل والناقة من الشعر وخيال الشاعر ؟ وكم استغرق وصف الأرض سهلها
وحزنها ؟ وكذلك انما كان يمدح الشعراء بمدوحهم ، ويرثون ميتهم بالأخلاق.
الفاشية لعهدهم ، من كرم وشجاعة ، وكان للبُطولة ووصف عاطفة الحماسة والتمدح
بشن الغارة ورد العدو المنزلة العالية — وكذلك قل في تشابيههم وأمثالهم ، فكلها
منترعة من نوع معيشتهم وصورة صادقة لحياتهم

ومظاهر الحياة العقلية في الجاهلية هي اللغة والشعر والأمثال والقصص وهي فقط.
مظاهر عقلهم ، أما العلم والفلسفة فلا أثر لها عندهم ، لأن الطور الاجتماعي الذي أبناه.
لا يسمح لهم بعلم ولا فلسفة — نعم كان عندهم معرفة بالأنساب ، ومعرفة بالأنواء.
والسما ، ومعرفة بشئ من الأخبار ، ومعرفة بشئ من الطب ، ولكن من الخطأ
البين أن تسمى هذه الأشياء علما ، كما يفعل الألويسي وغيره فيقول ومن علومهم
علم الطب ، وعلم الأنواء ، وعلم السماء ثم يشيدون بذلك حتى يوهموك أنه
كان عندهم علم منظم بأصول وقواعد ، فأن ما كان عندهم من هذا القبيل لا يتعدى
معلومات أولية وملاحظات بسيطة ، لا يصح أن تسمى علما ولا شبه علم ، أما القواعد
والبحث المنظم الذي يسمى علما فلا عهد للعرب الجاهلين به ، وأصدق تعبير عن
ذلك ما قاله ابن خلدون في مقدمته عند كلامه على علم الطب قال :

« وللبادية من أهل العمران طب يبنونه في غالب الأمر على تجربة قاصرة على
بعض الأشخاص ، متوارثة عن مشايخ الحى وعجائزه ، وربما يصح منه البعض ، الا

أنه ليس على قانون طبيعي ، ولا على موافقة المزاج ، وكان عند العرب من هذا الطب كثير ، وكان فيهم أطباء معروفون كالحارث بن كلدة وغيره ^(١) ومثل هذا يقال فيما ورد عنهم من الكلام في الأنواء والسماء ، فهي معلومات بنيت على تجربة ناقصة ، تصيب حيناً وتخطئ أحياناً ، ويتناقله الناشئون عن آبائهم ، كذلك لا أثر للمذاهب الفلسفية عندهم لما بينا من قبل ، ولا تعتد بقول الذين يبحثون عن آيات من الشعر الجاهلي وردت فيها خطرات فلسفية فيزعمون أنها مذاهب فلسفية فإذا قال الأعشى

استأثر الله بالوفاء وبالعدو لـ وولّى الملامة الرجال

قالوا انه مذهب فلسفي يراد به رفع التبعة عن الانسان ، وكذلك قالوا في مثل

تقول الآخر

حياة ثم موت ثم بعث حديث خرافة يا أم عمر

وقول زهير

رأيت المنايا خبط عشواء من تصبئ عتته ومن تخطئ يعمر فيهرم

فان هناك فرقاً كبيراً بين مذهب فلسفي وخطرة فلسفية ، فالمذهب الفلسفي نتيجة البحث المنظم ، وهو يتطلب توضيحاً للرأى ، وبرهنة عليه ، وتقضاً للمخالفين وهكذا ، وهذه منزلة لم يصل اليها العرب في الجاهلية ، أما الخطرة الفلسفية قدون ذلك ، لانها لا تتطلب الا التفات الذهن الى معنى يتعلق بأصول الكون ، من غير بحث منظم وتدليل وتقيد ، وهذه درجة وصل اليها العرب

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤١٢

الفصل الخامس

مظاهر الحياة العقلية

سنتكلم كلمة عن كل مظهر من مظاهر الحياة العقلية وهي اللغة والشعر والمثل والقصص ، لا من حيث جماله الفني وأسلوبه البلاغى فهذا لا علاقة له بموضوعنا ، ولكن من حيث دلالاته على العقل

وقبل ذلك يجب أن نقف قليلاً لنبين رأينا فى حجية هذه الأمور ، ذلك لأن الشك قد يطوّح بكل هذه المظاهر ، أليس الشعر الجاهلى ظل غير مكتوب نحو قرنين ، وظلت تتناقله الرواة شفاهاً ، ونحن نعلم ما فى هذا من تعرض للخطأ والتغيير ؟ ثم ، أليس هناك دواع تحمل زواة الشعر وغيرهم على الانتحال من دينية وسياسية وجنسية ، وقد بين النقاد الثقاة أن كثيراً من الشعر الجاهلى موضوع مخترق ، فكيف بعدُ يصح أن يعتمد عليه فى تعرف الحياة العقلية ؟ وقل مثل ذلك فى سائر المظاهر

فنقول : ان أحداً لم ينكر الشعر الجاهلى كله جملة ، بل الباحثون فيه منهم من يبالغ فى الشك ، ومنهم من يبالغ فى اليقين ، ومنهم من يقتصد ، ومذهبنا نحن أن نسلك فى الشعر الجاهلى مسلكنا فى سائر ما يروى من الحوادث التاريخية وما يروى من أحاديث ، ففى هذه الأشياء نمتحنها من ناحيتين : من ناحية السند أعنى الرواة الذين رووا الحادثة أو الحديث ، ومن ناحية المتن أعنى القول المنقول نفسه ، فإذا كانت الناحيتان صحيحتين وجب علينا أن نصدق ما قيل حتى يظهر وجه للنقد

جديد ، فلنفعل كذلك في الشعر ، فاذا كان الراوى كاذبا أو ليس بثقة لم نعتد على ما روى ، وكذلك اذا قام برهان على ضعف المتن كأن يتشعب الشاعر بموضع ثبت تاريخياً أنه لم يذهب اليه ولم يكن به علاقة ، أو نحو ذلك ، فاذا لم يكن شيء من هذين صح الاستدلال بالشعر المروى ، فالثقات مثلاً ضعفوا ما يرويه ابن اسحاق من الشعر ، وطعنوا في حماد الزاوية وخلف الأحمر فلندع ما يرويه هؤلاء ما لم يشاركهم غيرهم من الثقات في روايته ، ولكنهم وثقوا أبا عمرو بن العلاء ، والأصمعي وأمثالهما فلنأخذ بما رووا ما لم يقدّم دليل من ضعف المتن على كذبه — ولعله يسلم لنا بعد ذلك جملة صالحة نستطيع أن نتبين منها الحياة العقلية

على أن هناك وجهاً آخر للنظر ، وهو أن الشعر المزيف يصح أن يكون ممثلاً للحياة العقلية الجاهلية متى كان المزيف عالماً بفنون الشعر ، خبيراً بأساليبه ، مثلاً يقول ابن سلام في خلف الأحمر « أجمع أصحابنا أنه كان أفرس الناس بيت شعر وأصدقه لسانا » ويعنى بالفراصة في الشعر العلم به والبصر فيه ، فاذا وضع خلف قصيدة فقد كانت يلبس فيها على الناس وينحون نحو الجاهليين ، ويقادهم في مهارة وحذق ، حتى ليصعب على الناقد أن يفرّق بين قوله وقول الجاهلي ، فلا علينا بعد إذا استفدنا من علم خلف بأمور الجاهلية ، أليس اذا حدثك خلف عن شؤون الجاهلية وهو الخبير بها كان لقوله قيمة كبرى ؟ فهو كذلك إذا وضع شعراً يمثل الحياة الجاهلية

(١) اللغة

تدل اللغة على الحياة العقلية من ناحية أن لغة كل أمة في كل عصر مظهر من مظاهر عقلها ، فلم تخلق اللغة دفعة واحدة ويأخذها الخلف عن السلف كاملة ، انما

يَخْلُقُ الناس في أول أمرهم ألفاظاً على قدر حاجاتهم ، فإذا ظهرت أشياء جديدة خلقوا لها ألفاظاً جديدة ، وإذا اندثرت أشياء قد تندثر ألفاظها ، وهكذا اللغة في حياة وموت مستمرين ، وكذلك الاشتقاقات والتعبيرات فهي أيضاً تنمو وترتقي تبعاً لرقى الأمة — هذا ما ليس فيه مجال للشك ، وإذا كان هذا أمكننا إذا حصرنا معجم اللغة الذي تستعمله الأمة في عصر من العصور — أن نعرف الأشياء المادية التي كانت تعرفها والتي لا تعرفها ، والكلمات المعنوية التي تعرفها والتي لا تعرفها ، اللهم إلا إذا كانت المعاجم أثرية كمعاجم اللغة العربية التي نستعملها نحن اليوم فإنها لا تدل علينا ، لأنها ليست معاجمنا ، ولم تسر معنا ولم تمثل عصرنا ، ولذلك يخرج عليها كتابنا وشعراؤنا ، وإنما كانت معاجم صحيحة للعصر العباسي أو نحوه ، أما معاجم كل أمة حية الآن فهي دليل عليها ، فإذا أمسكت معجماً منذ مائة عام للأمة الفرنسية ولم تجد كلمة للتلفراف والتليفون فعنى ذلك أن الأمة لا تعرفها ، وإذا لم تجد كلمة تدل على معنى من المعاني ذلك على أنهم لم ينتبهوا إلى هذا المعنى وهكذا

فنتستطيع إذن إذا حصرنا الكلمات العربية المستعملة في الجاهلية أن نعرف ماذا كانوا يعرفون عن الماديات وماذا كانوا يجهلون ، وماذا كانوا يعرفون من المعاني والعواطف والملكات النفسية ، وماذا كانوا يجهلون ، فإذا لم تجد مثلاً كلمة مَكَّة أو عاطفة أو شعور في اللغة الجاهلية دل ذلك على أنهم لم ينتبهوا إلى تلك المعاني فلم يضعوا لها ألفاظاً ، وهذا وأمثاله يحدد لنا مقدار رقيهم العقلي ، ولكن مع الأسف لم يوضع معجم كهذا ، وهل نستطيع ذلك ؟ — انه يقف في سبيلنا جملة عقبات

(الأولى) أن أكثر الشعر والنثر الجاهليين قد ضاع ، قال أبو عمرو بن العلاء « ما انتهى اليكم مما قالته العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافرأ لجاءكم علم وشعر كثير » فمن أجل هذا نستطيع أن تثبت ولا نستطيع أن ننفي ، نستطيع إذا صح عندنا

بيت من الشعر الجاهلي أن تقول أن ألفاظه ومعانيه تعرفها العرب ، ولكن لا نستطيع إذا لم نجد أن تقول أن العرب لا تعرف هذا اللفظ ولا هذا المعنى ، وبذلك ينهدم جزء كبير من مظهر الحياة العقلية

(الثانية) أن العرب في الجاهلية كانوا يعيشون قبائل ، وهذه القبائل تختلف فيما بينها — كثرة وقلة في اللغة وفي اللهجة ، فقد تستعمل قبيلة كلمة ولا تستعملها القبيلة الأخرى أو تستعمل غيرها ، فقد روى « أن أبا هريرة لما قدم من دوس عام خيبر لقي النبي صلى الله عليه وسلم وقد وقعت من يده السكين ، فقال له ناولني السكين ، فالتفت أبو هريرة يمينه ويساره ولم يفهم ما المراد باللفظ ، فكرر له القول ثانية وثالثة ، ثم قال ألمدية تريد ؟ وأشار إليها فقبل له نعم ، فقال أو تسمى عندكم السكين ؟ ثم قال والله لم أكن سمعتها الا يومئذ » وهذه اللغات بدأ توحيدها قبل الاسلام واستمر هذا العمل في الاسلام ، فقد تكون قبيلة استعملت كلمة لم تستعملها الأخرى أو استعملت غيرها ، خصوصاً وأن بعض البيئات الطبيعية والاجتماعية لقبيلة قد تخالف ما للقبيلة الأخرى ، فقبيلة على الساحل وأخرى في جبل وثالثة في سهل وهكذا ، فاذن لا يصح لنا اذا عثرنا على كلمة في شعر شاعر أن نستدل بها على الحياة العقلية للعرب أجمعين

(الثالثة) أن كثيراً من الألفاظ العربية خلُق في العصر الاسلامي ، قال ابن جني في الخصائص « ان العربي اذا قويت فصاحته ، وسمت طبيعته ، تصرف وارتجل ما لم يسبق اليه ، فقد حكى عن رؤبة وأبيه أنهما كانا يرتجلان ألفاظاً لم يسمعاها ولا سبقا اليها » وهناك ألفاظ تغيرت معانيها في الاسلام كأن يكون المعنى عاماً في الجاهلية وخصص في الاسلام كالصلاة والزكاة والحج والبيع والمزارعة ونحو ذلك ، بل أن اللفظ الواحد قد يتغير مدلوله في عقل السامع بانتقاله من طور الى طور

في الحضارة ، فلفظ الكرسي والمائدة والحوان والمطبخ والكانون والملهي له مدلول في ذهن البدوي غير مدلوله في ذهن الحضري ، فالكرسي في ذهن البدوي أبسط شكل يطلق عليه اسم كرسي ، وفي ذهن الحضري أشكال مختلفة من الكراسي. لم يكن يتخيلها البدوي — ان شئت فانظر الى ما تفهمه نحن الآن من مؤتمر وصحافة وجريدة ومطبعة وما كان يفهمه البدوي في الجاهلية من هذه الألفاظ ، بل وما يفهمه العربي في العصر العباسي منها — فما معجم الألفاظ للجاهليين قبل الاسلام وهبك عثرت عليها فما مدلولها بالدقة عندهم ؟ ذلك مطلب عسير المنال

قد تقول : ان في القرآن غناء عن ذلك ، فقد نزل بلغة العرب وفهمه العرب وقت نزوله ، ونصّه لا يحتمل الشك ، فنستطيع أن نتعرف منه لغة الجاهليين ، فنقول ، صحيح ان القرآن نزل بلغة العرب ، ونصّه لا يحتمل الشك ، وهو يفيدنا في تعرف كثير من حياة الجاهلية العقلية فيما يحكي من أقوال المعاندين ، وفيما يصور من حياتهم الاجتماعية والاقتصادية ، ولكن ألفاظه وتعبيراته ومعانيه لا تمثل لغة الجاهليين بأكملها ، لأن القرآن استعمل ألفاظاً لم يكن يستعملها الجاهليون ، وخصص ألفاظاً لمعان لم يكن يخصصها الجاهليون ، واستعمل استعارات ومجازات خارجة عن الدائرة التي كان يستعملها الجاهليون ، وله أسلوب أخاذ كان بعيداً عن أسلوب الجاهليين وله معان كذلك ، قال السيوطي في المزهر « قال ابن خالويه ان لفظ الجاهلية اسم حدث في الاسلام للزمان الذي كان قبل البعثة ، والمنافق اسم اسلامي لم يعرف في الجاهلية ، وقال ابن الأعرابي لم يُسمع قط في كلام الجاهلية ولا في شعرهم فاسق » الخ فلا تستطيع بعد ذلك أن تقول أن معجم القرآن ومعانيه وأمثاله تمثل الحياة العقلية من الناحية اللغوية

وبعد فمع كل هذه العقبات نرى أن ما يسلم من شعر ومثل صحيحين يدلنا

— نوعاً ما — على حياتهم العقلية ، كما يدلنا كُـمْ ثوب عثر عليه على طول الثوب نفسه وسعته ، على اختلاف في الصعوبة بين الماديات والمعنويات

وهذا الباقي يدلنا على غنى معجم اللغة قبيل الاسلام وخاصة فيما يتصل بنوع معيشتهم ، وقد عبر عن ذلك الأستاذ « نُؤْلِدُ كِه » خير تعبير اذ يقول « انا لئتملكنا الاعجاب بغنى معجم اللغة العربية القديم ، اذا ذكرنا مقدار بساطة الحياة العربية وشؤونها ، وتوحد مناظر بلادهم واطرادها اطراداً يدعو الى السآمة والملل ، وهذا يستتبع حتماً ضيق دائرة التفكير ، ولكنهم في داخل هذه الدائرة الضيقة وضعوا لكل تغير — وان قل — كلمة تدل عليه — ويجب أن نقر بأن معاجم اللغة العربية قد تضخمت كثيراً بكلمات استعملها الشعراء وصفاً لأشياء فذكرها اللغويون على أنها أسماء لتلك الأشياء ، فمثلاً اذا أطلق شاعر كلمة « الهَيْصَم » على الأسد من الهَصَم وهو الكسر ، وأطلق عليه آخر « الهرَّاس » من الهرس وهو الدق وضع أصحاب المعاجم الكلمتين على أنهما اسمان مرادفان للأسد ، وقد أدخل باب الهجاء — على الأخص — في اللغة وفي الأدب العربي — وهو باب ذهب أكثر ما قيل فيه — تعبيرات كثيرة صاغها قائلوها في صورة مبتكرة وأحياناً غريبة — وقد انتقص اللغويون — على ما يظهر — كلمات وردت في بعض الاشعار على قلة ، ولم تكن مستعملة الا في قبائل معينة — ولكن رغماً عن هذا كله يجب أن نعترف بأن معجم اللغة العربية غنيٌّ غنيٌّ رائعاً ، وسيدتي دائماً مرجعاً هاماً لتوضيح ما غمض من التعبيرات في جميع اللغات السامية الأخرى

وليست اللغة العربية غنية بكلماتها فحسب ، بل بقواعد نحوها وصرفها أيضاً ، فجموع التكسير وأحياناً أسماء الأفعال كثيرة كثيرة زائدة عن الحاجة « اه باختصار ونحن نوافقه في غنى اللغة العربية غنى مفرطاً في الحدود التي ذكرناها من قبل وهي

الحدود التي رسمتها لهم يبتتهم ، فهم أغنياء في الجمل وما اليه ، والصحراء وما فيها ،
والفاظ العواطف المحدودة التي تجيش في صدورهم — ولكن ليست غنية فيما خرج
عن هذه الحدود كالبحر وعالمه ، ولا بأنواع الترف التي ينعم بها المنغمسون في الحضارة ،
يعرفون القبيلة وما تفرع منها ويضعون لكل اسم لأن نظام القبيلة نظامهم ، ولكن
لا يعرفون نظام الحكومات ولا أنواع الدواوين فلم يضعوا لها بالضرورة اسماً ، فلما
عرفوا معنى الديوان أخذوا اسمه عن يعرفه وهكذا ، ولم يكن يتطلب منهم في
الجاهلية أن يضعوا كلمات لما لم يمس حياتهم — فذلك محال — وحسب الأمة فضلاً
أن تسمى ما تشعر به الاسم والاسماء ، ولكن حسبها مذلة أن تتحضر وتتسع حياتها من
جميع نواحيها ثم لا تريد إلا أن تبقى — من حيث اللغة — في حدود الدائرة الضيقة
إلى رسمها لهم آباؤهم الأولون

كذلك عما لا شك فيه أن اللغة العربية غنية بأشتقاقها وتصريف كلماتها ، فوضع
صيغة فعلية لكل زمن ، والمشتقات العديدة للدلالة على أنواع مختلفة من المعاني
والأشخاص ، كل هذا يشعرنا شعوراً تاماً بغنى اللغة وصلاحياتها للبقاء
واللغة دلالة أخرى على الحياة العقلية من حيث ما تستخدم فيه اللغة من شعر
ومثل وقصص وسيتجلى ذلك في الفصول التالية

(ب) الشعر

يذهب بعض الباحثين^(١) الى أن الشعراء في الجاهلية كانوا « هم أهل المعرفة »
يعنون بذلك أن طبقة الشعراء في الجاهلية كانوا أعلم أهل زمانهم ، وليسوا يعنون
بالضرورة أى نوع من أنواع العلم المنظم . انما يعنون انهم أعلم بما يتطلبه نوع معيشتهم
كمعرفة الأنساب ومثالب القبيلة ومناقبها — وقد يساعد على هذا رأى اشتقاق المادة
فشعر في الأصل معناها عليم تقول شعرت به علمت ، وليت شعري ما صنع فلان أى
ليت علمى محيط بما صنع « وما يُشعرُكمُ أنّها إذا جاءت لا يؤمنون » ما يدرىكم .
وشعر بكذا فطن كما فى اللسان ، فالمادة كلها معناها العلم أو المعرفة ، وعليه فيكون
الشاعر مغناه العالم ، والشعراء العلماء ، ثم خصصوا الشعر بهذا الضرب من القول ،
قال فى اللسان « والشعر منظوم القول ، غلب عليه لشرفه بالوزن والقافية وان كان
كل علم شعراً من حيث غلب الفقه على علم الشرع » اهـ وربما ساعد على هذا أيضاً
ما جاء فيه « قال الأزهري الشعر القريض المحدود بعلامات لا يجاوزها ، والجمع أشعار ،
وقائله شاعر لأنه يشعر ما لا يشعر غيره أى يعلم » اهـ ولكن يرى بعض المستشرقين
أن كلمة شعر مأخوذة من اللغة العبرية ، ففيها « شير » بمعنى الترتيلة أو التسيحة
القدسية ، ويرجحون ذلك بأنه لم يرد فى اللغة العربية شعر بمعنى ألف البيت أو
القصيدة ، وكل ما فيها شعر بمعنى قال الشعر ، وفرق بينهما

وبعد ، فهل حق أن الشعراء أعلم الطبقات فى الجاهلية ؟ نحن نشك فى هذا

(١) كالاستاذ بوور فى كتابه « تاريخ الفلسفة فى الاسلام »

كثيراً ، لانا نرى أنه كان في الجاهلية طبقة أخرى هي طبقة الحكماء ، وهؤلاء كانوا يحكمون بين الناس اذا تشاجروا في الفضل والنسب وغير ذلك ، وكان لكل قبيلة حاكم أو أكثر واشتهر منهم كثيرون كأَكْثَمَ بن صَيْفِيٍّ وحاجِب بن زُرارة والأقرع بن حابس وعامر بن الظرب ، وما روى عنهم في كتب الأدب من أقوالهم وأحكامهم يدلنا على أنهم أرقى عقلية وأصدق رأياً من الشعراء ، وإن كان الشعراء أوسع خيالا وأكثر في القول افتنانا

نعم إن الشعراء كانوا من أرقى الطبقات عقلا ، بدليل ما صدر عنهم من شعر ، وبدليل أحاديث مبعثرة نراها تدل على اعتداد الشعراء بأنفسهم من ناحية الرقى العقلية ، كالذي جاء في سيرة ابن هشام من أن الطفيل الدؤسي قدم مكة ورسول الله بها ، فحذره رجال من قريش من سماع النبي حتى لا يتأثر بقوله ، قال الطفيل : فما زالوا بي حتى أجمعت ألا أسمع منه شيئا . ثم قلت في نفسي : واكُلْ أُمِّي ! والله اني رجل لبيب شاعر ما يخفى على الحسن من القبيح فما يمنعني من أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ؟ فان كان الذي يأتي به حسناً قبلته وإن كان قبيحاً تركته »

أضف الى ذلك انا نجد أكثر الشعراء في الجاهلية من أكرم الناس على قومهم ، لأن موقف الشاعر في قبيلته كان التغنى بمناقبها ، ورثاء موتائها ، وهجاء أعدائها ، وقل أن تجد في أول أمرهم من كان صعلوكا يتخذ الشعر حرفة كما فعل الحطيئة بعد

ومع هذا فانا نرى أن الشعراء كانوا من أرقى طبقاتهم عقلا ولكن ليسوا أرقاهم

دلالة الشعر على الحياة العقلية — قديما قالوا « إن الشعر ديوان العرب » يعنون بذلك أنه سجل سُجِّلَتْ فيه أخلاقهم وعاداتهم ، وديانتهم وعقليتهم ، وإن

شئت فقل انهم سجلوا فيه أنفسهم ، وقدما انتفع الأدباء بشعر العرب في الجاهلية فاستنتجوا منه بعض أيامهم وحروبهم ، وعرفوا منه أخلاقهم التي يمدحونها والتي يهجونها ، واستدلوا به على جزيرة العرب وما فيها من بلاد وجبال وسهول ووديان ونبات وحيوان ، وما كانوا يعتقدون في الجن ، وما كانوا يعتقدون في الاصنام والخرافات ، وألفوا في ذلك جميعه الكتب المختلفة

وكانت الطريقة المثلى للانتفاع بهذا « الديوان » أن يعنى العلماء بجمع ما صح عندهم من الشعر الجاهلى مع نقد السند والمئن ، وابعاد ما لم يصح ، كما فعل المحدثون في الحديث ، فليس لدينا مجموعة من الشعر الجاهلى ذكر سندها ، وعنى ببيان رجالها عناية تامة ، كالذى عندنا من صحيح البخارى ومسلم وغيرهما ، وكان يجب أن يعنى بالشعر الجاهلى هذه العناية متى عددناه « ديوانا » تسجل فيه الحوادث والعادات ، ونظرنا اليه كأنه وثائق تاريخية ، ولكن يظهر أن هذا النظر الى الشعر الجاهلى لم يكن سائداً عند الرواة والأدباء ، انما كان السائد عندهم أو عند أكثرهم النظر اليه كمادة لتعليم اللغة ، أو كأنه طرفة وملهى ومادة لحسن المحاضرة فلم يكن يعنى به هذه العناية التى بذلت في الحديث ، ولم ير من يعتمد الكذب فيه أن يتبوأ مقعده من النار — نعم أن بعض الأدباء سار في الأدب سيره في الحديث فكان يروى الخبر معنعناً ، ووضع بعضهم مصطلحات «لرواية الأدب» على نمط مصطلح الحديث ، ولكن يظهر لنا أنها كلها محاولات أولية لم تنضج ولم يسيروا فيها الى النهاية

كذلك أكثر ما روى لنا قد عنى فيه بالمختارات أكبر عناية ، وهم في هذا ينظرون نظرة الأديب لا نظرة المؤرخ ، فالقصيدة التى لم يُحكَمَ نسجها ، ولم تهذب ألفاظها ولم يصح وزنها قد يعجب بها المؤرخ أكثر من اعجابه بالقصيدة الكاملة

من جميع نواحيها ، ويرى فيها دلالة على الحياة العقلية أكثر من قصيدة راقية ، ولعل هذا هو السبب في أنا مع اعتقادنا في أن الشعر كان خاضعاً للنشوء والارتقاء قلّ أن نرى فيما يُروى لنا منه المحاولات الأولية التي بدأ بها الشعراء شعرهم ثم تدرجوا منها الى ما وصل اليه من الرقى ، ذلك أن الأديب لم يكن يروقه ذلك فيهمله ، أو يستضعف وزنه فيصلحه ، وبذلك يضع كثير من معالم التاريخ

لو كان عندنا هذه المجموعة التي لا يقصد فيها الى الاختيار ، ولكن يقصد فيها الى الصحة لكان لنا مادة صادقة للدلالة على أشياء كثيرة منها الحياة العقلية ومع هذا فما لدينا يمثل بعض الشيء وان لم يكن وافياً — كما ذكرنا من قبل — وأشهر المجموعات التي لدينا مما نسب الى الجاهليين — عدا دواوين الشعراء — المعلقة السبع ويغلب على الظن أن جامعها حماد الراوية و (٢) المفضليات وجامعها المفضل الضبّي وتشتمل على نحو ١٢٨ قصيدة ، (٣) ديوان الحماسة لأبي تمام وفيه مقطعات كثيرة صغيرة من الشعر الجاهلي ، (٤) ومثله حماسة البحتري ، (٥) وفي كتاب الأغاني والشعر والشعراء لابن قتيبة أشعار ومقطعات كثيرة للجاهليين ، (٦) ومختارات ابن الشجري ، (٧) وجمهرة أشعار العرب لمن يسمى أبا زيد القرشي والشعر الذي وصل اليه عن الجاهلية لم يعد تاريخ أقدمه ١٥٠ سنة قبل البعثة — ونظرة عامة اليه تدلنا على أنه ليس متنوع الموضوعات كثيراً ، ولا غزير المعاني فما روى لنا من القصائد موسيقاه واحدة ، يوقع على نغمة واحدة ، والتشابه والاستعارات تكرر غالباً في أكثر القصائد — قلة في الابتكار وقلة في التنوع — ولنستعرض كثيراً منها فماذا نرى ؟

يتخيل الشاعر أنه راحل على جمل ومعه صاحب أو أكثر ، وقد يعرض له

في طريقه أثرُ أحبة رحلوا فيستوقف صحبه ويبكى معهم على رسم دارهم ، ويندكر أياما هنيئة قضاها معهم وأن العيش بعدهم لا يُحتمل ، ثم يصف محبوبته اجمالا أو تفصيلا ويخرج من هذا الى وصف ناقته أو فرسه ، ويقارنها بالوعل أو النعامة أو الغزال ، وقد يطفر من ذلك الى وصف الصيد ومنظره ومنازلته — وبعد هذا كله يتعرض للموضوع الذي من أجله أنشأ القصيدة، فيتمدح بشجاعته أو يتغنى بفعال قبيلته، أو يعدد محاسن ممدوحه ويصف كرمه، أو يفتخر بموقعة انتصر فيها قومه، أو يهجو قبيلة عدت على قبيلته ، أو يحمل قومه على الأخذ بالنار أو يرثي راحلا ، وهذه — تقريبا — كل الموضوعات التي قيل فيها الشعر الجاهلي — وهي موضوعات كما ترى محدودة ضيقة ، هي ظل حياة الصحراء . وصورة صادقة لعيشة البداوة ، والحق أنهم في البيان واللعب بالألفاظ كانوا أقدر منهم على الابتكار وغزارة المعنى ، فترى المعنى الواحد قد توارد عليه الشعراء فصاغوه في قوالب متعددة تستدعي الإعجاب ، ولكن لا يستدعي إعجابنا خلقهم للمعاني وابتكارهم للموضوعات ، وقد عبر عنثرة عن ذلك بقوله :

هل غَادَرَ الشُّعْرَاءُ مِنْ مُتَرَدِّمٍ أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمٍ

وزهير إذ يقول :

مَا أَرَانَا نَقُولُ إِلَّا مُعَارًا أَوْ مُعَادًا مِنْ لَفْظِنَا مَكْرُورًا

ولكن ما أنصفوا ، فقد غادر الشعراء كثيرا ، والناس من قديم يشعرون ولا يزال بحال القول ذا سعة ، ولا يزال الخيال الخصب ينتج ويجدد ، ويخلق موضوعات لم تكن ، ومعاني لم يسبق بها — ولكن ضيقوا على أنفسهم أو قل ضيقت عليهم بيئتهم فلم يجدوا إلا أن يقولوا معادا أو معارًا

اللهم إلا أبياتا قليلة مبعثرة تشعر فيها بمعنى جديد ، وترى فيها أثر الابتكار

واضحاً ، والا شعراء نادرين كانت لهم مناح خاصة ، وشخصية واضحة ، وتسمع
لقولهم نعمة جديدة ، كالذي تراه في زهير ، فقد عني بأخلاقية قومه وعبر عنها
تعبيراً صادقاً

كذلك تشعر حين تقرأ الشعر الجاهلي غالباً أن شخصية الشاعر اندمجت في
قبيلته حتى كأنه لم يشعر لنفسه بوجود خاص ، وانك لتتبين هذا بجلاء في معلقة
عمرو بن كلثوم ، وقل أن تعثر على شعر ظهرت فيه شخصية الشاعر ووصف ما يشعر
به وجدانه ، وأظهر فيه أنه يحس لنفسه بوجود مستقل عن قبيلته

ولما انتشرت اليهودية والنصرانية بين العرب ظهرت نعمة دينية جديدة ،
تراها في مثل شعر عدي بن زيد في الحيرة ثم في أمية بن أبي الصلت في الطائف
وخلاصة القول أن الشعر الجاهلي لا يدلنا على خيال واسع متنوع ولا على
غزارة في وصف الشاعر والوجدان بقدر ما يدلنا على مهارة في التعبير وحسن بيان
في القول

(ح) الامثال

يقول علماء اللغة العربية أن كلمة المثل مأخوذة من قولك هذا مثل الشيء، ومثله كما تقول شبهه وشبيهه، لأن الأصل فيه التشبيه، ثم جعلت كل حكمة سائرة مثلاً، ويرى غيرهم أن الكلمة مأخوذة عن العبرية ففيها كلمة « مثل » تدل على هذا المعنى وأوسع منه، فهم يطلقونها على الحكمة السائرة وعلى الحكاية القصيرة ذات المغزى وعلى الاساطير.

وعلى كل حال فسنبحث في الأمثال فقط من ناحية دلالتها العقلية، فمن أمثال الأئمة نستطيع أن نتفهم الدرجة التي وصلت إليها، ونستطيع أن نعرف كثيراً من أخلاقها وعاداتها

وللأمثال من هذه الناحية ميزة على الشعر، ذلك أن الشعر تعبير طبقة من الناس يعدّون في مستوى أرق من مستوى العامة، فالشعراء يعبرون عن شؤون القبيلة التي ارتسمت في أذهانهم الراقية نوعاً من الرقى، وهم يعبرون بالفاظ مصقولة صقلاً يستوجب الشعر، أما الأمثال فكثيراً ما تتبع من أفراد الشعب نفسه، وتعبّر عن عقلية العامة، ولذلك تجد كثيراً منها غير مصقول، أعني أنه لم يُتخير لها ألفاظ الأدباء ولا العقلاء الراقين، مثل قولهم « أول ما أطلع ضبّ ذنبه » وقولهم « أم قبّيس وأبو قبّيس كلاًهما يخالط خلط الحيس » وربما كان هذا هو السبب في أن بعض الأمثال العربية يفهم معناها اجمالاً لا تفصيلاً، قال أبو هلال العسكري في كتابه جمهرة الأمثال في شرح « بعين ما أرينك » « ان معناه « أعجل » وهو

من الكلام الذى قد عرف معناه سماعاً من غير أن يدل عليه لفظه ، وهذا يدل على أن لغة العرب لم ترد علينا بكاملها ، وإن فيها أشياء لم تعرفها العلماء « اه وأنا أرى أنه يدلنا أيضاً على أن ما وصل إلينا من الشعر والخطابة ونحو ذلك هي لغة الأدباء المصقولة لا لغة الشعب والعامة ، ولم يصل إلينا من لغة العامة إلا بعض الأمثال .

ولست أعنى أن كل الأمثال ساقطة التعبير ، غير مصقولة الألفاظ ، ولكن أعنى أنها تمثل الشعب بأجمعه ، فقد ينبع المثل من طبقة راقية فيكون راقياً مصقولاً ، وقد ينبع من العامة فلا يكون كذلك ، أما الشعر فلا ينبع إلا من طبقة الشعراء ، وهم عادة أرقى من الشعب ، وهم إن فات بعضهم رقى المعنى فلن يفوته صقل اللفظ ، وعن أجل هذا عبر بعضهم عن المثل بأنه « صوت الشعب » ، ومن أجل هذا أيضاً كانت دلالة الأمثال على لغة الشعب أصدق من دلالة الشعر

رأى الباحثون فى الأمثال أن هناك نوعاً منها يكاد يكون شائعاً بين الشعوب كلها ، ونوعاً آخر تختلف فيه الأمة عن الأخرى ، فالنوع الأول موضوع البحث : كيف اتفقت الأمم فى هذه الأمثال وخصوصاً فى اللغات ذات الأصل الواحد كاللغات السامية ، ففيها أمثلة متقاربة ، وفى بعض الأمثال العربية مشابهة قريبة لأمثال سليمان ، لا تختلف عنها إلا فى صوغها فى القالب العربى وتحويرها تحويراً طفيفاً لتتفق والذوق العربى — والنوع الثانى موضع البحث : لم كان كذلك فى هذه الأمة وكان غير ذلك فى الأمة الأخرى ، فالأمة الزراعية لها أمثال مشتقة من زراعتها ، والتجارية لها أمثال مشتقة من تجارتها وهكذا وإنك لتستطيع أن تطبق ذلك على العرب باستعراضك أمثالهم ، فقد أكثروا من الأمثال المتعلقة بالابل وشؤونها ، فقالوا « استَنَوَّقَ الجَمَلُ » و « انما يَجْزَى الفَتَى لَيْسَ الجَمَلُ » و « أَغْدَى كَغْدَى البَعِيرِ » وهكذا أمثالهم فى اللبن والجزور ، وإن أنت استعرضت

. أمثال قریش رأیت فیہا ما یدل علی أنهم قبیلۃ تجاریۃ کقولہم « لا فی العیرو ولا فی النّفر » ونحو ذلك

وقد عاق عن الاستفادة من الأمثال العربیۃ من هذه الناحیۃ أمران ، (الأول) اختلاط الأمثال الجاهلیۃ بأمثال الاسلام اختلاطاً کبیراً حتی لیصعب التفریق بینہما ، وهذه أول خطوة یجب التحقق منها قبل الاستدلال بالأمثال علی الحیاۃ العقلیۃ — وقد رووا أن « علاقۃ الکلابی » جمع الأمثال فی عهد یزید بن معاویۃ ، وقد کان هذا یفیدنا کثیراً لو وصل الینا ، اذ لا یكون قد ذکر فیہ الا أمثال الجاهلیۃ بوصدر الاسلام ، ولكنه لم یصل

نعم أن هناك دلائل تداننا أحياناً على مصدر المثل ، من طرق عدة (١) أن هناك عدة أمثال قیلت فی حوادث تاریخیۃ کجزاء سِنِمَار ، ومواعید عرقوب ، ولا فی العیرو ولا فی النفر ، وتسمع بالمُعیدِ خیر من أن تراه ، وبهذه دلالة صحیحۃ متى ثبتت صحۃ الحادثة التاریخیۃ التي قیل فیہا المثل

(٢) الاستدلال من حیاۃ الجاهلیۃ الاجتماعیۃ علی أن المثل جاهلی ، کالذی قالوا فی « أنصر أخاک ظالماً أو مظلوماً » فان ذلك هو الخلق الجاهلی لا الاسلامی (٣) ان کثیراً من الأمثال قد نص المؤلفون علی قائلیہا عند ذکر مضرب المثل ، فهم فی کثیر من الأحيان یندکرون القصة التي قیل فیہا المثل ، فنستدل بذلك — ولو علی وجه التقریب — علی زمنه ، ولكننا نشک فی کثیر من هذا لأن القصة فی کثیر من الأحيان یدو علیہا أثر الصنعة ، وانہا عملت فرساً ینطبق علیہ المثل ، بدلیل أن المؤلفین کثیراً ما یندکرون قصصاً مختلفۃ متباینۃ لمضرب المثل الواحد — أضف الی ذلك أن اکثر الامثال فی الأمم المختلفۃ یصعب تعین نقائلیہا ، حتی الامثال قریبۃ العهد ، لان الامثال ایست الا جملاً قصیرۃ ، نتیجۃ

نجارب طويلة ، وهى عند ما تقال لا تكون مثلاً ، وإنما يجعلها مثلاً شيوعها بعد ،
لموافقتها لذوق الجمهور ، ويفلب عندئذ أن يكون قد نسي قائلوها
(الأمر الثانى) من وجوه الصعوبة أن أكثر جامعى الأمثال رتبوها على
حسب حروف الهجاء ، فجعلوا ما أوله الف ، ثم ما أوله باء وهكذا ، ولم نر فيما نعلم
أحداً رتبها على حسب أصولها الاجتماعية كأن يجمع الأمثال التى تتعلق بالغنى والفقر ،
وبالعمر وأطواره ، وبالزواج والأسرة ، وبالعمل والتجارة ، وبالحظ وما إليه ،
وبالأصدقاء والجيران ، وبالمراة وأخلاقها ، وبالصحة والمرض ، الى نحو ذلك ،
ولو فعلوا ذلك — كما فعل بعض مؤلفى الفرنج فى أمثالهم — لافادونا فائدة كبرى من
ناحية موضوعنا

وقد شاع بين العرب فى الجاهلية ذكر لقمان ، واتخذوه شخصية هى مثال
الحكمة ، ينسبون إليه من الأمثال كثيراً مما لم يعرف قائله ، وسميت فى القرآن سورة
باسمه ، وزعم بعض الأدباء أن هناك لقمانين : لقمان الحكيم ، ولقمان عاد ، وإن لكلٍّ
وردت أمثالا ، فقالوا عن الثانى ورد « إحدَى حُطَيَّاتِ لِقْمَانَ » و « آكلُ من
لِقْمَانَ » ورووا للاول حكما كثيرة ، ويظهر أن حكمه كانت متداولة بين العرب لدرجة
كبيرة ، ذكر ابن هشام فى السيرة « أن سُوَيْدَ بن صامت قدم مكة حاجاً أو
مُعْتَمِراً ، وكان سويد انما يسميه قومه فيهم الكامل لجلده وشرفه ونسبه ، . . .
فتصدى له رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سمع به ، فدعاه الى الله والى الاسلام
فقال له سويد فلعل الذى معك مثل الذى معى ، فقال له رسول الله صلى الله عليه
وسلم وما الذى معك ؟ قال : بِحَمَلَةِ لِقْمَانَ ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم
اعرضها علىّ فعرضها عليه ، فقال له ان هذا لكلام حسن ، والذى معى أفضل

من هذا ، قرآن أنزله الله علىّ هو هدى ونور ، فتلا عليه رسول الله القرآن ودعاه الى الاسلام فلم يبعد منه ، وقال ان هذا لقول حسن الخ ^(١) «
ولكن من لقمان هذا ؟ ما هوَيتُهُ ؟ وما قومه ؟ وأية مدنية تمثلها حكمته ؟ وفي
أى عصر كان ؟ لم يصل العلم الى تحقيق ذلك بعد ، وقد اضطربت الأقوال فيه .
اضطرابا كبيرا ، فقليل كان نوبيا من أهل أيلة ، وقيل كان حبشيا ، وقيل كان
أسود من السودان مصر ، وزعم وهب بن منبه أنه يهودى ، وأنه ابن أخت داود
عليه السلام وقيل ابن خالته وكان في زمنه ، وفي تفسير البيضاوى « أنه لقمان بن باعورا
من أولاد آزر بن أخت أيوب أو خالته ، وعاش حتى أدرك داود وأخذ منه العلم » ،
ويقول ياقوت في معجمه في مادة طبرية « وفي شرقى بحيرة طبرية قبر لقمان الحكيم
وابنه ، وله في اليمن قبر والله أعلم بالصحيح منهما » اهـ ويروى بعضهم حديثا عن
النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « سادة السودان أربعة لقمان ، والنجاشى وبلال ،
ومهجع » وظاهر أن كلمة السودان لا يراد بها السودان بالمعنى الذى نستخدمه عليه
الآن إنما يراد بها الجنس الاسود

وعلى كل حال فالذى نستنتجه من هذا انهم مجمعون على أنه ليس عربيا ، وأنه
أدخل على العرب حكمة أمة أخرى ، ويرجح بعضهم أنها العبرية ، ويؤمنون أن كلمة
لقمان تعريب من العرب لكلمة بلعم ، وبلعم بن باعورا يهودى معروف ، وقد
ذكر الامام مالك في موطئه كثيرا من حكمه ، وجمعت له جملة أمثال قصصية في
كتاب اسمه « أمثال لقمان » ويدل ضعف أسلوبه ، ونزول عبارته ، وكثرة الخطأ
النحوى والصرفى فيه ، على أنه موضوع من عهد قريب ، ولم يرد ذكر هذا
الكتاب فى كتب الأدب العربى القديمة فيما نعلم ، ورأى بعض الباحثين وجوه شبه

(١) سيرة ابن هشام ص ٢٦٥ ج ١ من شرح الروض الائف والمجلة معناها الصحيفة

بين بعض الأمثال المنسوبة للقيان ، وقصص « إيزوب » اليونانية ، وأخذوا يفترضون الفروض في منشأ ذلك مما ليس هذا محله

وبعد فان نحن نظرنا الى أمثال العرب التي نسبت الى الجاهليين وجدنا بعضها سخيفاً ، يستخرج منك ابتسامة الاستهزاء ، كالذي ذكرنا من قبل من أقوال ساقطة التعبير ، وبعضها قبيح اللفظ في فحش ، وبعضها نظرات للحياة متناقضة مثل « سَمَنَّ كَلْبِكَ يَا كَلْكُ » و « سَمَنَّ كَلْبِكَ يَتَّبِعُكَ » وكثير منها نتيجة تجربة صادقة ، ونظر هادئ حكيم مثل و « أَخُو الظُّلْمَاءِ أَعَشَى بَلِيلٌ » و « إِنْ مِنْ الْحُسْنِ شِقْوَةٌ » و « أُمُّ الصَّقَرِ مَقْلَاتٌ نَزُورٌ » و « تَجْوَعُ الْحَرَّةُ وَلَا تَأْكُلُ بِشَدِيدِهَا » و « التَّمْرَةُ إِلَى التَّمْرَةِ تَمْرٌ » و « النَّكَلَى تَحِبُّ الشَّكْلَى » و « الْحَرْبُ مَائِمَةٌ » و « بَسُّ الْعَوْضِ مِنْ جَمَلٍ قَيْدُهُ » و « بَيْنَهُمْ دَاءُ الْبَضَائِرِ » و « تَرَى الْفَتَيَانَ كَالنَّخْلِ ، وَمَا يَدْرِيكَ مَا الدَّخْلُ » الخ الخ

والعرب حقاً أجادوا في هذا النوع من الأدب ، وخلفوا لنا ما يدل على عقليتهم أكثر مما يدلنا الشعر والقصص ، ويظهر أن سبب ذلك أنه يوافق مزاجهم العقلي ، وهو النظر الجزئي الموضوعي لا الكلي الشامل ، لأن المثل لا يستدعي احاطة بالعالم وشؤونه ، ولا يتطلب خيالا واسعا ولا بحثاً عميقاً ، انما يتطلب تجربة محلية في شأن من شؤون الحياة

تدلنا الأمثال على حياة العرب الاجتماعية التي أجملناها من قبل ، فنظرة الى مجموعة الأمثال التي قيلت في المرأة تدل على انحطاط منزلتها في نظرهم ، والتي قيلت في الحياة الاقتصادية تدل على فقر البلاد واجدادها ، ويطول بنا القول لو عرضنا لك كل الأمثال التي قيلت في كل باب وما يستنتج منها ، ولكننا نحيلك في ذلك على أمثال الميبداني وجمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري وأمثال المفضل الضبي

بعد أن أبنا لك وجهة نظرنا في كيفية بحثها

وهناك نوعان آخران يلحقان بالأمثال ولهما قيمة كبيرة في الدلالة على الحياة العقلية ، ولكن يظهر أن المؤلفين لم يُعْنُوا بهما العناية الكافية فلم يجمعوهما ويرتبوهما كما فعلوا في الأمثال ، انما تراهما منشورين مبعثرين في الكتب وهما

(الأول) الأحاجي أو الألغاز كالذي زعموا أنه اجتمع يوما عبيدُ بنُ الأبرص وامرؤ القيس ، فقال له عبيد : كيف معْرِفَتُكَ بالأوابد ؟ فقال : قل ما شئت تجدني كما أحببت : قال عبيد

ماحية ميته قامت بميتها درء ما أنبت نابا وأضراسا

فقال امرؤ القيس

تلك الشعيرة تُسْقَى في سنابلها قد أخرجت بعد طول المكث اكداسا
فقال عبيد :

ما السود والبيض والأسماء واحدة لا يستطيع هن الناس تماسا
فقال امرؤ القيس :

تلك السحاب اذا الرحمن أنشأها روى بها من نحول الأرض أيباسا
الى اخر القصة ، وهي طويلة

وكالذي زعموا أن امرأ القيس آلى على نفسه ألا يتزوج امرأة حتى يسألها عن ثمانية وأربعة واثنين ، فجعل يخطب النساء فاذا سألهن عن هذا قلن له أربعة عشر ، فبينما هو يسير اذا هو برجل يحمل ابنة له صغيرة كأنها البدر ليلة تمه فأعجبته ، فقال لها يا جارية ما ثمانية وأربعة واثنان فقالت أما ثمانية فأطباء الكلبة ، وأما أربعة فأخلاف الناقة ، وأما اثنان فتديا المرأة ، فخطبها من أيها الخ

ولم نسق هذين المثلين لاعتقادنا بصحتها فان أثر الصنعة الاسلامية واضح في

قوله : تلك السحاب اذا الرحمن أنشأها وفي قوله بعد

تلك الموازين والرحمن أرسلها رب البرية بين الناس مقياسا
هذا فضلا عن ضعف الشعر واسفافه . وانما سقناها للدلالة على ما نريد من
الألغاز والأحاجي ، وترى كثيراً منها قد نثر في كتب الأدب كأما إلى القالي والحيوان
للجاحظ والمثل السائر لابن الأثير وأمثال اليداني لو جمع وامتحن ورتب لدلنا عن
ناحية خاصة من نواحي الخيال

(الثاني) قصص الحيوانات كالذي زعموا أن النعامة ذهبت تطلب قرنين ،
فرجعت بلا أذنين ، وفي ذلك يقول بشار

طالَبها قَلبي فَرَاغَتْ به وَأَمْسَكَت قَلبي مَعَ الدَّيْنِ
فَكُنْتُ كَالْهَقْلِ^(١) غدا يَبْتَغِي قَرْنًا فَلَمْ يَرْجِعْ بِأُذُنَيْنِ

وزعموا أنه لذلك يسمى بالظليم — وكالذي زعموا أن الغراب ذهب يتعلم مشية
القطاة فلم يتعلمها ونسى مشيته فلذلك صار يحجل — وأن الضفدع كان بلا ذنب
لأن الضب سلبه إياه

وكانوا يقولون أن الهدهد لما ماتت أمه أراد أن يبرها فجعلها على رأسه يطلب
موضعاً ، فبقيت في رأسه ، فالقُرْزُعة التي في رأسه هي قبرها ، وانما انتنت ريحها
لذلك^(٢) وزعموا أن الهددِيلَ فرخ كان على عهد نوح عليه السلام فصاده جارش فما
من حمامة إلا وهي تبكيه وتدعوه فلا يجيبها قال بعضهم :

وما من تهتفين به لنصر بأسرع جابة لك من همدِيل

وقولنا في هذا النوع كقولنا في سابقه

(١) الهقل الفقى من النعام

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢٨٠ طبع أوروبا

(٤) القصص

كان للعرب قصص . وهو باب كبير من أبواب أدبهم ، وفيه دلالة كبيرة على عقليتهم ، وهذا القصص في الجاهلية أنواع ، منها

أيام العرب : وهي تدور حول الوقائع الحربية التي وقعت في الجاهلية بين القبائل ، كيوم داحس والغبراء ، ويوم الفجار ، ويوم الكلاب ، أو بين بعض العرب ، وأمم أخرى كيوم ذي قار وكان بين بني شيبان والفرس ، وانتصر فيه العرب — وكانت هذه القصص موضوع العرب في سمرهم في جاهليتهم وفي اسلامهم « قيل لبعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كنتم تتحدثون به اذا خلوتم في مجالسكم ؟ قال كنا تتناشد الشعر ، ونتحدث باخبار جاهليتنا » وترى هذه الايام وأخبارها مجموعة في العقد الفريد وأمثال الميداني — وقد زاد القصص في بعضها وشوهوا بعض حقائقها ، كالذي تراه في أخبارهم التي حكوها في موت الزباء ، اذا قارنت بين ما قصوه وما ذكره ثقات المؤرخين عن زنوبيا Zenobia ، فخير الزباء المروى في الكتب العربية عن هشام بن محمد الكلبي رواية خيالية موضوع لا تتفق والتاريخ ، ولسنا ندري هل أفسدها العرب في جاهليتهم أو أفسدها رواة الأدب في الاسلام

(أحاديث الهوى) وهذا كثير في كتب الأدب ، كالذي رواوا من قصة المنخل اليشكري والمتجردة زوج النعمان وما كان بينهما من علاقة وما قيل في ذلك من قصص وما روى من أشعار (١)

(٣) وهناك نوع من قصص العرب أخذوه من أمم أخرى وصاغوه في قالب

(١) أنظر الاغانى جزء ١٨ ص ١٥٤

يتفق وذوقهم ، كقصة شريك مع المنذر وأنه أتاه في يوم يؤسه رجل يقال له حنظلة فأراد قتله فطلب منه أن يؤجله سنة ، فقال ومن يكفلك ؟ فكفله شريك بن عمرو فلما كان من القابل جلس في مجلسه ينتظر حنظلة فلم يأت ، فأمر بشريك فقرب ليقتله فلم يشعر إلا براكب قد طلع عليه فتأملوه فإذا هو حنظلة ، فلما رآه المنذر عجب من وفائهما وكرمهما فأطلقتهما ، وأبطل تلك السنة^(١) الخ ، فان لهذه القصة أصلاً يونانياً معروفاً — وكقصة أنه كان لرجل من بني ضبة في الجاهلية بنون سبعة فخرجوا بأكلب لهم يقتنصون فأووا الى غار ، فهوت عليهم صخرة فأتت عليهم جميعاً ، فلما استراث أبوم أخبارهم اقتفروا آثارهم حتى انتهى الى الغار ، فانقطع عنه الأثر ، فأيقن بالشر فرجع وأنشد شعراً^(٢) فان لها شبيهاً بقصة من قصص المسيحية الأولى . وقد عرفت العرب في الجاهلية قصصاً كثيرة عن الفرس وكانوا يروونها ويتسامرون بها ، جاء في سيرة ابن هشام أن النضر بن الحارث كان من شياطين قريش ، ومن كان يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم وينصب له العداوة ، وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم واسفنديار ، فكان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلساً فذكر بالله ، وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من تقمة الله خلفه في مجلسه اذا قام ، ثم قال : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه ، فهلم الى فأنا أحدثكم أحسن من حديثه ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفنديار ، ثم يقول بماذا محمد أحسن حديثاً مني ؟ قال ابن هشام وهو الذي قال فيما بلغني « سأُنزلُ مثلَ ما أنزل الله »^(٣)

ولعله بعد الذي ذكرنا من علاقات العرب بمن حولهم من الفرس والروم تجارياً

(١) الاغانى جزء ١٩ ص ٨٧ (٢) أمالى القالى جزء ١ ص ٦١

(٣) ابن هشام جزء ١ ص ١٩٠ من الروض الأنف

وسياسياً ودينياً ، وما ذكرناه عن لقمان من أنه حبشى أو يهودى أو مصرى ، ومن
اجماعهم بأنه ليس عربى ، وما كان من شبه بين أمثال سليمان والأمثال العربية ، وما
أشرنا اليه من وجوه الشبه بين بعض قصصهم وقصص الأمم الأخرى ، وما كانوا
يتحدثون به من أقاصيص الفرس — يتضح لك أن العرب لم يكونوا — كما يفهم
كثير من الناس — مستقلين عن غيرهم من الأمم استقلالاً تاماً ، لا فى وسائلهم
الاقتصادية ولا السياسية ولا الأدبية ، فلما جاء الاسلام كان الاتصال أتم ، وأثر
الامتزاج أكبر كما سيتضح ان شاء الله

مصادر هذا الباب

ذكرنا فى ثنايا البحث كثيراً من الكتب التى رجعنا إليها ونزید عليها أننا استفدنا أيضاً كثيراً
من الكتب الآتية :

(١) دائرة المعارف الاسلامية فى مادة « عرب » و « حمير » و « كهلان » وغير ذلك
من مواد أخرى مفرقة

(٢) كتاب « العرب قبل الاسلام » Arabia before Mohammad تأليف O'leary

(٣) دائرة المعارف البريطانية فى مادة اللغات السامية

(٤) سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب

(٥) أمثال الميدانى وأبى هلال العسكري والمفضل الضبى

البَابُ الثَّانِي

الاسلام

الفَصْلُ الأول

بين الجاهلية والاسلام

كان للاسلام اثران كبيران في عقلية العرب من ناحيتين مختلفتين ، (الأولى) ناحية مباشرة وهي تعاليمه التي أتى بها مخالفًا عقائد العرب (الثانية) ناحية غير مباشرة وهي أن الاسلام مكن العرب من فتح فارس ومستعمرات الروم ، وهما أمتان عظيمتان تحملان أرقى مدنية في ذلك العهد ، فكان من أثر الفتح وضع البلاد وما فيها من نظم وعلم وفلسفة تحت أعين العرب ، فتسربت مدنيتهما الى المسلمين ، وتأثرت بهما عقليتهم — وسنتكلم كلمة عن كلتا الناحيتين

لفظ الاسلام ومعناه — اذا تتبعنا مادة س ل م ونشوء كلمة الاسلام رأينا أن معنى السلام المسالمة ، وضد المسالمة الحرب والخصام ، جاء في القرآن « وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا » ولعل هذه الآية هي المفتاح الذي نصل به الى معرفة السبب في تسمية العهد الذي قبل محمد صلى الله عليه وسلم جاهلية ، وعهده إسلامًا ، والجاهلية ليست من الجهل الذي هو ضد العلم ، ولكن من الجهل الذي هو السفه والغضب والأثرة ، جاء في حديث الافك

« ولكن اجتَهَلْتَهُ الحَمِيَّةُ » أى حملته الأنفة والغضب على الجهل ، وفى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبى ذرٍّ وقد عير رجلاً بأمه « انك امرؤ فيك جاهلية » أى فيك روح الجاهلية ، وقريب من هذا المعنى استعمالهم استجهلوه الشئ أى استخفه ، ومنه قوله — وقاك الهوى واستجهلتك المنازل — وفى معلقة عمرو

ابن كلثوم

أَلَا لَا يَجْهَلَنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَتَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ

فترى من هذا كاه أن كلمة الجاهلية تدل على الخفة والأنفة والحمية والمفاخرة ، وهى أمور أوضح ما كانت فى حياة العرب قبل الاسلام ، فسمى العصر الجاهلية ، ويقابل هذه المعانى هدوء النفس والتواضع والاعتداد بالعمل الصالح لا بالنسب وهى كلها نزعة سلام ، فعنى الآية كما فى الطبرى « أن عباد الله هم الذين يمشون على الأرض بالحلم لا يجهلون على من جهل عليهم »

ثم انتقلت الكلمة الى معنى آخر قريب من هذا وهو استعمال أسلم المشتق من السلام بمعنى الخضوع والالتقياد لَمَّا كان الخضوع أدعى الى السلام ، وفى هذا المعنى جاءت الآية « وَأَنْبِئُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ » « فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ » — وقد أطلقها القرآن بهذا المعنى أحيانا على المؤمنين والكافرين جميعاً لأنهم خاضعون لله ، ومنقادون له بحكم خلقهم ، رضوا أو كرهوا ، تسرى عليهم قوانين العالم ولا يستطيعون الخروج عليها « وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ » فكل من فى السموات والأرض مسلم بهذا المعنى ، أى خاضع لأمر الله ، مطيع لما وضع فى العالم من قوانين

ثم قصرت فى الاستعمال على من أسلم وجهه لله طوعاً ، فكأن المسلم هو الذى رضى بالطاعة لله فاجتمعت له الطاعة الطبيعية والطاعة بالارادة ، وقريب من هذا المعنى

قوله تعالى « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ، فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » وبهذا المعنى تطلق كلمة « مسلم » على كل من خضع لله وأطاع أى نبي من الأنبياء ، فأتباع إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد مسلمون « قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَى كِتَابٍ كَرِيمٍ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ » « وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ » وفي سورة يوسف « تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ » « فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّكَ مُسْلِمُونَ »

ثم خصت في الاستعمال بالدين الذي أتى به محمد صلى الله عليه وسلم ، وبهذا المعنى ورد قوله تعالى « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا » « وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ »

فهذا الاسلام عماده الخضوع لله والالتقياد له ، ولعل هذا الاسم أنسب اسم للرد

على العقلية الجاهلية ، عقلية الأنفة والحمية

تعاليم الاسلام : اذا نظرنا الى اصول الاسلام وجدناها تنقسم الى قسمين :

عقائد وأعمال ، وقد تضمن أهم النوعين قوله تعالى « ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ، هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ »

ونحن تفصل ما جاء فيها بعض التفصيل فنقول

العقائد ، أهم أصل من أصول الاسلام الاعتقاد بالله ، والاعتقاد بالله يكاد يكون عاماً بين الشعوب ، فلا تكاد تخلو أمة مبتدية أو متحضرة من اعتقاد بالآله ، ولكن فكرة الألوهية وأوصاف الآلهة تختلف اختلافاً كبيراً بين الأمم ، والاسلام يصف الله بأوصاف نلخصها مما ورد في القرآن فهو ليس إله قبيلة ولا إله أمة العرب وحدهم ، ولا إله الناس وحدهم ، بل هو إله كل شيء « رَبُّ الْعَالَمِينَ » وكل شيء في الوجود مخلوق له ، وخاضع لأمره « اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » « هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً » « الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا » « اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ »

وكل شيء من مظاهر الكون فعنه صدر « اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ » « وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ » « اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا » « وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ » « وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بَسَاطَةً » « وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا » « وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا »

قد أحاط علمه بكل شيء ، وأحاطت قدرته بكل شيء ، « وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَأْسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » « إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » « إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » « وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » « إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ »

وهو إله واحد ، فليس هناك إله للخير وإله للشر ، وليس هناك إله للجمال وإله للرياح ، وليس هناك من يشاركه في ألوهيته « فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » . « وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ » « وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ »

« واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً »

ليس لأى مخلوق ولا لأية طائفة سلطان على الناس فى عقائدهم ، ولا أية صفة من صفات الربوبية « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ » حتى الرسول نفسه ليس إلا مبلغاً « فَذَكَرْهُمْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمَسِيرٍ » وعلى الجملة فالله واحد بآتم معانى الوجدانية ، وأبسط أشكالها ، وليس يرضى الاسلام عن أى نوع من التعدد ، ولا أى رمز يشعر بالتعدد

قد اختار أفراداً من خلقه واتصل بهم بما يسمى « الوَحْي » ومن هؤلاء ابراهيم وموسى وعيسى ومحمد وغيرهم « إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ، وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ » والغرض من هذا الوحي تعليم الرسول للناس ما يعلمه الله له ، لهدايتهم الى الخير « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ » « رِسَالًا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » وهذا الوحي لم يكن عن طريق تجسد الله ، انما هو من طريق روحى لم نعلمه حق العلم « وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ الْوَاحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ » « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا » وأصول الأديان السماوية كلها واحدة وكلها تدعو الى توحيد الله وعدم الشرك به ، ثم دخل بعض تعاليمها التغيير والتبديل « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ » « وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لئن أشركت ليحبطنَّ عملك »

وهناك وراء هذه الحياة حياة أخرى ، ويومها يوم القيامة واليوم الآخر ويوم

الحساب ويوم الدين « ثُمَّ إِنَّكُمْ أَمِيتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ » وهذا اليوم هو يوم المثوبة على العمل الصالح ، والعقوبة على العمل السيئ ، وكل عمل أتاه الانسان يسجل عليه ثم يقدم له يوم القيامة « وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مِنْشُورًا اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا » « يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » وقد جعل للمثوبة والعقوبة داران : دار المثوبة وهي الجنة ودار العقوبة وهي النار ، وقد جعل في الجنة نوعان من الثواب نوع من اللذائذ الجسمية « وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » ونوع روحي وهو رضا الله والقرب منه « يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً » « وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ — وكذلك دار العقوبة نار حامية وسخط من الله وغضبه

ووراء هذا العالم المادي عالم آخر روحي ، وفيه نوعان من الأرواح ؛ نوع خير يطيع الله ما أمره ويجذب نفوس الناس الى الخير ويسمى الملائكة ، ونوع شرير يستغوى النفوس الى الشر ويسمى الشياطين

الأعمال : هناك أعمال يجب على المسلم أدائها ، وهي أساسية كالعقائد ، وهي الصلاة ، ويقصد بها أن تكون مظهراً من مظاهر الاخلاص لله وتعبيراً دينياً يشرح عاطفة الاجلال له « وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ » — والزكاة — وهي أن يؤخذ من مال الغني للفقير وللصالح العام ، وقد أكد القرآن هذين الفرضين أكثر من توكيده سواهما وقرنهما ببعض في

أكثر المواضع — ثم صوم رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلا

الافهموا — في القرآن من الأخلاق نوعان نوع هو تعليم لأداب اللياقة «وإذا حييتم بتحيةٍ فحيوا بأحسن منها أو ردوها» «لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها» ونوع آخر هو أسمى ما تدعو إليه الأخلاق : وفاء بالوعد ، وصبر في الشدائد ، وعدل مع من أحببت أو كرهت ، وعفو عند المقدرة ، وعفة من غير غلو «والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس» «إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى» «خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین» «قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق» «قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن»

هدم الاسلام الوحدة القبلية ، والوحدة الجنسية ، وكره التفاضل بشرف القبيلة أو شرف الجنس ، وعلم ان معتنقى الاسلام كلهم كتلة واحدة ، لا تفاضل بين أفرادها الا بطاعة الله وتنفيذ أمره «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ» «ان أكرمكم عند الله أتقاكم» وفي الحديث «ليس منا من دعا إلى عصبية أو قاتل عصبية»

حتم الطاعة لله والطاعة للرسول والطاعة لأولى الأمر في الأمة ما أطاع ولي الأمر أوامر الله «وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم» وفي الحديث «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»

«أثر هذه التعاليم في العرب» لا شك أن هذه التعاليم رفعت المستوى العقلي للعرب الى درجة كبرى ، فهذه الصفات التي وصف الاسلام بها الله نقلتهم من عبادة

أصنام وأوثان ، وما يقتضيه ذلك من انحطاط في النظر واسفاف في الفكر ، الى عبادة إله وراء المادة « لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ » ، كان الإله عند أكثرهم إله قبيلة وان اتسع سلطانه فالله قبائل ، أو إله العرب ، فأبانه الاسلام إله العالمين ومدبر الكون ، ويده كل شئ ، وعالما بكل شئ ، فاستطاع العربي بهذه التعاليم أن يرقى الى فهم إله لا مادة له واسع السلطان واسع العلم — وأفهمهم الاسلام أن دينهم خير الأديان ، وأن العالم حولهم في ضلال ، وأن نبيهم هادي الناس ، جميعاً وأنهم ورثته في هداية الأمم ، فكان ذلك من البواعث على غزو هذه الأمم يدعونهم الى دينهم ، ويشرونهم به ، فمن دخل فيه كان كأحدهم — وكان للعقيدة اليوم الآخر ودار الجزاء والجنة والنار أثر عظيم في بيع كثير منهم نفوسهم في سبيل نشر الدعوة « إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ »

كان للاسلام أثر كبير في تغيير قيمة الأشياء والأخلاق في نظر العرب ، فارتفعت قيمة أشياء وانخفضت قيمة أخرى ، وأصبحت مقومات الحياة في نظرهم غيرها بالامس — وقد لاقى النبي صلى الله عليه وسلم صعوبات كبرى في نقلهم من عقليتهم الجاهلية الى عقليتهم الاسلامية ، تجدها مبسوبة في كتب السيرة ، كما احتمل المسلمون السابقون من العذاب كثيراً فعن ابن عباس « والله ان كان المشركون ليضربون أحدهم ويبيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر على أن يستوى جالساً من شدة الضر الذي نزل به حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة وحتى يقولوا له آلات والعزى الهلك من دون الله فيقول نعم » الخ حتى اضطر كثير منهم بعد خمس

سنوات من الدعوة أن يهاجروا الى قطر نصراني وهو الحبشة يلجئون اليه ، فهاجر نحو مائة ممن أسلم وتركوا النبي صلى الله عليه وسلم في مكة مع عدد قليل من أصحابه ، ولم ينتشر الاسلام وبعبارة أخرى لم تنتشر العقلية الجديدة الا بعد الهجرة الى المدينة وانهزام قريش حربياً — وحقاً أن هذا النزاع بين النبي صلى الله عليه وسلم وقريش أولاً ثم بين المدنيين والمكيين ثانياً ثم بين من دخلوا من العرب في الاسلام ومن لم يدخلوا انما هو نزاع بين عقليتين، عقلية وثنية تباح فيها اللذائذ ، وتمنح فيها الحرية الى حد بعيد ، وتقدر فيها الأخلاق تقديراً خاصاً ، وعقلية أخرى موحدة تداس فيها الأصنام دوساً ، وتمتنع بكل أنواع الامتهان ، وتكسر من غير هوادة ، ولا تباح فيها اللذائذ الا بمقدار وتدفع فيها الضرائب ليصرف منها للفقراء وللصالح العام ، وتقيد فيها الحرية بجملة قيود : عبادات في أوقات خاصة، واحترام ملكية ، واحترام نفوس ، وتقلب فيها قيمة الأخلاق قلباً ، فالانتقام والأخذ بالثأر لم يعد خيراً الخصال ، وهلم جرا ، وقد عبر خير تعبير عن الفرق بين الحالتين ما روى أن جعفر بن أبي طالب — وكان أحد الذين هاجروا الى الحبشة — قال للنجاشي وقد سأله عن حالهم « كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل كل الميتة ، ونأثي الفواحش، وتقطع الأرحام ونسى الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله الينا رسولا منا عرف نسبه وصدقه، وأمانته وعفافه، فدعانا الى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة ، وصلة الرحم وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام فصدقناه وآمنا به... فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا الى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل

من الجبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا الى بلادنا» (١)

وهذه القصة وان كان يغلب على الظن انها موضوعة بدليل أن الصيام ورد فيها وهو لم يشرع الا بعد الهجرة الى الحبشة ، وبغير ذلك من الأدلة فهي تمثل النزاع بين العقليتين أصدق تمثيل .

وقد عقد الأستاذ « جولد زيهر » فصلاً في نقط النزاع بين الاسلام والفضائل عند العرب في الجاهلية عنوانه « بالدين والمروءة » وهو يتلخص في أن الاسلام رسم للحياة مثلاً أعلى غير المثل الأعلى للحياة في الجاهلية ، وهذان المثلان لا يتشابهان كثيراً ما يتناقضان ، فالشجاعة الشخصية ، والشهامة التي لا حد لها ، والكرم الى حد الاسراف ، والاخلاص التام للقبيلة ، والقسوة في الانتقام ، والأخذ بالثأر ممن اعتدى عليه أو على قريب له أو على قبيلته بقول أو فعل ، هذه هي أصول الفضائل عند العرب الوثنيين في الجاهلية — أما في الاسلام فالخضوع لله والالتقياد لأمره والصبر ، واخضاع منافع الشخص ومنافع قبيلته لأوامر الدين ، والقناعة وعدم التفاخر والتكاثر وتجنب الكبر والعظمة ، هي المثل الأعلى للانسان في الحياة »

وان شئت أن تقارن بين مارسمة الاسلام من مثل أعلى في الحياة وما رسمته الجاهلية من ذلك فاقرأ قوله تعالى

« لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُؤُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ

البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون»

ثم اقرأ ماجاء في معلقة طرفة

إذا القوم قالوا من قتي؟ خلت أننى
أحلت عليها بالقطيع فأجذمت
فذالت كما ذالت وليدة معسر
ولست بحلال التلاع مخافة
وان تبغى في حلقة اليوم تلقى
متى تأتى أصبحك كاساً روية
وان تلتقى القوم الجميع تلقى
ندامى بيض كالنجوم وقينه
عنيت فلم أكسل ولم أتبدل
وقد خب آل الأمعر المتوقد^(١)
تري ربها أذيال سحل ممدد^(٢)
ولكن متى يسترقد القوم أرفد^(٣)
وان تقتنصنى فى الحوانيت تصطد^(٤)
وان كنت عنها ذا غنى فاغنى وأزدد
الى ذروة البيت الرفيع المصمد
تروح علينا بين برد ومجسد^(٥)

الى أن يقول

فلولا ثلاث هن من عيشة الفتى
فمنهن سبقي العاذلات بشربة
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب^٦
وجدك لم أحفل متى قام عودى
كميت متى ما تعل بالماء تزبد
ببهكنة تحت الخباء المعمد^(٦)

(١) أحلت وثبت والقطيع السوط وأجذمت أسرع وخب ارتفع والآل السراب وقيل ما كان منه أول النهار ، والامعر الارض الغليظة التى فيها حصى والمتوقد المشتعل يقول وثبت على ناقى بالسوط فأسرعت وقد ارتفع آل هذه الصحراء

(٢) ذالت تبخرت ، والوليدة الفتية ، والسحل الثوب من القطن ، يقول أن ناقتيه تبخرت فى مشيتها كالفتاة تمشى أمام سيدها تبخر وتجر أذيالها

(٣) التلاع هنا الاراضى المنخفضة وكنى بحلال التلاع عن البخيل لانه يسير حيث لا يراه أحد

(٤) يريد بحلقة القوم مجلس اشرافهم وبالحوانيت بيوت الخمارين

(٥) الندامى الاصحاب على الحمر والقينة الجارية والبرد الابيض والمجسد المصبوغ بالجساد

. وهو الزعفران

(٦) الدجن الغيم ، والبهكنة الحسناء الخلق

كَأَنَّ الْبُرَيْنَ وَالذَّمَالِيجَ عُلِقَتْ عَلَى عَشْرِ أَوْ خَرْوَيْعٍ لَمْ يُخَضِّدْ (١)
وَكَرَّيْ إِذَا نَادَى الْمُضَافُ مُحْنَبًّا كَسِيدِ الْغَضَاذِي السَّوْرَةِ الْمُتَوَرَّدِ (٢)
وهكذا المثل الأعلى للحياة الجاهلية ، فخر بالنجدة ، وفخر بالكرم ، وفخر
بمجالسة عليّة القوم وفي حانات الخمر ، وتمتع بالشراب حوله الندامي والقيان ، وهذا
كل شيء في الحياة

وبعد فالى أى حد تأثر العرب بالاسلام ؟ وهل انمحت تعاليم الجاهلية ونزعات
الجاهلية بمجرد دخولهم فى الاسلام ؟ الحق أن ليس كذلك ، وتاريخ الأديان والآراء
يأبى ذلك كل الآباء ، فالنزاع بين القديم والجديد ، والدين الموروث والحديث
يستمر طويلا ، ويحل الجديد محل القديم تدريجاً وقل أن يتلاشى بتاتا ، وهذا
ما كان بين الجاهلية والاسلام ، فقد كانت النزعات الجاهلية تظهر من حين الى حين
وتحارب نزعات الاسلام ، وظل الشأن كذلك أمداً بعيداً ، ولنقص طرفاً من مظاهر
هذا النزاع

جاء الاسلام يدعو الى محو التعصب للقبيلة ، والتعصب للجنس ، ويدعو الى
أن الناس جميعاً سواء « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ » وفى الحديث
« المؤمنون اخوة ، تتكافأ دماءهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم »
وخطب النبي صلى الله عليه وسلم فى خطبة الوداع « أيها الناس ان الله تعالى أذهب
عنكم نجوة الجاهلية وفخرها بالآباء ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، ليس لعربى
على عجمى فضل إلا بالتقوى » وروى « مسلم » أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

(١) البرين الخلاخيل والخروع كل نبات قصيف ريان ولم يخضد لم يكسر
(٢) المضاف الملجأ والمحنب المنحنى من الهزال والسيد الذئب والغضا نوع من الشجر والسورة
الوثبة والمتورد الوارد

« من قاتل تحت راية عِمِّيَّة ^(١) يغضب لعصبية أو يدعو الى عصبية أو ينصر عصبية فقتل قتل قِتْلَةٍ جاهلية » وأخى رسول الله بين المهاجرين والانصار بعد ما كان بين المكين والمدنيين من عدا

ومع كل هذه التعاليم لم تمت نزعة العصبية ، وكانت تظهر بقوة اذا بدا ما يهيجها : انظر الى ما روى في غزوة بني المصطلق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج في جماعة من المهاجرين والانصار ، فَكَّسَ ^(٢) رجل من المهاجرين رجلا من الانصار فكان بينهما قتال ، الى أن صرخ يامعشر الانصار ، وصرخ المهاجر يامعشر المهاجرين ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال ما لكم ولدعوة الجاهلية ؟ فقالوا كسع رجل من المهاجرين رجلا من الانصار فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوها فانها منتنة ، فقال عبد الله بن أبي بن سؤل « لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ » ^(٣)

أفلمست ترى أن نزاعا تافهاً لسبب تافه هيج النفوس ودعاهم الى النزعة الجاهلية وتذكر العصبية المكية والمدنية

ولما ولى الأمويون الخلافة عادت العصبية الى حالها كما كانت في الجاهلية ، وكان بينهم وبين بني هاشم في الاسلام كالذي كان بينهم في الجاهلية ، فخر الأمويون بالدهاء والحلم ، وكثرة الخطباء والشعراء ، ورد عليهم بنو هاشم يكاثرونهم في ذلك ، وكان جداهم ومفاخرتهم صورة صادقة للمنافرة في الجاهلية ^(٤) وعاد النزاع في الاسلام بين القحطانية والعدنانية ، فكان في كل قطر عدا وحروب بين النوعين ، واتخذوا

(١) العمية الضلالة

(٢) كسع الرجل ضربه بيده على ظهره أو نحو ذلك

(٣) تفسير الطبري جزء ٢٨ ص ٧٣٦

(٤) أنظر ما افتخر به كل في شرح ابن أبي الحديد جزء ٣ ص ٤٧٦ وما بعدها

في كل صقع أسامي مختلفة ، ففي خراسان كانت الحرب بين الأزد وتميم ، والأولون
يمينيون والآخرين عدنانيون ، وفي الشام كانت الحرب بين كلب وقيس ، والأولون
يمينيون والآخرين عدنانيون ، ومثل ذلك في الاندلس ، ومثل ذلك في العراق ، حكى
ابن أبي الحديد أن أهل الكوفة في آخر عهد علي كانوا قبائل ، فكان الرجل يخرج
من منازل قبيلته فيمر بمنازل قبيلة أخرى فينادي باسم قبيلته : يا للنخع أويا لكينة
فيتألب عليه فتیان القبيلة التي مر بها فينادون : يا لقيم ويا لربيعة ، ويقبلون الى ذلك
الصائح فيضربونه ، فيمضي الى قبيلته فيستصرخها فتسل السيوف وتثور الفتنة ^(١)
ويطول بنا القول لو أنا شرحنا ما كان من حروب بين القبائل يرجع أصلها الى
العصبية الجاهلية

وأنت اذا نظرت الى الشعراء في بني أمية وجدت فيهم هذا المعنى واضحا جلياً
فالشعراء انحازوا الى قبائل ثم أخذوا يُشيدون بذكر قبائلهم ، ويهجون غيرهم ،
شأن شعراء الجاهلية ، ولعل أصدق مثل لذلك ما ترى في هجاء جرير والفرزدق
بوالأختل .

ليست ناحية العصبية هي وحدها ما يظهر لنا في عهد الاسلام من نزعات
جاهلية فهناك نزعات أخرى لا تقل عنها وضوحاً

من ذلك حروب الردة ، وذلك أن كثيراً من قبائل العرب عدوا دفع الزكاة
للخليفة ضريبة عليهم ومذلة لهم ، ونظروا اليها نظراً الى قبيلة تتسلط على أخرى
وتضرب عليها الاتاة ، فانتهزوا موت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعبروا عن شعورهم
الجاهلي برفض دفعها لأبي بكر ، وفي هذا يقول قرّة بن هبيرة لعمر بن العاص
« يا هذا ان العرب لا تطيب لكم نفساً بالاتاة ، فان أعفيتها من أخذ أموالها

فتسمع لكم وتطيع ، وان أيتم فلا تجتمع عليكم » وقد عجزوا عن أن ينظروا الى الزكاة كجزء من المال يؤخذ للصرف في الصالح العام ، وهو ما يرمى اليه الاسلام أضف الى ذلك أن بعض المسلمين وخاصة من سكان البادية كانوا ينزعون في معيشتهم الاجتماعية النزعة الجاهلية من مهاجرة وحمية وشراب ونحو ذلك . روى أن عمر بن الخطاب حبس الحطيئة لأنه كان يقول الهُجْرُ ويمدح الناس ويذمهم بما ليس فيهم ، ثم أطلقه ، فلما ولى ناداه فرجع ، فقال عمر كأنى بك يا حطيئة عند قتي من قريش قد بسط لك نمرقة^(١) وكسر لك أخرى ثم قال غننا يا حطيئة : فطقت تغنيه بأعراض الناس ، قال زيد بن أسلم ، ثم رأيت الحطيئة يوما بعد ذلك عند عبيد الله بن عمر قد بسط له نمرقة وكسر له أخرى ثم قال تغنينا يا حطيئة وهو يغنيه ، فقلت يا حطيئة أما تذكر قول عمر ؟ ففرع وقال رحم الله ذلك المرء ، أما لو كان حيا ما فعلنا هذا

بل كثير من شبان بنى أمية وبعض شباب بنى هاشم كانوا يعيشون عيشة هي الى الجاهلية أقرب منها الى الاسلام ، شراب وصيد وغزل ، كيزيد بن معاوية وصحبه فقد حكى المسعودي « أنه كان صاحب طرب وجوارح وكلاب (للصيد) ومنادمة على الشراب ، وفي أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة ، واستعملت الملاحى وظهر الناس شرب الشراب — وغلب على أصحاب يزيد وعماله ما كان يفعله »

ان شئت فاقرا سيرة الوليد بن عقبة الأموي وهو أخو عثمان بن عفان لأمه ، وكان من فتيان قريش وشعرائهم وشجعانهم وأجوادهم ، وولى الكوفة لعثمان ، تر حياة لم يؤثر فيها الاسلام كثيرا ، يتهتك في الشراب ، ويتخذ بيته ملجأ للمراق من أهل العراق ، الى غير ذلك من كرم جاهلي وعصبية جاهلية^(٢)

(١) النمرقة الوسادة

(٢) اقرأ سيرته في الجزء الرابع من الاغانى والسادس من كتاب الاصابة لابن حجر

بجانب هذا ترى قوما صبغهم الاسلام صبغة جديدة حتى انقطعت الصلة بينهم جاهليين وبينهم مسلمين، كالذى ترى فى سيرة أبى بكر وعمر وكثير من الصحابة، ورع وزهد وتواضع والتزام شديد لأوامر الدين ، وحياة لا تستطيع أن ترى فيها مأخذاً جاهلياً ينافى الاسلام ، وتجد فى خطبهم وكتبهم وأقوالهم أثر الاسلام بَيِّنًا ، حتى كأنهم خلقوا فى الاسلام خلقاً جديداً

الحق أن النزاع بين النفسية الاسلامية والنزعات الاسلامية والنفسية الجاهلية والنزعات الجاهلية كان شديداً وكان عهده طويلاً، وإن الاسلام لم يصبغ العرب صبغة واحدة على السواء، بل أن خير من تأثر به هم السابقون الأولون من المهاجرين والانصار، أولئك وصل الدين الى أعماق نفوسهم ، وأخلصوا له وأنفذوا أوامره، فأما من أسلموا يوم الفتح — أو بعده — وظلوا على كفرهم وعنادهم حتى رأوا النبی صلى الله عليه وسلم وأصحابه ينتصر فلم يسعهم إلا الاسلام فهو لاء كان دين كثير منهم رقيقاً «لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ، أُولَئِكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى» — وبحق قسم المؤرخون الصحابة الى طبقات حسب مراتبهم أوصلها بعضهم الى اثنتى عشر طبقة آخرهم من أسلم يوم الفتح (١)

كذلك كان سكان المدن والقرى بل من دخل فى الاسلام بعد من الأمم الأخرى أكثر تديناً وأعرف بأحكام الاسلام من كثير من سكان البادية ، جلس اعرابى الى زيد بن صوحان وهو يحدث أصحابه ، وكانت يده قد أصيبت يوم نهاوند فقال والله إن حديثك ليعجبني وأن يدك لآثر يبنى (يريد أنه يخشى أن تكون قد قطعت فى سرقة) فقال زيد وما يربك من يدى ؟ انها الشمال ، فقال الاعرابى والله ما أدرى آلىمين يقطعون أم الشمال فقال زيد بن صوحان صدق الله «الأعرابُ

(١) أنظر تاريخ أبى الفداء ج ١ ص ١٦٣ وقد زاد عليها طبقة وهم الصبيان

أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ» ويقول الطبري في تفسير هذه الآية «الاعراب (وهم من نزلوا البادية) أشد جحوداً لتوحيد الله وأشد نفاقاً من أهل الحضرة في القرى والامصار، وإنما وصفهم جل ثناؤه بذلك لجفائهم وقسوة قلوبهم وقلة مشاهدتهم لأهل الخير، فهم لذلك أقسى قلوباً وأقل علماً بحقوق الله»

فكثير من هؤلاء الاعراب كانت معرفتهم بالاسلام سطحية : كانوا يعكفون على الشراب ، ويتبعون تقاليد قبائلهم الجاهلية ، ويعقدون ألويتهم ، ويحاربون القبائل المعادية لهم في الاسلام كما كانوا يفعلون قبل الاسلام ، فأما الاسلام الحق والعقلية المسلمة فكانت أظهر في المدن وخاصة فيمن أسلموا قبل الفتح ، وكانت كذلك فيمن أخلص للدين من أهل المدن التي فتحها المسلمون

اذن كان في العصور الاولى للاسلام نزعات جاهلية ونزعات اسلامية كانتا تسيران جنباً الى جنب ، والذي يظهر لنا أن النزعة الجاهلية أثرت في الأدب الأموي وخاصة الشعر أكبر أثر ، فالمعاني الجاهلية والهجاء الجاهلي والفخر الجاهلي والحمية الجاهلية كلها واضحة أجلى وضوح في الشعر الأموي ، فأما النزعة الاسلامية فظهرت في العلوم الشرعية ، فقد أقبل المسلمون على القرآن يتدارسونه ، والحديث يجمعونه ، ويستمدون منهما الأحكام ، ويستخرجون المواعظ ، وهذا هو موضوعنا وهو ما سنبينه بعد ، وسندكر عند الكلام على الحركة العلمية أثر الاسلام في العلم

الفصل الثاني

الفتح الاسلامي ، وعملية المزج بين الامم

ستجد الكلام على الفتح الاسلامي مفصلا في القسم الخاص بالحياة السياسية من كتابنا ، وانما نعرض هنا في مسألة الفتح لما كان له اتصال بحياة المسلمين العقلية والدينية ، وبعبارة أخرى لما كان له تأثير في العلم أو في الدين من طريق مباشر أو غير مباشر

توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يتعد الاسلام جزيرة العرب ، وكان قد بدأ بدعوة الأمم المجاورة ومناوشتها ، ثم تتابعت الفتوح بعد ، ففتح العراق وكان يسكنه بعض قبائل عربية من ربيعة ومضر ، وبعض من الفرس ، عدا سكان البلاد الأصليين ، وكان منهم نصارى ومنهم مزديكية وزرادشتية ، وانشأ العرب مدينتي البصرة والكوفة ، أمر عمر بن الخطاب بانشاءهما « لما رأى أن مناخ المدائن والقادسية لم يوافق مزاج العرب ، فأمر أن يُرتاد موضع لا يفصله عن جزيرة العرب بر ولا بحر » ، وكان الغرض منهما أن يكونا معسكرين يشم منهما العرب هواء الصحراء ، ويتجنبون بهما وخم المدن ، فانشئت البصرة نحو سنة ١٥ هـ والكوفة سنة ١٧ هـ سنة ٦٣٨ م

وفتحت فارس ، وكان يسكنها الفرس وقليل من اليهود وبعض الروم « الرومانيين » الذين أسروا في الحروب الفارسية الرومانية

وفتح الشام ، وكان — قديما — قد تداولت عليه الأمم المختلفة ، والمدنيات

المختلفة من فينيقيين وأموريين وكنعانيين ، وغزاه فراعنة مصر واليونان والرومان وعرب غسان ، وأخيراً كانت أقلية رومانياً يتتقف بثقافة الرومانيين ، ويتدين بالنصرانية دينهم ، ففتحه الاسلام وقد ورث كثيراً من مدنيات الأمم الغابرة وكان يسكن هذه البلاد عند الفتح السوريون — أهل البلاد — والأرمن واليهود وبعض من (الروم) الرومان وبعض قبائل عربية ، وكان من أشهر هذه القبائل غسان ولخم وجذام وكلب وقضاعة وطائفة من تغلب ، وكانوا في القسم الجنوبي من الشام أكثر منهم في القسم الشمالي ، بحكم الجوار لبلادهم ، وكان هؤلاء العرب يتكلمون لغة هي مزيج من الآرامية والعربية ، وكانوا يعدون أنفسهم شاميين لا تربطهم بعرب الحجاز الا العلاقات التجارية ، وقد وقفوا بجانب الرومان في محاربة المسلمين عند الفتح» (١)

وفتحت مصر مهد المدنية القديمة ، والوارثة لحضارة قدماء المصريين واليونان والرومان ، وبها الاسكندرية مجمع المذاهب الفلسفية والطوائف الدينية وملتقى الآراء الشرقية والغربية — وكان يسكنها المصريون ومزيج من أمم أخرى كاليهود والرومان ، وفتحت بلاد المغرب من برقة وتونس والجزائر ومرّا كش الى مضيق جبل طارق وكانت كذلك في يد الرومان

وفي عهد الوليد بن عبد الملك فتحت السند وبخارى وخوارزم وسمرقند الى كاشغر ، وفتحت كذلك الاندلس ولكن لم يظهر أثر فتحها في عصرنا الذي اخترناه لبحثنا

سبب فتح العرب لهذه الممالك عملية مزج قوية بين الأمة الفاتحة والأمم المفتوحة ، مزج في الدم ومزج في النظم الاجتماعية ، ومزج في الآراء العقلية ، ومزج

(١) دائرة المعارف الاسلامية في مادة الشام

في العقائد الدينية ، وقد عمل على هذا المزج جملة أمور أهمها :

(١) تعاليم الاسلام في الفتح (٢) دخول كثير من أهل البلاد المفتوحة في الاسلام (٣) الاختلاط بين العرب وغيرهم في سكنى البلاد ، وسنقول كلمة مختصرة عن كل منها

تعاليم الاسلام في الفتح : تقضى تعاليم الاسلام بأنه اذا أراد المسلمون غزو بلد وجب عليهم — أولاً — أن يدعوا أهله الى الدخول في الاسلام ، فان أسلموا كانوا هم وسائر المسلمين سواء ، جاء في الحديث « أَمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا ، وَحَسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ » وان لم يُسَلِّمُوا دعوهم الى أن يُسَلِّمُوا بلادهم للمسلمين يحكمونها ، وَيَبْقُوا عَلَى دِينِهِمْ إِنْ شَاءُوا ، ويدفعوا الجزية ^(١) فان قبلوا ذلك كان لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، وكانوا في ذمة المسلمين يحمونها ويدافعون عنهم ، ومن أجل هذا يسمون « أهل الذِّمَّة » ^(٢) — وان لم يقبلوا الاسلام ولا الدخول تحت حكمه ودفع الجزية أعلنت عليهم الحرب وقوتلوا ، وفي أثناء القتال يحل للمسلمين أن يقتلوا المحاربين أو من يعين على الحرب ، فأما المرأة والطفل والشيخ الفاني والأعمى والمقعّد ونحوهم فلا يجوز قتلهم ، ما لم يكن أحدهم ذا رأى في الحرب يُؤَلَّبُ على المسلمين ، كما فعل رسول الله بدرّيد بن الصَّمَّة فقد قتله يوم حُنَيْنٍ وهو شيخ كبير ضرير لأنه كان

(١) يراد بالجزية ضريبة على الرأس يدفعها غير العرب الوثنيين من نصارى ويهود ومجوس وصابئة يدفعها الرجال فقط لا النساء ولا الصبيان ولا من في حكمهم ، وتدفع تقدماً أو متاعاً كشياب ونحوه ، وقد كانت الجزية المعتادة ديناراً عن كل شخص في السنة أو ١٢ درهما ثم صار هذا بعد هو الحد الأدنى فكانوا يأخذون دينارين أو ٢٤ درهما وأحياناً على الغني ٤ دنانير واذا لم يدفع الجزية جوزى بالحبس — أما الضريبة على الأرض فتسمى الخراج

(٢) هذا في غير عبدة الاوثان من العرب أو المرتدين عن الاسلام فهؤلاء لا تقبل منهم الجزية بل يخبرون بين الاسلام والقتال فقط

يدبر لقومه ويؤلبهم على المسلمين — وان طلب المحاربون صلحاً أثناء الحرب أجيبوا إليه متى رأى الامام ذلك « وان جَنَحُوا لِلِّسَلَمِ فَاجْنَحْ لَهَا » ووجب اذ ذاك تنفيذ الشروط حسب ما تعاقدوا ، وان لم يكن صلح وانتصر المسلمون وفتح البلد فهناك أسرى حرب ، وهناك أهل البلد المفتوح الذين لم يكونوا في الجيش المحارب ، فأما الأسرى فانا نجد أنه ورد فيهم في القرآن « حَتَّى إِذَا أَتَّخَذْتُمُوهُمْ فَسُدُّوا الْوُثَاقَ فِيمَا مَنَّا بَعْدُ وَإِذَا فِدَاءٌ » وهى تدل على أن ليس للامام فى الأسرى الا أن يَمُنَّ عليهم ويطلقهم ، أو يأخذ منهم مالاً فدية لهم ، أو يقتدى الرجل المحارب بالرجل المسلم — ولكننا نجد من ناحية أخرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يفعل أحد هذين الأمرين أحياناً ، وكان يقتل الأسير أحياناً ، ويسترق أحياناً ، ففي يوم بدر قتل عُبَيْةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ وقد أُتِيَ به أسيراً ، وقتل بنى قُرَيْظَةَ وقد نزلوا على حكم سعد ، وفادى بجماعة من المسلمين أسارى المشركين الذين أسروا بيدر ، ومنَّ على ثُمَامَةَ بْنِ أُتَالٍ الْحَنْفَى وهو أسير فى يده ، واسترق ذرارى بنى قُرَيْظَةَ ، واسترق نساء هوازن وذراريهم — كل هذا جعل أئمة الفقهاء يختلفون فى حكم الأسرى ، والذي يظهر لى أن هذه الأمور الأربعة متروكة للامام يتصرف فى كل حالة حسب ما يحيط بها من ظروف مشددة أو مخففة — رَوَى رجل من أهل الشام ممن كان يحرس عمر بن عبد العزيز قال ما رأيت عمر رحمه الله قتل أسيراً إلا واحداً من الترك ، كان جىء بأسارى من الترك فأمر بهم أن يُسْتَرْقَوْا فقال رجل ممن جاء بهم يا أمير المؤمنين لو كنت رأيت هذا — يشير الى أحدهم — وهو يقتل المسلمين لكثير بكاؤك عليهم ، فقال عمر غدوناك فاقتله ، فقام اليه فقتله (١)

وأما أهل البلد المفتوح غير المحاربين فالامام مخير بين استرقاقهم وتركهم

أحراراً يدفعون الجزية ، ولكن عمر — واليه المرجع في كثير من هذه المسائل — ترك أهل سواد العراق أحراراً ، وفرض على كل شخص من الموسرين في العام ثمانية وأربعين درهما وعلى غير الموسرين أربعة وعشرين^(١)

وإذا استُرِقَ الأسرى أو أهل البلد المفتوح وزعت توزيع الغنائم ، فتُخَمَّسُ ، ومعنى التخميس أن يعطى خمسها لليتامى والمساكين وابن السبيل ، وأربعة الأخماس تعطى للغنائمين ، للراجل سهم ولل فارس سهمان

فترى من هذا أن الفتح الاسلامي كان يستتبع رقا ، وهذا الرق هو الذي كان له الأثر الأكبر في عملية المزج ، ولهذا كان لا بد فيه من كلمة خاصة

كان الرق نظاما شائعا في العالم ، وكل ما كانت تختلف فيه الأمم حسن معاملة الرقيق أو سوءها ، فكان اليهود يَسْتَرِقُونَ ، وقد أمرت الديانة اليهودية بحسن معاملة الرقيق ، وحددت زمن الاسترقاق بسبع سنين يصبح الرقيق بعدها حراً ، واسترق اليونان في تاريخ يطول شرحه ، واسترق الرومان ، وقد منح القانون الروماني للمالك الحق في اماتة عبده أو استحيائه ، وجعله مستبداً غير مسئول عن تصرفه في عبده ، وكثر الرقيق في عهدهم حتى ذكر بعض مؤرخيهم أن الأرقاء في الممالك الرومانية يبلغون في العدد ثلاثة أمثال الأحرار ، وأخذت أحوال الأرقاء تتعدل من حيث المعاملة ومن حيث القانون من القرن الثاني للمسيح

وكان العرب في جاهليتهم يغزو بعضهم بعضاً ، ويستولون على رجال بعضهم ونسائهم فيكونون أرقاء ، وكان لهم أسواق يباع فيه الرقيق ، جاء في « أسد الغابة » أن زيد بن حارثة مولى رسول الله كان من قضاة ، وأمه من طي ، أصابه سبأ في الجاهلية لأن أمه خرجت تزور قومها « بني معن » فأغارت عليهم خيل « بني القين

(١) أنظر في هذا المبسوط والام وفتح القدير وتاريخ الطبري

ابن جَسْر « فأخذوا زيدا فقدموا به سوق عُكَاظ ، فاشتراه حَكِيم بن حِزَام لعمته خديجة بنت خُوَيْلِد ، وهى وهبته لرسول الله فأعتقه » الى آخر ما ذكره

وفى الحديث عن على رضى الله عنه قال « خرج عُبدان الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحُدَيْبِيَّة قبل الصلح ، فكتب اليهم مواليهم يقولون يا محمد والله ما نخرجوا اليك رغبة فى دينك ، وانما هربوا من الرق ، فقال ناس رُدَّهم اليهم ، فغضب صلى الله عليه وسلم من ذلك ... وأبى أن يردهم » ^(١) — وكان هؤلاء الارقاء فى الجاهلية وعلى عهد رسول الله منهم عرب كما بينا ، ومنهم غير ذلك سود وبيض ، وكان هؤلاء البيض من الممالك التى حول جزيرة العرب ، وكثير من الصحابة جرى عليهم الرق كبلال وكان حبشياً ، وسلمان وكان فارسياً ، وصُهَيْب . وكان يلقب بالرومى « لأن الروم أسرته من الأيَّلة ونشأ بالروم » الخ وأهدى رسول الله حسان بن ثابت « سيرين » وكانت أمه قبطية فولدت عبد الرحمن بن حسان »

وقد اتبع نظام الاسترقاق فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم فكان من أسرى الغزوات يجوز استرقاقه ، كالذى كان فى غزوة بنى المصْطَلِق ، جاء فى سيرة ابن هشام . « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أصاب منهم (من بنى المصطلق وهم عرب من خزاعة) سَبِيًّا كثيراً فشا قَسَمُهُ فى المسلمين

ولما انتشر الاسلام لم يعد يقبل من العربى الا الاسلام أو القتال ، فأصبح غير محل للاسترقاق ، حتى لو وقع أسيراً فأما أن يسلم وأما أن يُقتل

ولما كثرت الفتوح كثر الاسترقاق من الأمم المفتوحة كثرة هائلة ، ووُزِعَ المسترقون رجالاً ونساء وذرارى على العرب الفاتحين ، حتى يروى المسعودى أن الزبير بن العوام كان له ألف عبد وألف أمة

(١) أخرجه أبو داود والترمذى

وهذا الرقيق يعد مملوكاً للسيد كالمُتاع له الحق في بيعه وهبته وإذا كان أمةً جاز
تسليده أن يستمتع بها

ولا يقيد الملك بعدد ، فيصح أن يكون للرجل عدد كبير من العبيد ، كما يصح
أن يكون في بيته عدد من الأماء ، وإذا ولدت الأمة من سيدها فالولد ابنه وتسمى
هي « أم ولد » له ، وتبقى ملكاً له بعد ولادتها يستمتع بها ، ولكن لا يجوز له أن يبيعها
أو يهبها ، وإذا مات عنها فهي حرة

وقد أوجب الاسلام حسن معاملة الرقيق ، وحجب الى المالك العتق ، وجعله
كفارة عن كثير من الجرائم

وللمالك أن يعتق عبده أو أمتة أى أن يرد له حريته ولكن تبقى هناك صلة
بين المعتق والمعتق وهذه الصلة تسمى « الولاء » ويظل المعتق يُنسب الى من
أعتقه فيقولون زيد بن حارثة مولى رسول الله أى عتيقه وإن كانت أُمّى فهي مولاته
والجمع موالٍ ، وإذا كان المعتق من قبيلة فقد ينسبون المولى الى هذه القبيلة فيقولون
مولى بنى هاشم ، أو مولى ثقيف ، وأحياناً يعبرون عن ذلك بقولهم الهاشمى بالولاء ،
أو الأموى بالولاء وهكذا ، ويظهر أثر هذه الصلة فيما إذا مات المعتق من غير وارث
فإن المعتق يرثه

وهناك نوع آخر من الولاء ليس سببه العتق وإنما سببه أن يسلم رجل على يد
رجل آخر ويتعاقد معه فيكون ولاؤه له ^(١)

(١) هذه المعانى التى ذكرناها هي المعانى الدقيقة لكلمة مولى ، وقد يطلق بمعنى أوسع من ذلك ، فكثير من كتب الادب والتاريخ في كثير من المواضع تطلق كلمة الموالى على كل من دخل في الاسلام من غير العرب سواء استرق أو لم يسترق ، بل ورد هذا الاستعمال نفسه في كتب الفقه أيضاً ، جاء في الزيلعى « وسمى العجم موالى لان بلادهم فتحت عنوة بأيدي العرب ، وكان للعرب استرقاقهم فاذا تركوهم أحراراً فكأنهم أعتقوهم ، والموالى هم المعتقون »

هذا هو نظام الولاء من الوجهة القانونية ، أما تاريخياً فيظهر أن الولاء لم يكن له هذا المعنى عند العرب في الجاهلية وإنما كان يطلق « موالى الرجل » على خلفائه وعلى ورثته من بنى عمه وأخوته وسائر عصبته ، جاء في تفسير الطبرى « قال ابن زيد في قوله تعالى « وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيًّا » قال الموالى العصبه ، هم كانوا في الجاهلية الموالى ، فلما دخلت العجم على العرب لم يجدوا لهم اسماً فقال تبارك وتعالى « فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ » فسموا الموالى ، قال والمولى اليوم موليان : مولى يرث ويورث ، فهو لاء ذوو الأرحام ، ومولى يورث ولا يرث فهو لاء العتاقة » فظاهر من قوله أن إطلاق الموالى على هذه الأعاجم معنى مستحدث في الاسلام ، والظاهر أنه استعمل في عهد النبي صلى الله عليه وسلم بهذا المعنى ، فقد كانوا يطلقون على زيد بن حارثة مولى رسول الله ، ووردت أحاديث كثيرة في هذا المعنى مثل « نهى رسول الله عن بيع الولاء » « والولاء لُحْمَةٌ كُلُّحْمَةِ النِّسْبِ » الخ فلما كثر الرق والعتق كثر استعمال الموالى بمعنى المعتقين — وقد تأثر الموالى بالعصبية العربية ، فكان موالى كل قبيلة ينتسبون اليها ، ويحاربون معها ، ويُستخدَمون في شؤونها ، ومع أن الاسلام يدعو الى أن المسلمين كلهم سواء فقد كان العرب وخاصة في الدولة الأموية ينظرون اليهم نظرة فيها شيء من الازدراء ، مما أدى الى كراهية الموالى للامويين وتكوين عصبية لهم ، جاء في تاريخ الطبرى في ثورة المختار « التقى أشراف الناس بالكوفة فأرجفوا بالمختار ، وأخذوا يقولون : والله لقد تأمر علينا هذا الرجل بغير رضا منا ، ولقد أدنى موالينا ، فحملهم على الدواب وأطعمهم فيئنا ، ولقد عصتنا عبيدنا ، فحَرَبَ ^(١) بذلك أيتامنا وأراملنا . . . ثم قال أنهم بعثوا اليه شَبَبْتُ بن رُبَيْعٍ فقال له عمدت الى موالينا وهم فيء أفاءه الله علينا وهذه

(١) حربه سلبه ماله

البلاد جميعا ، فأعتقنا رقابهم ، نأمل الأجر في ذلك والثواب والشكر ، فلم ترض لهم بذلك حتى جعلتهم شركاء في فيئنا » الخ ولعل هذه القصة أصدق ما يرينا نظرة العربي اذ ذاك الى مواليه ، وقد روى ابن عبد ربه في العقد الفريد أن معاوية قال انى رأيت هذه الحمراء (يعنى الموالى من الفرس والروم) قد كثرت . . . وكأنى أنظر الى وثبة منهم على العرب والسلطان ، فقد رأيتُ أن أقتل شطراً ، وأدع شطراً لاقامة السوق وعمارة الطريق . . . ثم عدل عن ذلك (١)

هذا النظام الذى ذكرت من رق وولاء كان له أكبر الأثر في الحياة العقلية ، فكثير من رجال البلاد المفتوحة ونسائهم وزعوا — كأنهم غنائم — على الجيش العربى ، فكان لكل جندى تقريبا عبيد وأماء يستخدمهم فى حوائجه ، ويستولد الاماء ان شاء ، فنتج من هذا أن البيت العربى دخلت فيه عناصر أخرى فارسية أو رومانية أو سورية أو مصرية أو بربرية ، فلم يعد البيت العربى بيتاً عربياً بل بيتاً مختلطاً ورب البيت هو العربى — أضف الى هذا أن هؤلاء الأماكن يلدن أولاداً يحملون الدمين معاً ، الدم العربى من جهة الأب والدم الأجنبى من جهة الأم ، وكان عدد هذا النوع كثيراً لكثرة الفتوح التى فتحتها المسلمون فى عهد عمر ومن بعده ، وكثير من هذه البلاد فتحت عنوة فكان أهلها وغزاتها عرضة للاسر والسبى ، حتى أكبر الاسر وأعظمها جاهاً ، ذكر « الزمخشري » فى كتابه « ربيع الأبرار » « أن الصحابة رضى الله عنهم لما أتوا المدينة بسبى فارس فى خلافة عمر بن الخطاب كان فيهم ثلاث بنات ليزدجرد (ملك الفرس) فباعوا السبايا ، وأمر عمر ببيع بنات يزدجرد أيضاً فقال له على بن أبى طالب : أن بنات الملوك لا يعاملن معاملة غيرهن من بنات

السُّوقَة ، فقال كيف الطريق الى العمل معهن ؟ قال يَقُومُن ، ومهما بلغ ثمنهن قام به من يختارهن ، فَقُومُن ، فأخذهن على بن أبي طالب ، فدفع واحدة لعبد الله بن عمر ، وأخرى لولده الحسين ، وأخرى لمحمد بن أبي بكر الصديق ، فأولد عبد الله ولده سالمًا ، وأولد الحسين زين العابدين ، وأولد محمد ولده القاسم ، فهؤلاء الثلاثة بنو خالة وأمهاتهم بنات يزديجرد « ويشك بعض الباحثين في نسبة هؤلاء البنات الى يزديجرد ، ولكن يظهر أن ليس هناك شك في أنهن من خيرة بنات الفرس ، جاء في كتاب الكامل للمبرد « وكان أهل المدينة يكرهون اتخاذ أمهات الأولاد ، حتى نشأ فيهم على بن الحسين والقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله ، ففاقوا أهل المدينة فقها وورعا فرغب الناس في السَّراري »

هؤلاء الأرقاء والموالي أنتجوا في الجيل الثاني لعهد الفتح عددًا عديدًا ، منهم من يعد من سادات التابعين وخير المسلمين ، ومن حملة لواء العلم في الاسلام ، وسنبين ذلك عند الكلام على الحركة العلمية

دخول البلاد المفتوحة في الاسلام : هذا هو العامل الثاني من عوامل المزج ، فقد دخل في الاسلام كثير من أهل البلاد المفتوحة ، وامتزجوا بالعرب كأنهم منهم ، جاء في فتوح البلدان للبلاذري « أن أبرويز كان وجه الى الديلم فأُتِيَ بأربعة آلاف ، وكانوا خدَمه وخاصته ، ثم كانوا على تلك المنزلة بعده ، وشهدوا القادسية مع رُستم ، فلما قتل وانهزم المجوس اعتزلوا ، وقالوا ما نحن كهؤلاء ، ولا لنا ملجأ ، وأثرنا عندهم غير جميل ، والرأى لنا أن ندخل معهم في دينهم ، فنَعَزَّ بهم ، فاعتزلوا فقال سعد ما هؤلاء ؟ فأتاهم المغيرة بن شُعيب فسألم عن أمرهم ، فأخبروه بنجرهم ، وقالوا ندخل في دينكم ، فرجع الى سعد فأخبره فأمنهم ، فأسلموا وشهدوا فتح المدائن مع سعد ، وشهدوا فتح جُلُولاء ، ثم تحولوا فنزلوا الكوفة مع

المسلمين»^(١) الى كثير من أمثال ذلك ، وقد كان الباعث للناس على الدخول في الاسلام مختلفا ، فمنهم من دخل فيه مؤمناً بحسن مبادئه وصدقها ، وساعد على ذلك بساطة العقيدة الاسلامية وسهولة فهمها ، ومنهم من دخل فيه فراراً من الجزية ، لما علمت أن من رضى أن يبقى على دينه تضرب عليه الجزية ، فاذا أسلم رفعت عنه ، حتى لقد هال بعض الأمراء دخول الناس في الاسلام فراراً من الجزية وكتب عمال الحجاج اليه « أن الخراج قد انكسر وأن أهل الذمة قد أسلموا ولحقوا بالأمصار » فأخذ الحجاج منهم الجزية مع اسلامهم ، وجعل قراء البصرة يبكون لما يرون^(٢) — ومنهم من كان يسلم فراراً مما يشعر به من المهانة ، فالاسلام هو دين الحكم والولادة ورجال الدولة ، وهو الدين الذي يعتز به من انتسب اليه وغيره من الأديان كان مكروهاً ممقوتاً في الدولة ، وأن أبيع لمعتنيقه أن يأتوا بشعائره ، أضف الى ذلك أن بعض الولاة لم يكن يرعى تعاليم الدين وتسامحه في الذميين ، فكان يسومهم سوء العذاب ، فاضطروا أن يفروا من دينهم الى الاسلام

الامتزاج في السكنى : هذا هو العامل الثالث في الامتزاج — بعد الفتح صارت البلاد مسكونة بالفاتحين والمفتوحين جميعاً ، واشتركوا في الحركة الاجتماعية والاقتصادية ، يقول « ولِهَوْسِن Wellhausen » أن أكثر من نصف سكان الكوفة كانوا من الموالى ، وكان هؤلاء الموالى يحتكرون الحرف والصناعة والتجارة ، وكان أكثرهم فرساً في جنسهم وفي لغتهم ، جاءوا الكوفة أسرى حرب ثم دخلوا في الاسلام ثم اعتنقهم مالكوهم العرب ، فكانوا موالى لهم ، وبذلك صاروا أحراراً ، ولكنهم ظلوا في حاجة الى حماية سادتهم ، فهم حاشية العرب وأتباعهم في السلم والحرب » وكذلك سائر البلاد أصبح فيها العنصر العربي والعنصر الأجنبي ممتزجين

(١) فتوح البلدان ص ٢٨٠ طبع أوروبا (٢) ابن الاثير جزء ٤ ص ١٧٩

تمام الامتزاج ، في فارس والشام ومصر والمغرب ، حتى جزيرة العرب نفسها لم تعد جزيرة العرب ، بل صارت جزيرة المسلمين جميعاً ، فقد كانت « المدينة » مقر الخلافة في عهد الفتوح الكبرى — عهد عمر — فكان يقصدها الرسل وذوو الحاجات من الأمم الأخرى . ويأتى اليها الأسرى ، لأن تعاليم عمر كانت تقضى ألا توزع الغنائم والسبي في البلاد المفتوحة ، إنما يؤتى بها الى مقر الخلافة ثم توزع ، فامتلات المدينة وما حولها بالعناصر غير العربية ، وكانت مكيدة قتل عمر مدبرة من بعض سكانها من الفرس ، ومنفذه أبو لؤلؤة الفارسى ، أضف الى هذا أن مكة والمدينة كانتا مقصد الحجاج والزائرين من الداخلين في الاسلام من بقاع الأرض — وهذا جعل جزيرة العرب شائعة بين المسلمين ، تختلط فيها العناصر المختلفة ، وشأنها في ذلك شأن الممالك الأخرى المفتوحة ، وليس من فارق الا أن العنصر العربى في جزيرة العرب أكثر والعنصر الاجنبى في الممالك المفتوحة أعظم

كل هذه العوامل التى ذكرناها كان لها أثرها في الامتزاج ، فالعادات الفارسية والرومانية امتزجت بالعادات العربية ، وقانون الفرس والقانون الرومانى امتزج بالأحكام التى أوضحها القرآن والسنة ، وحكم الفرس وفلسفة الروم امتزجت بحكم العرب ، ونمط الحكم الفارسى ونمط الحكم الرومانى امتزج بنمط الحكم العربى ، وبالأجمال كل مرافق الحياة والنظم السياسية والاجتماعية والطبائع العقلية تأثرت تأثراً كبيراً بهذا الامتزاج

واذ كانت هذه الأمم المفتوحة أرقى من العرب مدنية وحضارة وأقوى نظماً اجتماعية كان من الطبيعى أن تسود مدنياتهم وحضارتهم ونظمهم ، واذا كان العرب هم العنصر القوي الفاتح عدلوا هذه النظم بما يتفق وعقليتهم ، فسادت في البلاد المفتوحة

النُّظْمُ التي كانت متبعة من قبل الفتح ، كنظام الدواوين ونحوه ، وأُقرَّ على ما كان عليه حتى لغة الدواوين نفسها ظلت باللغة الأصلية الى عهد عبد الملك بن مروان ، وليس موضوعنا هنا هذه النظم الاجتماعية والسياسية وانما موضوعنا « الحياة العقلية » وكان شأنها شأن النظم ، فهذا الامتزاج كان لِقَاحاً بين العقل العربي والعقل الأجنبي أنتج بعد قليل من الزمان

دخل كثير من هؤلاء المغلوبين في الاسلام ولهم حكمة وأمثال وشعر وأدب ، وبعضهم لهم علوم مدونة وكتب مطولة ، قد مرنو على تدوين العلوم والبحث العلمي فلما استقروا في الاسلام واطمأنوا اليه أخذوا هم وأبنائهم يطبقون منهاجهم العلمي الذي ألفوه وألفه آباؤهم كما سنوضحه بعد

حتى العقيدة الاسلامية لم تخل من تأثير بهذا الامتزاج . أتظن أن الفارسي أو السوري النصراني أو الروماني أو القبطي اذا دخل في الاسلام انمحت منه كل العقائد التي ورثها من آبائه وأجداده قروناً ، وفهم الاسلام كما يريد الاسلام من تعاليمه ؟ كلا . لا يمكن أن يكون ذلك وعلم النفس يأباه كل الابداء ، فللفارسي صورة للاله غير صورة النصراني الروماني وهما غير صورة النصراني المصري وللألفاظ المستعملة في الديانات كجهنم والجنة وابليس والملائكة والآخرة والنبي ونحو ذلك معان عند كل من هؤلاء تخالف المعاني التي يتصورها الآخر ، فلا تظن أن هؤلاء الذين دخلوا في الاسلام من الأمم الأخرى فهموه بخدافيره كما فهمه العربي ، حتى المخلصون منهم في اعتناقهم الاسلام ، انما فهمه كل قوم مشوباً بكثير من تقاليدهم الدينية القديمة وفهموا ألفاظه قريبة من الألفاظ التي كانت تستعمل في دياناتهم ، والشواهد على ذلك ، كثيرة كالذي رواه الأزدي في كتابه فتوح الشام من أن رجلاً من مسلمي الشام اتصل مع آخر على أن يرعى له غنمه في نظير أن يهبه زوجته تبيت عنده ، وقد

دعاهما عمر بن الخطاب فأقرا بأن ليس عندهما علم بحرمة ذلك ، وكالذى ذكره ابن عبد ربه فى العقد الفريد من تشدد الموالى فى الدين تشدداً لا يعرفه عرب البادية — وقد ظهر تأثير هؤلاء القوم فى أواخر القرن الأول للهجرة بظهور المذاهب المختلفة كما سنبين ذلك إن شاء الله — ولعل هذا المعنى هو الذى أخاف عمر بن الخطاب عند الفتح ، فقد روى أبو حنيفة الدينورى فى كتابه الأخبار الطوال « أن المسلمين أصابوا يوم جلولاء غنيمة لم يغنموا مثلاً قط ، وسبوا سبياً كثيراً من بنات أحرار فارس ، فذكروا أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يقول اللهم إني أعوذ بك من أولاد سبايا الجلوليات ، فأدرك أبناءهن قتال صيفين » نعم انه استعاذ بالله وحق له أن يستعيز منهم ومن كل الموالى ونسلهم ، فقد كانت لهم عصبية سياسية غير العصبية العربية وضدها ، ولها تقاليد دينية لا بد أن ينزعوا إليها ويخالفوا بهذه النزعة الاسلام العربى فى بساطته

الحق أن الامتزاج كان قوياً شديداً ، وأن الموالى وأشباههم كان لهم أثر فى كل مرافق الحياة ، وانه كانت هناك حروب فى المسائل الاجتماعية كالحروب البدنية بين الجنود ، ولكن لم يُعَنَّ المؤرخون بتفصيلها وهى أولى بالعناية ، فقد كانت حرب بين الاسلام والديانات الأخرى ، وكانت حرب بين اللغة العربية واللغات الأخرى ، وكانت حرب بين الآمال العربية وآمال الأمم الأخرى ، وكانت حرب بين النظم الاجتماعية العربية البسيطة وبين النظم الاجتماعية الفارسية والرومية ، ولئن كانت الحروب البدنية قد انتهت تقريباً بفتوح أبى بكر وعمر وعثمان ، فان الحروب الأخرى ظلت قائمة

(١) العقد جزء ٢ ص ٩١

(٢) العقد جزء ٢ ص ٩٠

بعد ذلك طويلاً ، وأصبحت المملكة الإسلامية مجالاً فسيحاً لهذه الحروب تتنازع فيها الآمال ، فرس يحنون الى مملكتهم القديمة ويعتقدون أنهم أرقى من العرب ، وروم كذلك ، والمغرب ومصر يودون الاستقلال ، كما أن النظم السياسية فيها متضاربة ، فرس لهم نظام خاص وروم لهم نظام مغاير ، وقانون روماني كان يسود المستعمرات الرومانية ، وقانون فارسي كان يسود المملكة الفارسية ، واسلام يستمد منه قانون يوافقهما أحياناً ويخالفهما أحياناً ، وفرس محوس ظلوا محوساً ، وفرس أسلموا ، وروم نصارى ، وروم أسلموا ، ومصريون نصارى ، ومصريون أسلموا ، ويهود في هذه البلاد ظلوا يهوداً ، ويهود أسلموا ، ولغة عربية وفارسية وقبطية ويونانية وعبرية — كل هذه النزعات واللهجات كانت في حروب مستمرة ، وكانت المملكة الإسلامية كلها هي موطن القتال ، ولم يصلنا مع الاسف من وقائعها إلا النزر اليسير ، فلم تعد الأمة الإسلامية أمة عربية ، لغتها واحدة ، ودينها واحد ، وخيالها واحد ، كما كان الشأن في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، بل كانت الأمة الإسلامية جملة أمم وجملة نزعات وجملة لغات تتحارب ، وكانت الحرب سجالاً ، فقد ينتصر الفرس وقد ينتصر العرب وقد ينتصر الروم

والحق أن العرب وإن انحذوا في النظم السياسية والاجتماعية وما اليها من فلسفة وعلوم ونحو ذلك فقد انتصروا في شيئين عظيمين : اللغة والدين ، فأما لغتهم فقد سادت هذه الممالك جميعها ، وانهزمت أمامها اللغات الأصلية للبلاد ، وصارت هي لغة السياسة وهي لغة العلم ، وظل هذا الانتصار حليف العرب في أكثر هذه الممالك الى اليوم ، وكذلك الدين ، فقد ساد هذه الأقطار واعتنقوه وقل من بقي من سكان هذه البلاد على دينه الأصلي — ومع انتصار هذين المرفقين — اللغة والدين — فقد تأثر كل منهما أثناء هذه الحروب ، فاللغة لم تعد سليقة وفشا فيها اللحن ، حتى

احتاجت الى قوانين تضبطها ، قال أبو عبيدة « مر عبد الله بن الأهمم بقوم من الموالى وهم يتذاكرون النحو ، فقال : لئن أصلحتموه انكم لأول من أفسده ، قال أبو عبيدة ليته سمع لحن صفوان و خاقان ومؤمل بن خاقان »^(١) وكذلك غلبت على اللغة كلمات أعجمية وتراكيب أعجمية و خيال أعجمى ومعان أعجمية ، وقل مثل ذلك فى الدين فهو وان انتصر فقد تأثر ، فتفرق المسلمون فرقا ، ووضعت المذاهب المختلفة ، وشرح القرآن نفسه بما ورد فى الكتب الأخرى من أقاصيص بدء الخليقة وما الى ذلك ، وظلت هذه الفرق تتجادل بالقول أحيانا وبالسيف أحيانا

والآن نريد أن نتعرض بشئ من التفصيل لبيان ما يتصل بموضوعنا من هذه الحركات وهى الحركة العقلية — بأوسع معانيها من علم ودين — لقد كان للفرس دين وكان لهم حكمة ، وكان لهم عقلية ، وكان للروم دين وعلم وعقلية ، وقد أثر هذان العاملان أثرا كبيرا فى الأمة الاسلامية فلنشرحهما ونبين أثرهما

(١) العقد الفريد جزء ٢

مصادر هذا الباب

اعتمدنا فى الفصل الاول من هذا الباب على :

(١) القرآن

(٢) تاريخ الطبرى جزء ٢ ، ٣

(٣) Spirit of Islam للسيد أمير على

(٤) Literary History of Persia للاستاذ برون

عدا ما ذكرناه من الكتب أثناء البحث

وفي الفصل الثاني على

(١) كثير من كتب الفقه أهمها الام للامام الشافعي والمبسوط للسرخسي وفتح القدير في باب

السيرة، والاحكام السلطانية

(٢) دائرة المعارف الاسلامية في مادة عبد

(٣) فتوح البلدان للبلاذري

(٤) الاخبار الطوال للدينوري

عدا ما أشرنا اليه في ثنايا الفصل من الكتب

الباب الثالث

الفرس وأثرهم

الفصل الأول

دين الفرس

ضاع استقلال فارس بالفتح الاسلامي كما أسلفنا ، وأصبحت ولاية إسلامية ، ووقع كثير من الفرس في أيدي العرب أسرى ، واسترق بعضهم ، ووُزِعَ على العرب ودخل كثير من الفرس في الاسلام ، وتعلم كثير منهم العربية ، حتى كان منهم في الجيل الثاني من يتكلم العربية كأحد أبنائها ، ولكنهم رغم هذا كله لم يصبحوا في جملتهم كالعرب في عقيدتهم ، ولا كالعرب في مطامعهم وطموحهم ونزعاتهم ، ولا كالعرب في عقليتهم ، بل اعتنقوا الاسلام فصغوه بصيغتهم الفارسية ولم يتجردوا من كل عقائد الدين القديم وتقاليده ، ففهموا الاسلام بالقدر الذي يسمح به دين قديم اعتنقه قومه أجيالا ونشأ فيه ناشئهم وشب عليه ، كذلك تعلم كثير منهم العربية ولكن لم يترك خياله الفارسي ، ولم ينس ما كان لقومه من شعر ومثل وحكمة — كان من أثر ذلك طبيعياً أن تدخل تعاليم في الاسلام جديدة ، ونزعات دينية جديدة ، ظهر أثرها فيما بعد ، وأظهرها في الاسلام التشيع والتصوف — وكان من أثر ذلك أيضاً طبيعياً أن يُغمر الأدب العربي بالحِكَم الفارسية والقصص الفارسية والخيال الفارسي اذن كان للفرس دين ذو أثر ، وأدب ذو أثر ، فلندرس باختصار دينهم وأدبهم

لنستطيع بعد أن نفهم أثر ذلك، ولسنا ندرس دينهم منذ نشأتهم، ولا نعرض لأصل أدبهم وتدرجه في الرقي، فذلك ما لايهمنا كثيراً، إنما نتعرض لدينهم وطرف من أدبهم في الدولة الساسانية التي حكمت الفرس قبل الاسلام، واستمروا في الحكم من سنة ٢٢٦ م الى سنة ٦٥١ م حين تسلمها العرب من أيديهم وحكموها بولاتهم، فهذه الدولة الساسانية هي التي كان لها الأثر المباشر في المسلمين من الناحية الدينية والأدبية جميعاً

دين الفرس: اشتهر الفرس — والجنس الآري عامة — بأنهم مبالغون الى عبادة المظاهر الطبيعية، فالسما الصافية، والضوء والنار والهواء، والماء ينزل من السماء، جذبت أنظارهم، وجعلتهم يعبدونها على أنها كائنات إلهية، حتى سمو الشمس « عين الله » والضوء « ابن الله » كما أن الظلمة والجذب ونحوهما كائنات إلهية شريرة ملعونة

ومن أول أمرهم وقفوا الانسان أمام آلهة الخير يستمد منهم المعونة، ويصلى لهم، ويسبح بحمدهم، ويقدم الضحايا اليهم

ورأوا أن آلهة الخير في نزاع دائم مع آلهة الشر، وأعمال الانسان من صلاة ونحوها تعين آلهة الخير في منازلها آلهة الشر، واتخذوا النار رمزاً للضوء وبعبارة أخرى رمزاً لآلهة الخير، يشعلونها في معابدهم، وينفجونها بأمدادهم، حتى تقوى على آلهة الشر وتنتصر عليها، وقد كانت هذه النار منبعاً عندهم لخيال شعري خصب

زرادشت (Zoroaster) ثم جاء بعد زرادشت — نبي الفرس فدعا الى تعاليم جديدة أسست على الديانة القديمة بعد اصلاحها

وقد كان وجود زرادشت نفسه موضع شك عند كثيرين، وموضوع جدل طويل بين النافين والمثبتين، واختلف المثبتون في تاريخ وجوده على أقوال تتردد

بين سنة ٦٠٠٠ قبل الميلاد ، و ٦٠٠ ق م ، وقد ألف الأستاذ جاكسون Jackson كتاباً قيماً في حياته ^(١) كان له أثر كبير في ترجيح كفة المثبتين لوجوده ، وقد وصل في بحثه الى أن زرادشت شخص تاريخي لا خرافي ، وأنه كان من قبيلة ميديا (في الجزء الغربي الشمالي من فارس) ، وأنه ظهر أمره نحو منتصف القرن السابع قبل الميلاد ، ومات نحو سنة ٥٨٣ ق م بعد أن عمر ٧٧ سنة ، وأن موطنه كان أذربيجان ولكن أول نجاح ناله كان في بلخ ، وعلى أثر دخول الملك « يُشتاسب » ^(٢) في دينه ، وان دينه انتشر من بلخ الى فارس كلها

ومع هذا فلا تزال بعض هذه النتائج التي وصل اليها جاكسون مجالاً للبحث ويروى أهل دينه كثيراً عما صحب ولادته من المعجزات وخوارق العادات والاشارات ، وأنه انقطع منذ صباه الى التفكير ، ومال الى العزلة ، وأنه في أثناء ذلك رأى سبع رؤى ، ثم أعلن رسالته فكان يقول أنه رسول الله بعثه ليزيل ما علق بالدين من الضلال ، وليهدي الى الحق ، وقد ظل يدعو الناس سنين طوالاً فلم يستجب لدعوته الا القليل ، فأوحى اليه أن يهاجر الى بلخ ، فنشر دعوته في بلط الملك ، فاستجاب له أولاً أبناء الوزير ثم الملكة نفسها ، وقاومه رجال البلاط وجادلوه ولكنه انتصر عليهم بدخول الملك نفسه — وهو يُشتاسب — في دينه وقد تحمس الملك لهذا الدين الجديد فتتابع الناس للدخول فيه أفواجا

تعاليمهم: نلاحظ فيما ذكرنا أن الفرس قبل زرادشت بنوا دينهم على أساسين (١) أن لهذا العالم قانوناً يسير عليه وأن له ظواهر طبيعية ثابتة (٢) وأن هناك نزاعاً وتصادماً بين القوى المختلفة ، بين النور والظلمة ، والخصب والجذب ، الخ فجاءت

(١) اسمه Life of Zoroaster

(٢) ورد اسمه في الشهنامه جشتاسب

تعاليم زرادشت مبنية على هذين الأساسين أيضاً إلا أن من قبله كانوا يعبدون الأرواح الخيرة وهي كثيرة ، فوحدها زرادشت في إله واحد هو « أَهْورَامَزْدَا » وكذلك فعل في قوى الشر فحصرها في شيء واحد سمي « دَرْوِجْ أَهْرَمَنْ » وبذلك كانت عنده قوتان فقط : قوة الخير وقوة الشر

ولزرادشت كتاب مقدس يسمى « وِسْتَا » Avesta وعليه شرح يسمى « وِسْتَا زَنْد » قال المسعودي « واسم هذا الكتاب « أَلَايِسْتَا » وإذا عرّب أثبتت فيه قاف فليل « أَلَايِسْتَا »^(١) وعدد سورته إحدى وعشرون سورة تقع كل سورة في مائتي ورقة.. وأنه كتب باللغة الفارسية الأولى، وأن أحداً اليوم لا يعرف معنى تلك اللغة ، وإنما نقل لهم إلى هذه الفارسية شيء من السور في أيديهم يقرءونها في صلواتهم ، في بعضها الخبر عن مبتدأ العالم ومنتهاه وفي بعضها مواغظ « اه مختصراً

وأصل الوستا ومؤلفو سوره لا يزال موضع جدال بين الباحثين ، كما هو الشأن في زرادشت نفسه ، ويقول « البرَسِيُون » « أن الوستا كان في عهد الدولة الساسانية مؤلفاً من إحدى وعشرين سورة لم يبق منها في عهدنا الاسورة كاملة وبعض آيات من سور مختلفة » وهذا الذي وصل إلينا لا يحتوي إلا على مقاطعات في الشعائر الدينية ، وفي قوانين للمعابد الزرادشتية

وقد عاملهم المسلمون في الفتح معاملة أهل الكتاب وعدوا كتابهم كأنه كتاب منزل وجرى عمر على ذلك لما روى له الحديث « سُنُّوا بِهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ الْخ » والمشهور من تعاليمه أنه كان يقول أن للعالم أصليين أو إلهين — أصل الخير وهو « أَهْورَا » أو « أَهْورَا مَزْدَا » وأصل الشر وهو « أَهْرَمَنْ »^(٢) وهما في نزاع دائم

(١) هكذا ورد بالياء والظاهر أن الباء في ايسناق تصحيف وصوابه باء لانه في اللغة الفارسية تنقل الفاء باء عادة فيكون صواب كتابته الايستاق

(٢) يسمى أيضاً إله الخير يزدان وفي ذلك يقول ابن العلاء المعري

ولكل من هذين الاصلين قدرة الخلق ، فاصل الخير هو النور وقد خلق كل ما هو حسن وخير ونافع ، فخلق النظام وخلق الحق وخلق النور وكلب الحراسة والديك ونحو ذلك من الحيوانات النافعة ، والواجب على المؤمن العناية بها — وأصل الشر هو الظلمة وقد خلق كل ما هو شر في العالم ، فخلق الحيوانات المفترسة والحيات والأفاعي والحشرات والهوام ، وعلى المؤمن قتلها — والحرب بين هذين الروحين سجال ، ولكن الفوز النهائي لروح الخير — والناس في الحرب ينحازون الى الروحين فمنهم من ينصر « أهورا » ومنهم من ينصر « أهرمن » وليس الروحان يباشران الحرب بأنفسهما بل بمخلوقاتهما .

وكان الانسان موضع نزاع بين الروحين ، لأنه مخلوقٌ مَزْدَا ، ولكنه خلقه حر الارادة ، فكان في الامكان أن يخضع للقوى الشريرة ، والانسان في حياته تتجاذبه القوتان ، فان هو اعتنق ديناً حقاً ، وعمل عملاً صالحاً ، وطهر بدنه ونفسه ، فقد أخزى روح الشر ، ونصر روح الخير ، واستحق الثواب من « مزدا » ، والا قوَّى روح الشر ، واسخط عليه « مزدا »

كذلك من أهم مبادئه أن أشرف عمل للانسان الزراعة والعناية بالماشية ، فحب الى الناس أن يزرعوا وان يعيشوا مع ماشيتهم ، وان يبدوا ويعملوا ، حتى حرم على أتباعه الصوم لأنه يضعفهم عن العمل ، وهو يريد لهم أقوياء عاملين وعلم أن الماء والهواء والنار والتراب عناصر طاهرة يجب ألا تنجس ، وكان من مظاهر هذا تقديس النار واتخاذها رمزاً ، وتحريم تنجيس الماء الجاري وتحريم دفن الموتى في الارض ونحو ذلك

وللإنسان حياتان : حياة أولى في الدنيا ، وحياة أخرى بعد الموت ، ونصيبه في حياته الآخرة نتيجة لأعماله في حياته الأولى — قد أحصيت أعماله في كتاب وعدت سيئاته ديونا عليه ، وفي الأيام الثلاثة التي تعقب الموت يُحَلَّقُ نفس الإنسان فوق جسده وتنعم أو تشقى تبعاً لأعماله ، ومن أجل هذا تقام الشعائر الدينية في هذه الأيام إيناساً للنفس — وعند الحساب تمر النفس على صراط محدود على شفير جهنم ، وهو المؤمن عريض سهل المجاز ، والكافر أحد من الشعرة ، فمن آمن وعمل صالحاً جاز الصراط بسلام ، ولقى « أهورا » فأحسن لقاءه وأنزله منزلاً كريماً ، والا سقط في الجحيم وصار عبداً لأهر من — وإن تعادلت سيئاته وحسناته ذهب الروح الى الاعراف الى يوم الفصل

وقد غيَّب على الإنسان في حياته الدنيا ما أعد له بعد موته ، ولم يعلم الخير من الشر ، فكان من رحمة الله أن أرسل رسولا يهدي به الناس ، وفي الأساطير الزرادشتية أن النبوة نزلت أولاً على جمشيد ملك الفرس ولكن لم يستطع حملها فحملها زرادشت ، فكان الله يكلمه وينزل عليه الوحي

ويعلم زرادشت أن يوم القيامة قريب ، وأن نهاية هذه الحياة ليست بعيدة ، وسيستجمع « مزدا » قوته ويضرب إله الشر ضربة قاضية ، ويعذبه بالجحيم هو ومن أطاعه فلسفته — بجانب هذه التعاليم الدينية نرى للديانة الزرادشتية أبحاثاً فيما وراء المادة ، ولكن لم يكن بحثهم فيها شاملاً كالذي كان عند اليونان ولكن كان بحثاً جزئياً مفرقا — كذلك نرى لهم في هذا خاصية تشبه التي كانت للعرب بعد الإسلام وهي امتزاج أبحاثهم فيما وراء المادة بالدين والتوفيق بينهما ، ولم يبحثوا فيها بحثاً مستقلاً كما فعل اليونان مثلاً

فمن أبحاثهم الفلسفية بحثهم في النفس ، فالديانة الزرادشتية ترى أن نفس الإنسان

قد خلقها الله بعد أن لم تكن ، وتستطيع أن تنال الحياة الأبدية السعيدة اذا حاربت الشرور في العالم الأرضي ، وقد منحها الله حرية الارادة فهي تستطيع أن تختار الخير أو الشر — وللنفس الانسانية قوى مختلفة (١) الضمير أو الوجدان (٢) القوة الحيوية (٣) القوة العقلية (٤) القوة الروحية (٥) القوة الواقية الخ

وبعدُ فهل دين زرادشت ثنوي يرى أن العالم يحكمه آلهان إله الخير وإله الشر وان لكل إله ذاتا مستقلة ؟ أو هو موحد يرى أن العالم يحكمه إله واحد وأن مافي العالم من خير وشر وما فيه من قوتين متنازعتين ليستا إلا مظهرين أو أثرين للإله واحد ؟ اختلف الباحثون في الاجابة على هذا السؤال : فيرى كثيرون أنه ثنوي كما يدل عليه ظاهر كلامه وقد ذهب الى هذا الرأي بعض كتاب الفرنج ومنهم من كتب في دائرة المعارف البريطانية مادة زرادشت ، ومنهم من يرى أنه موحد والى ذلك ذهب الشهرستاني والقلقشندي في صبح الأعشى وغيرهما، ويقول الأستاذ هوج • Haug « أن زرادشت كان من الناحية اللاهوتية موحداً ، ومن الناحية الفلسفية ثنويا » ولعله يريد من قوله هذا أنه من ناحية العقيدة الدينية كان يرى أن للعالم إلهاً واحداً ، ولكن إذا تعرض لشرح فلسفة العالم وما فيه من خير وشر يتطاحنان وما الى ذلك فهو ثنوي يرى أن في العالم قوتين

والديانة الزرادشتية كانت هي الديانة السائدة في فارس وما حولها في عهد الكيانيين Achaemenian ، فلما انتصر الاسكندر سنة ٣٣١ ق م . كان ذلك ضربة لهذه الأسرة وليايتها ، ثم انتعشت في عهد الأسرة الساسانية التي بدأت حكمها سنة ٢٢٦ م وظلت هي ديانة الفرس الى الفتح الاسلامي فاعتنق كثير منهم الاسلام ، وفر بعضهم أولاً الى جزائر في الخليج الفارسي ثم الى الهند ، ولا تزال منهم طائفة في

بمباي يسمون بالفرسيين Parsees يتمسكون بهذا الدين الى اليوم — وبقيت طائفة في فارس تستمسك بدينها بعد الفتح ، واستمرت معابد النار قائمة في كل ولاية من ولايات فارس تقريباً في القرون الثلاثة الأولى بعد الفتح^(١)

ولعلك من قراءة مذهبهم تشعر بما كان لهم من أثر كبير في المسلمين ، وسيتضح ذلك تمام الوضوح عند الكلام على المذاهب الدينية ، الا أنه يصح لنا أن نذكر هنا اجمالاً أن عقيدة العامة من المسلمين في الصراط بهذا النمط الذي يحكيه زرادشت ، وفي الاعراف على هذا الوجه ، وتحليق الروح على الجسد ، واقامة الشعائر لذلك ثلاثة أيام ، كل هذه عقائد تشبه مشابهة تامة مافي الديانة الزرادشتية ، وقول المعتزلة في الجبر والاختيار وقول الصوفية في أقسام النفس كله مأخوذ عن هذه الديانة ، وسنعرض لهذا الموضوع في موضعه ان شاء الله

ماني والمانوية^(٢) — من أشهر المذاهب الدينية التي كثر أتباعها المانوية وقد ولد ماني — مؤسسها — حسبما يقول البيروني في كتابه « الآثار الباقية » سنة

(١) وفي نهاية القرن الثامن الميلادي أسلم ساسان أمير بلخ وكان زرادشتياً ، وأسس مملكة اسلامية هي الدولة السامانية وفي سنة ٨٧٣ م دخل جمع كبير من أهل الديلم الزرادشتيين في الاسلام على يد ناصر الحق أبي محمد ، وفي سنة ٩١٢ م دعا الحسن بن علي من الاسرة العلوية — التي كانت تحكم الفاطمية الجنوبية لبحر قزوين — أهل الديلم وطبرستان الى الاسلام فأجاب أكثرهم وكان بعضهم وثنيين وبعضهم زرادشتيين ، وفي سنة ١٠٠٣ م = ٣٩٤ هـ دخل الفاعر المشهور مهيار الديلمي في الاسلام على يد الشريف الرضي وكان من عبدة النار وقبله في أوائل القرن الثامن للميلاد خرج من الزرادشتية الى الاسلام عبد الله بن المقفع — وقد بقي بعض الزرادشتيين في فارس الى اليوم وقد قدر بعضهم عبدة النار فيها من عهد قريب بنحو ٨٥٠٠

(٢) يلاحظ أنهم تارة ينسبون الى ماني منانية وتارة ينسبون اليه مانوية وهذه الاخيرة هي التي استعملها المتنبي اذ يقول

وكم لظلام الليل عندك من يد تخبر أن المانوية تكذب

٢١٥ أو سنة ٢١٦ م، وعاش مذهبه رغم ما لقي من اضطهاد الى القرن الثالث عشر الميلادي، وكان له أتباع كثيرون في آسيا وفي أوروبا، وكان له أثر كبير في الآراء الدينية، وكانت تعاليمه مزيجاً من الديانة النصرانية والزرادشتية وهي — كما يقول الأستاذ « بَرُون » « أن تُعدَّ زرادشتية مُنصَّرة أقرب من أن تعد نصرانية مُزَرَدَشَّة » — وقد كتبت عنه مصادر عربية وأخرى أوروبية، وقد وثَّق الأستاذ برون المصادر العربية وقال إنها أقرب الى الصحة — وأهم المصادر العربية في هذا « الفِصَل في الملل والنحل لابن حزم والمَلل والنحل للشهرستاني وفهرست ابن النديم وتاريخ اليعقوبي والآثار الباقية للبيروني وسرَّح العيون لابن نُباتة

وخلاصة مذهبه أن العالم كما قال زرادشت نشأ عن أصليين: وهما النور والظلمة، وعن النور نشأ كل خير، وعن الظلمة نشأ كل شر، والنور لا يقدر على الشر، والظلمة لا تقدر على الخير، وما يصدر عن الانسان من خير فمصدره إله الخير، وما يصدر من شر فمصدره إله الشر، فان هو نظر نظرة رحمة فتلك النظرة من الخير والنور، ومتى نظر نظرة قسوة فتلك النظرة من الشر والظلمة، وكذلك جميع الحواس — وقد امتزج الخير والشر في هذا العالم امتزاجاً تاماً، وقد أطلال هو وأعجابه في كيفية هذا الامتزاج بما يشبه الخرافات

وهو في هذا لا يخرج كثيراً عن تعاليم زرادشت — كما ترى — ولكن يخالفه بعد في أمر جوهرى: وهو أن زرادشت كان يرى أن هذا العالم الحاضر عالم خير، لما فيه من مظاهر نصرة الخير على الشر، في حين أن ماني يرى أن نفس الامتزاج شر يجب الخلاص منه، وزرادشت يرى أن يعيش الانسان عيشة طبيعية فيتزوج وينسل ويعنى بزراعة ونسله وماشيته ويقوى بدنه ولا يصوم، وأنه بهذه المعيشة ينصر إله الخير على إله الشر، أما ماني فنزع منزعا آخر هو أشبه ما يكون بالرهبة — وقد كان

مانى — كما يقولون — راهباً بجرّان ، فرأى أن امتزاج النور بالظلمة فى هذا العالم شر ، ومن أجل هذا حرّم النكاح حتى يستعجل الفناء ، ودعا الى الزهد وشرع الصيام سبعة أيام أبدأً فى كل شهر ، وفرض صلوات كثيرة ، يقوم الرجل فيمسح بالماء ويستقبل الشمس قائماً ثم يقوم ويسجد وهكذا ، اثنتا عشرة سجدة ، يقول فى كل سجدة منها دعاء — ونهى أصحابه عن ذبح الحيوان لما فيه من ايلام ، وأقر بنبوّة عيسى وزرادشت وقال أنه (ماني) النبي الذي بشر به عيسى

وقد ذكروا أن هرّمز ملك الفرس اعتنق مذهبه وأيده ، وأنه دخل فى دينه كثير من الناس ، فلما مات هرّمز وخلفه بهرام الأول لم يرتح الى تعالیه وقتله وشرّد أصحابه ، ولكن لم تمت تعالیه ، وكان لدينه أئمة يتعاقبون ، وكان مركز الامام أولاً فى بابل ثم تحول الى سمرقند وقد قال ابن النديم « انه لما انتشر أمر الفرس وقوى أمر العرب عادوا الى هذه البلاد ، ولا سيما فى فتنة الفرس ، وفى أيام ملوك بنى أمية ، فإن خالد بن عبد الله القسرى كان يعنى بهم ، وآخر ما انجأوا فى أيام المقتدر ، فانهم لحقوا بخراسان خوفاً على نفوسهم ، ومن بقى منهم ستر أمره ، وقد قلوا فى المواضع الاسلامية ، فأما مدينة السلام فكانت أعرف منهم أيام معز الدولة نحو ثلثمائة ، وأما فى وقتنا هذا فليس بالحضرة منهم خمسة أنفس ، ثم عد بعضاً من رؤسائهم الذين يظهرون الاسلام ويبطنون الزندقة ، فعند منهم الجعد بن درهم ، وكان مؤدباً لمروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية . وكان خالد بن عبد الله القسرى يرمى بالزندقة ، وصالح ابن عبد القدوس وبشار بن برد وسلم الخاسر ، وقال « قيل أن البرامكة بأسرها الا محمد بن خالد بن برمك كانت تُرمى بالزندقة ، وقرأت بخط بعض أهل المذهب ان المأمون كان منهم وكذب فى ذلك ، وقد أصبحت رياستهم الآن فى سمرقند »

وكذلك انتشرت فى أوروبا الى فرنسا الجنوبية ، وقد ذكروا أن سانت

أوغسطين St Augustine ظل مانوياً عهداً طويلاً قبل أن يعتنق النصرانية وكان للمانوية حركة أدبية في التأليف ، وأثاروا كثيراً من المسائل جادلوا فيها من يوم نشأتهم ، فقد حكوا أن موبد موبدان (قاضي القضاة) ناظر ماني فقال الموبد أنت الذي تقول بتحريم النكاح لتستعجل فناء العالم ؟ فقال ماني واجب أن يعان النور على خلاصه بقطع النسل ، فقال الموبد فمن الحق الواجب أن يعجل لك هذا الخلاص الذي تدعو إليه ، وتعان على ابطال هذا الامتزاج المذموم ، فبهت ماني فأمر بهرام به فقتل — كذلك حكوا أن المأمون ناظر أحد المانوية فقال هل ندم مسيء على إساءته ؟ قال بلى ، قد ندم كثير ، قال فخبرني عن الندم على الإساءة إساءة هو أم إحسان ؟ قال إحسان ، قال فالذي ندم هو الذي إساء ؟ قال نعم . قال فأرى صاحب الخير هو صاحب الشر ، وقد بطل قولكم أن الذي ينظر نظر الوعيد غير الذي ينظر نظر الرحمة ، قال فأزعم أن الذي إساء غير الذي ندم ، قال فندم على شيء كان من غيره أو على شيء كان منه ؟ فقطعه بهذه الحجة وقد شغلت تعاليمهم جزءاً غير قليل من علم الكلام عند المسلمين ، يذكرون آرائهم ويعنون بالرد عليها ، فضلاً عن أن هؤلاء المانوية أثاروا مسائل كثيرة كالبحث في المعاد هل هو بالاجسام أو بالارواح . أخذ المسلمون يتجادلون فيها وينحازون إلى طوائف

وهنا مسألتان جديدتان بالبحث

(الأولى) لم اضطهدت المانوية قبل الاسلام وفي الاسلام ؟

وقد أشرنا إلى الجواب عنها فيما تقدم ، فالذي دعا بهرام إلى قتله هو وأصحابه الناحية العملية ، فقد كان زرادشت يدعو إلى العمل وكان في تعاليمه مؤيداً للقومية والنزعة الحربية ، مما يتفق وميول فارس اذ ذاك ، وعلى العكس من ذلك تعاليم

ماني ، فهي أميل الى الزهد والرغبة عن ملاذ الحياة واستعجال الفناء وهي —
ولا شك — في منتهى الخطورة لملكة حرية كفارس ، ويؤيد هذا ما جاء في
الآثار الباقية « ان بهرام قال — ان هذا خرج داعياً الى تخريب العالم فالواجب
أن نبداً بتخريب نفسه قبل أن يتهيأ له شيء من مراده » — أضف الى ذلك
أنهم فوق تعاليمهم هذه كانوا على ما يظهر جادين في الدعوة الى مذهبهم يتسترون
ببلاسلام أو النصرانية ليتسنى لهم الدعوة ، ويكونوا بآمن من الاضطهاد

المسألة (الثانية) أنا نرى كلمة الزندقة كثيراً ما يوصف بها اتباع ماني فهل
هي خاصة بهم ؟

الظاهر من عبارات ابن النديم أن الزنادقة كلمة تطبق على أصحاب ماني ومعتنقي
مذهبه ، وليست كلمة عامة تطلق على كل كافر أو ملحد ، ونرى الخياط المعتزلي في
كتابه « الانتصار » يستعملها للدلالة على فرقة خاصة قرينة لليهود والنصارى ،
فيقول مثلاً « قال ابن الراوندي : وزعم ثُمَامَةُ أن أكثر اليهود والنصارى والمجوس
والزنادقة والدهرية يصيرون في القيامة تراباً ولا يدخلون الجنة الخ . » وقد استعمل
الخياط هذه الكلمة في كتابه نحو خمس مرات كلها في مثل هذا التعبير

ويقول ابن قتيبة في كتابه « المعارف » عند كلامه على أديان العرب في
« الجاهلية » كانت النصرانية في ربيعة وغسان وبعض قضاة ، وكانت اليهودية في
حمير وبنى كنانة وبنى الحارث بن كعب وكندة ، وكانت المجوسية في تميم منهم
زُرارة وحاجب بن زُرارة ، ومنهم الأقرع بن حابس ، كان مجوسياً ، وكانت الزندقة
في قريش ، أخذوها من الحيرة « وظاهر من تعبيره هذا أن الزندقة التي يعنيها دين
خاص من دين الفرس بدليل قوله أنهم أخذوها من الحيرة ، والحيرة كانت تحت
حكم الفرس كما علمت ، وقريب من هذا ما قاله الجوهري في الصحاح « الزنديق

من الثنوية وهو معرّب ، والجمع الزنادقة ، وقد تزندق والاسم الزندقة « فظاهر من هذا أن الزندقة مذهب خاص كاليهودية والنصرانية ، وإن استعماله في معنى الاتحاد على العموم إنما هو معنى حدث بعد . جاء في لسان العرب « الزنديق القائل ببقاء الدهر فارسي معرب زَنْدَ كَرَّ أى يقول ببقاء الدهر ، وقال أحمد بن يحيى ليس في كلام العرب زنديق ، فإذا أرادت العرب معنى ما تقوله العامة قالوا مُلْحِدٌ وَدَهْرِيٌّ » ولكن هل هو يطلق على كل الثنوية أو على مذهب خاص من الثنوية كالمناوية فقط ؟ الظاهر من كلام ابن قتيبة أنه يطلق على مذهب خاص بدليل أنه قابلهما في كلامه بالمجوسى ، فذكر أن تيميا تمجست ، وقریشاً تزندقست ، ولو كان يريد من الزندقة الثنوية على العموم لما كان هناك معنى للمقابلة ، ويؤيده ما في الصحاح « الزنديق من الثنوية » ولم يقل « الزنادقة الثنوية » ولكن هل يطلق اللفظ على المناوية فقط ؟ حكى الألوسى عن ابن الكمال « أنه يطلق على المزدكية ، وأن مزدك ألف كتاباً اسمه زند وإن المزدكية غير المناوية » وهذا خطأ فإن مزدك لم يضع زنداً وإنما هو شرح كتاب الأوستا لزرادشت

ويقول بعضهم أن زنديق في الأصل معناها بالفارسية الذي يتبع زَنْد ثم أطلق على المناوية لأنهم كانوا يأخذون زند وغيره من الكتب المقدسة ويشرحونها على مذهبهم بطريقة التأويل ، ويقول الأستاذ « ييثان » انانرى من كلام الفهرست والبيرونى أن المناوية يطلقون كلمة « السَّمَّاعِينَ » على من لم يرقوا إلى الدرجة العليا من المناوية ولم يلتزموا أن يؤدوا كل الواجبات التي تفرضها الديانة من رهبانية وزهد الخ ويقابلهم « الصَّدِّيقُونَ » وهم الراقون الملتزمون بأداء تلك الواجبات ، يفضلون الفقر على الغنى ، ويزهّدون في العالم وشؤونه ، وكلمة صديق عربية ولها أصل آرامى وهو صديق Saddiqai ، وقد أخذها الفارسية فحوروها إلى زنديق

فوضعوا ند nd موضع dd كما قالوا شنباذ Shanbath في سبباذ Sabbath^(١) وعلى قوله تكون الكلمة وضعت لطائفة خاصة من المانوية ثم استعملت في المانوية جميعا ، ثم استعملت في الألحاد على العموم كالذي روى عن أبي يوسف أنه قال ثلاثة لا يسمون من ثلاثة ، من طلب النجوم لم يسلم من الزندقة ومن طلب الكيمياء لم يسلم من الفقر ، ومن طلب غرائب الحديث لم يسلم من الكذب^(٢)

(ح) مزدك — حول نحو سنة ٤٨٧ م ظهر في فارس مزدك ويقول الطبري أنه من أهل نيسابور ودعا الى مذهب ثنوى جديد ، فكان يقول أيضا بالنور والظلمة ، ولكن أكبر ما امتاز به تعاليمه « الاشتراكية » ، فكان يرى أن الناس ولدوا سواء فليعيشوا سواء ، وأهم ما تجب فيه المساواة المال والنساء ، قال الشهرستاني « وكان مزدك ينهى الناس عن المخالفة والمباغضة والقتال ، ولما كان أكثر ذلك انما يقع بسبب النساء والأموال ، فأحل النساء وأباح الأموال ، وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ » وقال الطبري « قال مزدك وأصحابه إن الله انما جعل الأرزاق في الأرض ليقسمها العباد بينهم بالتأسي ، ولكن الناس تظالموا فيها ، وزعموا انهم يأخذون للفقراء من الأغنياء ، ويردون من الكثيرين على القليلين ، وان من كان عنده فضل من الأموال والنساء والأمتعة فليس هو بأولى به من غيره ، فاقترضوا السلفة ذلك واغتنموه ، وكاتفوا مزدك وأصحابه وشايعوهم ، فابتلى الناس بهم ، وقوى أمرهم ، حتي كانوا يدخلون على الرجل في داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله ، وجعلوا « قباد » على تزوين ذلك وتوعده بخلعه ، فلم يلبثوا إلا قليلا حتي صاروا لا يعرف الرجل منهم ولده ، ولا المولود أباه ، ولا يملك الرجل شيئا مما يتسرع به » وقال في موضع آخر « وكان مما أمر به الناس وزينه لهم وختمهم عليه التأسي في

١: (٧) رانظر برون. ٢: (٢) التقط الفريضة مجزأة ٢ ص ١٩٩ .

أموالهم وأهلهم ، وذكر أن ذلك من البر الذي يرضاه الله ويثيب عليه أحسن الثواب ، وأنه لو لم يكن الذي أمرهم به وحشهم عليه من الدين كان مكرومة في الفعال ورضى في التفاوض الخ^(١)

فترى من هذا أن تعاليمه اشتراكية من أسبق الاشتراكيات في العالم ، ويقول الأستاذ « نولدكه » « ان الذي يميز مزدك عن الاشتراكية الحديثة ما لتعاليمه من الصبغة الدينية » — وكانت له تعاليم روحية أخرى ، فقد كان يعلم القناعة والزهد وحرمة الحيوان فلا يذبح

وقد اعتنق مذهبه آلاف من الناس ولكن قباز نكل به وبقومه ، ودبر لهم مذبة سنة ٥٢٣ م كاد يستأصلهم بها

ومع هذا فقد ظل قوم يتبعون مذهبه حتى الى ما بعد الاسلام ، وذكر الاصطخري وابن حوقل أن سكان بعض قرى كيرمان كانوا يعتنقون المزدكية طول عهد الدولة الأموية

ونلمح وجه شبه بين رأى أبي ذر الغفاري وبين رأى مزدك في الناحية المالية فقط ، فالطبري يحدثنا أن أبا ذر « قام بالشام وجعل يقول : يامعشر الأغنياء ، واسبوا الفقراء ، بشر الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكوي من نار تكوي بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، فما زال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك وأوجيوه على الأغنياء ، وحتى شكا الأغنياء ما يلقون من الناس » ثم بعث به معاوية الى عثمان بن عفان بالمدينة حتى لا يفسد عليه أهل الشام ، ولما سأله عثمان : ما لأهل الشام يشكون ذربك ؟ قال لا ينبغي للأغنياء أن يقتنوا مالا . فترى من هذا أن رأيه قريب جداً من رأى مزدك في الأموال . ولكن من أين أتاه هذا

(١) أنظر تاريخ الطبري جزء ٢ ص ٨٨ وما بعدها

الرأى ؟ يحدثنا الطبرى أيضاً عن جواب هذا السؤال فيقول : أن ابن السوداء لقي أبا ذر فأوعز اليه بذلك ، وأن ابن السوداء هذا أتى أبا الدرداء وعبادة ابن الصامت فلما سمعا لقوله وأخذه عبادة الى معاوية وقال له هذا والله الذى بعث عليك أبا ذر^(١) — ونجن نعلم أن ابن السوداء هذا لقب يلقب به عبد الله بن سبأ ، وكان يهوديا من صنعاء أظهر الاسلام فى عهد عثمان ، وأنه حاول أن يفسد على المسلمين دينهم وبث فى البلاد عقائد كثيرة ضارة قد نعرض لها فيما بعد ، وكان قد طوّف فى بلاد كثيرة ، فى الحجاز والبصرة والكوفة والشام ومصر — فمن المحتمل القريب أن يكون قد تلقى هذه الفكرة من مزدكية العراق أو اليمن واعتنقها أبو ذر حسن النية فى اعتقادها ، وصبغها بصبغة الزهد التى كانت تنجح اليها نفسه ، فقد كان من أتقى الناس وأورعهم وأزهدهم فى الدنيا وكان من الشخصيات المحبوبة التى أثرت فى الصوفية

ومما يتصل بعقائد الفرس الدينية وكان له أثر فى بعض المسلمين أنهم كانوا ينظرون الى ملوكهم كأنهم كائنات إلهية اصطفاها الله للحكم بين الناس ، وخصهم بالسيادة وأيدهم بروح منه ، فهم ظل الله فى أرضه ، أقامهم على مصالح عباده ، وليس للناس قبلهم حقوق ، وللملوك على الناس السمع والطاعة — وهو معنى يشبه ما عرف فى أوربا بنظرية « الحق الإلهى — Divine right » وسادت فيها فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، ويقول الأستاذ « برون » « لم تعتنق نظرية الحق الإلهى بقوة كما اعتنقت فى فارس فى عهد الملوك الساسانية » وقد كان الاكاسرة يزعمون أن لهم الحق وحدهم أن يلبسوا تاج الملك بما يجرى فى عروقهم من دم إلهى — ويستدل الأستاذ « نولدكه » على اعتناق الفرس لهذه النظرية بحكاية وردت فى كتاب

(١) أنظر الطبرى جزء ٥ ص ٦٦ وما بعدها

الأخبار الطوال « وهى أن « بهرام جوين » (ولم يكن من بيت الملك ، وقد طلب الملك وحارب كسرى برويز فهزمه كسرى فهرب) مر فى طريقه بقرية ، فنزلها فى أصحاب له ، ونزلوا فى بيت عجوز ، فأخرجوا طعاماً لهم فتعشوا ، وأطعموا فضلتهم العجوز ثم أخرجوا شرباً ، فقال بهرام للعجوز : أما عندك شئ تشرب فيه ؟ قالت عندى قرعة صغيرة ، فأتتهم بها فجبوا رأسها وجعلوا يشربون فيها ، ثم أخرجوا نُقْلاً ، وقالوا للعجوز : أما عندك شئ يجعل عليه النقل ؟ فأتتهم بمنسف^(١) فألقوا فيه ذلك النقل ، فأمر بهرام فسقيت العجوز ، ثم قال لها : ما عندك من الخبر أيتها العجوز ؟ قالت الخبر عندى أن كسرى أقبل بجيش من الروم فخارب بهرام فغلبه واسترد منه ملكه ، قال فما قولك فى بهرام ؟ قالت : جاهل احمق يدعى الملك وليس من أهل بيت المملكة ؟ قال بهرام : فمن أجل ذلك يشرب فى القرع ، ويتنقل من المنسف ، فخرى مثلاً فى العجم يتمثلون به « اه

وهو استدلال ليس بالقوى فيما نرى ، فان كل أسرة مالكة متى استمرت فى الحكم أجيالاً أكسبها ذلك الحق فى الملك عند عامة الناس فى كل أمة وان لم يقدسوا ملوكها

وربما كان خيراً من هذا فى تأييد هذا رأى ما جاء فى كتاب « التاج » من أن ملوك آل ساسان لم يُكنَّها أحد من رعاياها قط ، ولا سماها فى شعر ولا خطبة ولا تقرىظ ولا غيره ، وإنما حدث هذا فى ملوك الحيرة^(٢) «

فالظاهر من هذا أن هؤلاء الملوك ترفعوا ورفعهم الشعب حتى لم يكن من الأدب أن يجرى على لسانهم اسمه ولا كنيته حتى ولا فى الشعر

هذه مذاهب الفرس الدينية ، وقد ذابت في المملكة الاسلامية بعد الفتح ، وكثير منهم أسلموا ولم يتجردوا من كل عقائدهم التي توارثوها أجيالا ، وبمرور الزمان صبغوا آراءهم القديمة بصبغة اسلامية ، فنظرة الشيعة في عليّ وأبنائه هي نظرة آبائهم الأولين في الملوك الساسانيين ، وثنوية الفرس كانوا منبعا يستقي منه « الرافضة » في الاسلام ، فحرك ذلك المعتزلة لدفع حجج الرافضة وأمثالهم ، أضف الى ذلك أن تعاليم زرادشت وماني ومزدك كانت تظهر من حين لآخر بين المسلمين في أشكال شتى في أواخر الدولة الأموية والدولة العباسية ، واضطر المسلمون أن يجادلوهم ويدفعوا حججهم ويؤيدوا دينهم بالمنطق والبرهان — وكانت اثاره هذه المسائل أحيانا تقسم المسلمين أنفسهم الى فرق فينحازون الى مذاهب ويتجادلون فيما بينهم ، مما أدى الى نشأة علم الكلام في الاسلام كما سنبينه بعد

الفصل الثاني

الادب الفارسي

كانت لغة الفرس في عهد الدولة الساسانية هي اللغة الفهلوية ، « وزند » الذي هو شرح للأوستا مكتوب بهذه اللغة — وكان لهذا الكتاب الديني أثر في حفظها — ولكن لم يصل الى عصرنا هذا كثير من ثروة الفرس الأدبية الفهلوية التي كانت منتشرة في الدولة الساسانية وصدر الاسلام ، والسبب في ذلك أن دين الاسلام ظفر بدين زرادشت وحل محله ، كما حلت اللغة العربية والحروف العربية محل اللغة الفهلوية والحروف الفهلوية ، فذهب الحكومة الفارسية ودينها ، وحكمها بالعرب ، وتحولها من مملكة الى ولايات اسلامية ، ودخول كثير من الفرس في الاسلام ، واضطراهم الى تعرف اللغة العربية ، للدين أو للدنيا أولها معاً ، وازدراء المسلمين لبيوت النيران التي هي شعائر الثنوية ، كل هذا عرض الديانة الفارسية واللغة الفهلوية للاضمحلال ثم القضاء

ومع هذا فقد وصلت الينا بقية قليلة من اللغة الفهلوية ، فهناك أحجار صخرية عليها نقوش فهلوية تتضمن أسماء ملوك ونبنا من تاريخ حياتهم ، يرجع عهدها الى أوائل الملوك الساسانيين — وهناك كتب فهلوية فرّ بها البرسيون الى الهند عند الفتح الاسلامي كما أسلفنا ، وأكثرها ديني وهذا هو السر في بقائها في يدهم وكذلك بقي من غير الكتب الدينية قطعة كبيرة من قانون فارس في عهد

الدولة الساسانية ، تتضمن الكلام على الأحوال الشخصية كالزواج وعلى الملكية وعلى الرق وغير ذلك ، وكتاب فى صناعة تحرير المراسلات وما يحسن فى بدئها وفى ختامها ، وآداب المراسلات الرسمية ، ومعجم للغة الفهلوية القديمة ، وتاريخ خيالى للشاطرنج ، وسير لبعض ملوك الفرس

ولم يصل إلينا شئ من شعر الدولة الساسانية على عظمة كثير من ملوكها وحاجتهم الى من يتغنى بمدائحهم ، فهل اكتفى الفن بتعبيراته بالحفر والنقش والبناء والغناء ، أو عبر أيضاً بالشعر ولكن عدا عليه الشعر العربى فقتله ؟ نحن الى الثانى أميل ومع قلة ما وصل إلينا من الأدب الفارسى فالظاهر أنه وصل الى المسلمين فى العصور الأولى الاسلامية كتب كثيرة فارسية ، فكثيراً ما يقول ابن قتيبة فى كتابه عيون الأخبار « وفى كتب العجم كذا » و (قرأت فى كتاب « إِبْرَوِيز » الى ابنه « شيرويه » وهو فى حبسه » وكثيراً ما ينقل صاحب كتاب التاج فى أخلاق الملوك عن الفرس وآدابهم وكتبهم

وقد أثر الأدب الفارسى فى الأدب العربى من وجوه :

(الأول) أن كثيراً ممن دخلوا الاسلام اضطروا — كما أسلفنا — الى تعلم اللغة العربية ، وسرعان ما ظهر منهم ومن نسلهم شعراء ، وقد ظهر منهم فى الدولة الأموية عدد ليس بالقليل ، من أشهرهم « زِيَادُ الْأَعْجَم » وأصله ومولده ومنشؤه بأصْبِهَان ثم انتقل الى خُرَاسَان ولم يزل بها حتى مات ^(١) وكان شاعراً جزل الشعر وسمى الأعجم لهذا الذى ذكره فى الأغاني وهو أنه كان يجرى على لغة أهل بلاده ، ولم يكن يطاوعه لسانه أن ينطق بالحروف العربية ، فكان يقول « ما كنت تسناً » فى « ما كنت تصنع — واذا كان يقول الشعر عن تعلم لا عن سليقة فقد

(١) هناك رأى آخر يخالف فى كونه أعجمياً وانظر الاقوال فى ذلك وترجمته فى جزء ١٤

كان كثير اللحن في شعره كقوله :

إِذَا قُلْتُ قَدْ أَقْبَلْتُ أَذْبَرْتُ كَمَنْ لَيْسَ غَادٍ وَلَا رَاحُ

وكان ينبغي أن يقول غاديا ولا راحاً (١)

ومن أشهر هؤلاء الشعراء الفرس أيضاً أسرة بن يسار النِّسائي (٢) ، فهي أسرة

فارسية شاعرة اشتهر منها اسماعيل بن يسار ومحمد وإبراهيم ولثلاثة شعر يغنى به ،

وكلهم ذو نزعة فارسية يتعصب للعجم ، وينقم من العرب

ومنهم أبو العباس الأعمى ، وأصله من أذربيجان ، وموسى شهوات وأصله

كذلك من أذربيجان ، الى كثير غيرهم

هؤلاء وأمثالهم نشأوا نشأة فارسية ، وتأدبوا بالأدب الفارسي ، ثم صاغوا أدبهم

في قالب العربي فأحكموا التقليد ، فألفاظهم عربية وتراكيبهم عربية وأوزانهم

عربية ، ولكن هذا لا يمنع أن بعض المعاني الفارسية والخيال الفارسي ، والروح

الفارسي ، كان يتسرب الى نفوسهم ثم الى شعرهم ، ولو انا عثرنا على نماذج من

الأدب والشعر الساساني لأمكن بوضوح المقارنة بين الأدبين ، وشرح الاقتباس

كيف كان ، ولكن مع فقد الأدب الفارسي فانا نلمح في شعر هؤلاء الذين سميناهم

معاني جديدة ، ونزعات جديدة نذكر لك أمثلة منها ، فقد سبجت حمامة بجانب

زياد فقال :

تَغْنَى ، أَنْتِ فِي ذِمِّي وَعَهْدِي وَذِمَّةِ وَالِدِي أَنْ لَمْ تُطَارِي
وَبَيْتِكَ أَصْلَحِيهِ وَلَا تَخَافِي عَلَى صُفْرِ مُزْغَبَةٍ صِغَارِ
فَإِنَّكَ كُلَّمَا غَنَيْتِ صَوْتًا ذَكَرْتُ أَحَبَّتِي وَذَكَرْتُ دَارِي

(١) الشعراء والشعراء لابن قتيبة (٢) سمي يسار بالنِّسائي لانه كان يصنع طعام العرس

ويبيعه فيشتره منه من اراد ذلك ممن لم تبلغ حاله صنع ذلك في بيته فنسب للنساء

فَإِمَّا يَنْتَلُوكَ طَلَبْتُ ثَارًا لَهُ نَبَأٌ لِأَنَّكَ فِي جَوَارِي

وذكروا أن حبيب بن المهلب لما سمع هذا الشعر قتل حمامته فاستعدى زياد عليه المهلب فحكم له بدية جارته ، أفلست ترى معي أن هذا الشعر ^(١) على هذا النحو جديد ، لم أعرفه للعرب قبل ، ولعل عليه مسحة مانوية من حماية الحيوان وقد أسلفنا أن ابن يسار وأخوته كانوا شعوبيين يقول أبو الفرج في اسماعيل ابن يسار « أنه كان مبتلى بالعصبية للعجم والفخر بهم ، فكان لا يزال مضروباً محروماً مطروداً » فخليق بمثل هذه الأسرة أن تتعصب أيضاً للادب الفارسي كما كانت تنزع النزعة الفارسية فمن قول اسماعيل يفخر على العرب

رُبَّ خَالٍ مُتَوَجِّجٍ لِي وَعَمٍّ	ماجدٍ مُجْتَدِي كَرِيمِ النَّصَابِ
إِنَّمَا سُمِّيَ الْفَوَارِسُ بِالْفُرِّ	سِ مِضَاهَاةَ رِفْعَةِ الْأَنْسَابِ
فَاتْرُكِي الْفَخْرَ يَا أُمَامُ عَلَيْنَا	وَاتْرُكِي الْجَوْرَ وَانْطَقِي بِالصَّوَابِ
وَأَسْأَلِي — إِنْ جَهِلْتِ — عَنَاوَعَنكِ	كَيْفَ كُنَّا فِي سَالِفِ الْأَحْقَابِ
إِذْ نُرَبِّي بَنَاتِنَا وَتَدُسُّ	وَنَسِفَاهَا بَنَاتِكُمْ فِي التُّرَابِ

ولاسماعيل هذا قصيدة طويلة لطيفة تقرأ فيها روح القصص الفارسي ، وجودة

التسلسل المنطقي مطلعها

كَلَّمْتُ أَنْتِ الْهَمُّ يَا كَلَّمْتُ	وَأَنْتُمُو دَانِي الَّذِي أَكْتُمُ
أَكْتُمُ النَّاسَ هَوَى شَفَنِي	وَبَعْضُ كَتْمَانِ الْهَوَى أَحْزَمُ
قَدْ لُمْتَنِي ظُلْمًا بِلَا ظَنَّةٍ	وَأَنْتِ فِيمَا بَيْنَنَا أَلَوْمُ

(١) لست أعني الشعر بحماية الحيوان لانه في جواره اذ يظهر ان هذا كان عند العرب في الجاهلية ولكن أعني تجسيم هذا المعنى حتى يستعدى الوالى يطلب الدية

وفيه يقول :

لا تثرُ كِنِي هَكَذَا مَيِّتًا لا أُمْنَحُ الْوَدَّ ولا أُصْرِمُ
أَوْفَى بِمَا قُلْتُ ولا تَنْدِمِي إِنَّ الْوَفَى الْقَوْلِ لا يَنْدِمُ

ثم يقول :

أَخَافِتُ الْمَشَى حِذَارَ الْعِدَى وَاللَّيْلُ دَاجٍ حَالِكٌ مُظْلِمٌ
وَدُونَ مَا حَاوَلْتُ إِذْ زُرْتُكُمْ أَخَوُكِ وَالْخَالُ مَعًا وَالْحَمُ
وَلَيْسَ إِلَّا اللَّهُ لِي صَاحِبٌ إِلَيْكُمْ وَالصَّارِمُ اللَّهُدَمُ
حَتَّى دَخَلْتُ الْبَيْتَ فَاسْتَدْرَفْتُ مِنْ شَفَقِ عَيْنَاكِ لِي تَسْجِمُ
ثُمَّ انْجَلَى الْحُزْنُ وَرَوَعَاتُهُ وَغُيِّبَ الْكَاشِحُ وَالْمُبْرِمُ

الى آخر الأبيات ^(١) ولأبراهيم أخيه كذلك شعر يعتز فيه بالعجم ويفخر به

على العرب

أضف الى هذا أن كثيراً من الشعراء والأدباء من العرب كانوا ينزلون فارس أو العراق ويخالطون أهلهم ، ويرون مدنياتهم ، فيكون لها الأثر في شاعريتهم ، فكان ينزل العراق الطرِّ مَّاح والكُمَيْت وأبو النجِّم الراجز وجريز والفرزدق ، وكان ينزل خراسان نهارُ بْنُ تَوْسِعَةَ وثابت قُطْنَةُ وابن مُفَرِّغِ الْحَمِيرِي والمغيرة بن حَبْنَاء وغيرهم ، ولا يخفى ما للبيئة من تأثير في النفس والخيال

(الثنائي) الوجه الثاني من وجوه تأثير الأدب الفارسي الناحية اللغوية ، فقد علمت أن العرب في جاهليتها كانت غنية في شؤون الحياة البدوية وما يتصل بها ، فلما فتحوا فارس وكثيراً من بلاد الروم رأوا من أدوات الزينة والترف ما لم يكونوا .

(١) تجد هذه القصيدة في الاغانى جزء ٤ ص ١٢١ و ١٢٢

قد رأوا ، ورأوا من الحرف الدقيقة والفنون الجميلة ما لم يعهدوه ، كما رأوا من تنظيم الحكومة وتدوين الدواوين ما لم يكن يخطر لهم على بال ، — فاضطروا أن يقتبسوا من الأمم المفتوحة ألفاظاً يدخلونها في لغتهم ، وكانت اللغة الفارسية أقرب منبع يستمدون منه ما يحتاجون إليه ، فأخذوا منهم الكوز والجرة والابريق والطشت والخوان والطبق والقصة والخز والديباج والسندس والياقوت والفيروز والبلور والكعك والفالودج واللوزينج والفلفل والزنجيل والقرقة والرجس والنسرین والسوسن والمسك والعنبر والكافور والصندل والقرنفل والبستان والارجوان والقرمز والسراويل والاستبرق والتنور والجوز واللوز والدولاب والميزاب والزئبق والباشق والجاموس والطيلسان والمغنطيس والمارستان والصك وصنجة الميزان والصولجان والكوسج ونوافج المسك والفرسخ والبند وهو العلم الكبير والزمرد والآجر والجوهر والسكر والطنبور^(١) الخ ونظرة عامة الى هذه الأسماء تريك أن العرب اضطروا الى أخذ كلمات فارسية في كل مرفق من مرافق الحياة ، ولا بد أن يكونوا قد أخذوا منهم تراكيب للجمال جديدة ومعاني جديدة وخيالا جديداً ، ولكن من العسير تعيين ما أخذوه من هذا النوع بالدقة لأن المعاني والخيال وما اليها مما يُسرق وقل أن يضبط ، ولم تسجل أمة معانيها وخيالاتها كما تسجل ألفاظها

(الثالث) الحكيم — كان للفرس أثر كبير في الأخلاق الاسلامية والآداب من ناحية حكمهم ، ذلك أن الأخلاق الاسلامية تأثرت بثلاثة مؤثرات أولها التعاليم الدينية كالتى وردت في القرآن « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ » « اَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى » « لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ » « يَا أَيُّهَا

(١) أنظر فقه اللغة للثعالبي والمزهر للسيوطي والخصص في الطعوم وآلات الغناء

الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ » الى كثير من أمثال ذلك ، وكالتى وردت فى الأحاديث « أَحِبَّ لِأَخِيكَ كَمَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ » وكما روى من تعاليم الديانات السابقة كالتوراة والانجيل وأمثال سليمان ونحو ذلك ، — ثانيها — فلسفة اليونان وذلك بما نقل منها فى العصر العباسى ، ومن الأمثلة على ذلك ما تقرأه فى كتاب ابن مسكويه من شرح نظرية أرسطو فى أن كل فضيلة وسط بين رذيلتين ، ومن نظرية أفلاطون فى أسس الفضائل الأربعة وهى الحكمة والعفة والشجاعة والعدل ونحو ذلك — ثالثها — وهو الذى يهمنى هنا — نوع من الحكم والجل القصيرة تصاغ صوغ الأمثال ، أو حكايات تنقل فيها أخبار الملوك ووزرائهم ووعاظهم والحكام فى زمنهم وما جرى على ألسنتهم ، وهذا النوع غمر كتب الأدب ، وتأثرت به الأخلاق فى الاسلام أكثر من تأثرها بالفلسفة اليونانية ، ذلك لأنه أقرب الى العقل العربى ، فقد أبنت لك قبل أن العقل العربى لا يميل كثيراً الى البحث المنظم المفصل ، ويفضل أن تركز تجارب السنين الطويلة فى الكلمات القصيرة. وتؤلف من ذلك جمل ، كل جملة فى معنى خاص ، فكلمة فى الشجاعة وكلمة فى الكرم وثالثة فى الوفاء ، فأما أن تذكر الشجاعة وتفصل وينظر اليها من جميع نواحيها وفى الأسباب الباعثة عليها ونحو ذلك فهذا بعيد عن الذوق العربى والعقل العربى وهو بالعقل اليونانى أشبه — من أجل هذا لما عثر العربى على هذا النوع من الحكم أعجب به ونقله وأضافه الى ما كان له فى الجاهلية ، وكان للفرس فى ذلك الشئ الكثير ، اما مبتكر من عند أنفسهم ، أو منقول من الهند عن طريقهم ، وأوضح مثل لذلك الأدب الصغير والأدب الكبير لابن المقفع الفارسى ، هذا فى العصر العباسى ، وقبله فى العصر الأموى كانت هذه الحكم تنقل ويتداولها العلماء ويتأدب بها الناس كما ترى فى كثير من كلمات الحسن البصرى الفارسى ، وتجد كثيراً منها فى كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة وسراج

الملوك للطرطوشي والتاج والعقد الفريد

ومما يلاحظ هنا أن الذوق العربي في هذا النوع من الحكم يشبه مشابهة تامة الذوق الفارسي ، فالحكم التي تنسب لأكثم بن صيفي في الجاهلية والامام علي في الاسلام والتي تنسب لسادات العرب كالأحنف بن قيس ورواح بن زنباع تشبه في قوالها وصيغها واتجاه النظر فيها ما يروى في كتب الأدب عن بزرجهر وإبريز وموبذ موبدان ونجوم حتى لقد عقد ابن عبد ربه فصلاً في كتابه العقد الفريد تحت عنوان « أمثال أكثم بن صيفي وبزرجهر » ولم يبين مالكل منهما فكان من الصعب التمييز في أكثرها بين ما هو لأكثم وما هو لبزرجهر^(١) .
والآن أقص عليك نموذجاً صغيراً من هذه الحكم الفارسية :

(١) قال بزرجهر « اذا اشتبه عليك أمران فلم تدر في أيهما الصواب فانظر أقربهما الى هواك فاجتنبه »

(٢) كتب إبريز الى ابنه شيرويه « اجعل عقوبتك على اليسير من الحياة كعقوبتك على الكثير منها ، فاذا لم يطمع منك في الصغير لم يجترأ عليك في الكبير . وأبرد البريد في الدرهم ينقص من الخراج ، ولا تعاين على شيء كعقوبتك على كسره ، ولا ترزقن على شيء كرزقك على أرجائه ، واجعل أعظم رزقك فيه وأحسن ثوابك عليه حقن دم المزجي وتوفير ماله من غير أن يعلم انك أخذت أمره حين عف واعتصم من أن يهلك » .

(٣) قال كسري لينوشت المغني وقد قتل فهاوذ (في رواية الأغاني فهليد) حين فاقه وكان تلميذه « كنت أستريح منه اليك ومنك اليه فأذهب شطراً تمسح خسدك وتقل صدرك » ثم أمر أن يلقي تحت أرجل الفيلة فقال « أيها الملك اذا

قتلتُ أنا شطر طربك وأبطلته وقتلت أنت شطره الآخر وأبطلته أليست تكون
جنايتك على طربك كجنايتي عليه ؟ قال كسرى دعوه ما دله على هذا الكلام الا
ما جعلَ له من طول المدة »

(٤) قال كسرى « احذروا صولة الكريم اذا جاع واللثيم اذا شبع »

(٥) قال أَرْدَشِيرُ بن بَابَك، ان للآذان مجة والقلوب مللا ففرقوا بين الحكمتين.

(٦) « في سير العجم أن رجلا وشى بـرجل الى الاسكندر فقال آتجب أن

تقبل منه عليك ومنك عليه ؟ قال لا ، قال فكفَّ الشرُّ يكف عنك الشر »

الى كثير من أمثال ذلك شحنت بها كتب الأدب

(الرابع) هناك أمر آخر فارسي كان له أثر كبير في حياة الأدب العربي ذلك

هو الغناء فالظاهر أن العرب أخذوا كثيراً من النغمات الفارسية ووقعوا عليها شعرهم

العربي ، قال أبو الفرج في كتابه الأغاني

سعيد بن مسجع . . . مولى بني هاشم . . . مكيّ أسود مغن متقدم من فحول

المغنين وأكابرهم ، وأول من صنع الغناء منهم ، ونقل غناء الفرس الى غناء العرب

ثم رحل الى الشام وأخذ ألحان الروم والبريطية والاسطوخوسية وانقلب الى فارس ،

فأخذ بها غناء كثيراً وتعلم الضرب ثم قدم الى الحجاز ، وقد أخذ محاسن تلك النغم ،

وألقي منها ما استقبّحه من النبرات والنغم التي هي موجودة في نغم غناء الفرس والروم

خارجة عن غناء العرب ، وغنى على هذا المذهب فكان أول من أثبت ذلك ولحنه

وتبعه الناس بعده »

وحكى رواية أخرى « وهي أن ابن مسجع مر بالفرس وهم يبنون المسجد

الحرام فسمع غناءهم بالفارسية فقلبه في شعر عربي —

أَلَمِمْ عَلَى طَلَلٍ عَفَا مُتَقَادِمٌ — الإييات

وحكى أن مولى ابن مسجح سمعه يتغنى ، فسأله أنى لك هذا ؟ قال سمعت هذه
الاعاجم تتغنى بالفارسية فتثقتها وقلبتها فى هذا الشعر قال له فأنت حر لوجه الله فلزم
مولاه وكثر أدبه ، واتسع فى غنائه ومهر بمكة »

وفى رواية ثالثة عن صفوان الجمحي عن أبيه قال « أول من نقل الغناء الفارسي
الى الغناء العربى سعيد بن مسجح مولى بنى مخزوم — وذلك أن معاوية بن أبى
سفيان لما بنى دوره . . . جعل لها بنائين فرسًا من العراق فكانوا يبنونها بالجنص
والآجر ، وكان سعيد بن مسجح يأتيهم فيسمع من غنائهم على بنيانهم ، فما استحسن
من ألحانهم أخذه ونقله الى الشعر العربى ثم صاغ على نحو ذلك » (١)

وذكر فى موضع آخر « أن ابن مخرز كان أبوه من سدنة الكعبة ، أصله من
الفرس ، وكان أصفر أجنى طويلا — وكان يسكن المدينة مرة ومكة مرة ، فاذا
أتى المدينة أقام بها ثلاثة أشهر يتعلم الضرب من عزّة الميلاء ، ثم يرجع الى مكة
فيقيم بها ثلاثة أشهر ، ثم يشخص الى فارس فيتعلم ألحان الفرس ، ثم صار الى الشام
فتعلم ألحان الروم وأخذ غناءهم ، فأسقط من ذلك ما لا يستحسن من نغم الفريقين ،
وأخذ محاسنها فمزج بعضها ببعض ، وألف منها الأغاني التى صنعها فى أشعار العرب ،
فأتى بما لم يسمع بمثله ، وكان يقال له صنّاج العرب وهو أول من غنى بزوج من الشعر
يعمل ذلك بعده المغنون اقتداء به ، وكان يقول الأفراد لا تتم بها الألحان وذكر أنه
أول ما أخذ الغناء أخذه عن ابن مسجح » (٢)

« وقال ابن خرداذبة كان عبد الله بن عامر اشترى اماء نائحات ، وأتى
يهن الى المدينة ، فكان لهن يوم فى الجمعة يلعبن فيه ، وسمع الناس منهن ثم قدم
رجل فارسى يعرف بنشيط فغنى ، فأعجب عبد الله بن جعفر به ، فقال له « سائب

خَاثِرٍ» (وهو مولى أيضاً من فيء كسرى) أنا أصنع لك مثل غناء هذا الفارسي وقد صنع — لِمَنْ الدِّيَارُ رُسُومَهَا قَرُّ — قال ابن الكلبي وهو أول صوت غنى في الاسلام من الغناء العربي ^(١)

تري من هذا كيف كان كان للفرس أثر كبير في النغمات العربية وفي التوقيع ، وليس هذا يهمننا كثيراً الآن لأنه ألصق بالفن ، ولكن الذي يهمننا فوق هذا أن العرب نقلوا أيضاً عن الفرس صورة مجالس الغناء ، والاجتماع لسماعه ، فكانت — عدا أنها مجالس للغناء — مجالس للأدب ، يُصَفَّى لها الشعر ويُرَقَّق حتى يتفق والذوق الموسيقى ، أضف الى هذا ما كانت تستتبعه هذه المجالس من محاضرات أدبية ، وقصص جميل ، وفكاهات رائقة ، وتناذر ممتع ، وتسابق بين الشعراء والادباء للظهور فيها ، ونيل الحظوة وناهيك بما كان لهذه المنتديات الأدبية من فضل على الأدب ، ومباراة في تهذيبه وتجديده

ودليلنا على نقل هذه المجالس عن الفرس ومحاكاة العرب لهم ما ذكره صاحب التاج (أخلاق الملوك) من حديث طويل تقتصر منه على ما يهمننا ، فقد عقد باباً سماه باب الندامة قال فيه « ولنبداً بملوك الأعاجم اذ كانوا هم الأول في ذلك ، وعندهم أخذنا قوانين الملك والمملكة ، وترتيب الخاصة والعامة ، وسياسة الرعية والزام كل طبقة حظها ، والاقتصار على جديلتها (شاكلتها) » ثم ذكر ما كان يفعله ملوك العجم مع الندماء من تقسيمهم الى طبقات ومراتب ، ومجلس كل طبقة من هؤلاء — وقال « وكانت ملوك الأعاجم من لدن أردشير بن بابك الى يزديجرّد تحتجب عن الندماء بستارة ، فكان يكون بينه وبين أول الطبقات عشرون ذراعاً ، لأن الستار من الملك على عشرة أذرع ، والستار من الطبقة الأولى على عشرة أذرع

وكان يأتيهم الأمر من الملك بما يفعلون وما يغنون » ثم قال
« قلت لاسحاق بن ابراهيم : هل كانت الخلفاء من بني أمية تظهر للندماء
والمغنيين قال » أما معاوية ومروان وعبد الملك وسليمان وهشام ومروان بن محمد
فكان بينهم وبين الندماء ستارة ، وكان لا يظهر أحد من الندماء على ما يفعله
الخليفة اذا طرب للمغنى والتدّه ، حتى ينقلب ويمشى ويحرك كتفيه ويرقص ويتجرد
حيث لا يراه الا خواص جواريه ، الا أنه كان اذا ارتفع من خلف الستارة صوت
أو تغير طرب ، أو رقص أو حركة بزفير تجاوز المقدار ، قال صاحب الستارة حسبك
يا جارية كفى . انتهى . أقصرى . يوم الندماء أن الفاعل لذلك بعض الجوارى ،
فأما الباقيون من خلفاء بني أمية فلم يكونوا يتحاشون أن يرقصوا ويتجردوا ويحضروا
عراة بحضرة الندماء والمغنيين » (١) وقد ذكر بعد مجالس الخلفاء العباسيين مما ليس
من موضوعنا

اذن كان للخلفاء مجالس للغناء واللهو ، وثبت أن هذه المجالس أخذت عن
الفرس ، وأنت اذا قرأت في كتاب الأغاني رأيت أن الولاة وعظماء الدولة كانت
لهم كذلك مجالس هي صورة مصغرة لمجالس الخلفاء ، بل تفوقها في حرية القائمين
والمغنيين والسامعين ، واطلاق كل منهم القول على سجيته — وأترك لك تقدير ما
لهذا من تأثير في الأدب والفن

(الخامس) يظهر لنا أنه في أواخر عهد الدولة الأموية حوّل الفرس الكتابة
العربية إلى نخط آخر لم يكن يعرفه العرب ، وهو نوع الكتابة التي اشتهر بها عبد الحميد
الكاتب ومدرسته ، فقد كان عبد الحميد كاتب مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية
ويقول صاحب العقد « أنه كتب لعبد الملك بن مروان وليزيد ثم لم يزل كاتباً لخلفاء

بنى أمية حتى انقضت دولتهم » ويقول ابن خلكان « انه كان في الكتابة وفي كل فن من العلم والأدب اماماً . . . وعنه أخذ المترسلون ، ولطريقته لزموا ، ولآثاره اقتفوا . . . وهو أول من أطال الرسائل واستعمل التحميدات في فصول الكتب فاستعمل الناس ذلك بعده »^(١) وقال الشَّريشي في شرح المقامات « انه أول من فتق أكلام البلاغة ، وأسهل طرقها ، وفك رقاب الشعر » ووصيته للكتاب — ان صحت — تدلنا على أنه كان الآخذ بزمامهم والراسم لهم طريقهم

ودليلنا على أن منحاه في الكتابة ذو صبغة فارسية ما حكاه ابن خلكان « من أن عبد الحميد بن الموالى وأصله من الأنبار »^(٢) وحكى أيضاً « أنه أخذ الكتاب عن سالم مولى هشام بن عبد الملك » وأصرح من هذا في الدلالة ما حكاه أبو هلال العسكري في كتابه « ديوان المعاني »^(٣) قال « فمن تعلم البلاغة بلغة من اللغات ثم انتقل الى لغة أخرى أمكنه فيها من صنعة الكلام ما أمكنه في الأولى ، وكان عبد الحميد الكاتب استخراج أمثلة الكتابة — التي رسمها — من اللسان الفارسي فحوّلها الى اللسان العربي — ويدل ذلك على هذا أيضاً أن تراجم خطب الفرس ورسائلهم هي على نمط خطب العرب ورسائلها ، وللفرس أمثال مثل أمثال العرب معنى وصنعة وربما كان اللفظ الفارسي في بعضها أفصح من اللفظ العربي » اهـ ثم ذكر أمثالا بنصها الفارسي وما يقابلها في اللغة العربية وفاضل بينها

فلعلك تقرأ معي في هذا أن الأدب الفارسي صيغ الأدب العربي صبغة جديدة ، وربما كان أدق من ذلك أن تقول أنهما « تفاعلا »

(١) ابن خلكان جزء ١ ص ٤٣٥

(٢) الانبار مدينة على الشاطئ الايسر للفرات في الشمال الشرقي من العراق

(٣) من نسخة خطية بدار الكتب

هذا مختصر للنواحي التي كان لها أثر للفرس في حياة العرب الأدبية ، أما أثرهم في تدوين العلوم وما نبغ منهم من علماء في الفروع المختلفة فسنعرض له في موضع آخر

مصادر هذا الباب

اعتمدنا في الفصل الاول — عندما ذكرنا من الكتب العربية أثناء البحث على :

- 1 Browne, A Literary History of Persia
- 2 Sykes, A History of Persia
- 3 Levy, Persian Literature
- 4 Iqbal, The Development of Metaphysics in Persia

(٥) دائرة المعارف البريطانية في مادة Zoroaster وماى ومزدك

(٦) Every man, Encyclopaedia

وفي الفصل الثانى اعتمدنا على ما ذكرنا من الكتب العربية أثناء البحث

الباب الرابع

التأثير اليونانى — الـ ومانى

الفصل الأول

النصرانية

فتح المسلمون البلاد وهى مملوءة بالنصارى فى مصر و بلاد المغرب والاندلس والشام ومصر ، وكانت النصرانية عند الفتح منقسمة الى جملة طوائف ، أشهرها فى الشرق ثلاثة : اليعاقبة — وكانت منتشرة فى مصر والنوبة والحبشة ، والنساطرة^(١) وكانت منتشرة فى الموصل والعراق وفارس و — الملكانية — وكانت منتشرة فى بلاد المغرب وصقلية والاندلس والشام — وكان بين هذه المذاهب جدال فى العقائد الدينية ، فاليعاقبة كانوا يرون أن المسيح هو الله ، وأن الله والانسان اتحدا فى طبيعة واحدة هى المسيح ، والملكانية والنساطرة قالوا ان للمسيح طبيعتين متميزتين الطبيعة اللاهوتية والطبيعة الناسوتية ، — وان اختلفت الطائفتان فيما عدا ذلك من التفاصيل — وقد استمر الخلاف بين هذه الفرق فى : هل اللاهوتية وما للناسوتية من ارادة وفعل متحدتان فى المسيح أو مختلفتان ؟ قالت اليعاقبة بالأول ،

(١) هم أتباع لسطور وقد كان بطريقاً للقسطنطينية فى بعض أيامه ومات فى منفاه حول سنة ٤٥٠ م وليس كما زعم الشهرستانى أنه ظهر فى عصر المأمون

وقالت النساطرة ان للمسيح ناسوتية لها ارادة ولها فعل يختلف كل الاختلاف عن
العنصر اللاهوتي (١) — واختلفوا في تصوير اتحاد اللاهوت بالناسوت ، فقال
اليعاقبة كاتحاد الماء يلتقى فى الحمر فيصيران شيئاً واحداً ، وقالت النسطورية كاتحاد
الماء يلتقى فى الزيت فكل واحد منهما باق بحسبه ، وقالت الملكانية كاتحاد النار فى
الصفحة المحماة (٢)

وقد سقنا هذا لنبين أن الفرق النصرانية المنتشرة فى البلاد التى فتحها المسلمون
كانت مختلفة ، وكانت تتجادل فى العقيدة فى الله جدالاً شديداً ، والقرآن نفسه
حكى شيئاً عن بعض أقوال هذه الفرق وردّ عليها ، فقال « لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا
إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ » وقال « لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ
ثَلَاثَةٍ » وقال يخاطب عيسى عليه السلام « أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ
إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ »

ولم يقتصر النزاع بين النصارى على العقيدة فى الله بل اختلفوا فى مسائل أخرى
كثيرة : هل ينزل المسيح قبل يوم القيامة أولا ينزل ؟ وهل الحشر يكون
للارواح والأبدان أو للارواح فقط ؟ وهل صفات الله زائدة عن ذات الله أو هى هى ؟
ومن النسطورية من كان يقول بالقدر خيره وشره ، الى غير ذلك من أقوال تسرب
منها الى المسلمين كثير وأثار بينهم الجدل ، وحق قول النبي صلى الله عليه وسلم
« لَتَرَكِبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذُو الْقُدَّةِ بِالْقُدَّةِ » وسترى أثر ذلك واضحاً
فى الفرق الاسلامية

وقد لجأت النصرانية الى الفلسفة اليونانية لتستعين بها على الجدل . ولتؤيد

(١) أنظر Boer فى الفلسفة الاسلامية ص ١٢

(٢) ابن حزم فى الملل والنحل جزء ١ ص ٥٣

تعاليمها وعقائدها أمام الوثنيين — أولاً — ثم أمام المسلمين أخيراً ، فكان كثير من رجال الدين فلاسفة كالأب أوغسطينوس (٣٥٤ — ٤٣٠ م) « وكانت الاسكندرية هي المركز الجغرافى لمزج الدين بالفلسفة ، فبعد أن كانت مدينة المتحف ، والمدينة المعروفة عن أهلها النقد وسعة الاطلاع أصبحت مجمع المذاهب الفلسفية والطوائف الدينية ، فسهل الاتصال والامتزاج ، والتقى على ضفاف النيل رجال مختلفة آراؤهم ، متباينة مذاهبهم ، تبادلوا فيها الآراء كما كانت تُتبادل السلع ، فاتسعت دائرة الفكر ، وقورن بين الآراء المختلفة ، وكان من نتيجة ذلك ظهور روح جديد أسس على مبدأين متناقضين ممتزجين : أحدهما الشك والنقد ، والثانى سرعة التصديق ، تقابلت فى الاسكندرية آراء الشرقيين والغربيين « اليونان » ، فامتزج روح اليونان بروح المشاركة ، فأنتجا عقائد ونظما دينية متأثرة بتأمل الأواين والهام الآخرين ، بما لليونان من علم ، وما للمشاركة من أساطير ، جاء الروح اليونانى بما له من ذكاء ودقة وقدرة على الشرح المبين فأصابته شرارة من الشرق أشعلته وأحيتة ، كذلك أخرج الروح الشرقى — الذى من خصائصه الطموح الى ما وراء عالم الشهادة — نظاماً ملتماً ونظريات مرتبة لم يكن ليخرجها لولا مساعدة العلم اليونانى له — فانه رتب ماثور الشرقيين ، وحل من عقدة لسانهم ، فاستخرجوا العقائد الدينية والنظم الفلسفية التى بلغت الذروة فى مذاهب الغنوسطية والأفلاطونية الحديثة ، ويهودية فيلون ، ومذهب الاشراك الذى وضعه يوليان الصابى . ان الشرقى بما له من ميل الى الغيب وخوارق العادات ، وما فى طبيعته من تصوف وتدين ، واليونانى بما له من فحوص دقيق وبحث عميق ، وان شئت فقل ان ما للاول من شعور وما للثانى من تحليل منطقي ، امتزجا ونتاج منهما فكر خاص انتشر فى الاسكندرية فى القرون الاولى للميلاد ، وقد صبغ ذلك الفكر بصبغتين مختلفتين ، صبغة الكماليين والصوفيّين

وصبغة أهل البحث العلمى ، ولذا امتاز هذا العصر بميل الفلسفة الى الدين وميل الدين الى الفلسفة « (١)

الفصل الثانى

الفلسفة اليونانية

فى العصور الأولى للمسيح ظهر فى الاسكندرية المذهب المعروف « بالأفلاطونية الحديثة » — وكان لهذا المذهب أثر كبير فى فلاسفة المسلمين وعلماء الكلام وخاصة المعتزلة والصوفية

مؤسس هذا المذهب « أَمْنِيُوسُ سَكَّاس » كان أول أمره حملاً ثم صار معلم فلسفة فى الاسكندرية ، وقد ولد من أبوين نصرانيين ، ولكنه صباً الى الدين اليونانى القديم ، وهو أول المعلمين الاسكندريين الذين حاولوا التوفيق بين تعاليم أفلاطون وارسطو ، ولم يؤثر عنه أى كتاب ، ولذلك كانت معلوماتنا عن تعاليمه قليلة ، ومات سنة ٢٤٢ م ، ويُعد تلميذه « أفلوطين » منظم هذا المذهب ، وأكبر مؤيديه والمدافعين عنه بل ربما عدّ هو مؤسسه ، وقد ولد سنة ٢٠٥ م فى ليكو بوليس Licopolis (أسيوط) وتعلم فى الاسكندرية ولازم أَمْنِيُوس نحو احدى عشرة سنة ، وقد التحق بحملة سارت لغزو فارس ليتعرف علوم الفرس والهنود ، وسافر الى رومة سنة ٢٤٥ م وأسس بها مدرسة للفلسفة ومات سنة ٢٧٠ م والعرب لم تعرف كثيراً عن أفلوطين هذا ، ولكن تعرف مدرسته وتطلق عليها « مذهب

(١) كتاب مبادئ الفلسفة — تعريبي —

الاسكندرانيين » ويطلق عليه الشهرستاني « الشيخ اليوناني » وقد نقلت اليهم كثير من فلسفته معزوة خطأ الى غيره — وقد ألف أفلوطين كتباً كثيرة حفظت عنه ، ويطلق عليها عادة اسم (التاسوعات) « إننيد » Enneads ، — وتفرع مذهبه الى فروع كثيرة فكان منه فرع في الاسكندرية ، وفرع في الشام وفرع في أثينا — وله آراء في الطبيعة لا تهمنا الآن ، وله آراء في الالهيات نذكر طرفاً منها يقول ان هذا العالم كثير الظواهر ، دائم التغير ، وهو لم يوجد بنفسه ، بل لا بد لوجوده من علة سابقة عليه هي السبب في وجوده ، وهذا الذي صدر عنه العالم واحد . غير متعدد ، لا تدركه العقول ولا تصل الى كنهه الأفكار ، لا يحده حد ، وهو أزلي . أبدي قائم بنفسه ، فوق المادة وفوق الروح وفوق العالم الروحاني ، خلق الخلق ولم يَحُلْ فيما خلق ، بل ظل قائماً بنفسه مسيطراً على خلقه ، ليس ذاتاً وليس صفة ، هو الارادة المطلقة ، لا يخرج شيء عن ارادته ، هو علة العلل ولا علة له ، وهو في كل مكان ولا مكان له

كيف نشأ عنه العالم ؟ وكيف صدر هذا العالم المركب المتغير من البسيط الذي لا يلحقه تغير ؟ كان هذا العالم غير موجود ثم وجد فهل يمكن أن يصدر عن الخالق ذلك من غير أن يحصل تغير في ذاته ؟ كيف يصدر هذا العالم الثاني من الله غير الثاني ؟ هل صدر هذا العالم من الصانع عن روية وتفكير أو من غير روية ؟ ولم وجد الشرف في العالم ؟ ما النفس وأين كانت قبل حلولها بالبدن وأين تكون بعد فراقه ؟

هذه المسائل وأشباهها كانت من أهم المسائل التي شغلت أفلوطين ومدرسته . وثار حولها الجدل وذهبوا فيها مذاهب يخرج بنا شرحها عما رسمنا ، وانما أشرنا اليها لنبين فيم كان هذا العالم العلمي يبحث ولستطيع بعد أن نعرف أثرهم

وكان هذا المذهب الاسكندري في أول أمره يميل الى البحث والتفكير العقلي المحض ، ثم أخذ ينصر الوثنية اليونانية ، ويقاوم النصرانية ، ثم انحدر الى أن اقتصر على الشغف بالاطلاع على المغيبات ، وخوارق العادات ، والاعتناء بالسحر ، والتصرف بالأسماء ، والطلاسم والكهانة والتنجيم والسعوات والعزائم ونحو ذلك ولما انتصرت النصرانية وجاء « جوستينيان » أغلق مدارس الفلسفة في أثينا ، واضطهد الفلاسفة ، فمنهم من فر (ومن هؤلاء سبعة سافروا الى فارس فاستقبلهم كسرى أنوشيروان واحتفى بهم وأنزلهم منزلاً كريماً ، وجعل من شروط الصلح مع جوستينيان أن يُعنى بهم — وكان هؤلاء السبعة من فلاسفة الأفلاطونية الحديثة) ومنهم من تنصر ، وبعض المتنصرين أخرجوا كتباً في الأفلاطونية الحديثة مصبوغة بالصبغة النصرانية ، ككتاب ديونيسيوس ألفه أفلوطين مجهول في منتصف القرن السادس للمسيح باسم ديونيسيوس ادعى أنه من تلاميذ پولس الحواري ، وقد شرح أسرار الربوبية ودرجات عالم الملكوت والكنيسة السماوية على المذهب الافلوطيني فصار من ذلك الوقت عمدة للنصارى في ذلك ^(١) — ثم دخل هذا المذهب في الاسلام عن طريق فريق من المعتزلة والحكماء والصوفية ، ومنهم أخذت جل أفكارهم جماعة « اخوان الصفا » وغيرهم

السريانيون — قام السريانيون بنشر الفلسفة اليونانية وخاصة مذهب الافلاطونية الحديثة في العراق وما حوله ، وأخذوا ينقلون الكتب اليونانية الى

(١) قد طبع في برلين كتاب اسمه « أثولوجيا » أرسططاليس سنة ١٨٨٢ وهو في الالهيات ، تفسير فوفوريوس الصوري ، نقله الى العربية عند المسيح الحمصي ابن الناعمي وأصلحه يعقوب السكندى — والحق أنه ليس على مذهب ارسطو وإنما هو على مذهب أفلوطين فان فوفوريوس هذا تلميذ أفلوطين وتوفي سنة ٣٠٤ م وألف هذا الكتاب على مذهب

لغتهم السريانية ، وهي إحدى اللغات الآرامية ، انتشرت فيما بين النهرين والبلاد المجاورة لها ، وكان من أهم مراكزها الرُّها (Edessa) ونَصِيبين — وفوق هذا كانت هي لغة الأدب والعلم لجميع كُتَّاب النصرانية في أنطاكية وما حولها ، وللنصارى الخاضعين لدولة الفرس ، وأنشئت في هذه الأصقاع مدارس دينية متعددة كانت تعلِّم فيها اللغة السريانية واليونانية جميعاً في الرها وفي نصيبين وفي جنديسابور

بل كانت اللغة السريانية أيضاً لغة الوثنية وآدابها ، وأشهر مراكز الوثنية السريانية مدينة حرَّان (في جنوبي الرها) وقد ظلت هذه المدينة مركزاً للديانة الوثنية والثقافة اليونانية الى ما بعد الاسلام ، فكانوا بعد الفتح الاسلامي يدرسون الرياضة والفلك والفلسفة على المذهب الأفلاطوني ، وهم الذين تسموا بعد ذلك في القرن التاسع والعاشر الميلادي بالصَّابئين ، وكان منهم كثيرون من المؤلفين ومن تولوا الترجمة بعدُ



وقد عاشت الآداب السريانية من القرن الثالث الميلادي الى القرن الرابع عشر ، ولكن حياتها بعد الفتح الاسلامي كانت حياة ضعيفة لغزو اللغة العربية لها وغلبتها ، وبقي لنا من الأدب السرياني مجموعة في مختلف أنواع الكتابة ، ولكن الذي بقي منها انما هو من المدرسة النصرانية لا الوثنية ، فهناك كتب في الصلوات والادعية الدينية ، والأقايصص التاريخية ، والتاريخ العام ، والفلسفة والعلوم ، وكلها مصبوغ بالصبغة الدينية لأن أكثر الكُتَّاب كانوا قسيسين ورهبانا — وهناك قليل من الآثار الأدبية نظماً ونثراً

وخدم السريانيون العلم والفلسفة بما ترجموا أكثر مما ألفوا ، فلم يبتكروا كثيراً وحفظت اللغة السريانية بعض الكتب اليونانية التي فقد أصلها ، وكانت ترجمتهم لكتب الفلسفة اليونانية هي الأساس الذي اعتمد عليه العرب والمسلمون أول أمرهم ، وقد كانت الترجمة السريانية في عهدها الأول ترجمة حرفية تقريباً ثم تحرر الكتّاب المتأخرون من حرفية الترجمة

وكان هؤلاء السريانيون ينقلون العلوم اليونانية بدقة وأمانة فيما لم يمس الدين ، كالمنطق والطبيعة والطب والرياضة ، أما الالهيات ونحوها فكانت تعدّل بما يتفق والمسيحية ، حتى لقد حوّلوا أفلاطون في كتابتهم الى زاهب شرقي ، فقالوا انه بنى لنفسه معبداً في برية بعيداً عن الناس وظل يتعبد فيه سنين — وهذه هي الطريقة التي سلكها المسلمون بعد ، فقد أغفلوا من الالهيات كثيراً مما يخالف تعاليم الاسلام ولم يقتصر السريانيون على الترجمة من اليونان بل ترجموا كذلك من الفهلوية فترجموا منها تاريخ الاسكندر ، نقله الفرس عن اليونانية ثم نقله السريانيون من الفهلوية ، وكذلك ترجموا كلية ودمنة الى السريانية في القرن السادس الميلادي وقصة السندباد في القرن الثامن

ومن أشهر رجال الدين والأدب من السريانيين الذين يعرفهم المسلمون بآرديسان أو ابن ديسان Bardaisan (مات سنة ٢٢٢ م) وديسان اسم نهر نسب اليه وله مذهب ديني مزج فيه الثنوية بالنصرانية كما فعل ماني ، وكان ينكر بعث الأجسام ، ويقول ان جسد المسيح لم يكن جسماً حقيقياً بل صورة شُبّهت للناس أرسلها الله تعالى ، وله تعاليم كثيرة بقيت بعد ظهور الاسلام ، ومنها استمد الرافضة بعض أقوالهم ، وانتسب اليه بعضهم كأبي شاعر الديصاني ، وأخذ علماء الكلام في الرد عليهم ، وهم يكتبون عن أتباعه تحت اسم « الديصانية »

ومن أشهرهم أيضاً سرجيس الرَّسْعَنِي من مدينة «رأس عين» وقد مات سنة ٥٣٦ م ، وهو من أشهر المتأدبين بالآداب اليونانية ، وترجم منها إلى السريانية كتباً كثيرة بعضها محفوظ إلى عهدنا في المتحف البريطاني ، منها رسائل لارسطو ولفورفورْيوس ، ولجالينوس ، وألف رسالة في المنطق ليست كاملة تبحث في المقولات العشر ، والإيجاب والسلب ، والجنس والفصل الخ وألف رسالة أخرى في تأثير القمر وفي حركة الشمس — وقد انتشرت كتبه بين اليعاقبة والنساطرة وعدوه عمدتهم في المنطق والطب

وألف غير سرجيس كثيرون — في هذا العصر — في النفس والقضاء والقدر والنحو وفي أن الإنسان عالم صغير وفي تركيب الإنسان من جسم وروح الخ ولما فتح المسلمون هذه البلاد في القرن السابع الميلادي أسلم بعض السريانيين وظل بعضهم محافظاً على دينه يدفع الجزية ، ولكن الآداب السريانية على الجملة أخذت في الضعف ، ومع ذلك فقد نبغ كثير منهم في العصر الأموي والعباسي ، وظلت المدارس السريانية مفتوحة في عهد الدولة الأموية كما كانت ، ولم يكن الخلفاء والأمراء يتدخلون في شؤونهم إلا عند ما يحتدم النزاع الديني بينهم فيلجأ بعضهم إلى الولاة يستنصرهم

واشتهر من هؤلاء ، في العصر الأموي يعقوب الرُّهَّاءِي (٦٤٠ — ٧٠٨ م تقريباً) وقد ترجم كثيراً من كتب الآلهيات اليونانية ، وليعقوب هذا أثر كبير الدلالة ، فقد أُثِرَ عنه أنه أفقَى رجال الدين من النصارى بأنه يحل لهم أن يعلموا أولاد المسلمين التعليم الراقى - - وهذه الفتوى تدل من غير شك على اقبال بعض المسلمين في ذلك العصر على دراسة الفلسفة عليهم وتردد النصارى أولاً في تعليمهم ولما جاء دور نقل الفلسفة والعلوم إلى العربية في العهد العباسي كان هؤلاء

السريانيين الفضل الأكبر في الترجمة أمثال حنين بن اسحاق وابنه اسحاق وابن أخته حبيش مما نعرض إليه في موضعه ان شاء الله

الآن نستطيع أن نفهم أن الثقافة اليونانية كانت منتشرة في العراق والشام والاسكندرية ، وان المدارس انتشرت فيها على يد السريانيين — وان هذه المدارس وهذه التعاليم أصبحت تحت حكم المسلمين ، وامتزج هؤلاء المحكومون بالحاكمين على النحو الذي شرحته ، فكان من نتائج هذا أن تشعت هذه التعاليم في المملكة الاسلامية ، وتزاوجت العقول المختلفة كما تزاوجت الأجناس المختلفة ، فنتج من هذا التزاوج الثقافة العربية أو الاسلامية ، ونتاجت المذاهب الدينية والفلسفة الاسلامية والحركات العلمية والفنون الأدبية

والعرب أنفسهم اتصلوا بهذه الثقافات من قديم ، فالفقطنى في كتابه أخبار الحكماء يحدثنا « أن الحارث بن كلدة كان من ثقيف من أهل الطائف ، رحل الى أهل فارس وأخذ الطب عن أهل تلك الديار من أهل جنديسابور وغيرها في الجاهلية وقبل الاسلام ، وأجاد في هذه الصناعة ، وطبَّ بأرض فارس ، وعالج وشهد أهل بلد فارس ممن رآه بعلمه ، واشتهر طبه بين العرب ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر من كانت به علة أن يأتيه فيسأله عن علته ، وسُمِّيَ مولاته هي أم زياد بن أبيه » اهـ

وابن أبي أصيبعة يقول في كتابه « طبقات الاطباء » أن النضر بن الحارث بن كلدة ابن خالة النبي صلى الله عليه وسلم سافر البلاد كأبيه واجتمع مع الأفاضل والعلماء بمكة وغيرها وعاشر الأخبار والكهنة ، واشتغل وحصل من العلوم القديمة أشياء جليلة القدر ، واطلع على علوم الفلسفة وأجزاء الحكمة ، وتعلم من أبيه أيضاً ما كان

يعلمه من الطب وغيره ، وكان النضر يؤتى أبا سفيان في عداوة النبي صلى الله عليه وسلم . . . واعتقد النضر أنه بمعلوماته وفضائله يستطيع أن يقاوم النبوة ، وأين الثريا من الثرى » اهـ

وبعد الاسلام استمر هذا الاتصال ، فهم يحدثوننا أن خالد بن يزيد بن معاوية . « كان من أعلم قریش بفنون العلم ، وله كلام في صنعة الكيمياء والطب وكان بصيراً بهذين العلمين متقناً لهما ، وله رسائل دالة على معرفته وبراعته ، وأخذ الصنعة عن رجل من الرهبان يقال له مَرِيَّانُسُ المذكور (كذا) الرومى ، وله فيها ثلاث رسائل تضمنت احداهن ماجرى له مع مَرِيَّانُسِ المذكور وصورة تعلمه منه والرموز التي أشار اليها » ^(١) ويقول ابن التديم أن خالداً عنى باخراج كتب القدماء في الصنعة ، وكان خطيباً شاعراً فصيحاً حازماً ، وهو أول من ترجم له كتب الطب والنجوم وكتب الكيمياء . . . وقد رأيت من كتبه كتاب الحرات — كتاب الصحيفة الكبير — كتاب الصحيفة الصغير — كتاب وصيته الى ابنه في الصنعة » ^(٢) ومات خالد سنة ٨٥ هـ أو ٧٠٤ م

من هذا جميعه نرى أن الثقافة اليونانية — كالثقافة الفارسية كانت مبثوثة بين المسلمين في البلدان المختلفة ، وكان منالها منهم قريباً ، وأنهم أخذوا يستفيدون منها ويتعلمونها على المثقفين بها ، ولو لم يكونوا على دينهم ، كما تدلنا عليه فتوى يعقوب الرهاوى

أضف الى هذا أنه في ذلك العصر وجد الاحتكاك الدينى بين المسلمين والنصارى . فأخذوا يتجادلون ويتحاجون في العقائد ، ويدلنا على ذلك أن أحد المؤلفين في

(١) ابن خلكان

(٢) فهرست ابن التديم ص ٣٥٤

هذا العصر واسمه يحيى الدمشقي ألف رسالة على هذا النمط « اذا قال لك العربى
كذا فأجبه بكذا »

اذن فمن الخطأ البين الفكرة الشائعة أن العرب والمسلمين جميعاً كانوا بمعزل
عن حولهم من الثقافات والأديان الى العصر العباسى ، وأن آراءهم وآدابهم وعلومهم
نبئت وحدها من عقول عربية من غير أن تُغذّى بغيرها ، فقد رأينا أنهم حتى فى
جاهليتهم لم يكونوا بمعزل ، وانهم كانوا بعد الاسلام أكثر اتصالاً ، ولا يقدح هذا
فى أية أمة ، فالعلم ملك شائع ، ومرفق مباح ، يفترف منه الناس جميعاً ، وليس له
حدود فاصلة كالتى ترسمها السياسة الدولية ، انما الذى يقدح فى الأمة حقاً أن تغمض
عيونها وتسد آذانها عما حولها من نظريات وأفكار ، أو أن يدفعها التعصب الأعمى
أن تنسب لأمتها ما ليس لها ، وتعزو اليها خلق ما لم تخلق وابتداع ما لم تبتدع

الفصل الثالث

الأدب اليونانى الرومانى

كان لليونان أدب غزير المادة متنوع الموضوع ، فقصص خرافية عن آلهتهم الأقدمين ، وشعر وصفى قصصى يصف حروبهم وأبطالهم يسمى شعر الملاحم Epic كالإلياذة والأوديسة

وشعر غنائى Lyric يصفون فيه مشاعرهم ويتعرضون فيه للمدح والفخر والحماسة والغزل والرثاء ونحو ذلك مما تعرض له الشعر العربى

وشعر تمثيلى Dramatic يتخيلون فيه وقعة حربية أو نحوها كما يتخيلون رجالها ثم يعمدون الى تصوير الحوادث ، ويضعون على لسان رجالها ما يتناسب مع شخصياتهم

ولهم فى هذه الأنواع كلها الشئ الكثير الذى أثر فى الأدب الغربى قديمه وحديثه ، ونبغ منهم شعراء عدة فى بلادهم وفى مستعمراتهم ، وبقى من شعرهم الى يومنا هذا ما يكفى لتصوير ذلك كله تصويراً بديعاً

ولهم غير الشعر كتابة راقية وخطابة ، وأبحاث وافية منظمة فى الكتابة والخطابة وعلم البيان كالذى ترى فى أبحاث أرسطو — ولهم مؤرخون أمثال هيرودوتس وتوسيديد كتبوا التاريخ ونظموه بالقدر الذى يسمح به عصرهم

ولما ذهب سلطانهم وأصبحوا اقلياً رومانياً ضعفت آدابهم ، ولكن ظل أهم ما وصلوا اليه محفوظاً يتغذى به الرومانيون على نحو ما كان بين الفرس والعرب ، وظهر فى هذا العصر أدباء ومؤرخون أمثال بلوتارك ولوسيد

ولكن هل تأثر العرب والمسلمون بهذه الآداب في هذا العصر — أعني العصر الأموي — كما تأثروا بالفلسفة اليونانية

يظهر لنا أن التأثير الأدبي كان ضعيفاً ، فانا نرى الشعر العربي في العصر الأموي ظل حافظاً لكيانه ؛ يترسم الطريق الذي خطه له الشعر الجاهلي في بحوره وفي قافيته حتى في موضوعاته — كانوا مقصرين في الجاهلية في شعر الملاحم وفي الشعر التمثيلي فظلوا كذلك حتى في العصر العباسي

ومن العسير العثور على معان يونانية وردت في شعرهم ، ونفتش في هذا العصر عن شاعر أصله يوناني أو روماني تعلم العربية وشعر بها فلا نجد ، مع انا وجدنا كثيراً فيما سبق من أصل فارسي أصبحوا شعراء في العربية ، ونجد مؤرخي المسلمين في ذلك العهد تأثروا في طريقة تدوين الحوادث بالنمط الفارسي لا بالنمط اليوناني ، ويتجلى ضعف التأثير اليوناني في العرب بضعف معلومات المسلمين عن الحياة الأدبية اليونانية حتى في العصر العباسي ، فتاريخ اليونان عندهم يبتدىء بالاسكندر الأكبر أو قبله بقليل ، مع امتلائه بالأساطير الخرافية ، ولم يسمعوا كثيراً بتوسيديد ، وقد سمعوا قليلاً عن هوميروس ، واستشهدوا منه بشيء قليل مقتضب مضطرب كالذي تراه في الشهرستاني والكشكول لبهاء الدين العاملي

وعلى الجملة يظهر لنا أن الآداب الفارسية كانت أكثر تأثيراً في الأدب العربي من الآداب اليونانية ، — وعلة ذلك — على ما يبدو لنا — أن العرب وهم العصر الحاكم كانوا متعصبين جد التعصب لشعرهم ، لا يسمحون فيه بابتكار أو تحوير في الأساس ، فنظم البيت ، وبحر الشعر ، وقافية القصيدة ، ونحو ذلك أشياء مقدسة لا يصح أن تمس بسوء ، بل الموضوعات التي يقال فيها الشعر كذلك ، فتحريز القافية من قيودها الثقيلة ، وزيادة بحور على البحور التي قال فيها الجاهليون

مهما كانت موسيقى البحور الجديدة مطربة ، والقول في موضوعات جديدة لم تُؤلف ، كل هذه كانت في نظرهم انتهاكا لحرمة الأدب ، بل هم كانوا حريصين في تقاليدهم على ما دون ذلك ، ولعل خير ما يمثل هذا ما جاء في طبقات الشعراء لابن قتيبة « وليس لتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الأقسام ، فيقف على منزل عامر ، أو يبكي على مشهد البنيان ، لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الدائر والرسم العافى ، أو يرحل على حمار أو بغل ويصفها لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير ، أو يرد على المياه العذاب الجوارى لأن المتقدمين وردوا على الأواجن الطوامى ، أو يقطع الى الممدوح منابت النرجس والآس والورد لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيخ والحنوة^(١) والعرار ، قال خلف الأحمر قال لى شيخ من أهل الكوفة أما عجبت من الشاعر قال — أَنْبَتَ قَيْصُومًا وَجَشَّجَانًا — فاحتمل له وقلت أنا — أَنْبَتَ إِبْجَاصًا وَتَفَاحًا — فلم يُحتمل لى — وليس له أن يقيس على اشتقاقهم فيطلق ما لم يطلقوا قال الخليل بن احمد أنشدنى رجل

— تَرَافَعَ الْعِزُّ بِنَا فَارْفَنَعَا — فَقُلْتُ لَيْسَ هَذَا شَيْئًا ، فَقَالَ كَيْفَ جَازَ لِلْعَجَاجِ أَنْ يَقُولَ — تَقَاعَسَ الْعِزُّ بِنَا فَاقْعَنْسَا — ولا يجوز لى «^(٢) اهـ

فترى من هذا الى أى حد وصل العرب فى المحافظة على تقاليد من قبلهم ، حتى يلجئهم ذلك الى أن يصفوا ناقة وبعيرا وهم انما يركبون بغلا وحمارا ، ويدعوا أن الأرض أنبتت قيصوما وجشجانا وهى انما أنبتت اجاصا وتفاحا ، ولا يديحوا لأنفسهم أن يشتقوا كلمة قياسا على اشتقاق مثيلها ، فهو لاء لا يكون لهم من الحرية ما يسمح لهم بأن يدخلوا ملاحم لم يكن يعرفها آباؤهم ، أو شعرا تمثيلا ينبوعه ذوقهم — والفرس انما أثروا بشيء من معانيهم وخيالاتهم لأنهم هم الذين انتقلوا للعربية ولم

(١) الحنوة نوع من النبات له نور أحمر طيب الرائحة (٢) ابن قتيبة ص ١٦ طبع أوروبا

تنتقل العربية اليهم ، واذ كان اليونان والرومان لم ينتقلوا الى العربية كما أسلفنا لم يكن أثرهم فيهم كبيراً —

وسبب آخر دعا الى تأثرهم بالفارسية أكثر من اليونانية — ذلك أن دولة الفرس ذابت في المملكة العربية ، وكانت حياة الفرس الاجتماعية تحت أعين العرب يعرفون عنها الكثير فاستطاعوا أن يتذوقوا شيئاً من أدبهم ، أما الحياة اليونانية فكانت بعيدة كل البعد عن معيشة العرب ولم تكن تحت أعينهم لينظروها ، آلهة تخالف كل المخالفة تعاليم دينهم ، ونظم سياسية واجتماعية لا عهد لهم بها ، وأنواع من اللهو لم يأنفوها — والأدب كما علمت إنما هو صورة منعكسة للمعيشة الاجتماعية ، فكان لزاماً ألا يتذوق العرب الأدب اليوناني ويتأثروا به

ولا يفوتنا — مع هذا — أن نشير الى أشياء ثلاثة يونانية كان لها أثر في الأدب العربي

(الأول) كلمات أخذها العرب من اليونانية كالفرديوس والقسطاس (الميزان) والسَّجَنَجَل (المرآة) والبطاقة (الرقعة) والقسطل (الغبار) والقنطار والبطريق والترياق والنقرس والقولنج (مرضان) ورووا أن علياً رضي الله عنه سأل شريحاً مسألة فأجابه ، فقال له قالون أي أصبت بالرومية «^(١) الى غير ذلك من الالفاظ

(الثاني) ما كان من أثر في الشعر لشعراء النصرانية في الاسلام أمثال الأخطل والقطامي ، وحتى هؤلاء أثر النصرانية في شعرهم قليل حتى يقول الاب لامانس نفسه « ان أثر النصرانية في ديوان الأخطل أثر ضعيف ، ونصرانيته نصرانية سطحية ككل العقائد الدينية بين البدو »

(الثالث) وهو أكثرها تأثيراً الحِكم اليونانية ، وهذا النوع غني به السريان

(١) الثعالي في فقه اللغة

من قبل العرب ، فنقلوا منه عن اليونانية الشيء الكثير ، ثم أخذه العرب لما كان يتفق وذوقهم الأدبي ، فنقل الى العرب حكم نسبت لسقراط وأفلاطون وأرسطو وأمثالهم ، بعضها تصح نسبتها اليهم وبعضها ليست من أقوالهم عزيز اليهم ، كالذي روي عن أفلاطون أنه قال « اذا أقبلت الدولة خدمت الشهوات العقول واذا أدبرت خدمت العقول الشهوات » وقال « من فضيلة العلم أنك لا تستطيع أن يخدمك فيه أحد ، كما يخدمك في سائر الأشياء ، وانما تخدمه بنفسك ، ولا يستطيع أحد أن يسلبه اياك كما يسلبك غيره من المقتنيات » وقال « لا يضبط الكثير من لا يضبط نفسه الواحدة » الخ . وقال أرسطو « اعلم أنه ليس شيء أصلح للناس من أولى الأمر اذا صلحوا ، ولا أفسد لهم ولا أنفسهم منهم اذا فسدوا ، فالوالى من الرعية بمنزلة الروح من الجسد الذى لا حياة له الا بها » وقال « لن يسود من يتبع العيوب الباطنة من اخوانه » وقال سقراط « النفس الخيرة مجتزئة بالقليل من الأدب والنفس الشريرة لا ينجع فيها كثير من الأدب لسوء مغرسها » وقال « العقول مواهب والعلوم مكاسب »

وروي أن أوميروس جاءه رجل وقال له اهجنى لأفتخر بهجائك اذ لم أكن أهلاً لمديحك ، فقال له لست فاعلاً ، قال فاني أمضى الى رؤساء اليونان فأشعرهم بنكولك ، قال أوميروس مرتجلاً : بلغنا أن كلباً حاول قتال أسد بجزيرة قبرص فامتنع عليه أنفة منه ، فقال له الكلب اننى أمضى فأشعر السباع بضعفك ، قال له الأسد لأن تعيرنى السباع بالنكول عن مبارزتك أحب إلى من أن ألوث شاربي بدمك . . . الخ الخ وزاد هذا النقل من حكم اليونان على توالى الأيام حتى أفردت لها الكتب كما فعل ابن هيندو في كتابه ، ورأيت رسالة طبعت في الجوائب جمعت فيها حكم نسبت لأفلاطون لم يذكر مؤلفها ، وذكر أنها نقلت من نسخة مخطوطة سنة ٨٩٣هـ

وكتب الأدب مشحونة بضروب من هذه الأمثال

الخلاصة

عقلية عربية لها طبيعة خاصة هي نتاج بيئتها ، وعيشة اجتماعية خاصة يعيشها العرب في جاهليتهم ، ودين اسلامي أتى بتعاليم جديدة ، ورسم للحياة مثلاً أعلى يخالف المثل الذي كانت ترسمه تقاليد الجاهلية ، وفتح اسلامي مدسلطانه على فارس وما حولها وعلى مستعمرات رومانية كثيرة ، فأذاب ما كان للفرس من دين ومدنية وعلم ، وما كان للمستعمرات الرومانية من دين ومدنية وعلم في المملكة الاسلامية جميعها ، وكونَ منها مزيجاً واحداً مختلف العناصر — كل هذه الأشياء التي عددناها كانت أسباباً لها نتائجها ، ومن نتائجها ما كان من حركة علمية ودينية في ذلك العصر أعنى العصر الذي ينتهى بانتهاء الدولة الأموية فهو الذي يعيننا الآن — واذ كنا قد شرحنا بإيجاز هذه الأسباب فلنشرح بإيجاز كذلك هذه النتائج ولنقسمها الى قسمين الحركة العلمية وحركة العقائد الدينية

مصادر هذا الباب

اعتمدنا في هذا الباب على :

- 1 Boer, History of philosophy in Islam .
- 2 Dresser, History of Ancient and medieval philosophy .
- 3 Macdonald, Development of Muslim Theology .
- 4 O'leary, Arabic Thought .

(٥) دائرة المعارف البريطانية في مادة « الآداب السريانية »

(٦) محاضرات الاستاذ ساتتانا في الجامعة المصرية

عدا ما ذكرنا من الكتب العربية أثناء البحث

الباب الخامس

الحركة العلمية

وصفها ومراكزها

الفصل الأول

وصف الحركة العلمية اجمالاً

نستعمل هنا الحركة العلمية بأوسع معانيها ، ونعني بها كل ما عني المسلمون بالتفكير فيه تفكيراً منظماً نوعاً ما ، من تشريع وتفسير وحديث وتاريخ وسير وما الى ذلك ، ولسنا نستثنى الا حركة العقائد الدينية ، وسنفرد لها باباً خاصاً ، والحركة الأدبية وقد كتب فيها جزء خاص — والآن ننظر نظرة عامة في الحركة العلمية من عهد الاسلام الى سقوط الدولة الأموية

اللامية — تركنا العرب في الجاهلية وليس لهم علم ولا فلسفة ، ولم يكن من بينهم من يصح أن يسمى عالماً الا قليل ، وعلى تجوز في اطلاق كلمة عالم ، كالذي حكينا عن الحارث بن كلدة والنضر بن الحارث

وقد كان الجهل فاشياً فيهم ، والأمنية شائعة بينهم خصوصاً في الأقطار البدوية لما قدمنا من أن الكتابة والعلم انما يكثران حيث يكثر العمران ، ويقول ابن خلدون « ان أهل الحجاز تعلموا الكتابة من أهل الحيرة ، وهؤلاء تعلموها من الحميريين »

وسواء صح هذا أو لم يصح فالحجازيون والمصريون عموماً كانوا أشد بدادة:
وأكثر أمية ، حتى يروى لنا البلاذري في كتابه « فتوح البلدان » « أن الاسلام
دخل وفي قريش سبعة عشر رجلاً كلهم يكتب ، عمر بن الخطاب ، وعلى ابن أبي
طالب ، وعثمان بن عفان ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وطلحة ، ويزيد بن أبي
سفيان ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، وحاطب بن عمرو ، وأبو سلمة بن عبد
الأسد المخزومي ، وأبان بن سعيد بن العاص بن أمية ، وخالد بن سعيد أخوه ،
وعبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري ، وحويطب بن عبد العزى العامري ،
وأبو سفيان بن حرب ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وجهم بن الصلت ، ومن خلفاء
قريش العلاء بن الحضرمي »^(١) وقليل من نساءهم كن يكتبن كحفصة وأم كلثوم
من زوجات النبي صلى الله عليه وسلم والشفاء بنت عبد الله العدوية ، وكانت عائشة
أم المؤمنين تقرأ المصحف ولا تكتب^(٢) وكذلك أم سلمة ، فإذا كانت قريش —
وشأنها في الحجاز ما بيننا قبل من تقدمها في الشؤون التجارية — ليس فيها الا سبعة
عشر كاتباً كان الكتّابون في غيرها من القبائل المصرية أندر ، ويروى البلاذري
أيضاً « أن الكتاب (يريد الكتابة) بالعربية في الأوس والخزرج كان قليلاً ،
وكان بعض اليهود قد علم كتاب العربية وكان يُعلِّمه الصبيان بالمدينة في الزمن
الأول ف جاء الاسلام وفي الأوس والخزرج عدة يكتبون وقد عدّهم فكانوا أحد عشر^(٣)
— ولندرة الكتابة كانوا يلقَّبون مَنْ جمع بين معرفة الكتابة والرمي والرمي والرمي
« الكامل » فلقبوا بهذا اللقب سعد بن عبادة وأُسَيْد بن حُضَيْر وعبد الله بن
أبي^(٤) وقد رأيت فيما قبل أنه في الجاهلية لقب به سُوَيْد بن الصامت

(١) فتوح البلدان طبع أوروبا ص ٤٧١ وما بعدها

(٤) ص ٤٧٤

(٣) ص ٤٧٣

(٢) المصدر نفسه

فلما جاء الاسلام استكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض هؤلاء الذين يعرفون الكتابة لكتابة ما ينزل من القرآن ، « فكان أول من كتب له مقدمة المدينة أبي بن كعب الانصارى — فكان أبي اذا لم يحضر دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن ثابت الانصارى فكتب له ، فكان أبي وزيد يكتبان الوحي بين يديه وكتبه الى من يكاتب من الناس وما يقطع وغير ذلك — وأول من كتب له من قريش عبد الله بن سعد بن أبي سرح ثم ارتد الخ » ^(١) ثم كتب له صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان وشرحبيل بن حسنة وأبان بن سعيد وخالد بن سعيد والعلاء الحضرمي ومعاوية بن أبي سفيان ، ويروى الواقدي أن حنظلة بن الربيع كتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة فسمى حنظلة الكاتب

وحق هؤلاء الذين كانوا يكتبون الوحي لم يكونوا مهرة في الكتابة ، ولا كتابتهم سائرة على نمط واحد ، ولا خاضعة لقوانين الاملاء ، فكتبوا « لا أذبحنه بزيادة ألف » ، وكذلك « لا أوضعوا » وكتبوا « بأيد » ياءين ، وكتبوا « امرأت فرعون » « وقرت عين لي ولك » بتاء مفتوحة ، وحذفوا الألفات من مواضع دون مواضع مع تساويهما في نظر الاملاء ، وسبب ذلك كما يعلله ابن خلدون ضعفهم في صناعة الخط ، وأنهم لم يبلغوا حد الأجادة فيها

أثر الاسلام في الحركة العلمية — وجاء الاسلام فأفاد الحركة العلمية

من وجوه

(الأول) ان نشر الدين كان يستتبع الحاجة الى القارئ الكاتبين فقد كانت آيات القرآن تكتب ويتلوها من يعرف القراءة على من لم يعرف ، وقد جاء في حديث اسلام عمر أنه « عمدا الى أخته وختنه وعندها خباب ابن الأرت

معه صحيفة فيها « طه » يُقرُّهُمَا اياها « فكان طبيعياً أن يشجع النبي صلى الله عليه وسلم على تعلم الكتابة ، وقد ورد أنه في غزوة بدر « كان فداء بعض الأسرى الذين يكتبون أن يعلموا عشرة من صبيان المدينة الكتابة » ، ورأى بعض المسلمين أنهم في حاجة الى الكتابة ليعرفوا دينهم على الوجه الأكمل

بل حث النبي صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه أن يتعلموا لغة غير اللغة العربية لما دعت الحاجة الى ذلك بعد انتشار الاسلام ، ففي « البخارى » عن زيد بن ثابت قال أتى بى النبي صلى الله عليه وسلم مقدمه المدينة ، فقليل هذا من بنى النجار وقد قرأ سبع عشرة سورة ، فقرأت عليه فأعجبه ذلك ، فقال تَعَلَّمْ كِتَابَ (كتابه) يهود فأتى ما آمنهم على كتابى ، ففعلتُ فما مضى لى نصف شهر حتى حذقتُه ، فكنت أكتب له اليهم ، واذا كتبوا اليه قرأت له « وفي حديث آخر « عن زيد بن ثابت قال قال لى النبي صلى الله عليه وسلم انى أكتب الى قوم فأخاف أن يزيدوا علىّ أو ينقصوا ، فتعلّم السريانية ، فتعلمتها فى سبعة عشر يوماً »

ولما فتحت البلاد كان العنصر العربى هو العنصر الحاكم ، فكان لا بد له أن يتعلم وأن يقرأ ويكتب ، فكثر القراءة والكتابة وخاصة فى عهد التابعين

كذلك هؤلاء الداخلون فى الاسلام من غير العرب اضطروا الى تعلم العربية لدينهم ولديناهم ، حتى اضطروا أن يتعلموا النحو لاصلاح لغتهم كما نقلنا ذلك عن أبى عبيدة

أضف الى ذلك أن الفتح الاسلامى استتبع الحضارة ، فبنيت فى عهد عثمان ومن بعده الدور والقصور وشيدت بالكس ، وجعلت أبوابها من الساج ، واقتنى كثير من الصحابة الأموال والجنان والعيون ، كالزبير بن العوام وعبد الرحمن بن

عوف وسعد بن أبي وقاص والمقداد ، وهذا من غير شك يستتبع رقى الصناعة ومنها الكتابة

(الثانى) مما أثريه الاسلام فى الحركة العلمية انه نشر بين العرب كثيراً من التعاليم التى أبناها من قبل ، رفعت مستويهم العقلى ، كما نشر بينهم كثيراً من أحوال الأمم الأخرى وتاريخها باطناب أحياناً وبايجاز أحياناً حسبما يدعو اليه موقف العِظَة ، فقص علينا قصة آدم ونوح وإبراهيم ويوسف وموسى ويونس وداود وسليمان وغيرهم عليهم السلام وشيئاً من أخبار أمهم فى أسلوب جذاب هيج النفوس الى الاستزادة وتعرف ما عند الأمم الأخرى منها — كاليهود والنصارى — فكان فى ذلك نوع من الثقافة أفاد المسلمين ووسع مداركهم

ثم شرع أحكاماً فى الزواج والطلاق والشؤون المدنية والجنائية كانت قانوناً نظم أمور المسلمين فى معيشتهم الاجتماعية والاقتصادية ، واتخذ الفقهاء والمشرعون مرجعهم يستنبطون منه الأحكام ، ويستهدونه فيما يعرض من حوادث جديدة خلقتها مدنيّتهم ، فكان ذلك أساساً لحركة تشريعية واسعة تعرض لوصفها فيما بعد ذلك عدا ما له من أثر لغوى ولسانى موضعه قسم آخر من الكتاب

(الثالث) وشىء آخر للاسلام كان له أثر كبير فى الحياة العقلية وهو أنه سلك فى دعوته الى الايمان بالله وصفاته من علم وقدره ووحدانية مسلكا يثير العقل وهو الدعوة الى النظر الى ما فى العالم من ظواهر « أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ » « فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ » « فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ، أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ، ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ، وَعَيْنَبًا وَقَضْبًا ، وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ، وَحَدَائِقَ غُلْبًا ، وَفَاكِهَةً وَأَبًّا مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ » « لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا

اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ
اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ،
رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ » « وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ » الى كثير من أمثال هذا

هذا الضرب من الآيات بعث العقل على النظر في الكون وكان له أثر في نمو

الحياة العقلية

ولعل هذا أعنى النظر في الكون للاستدلال منه على الله وصفاته هو الذي كان
يطلق عليه القرآن الحكمة — فقد قال تعالى « وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ » ونحن
إذا قرأنا ما ورد في القرآن من أقوال لقمان وجدناها من هذا النوع ، وقال « يُؤْتِي
الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتِ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا » وسمى موضع
العضة حكمة « وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِي
النُّذُرُ » وسمى ما أوحى الله به الى محمد حكمة لهذا فقال « ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ
رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ » الخ وقد سئل مالك ما الحكمة قال المعرفة بالدين والفقه فيه
والاتباع له^(١)

وكذلك لفظ العلم فالقرآن لم يستعمل الكلمة بالمعنى الذي استعمل بعد حين
تقول « علم النحو » أو « علم الفقه » وهو ما يقابل كلمة Science وإنما استعمله —
على ما يظهر — بمعنى المعرفة بأوسع معانيها « وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ » « وَمِنْكُمْ
مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا »

وهو بهذا المعنى يطلق حتى على المعارف الدنيوية كما ورد على لسان قارون « قَالَ

(١) وفسر الطبري الحكمة بالاصابة في القول والفعل

إِنَّمَا أُوتِيَتْهُ (أى المال) عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي (أى معرفة بطرق كسب المال ، ولكن أكثر ما تستعمل فى هذا النوع من المعرفة الذى يوصل الى الهداية كأنه هو المعرفة التى يعتد الله بها ، فهو فى هذا قريب من معنى الحكمة الذى ذكرنا « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا » « وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِى جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ » الخ

وصف الحركات العلمية وأشر القائمين بها — اذا نظرنا الى الحركات

العلمية فى صدر الاسلام الى آخر الدولة الأموية — وجدناها اتجهت ثلاثة اتجاهات حركة دينية ونعنى بها البحث فى الشؤون الدينية من تفسير للقرآن وحديث وتشريع وما الى ذلك ، وحركة فى التاريخ والقصص والسير ونحوها ، وحركة فلسفية فى منطق وكيمياء وطب وما اليها — ونعید هنا ما ذكرنا قبل من أنا اذا قلنا حركة علمية فلسنا نعنى علوماً منظمة لها أبواب وفصول فذلك ما لم يصل اليه هذا العصر ، وانما نعنى النواة التى تكونت حولها العلوم بعد وسنصف هذه الحركات الثلاث وصفاً اجمالياً

الحركة الدينية — كانت هذه الحركة أكبر الحركات وأوسعها نطاقاً ، فقد أقبل الناس على القرآن يفهمون معانيه ، ويفسرون آياته ، ويستنبطون منه الأحكام وكذلك فعلوا فى الحديث

وقد بدأت هذه الحركة فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أخذت فى الاتساع بعده وقام أصحابه بقسط وافر منها

وبديهي أن أصحاب رسول الله كانوا مختلفين اختلافاً كبيراً فى درجاتهم العلمية كاختلافهم فى الفضائل الأخرى ، فكان بعضهم أشجع من بعض ، وبعضهم أكرم من بعض ، كذلك كان بعضهم أعلم من بعض ، جاء فى الحديث « أن

رسول الله قال « ان مثل ما بعثني به الله من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعُشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله تعالى بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ الخ »^(١)

ويقول مسروق (وهو من التابعين) لقد جالست أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فوجدتهم كالإِخَازِ^(٢) فالإِخَازُ يُرْوَى الرجل والإِخَازُ يروى الرجلين والإِخَازُ يروى العشرة والإِخَازُ يروى المائة والإِخَازُ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم^(٣)

واشتهر من الصحابة ستة أو سبعة عُرُوا الطبقة الأولى في العلم، يختلف العادون في بعضهم فيضعون واحداً مكان آخر وهم عمر وعليّ وابن مسعود وابن عمر وابن عباس وزيد بن ثابت وعائشة — وهؤلاء كلهم من قریش، ماعدا ابن مسعود فإنه هُذَلِي، وزيد بن ثابت فهو من الأنصار، ويقول مسروق « شامِتُ أصحاب رسول الله^(٤) فوجدت عليهم انتهى إلى ستة إلى عمر وعليّ وعبد الله (ابن مسعود) ومُعَاذُ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ وزيد بن ثابت فشامت هؤلاء الستة فوجدت عليهم انتهى إلى عليّ وعبد الله^(٥) وروى يزيد بن عُمَيْرَةَ السَّكْسَكِيّ وكان تلميذاً لمعاذ بن جبل » أنه لما حضرت الوفاة معاذاً أمره أن يطلب العلم من أربعة عبد الله بن مسعود وعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وأبي الدرداء — فترى من هذا اختلافهم فيمن هو الأعلم، واختلاف النظر في هذا طبعي في كل عصر وكل أمة

وعلى كل حال فقد عُدَّ بضعة من الصحابة هم الطبقة الأولى في العلم، وعد عشرون من الطبقة الثانية، ونحو مائة وعشرين من الطبقة الثالثة^(٦) ويطول بنا القول لو

(١) أخرجه البخاري ومسلم (٢) الإِخَازُ القدير

(٣) طبقات ابن سعد جزء ٢ ص ١٠٤ (٤) شامت الرجل قاربته لا تعرف ما عنده

(٥) الطبقات جزء ٢ ص ١١٠ (٦) الإصابة جزء ١ ص ٩

عددنا أسماءهم وبيّنا نسبهم

ونحن اذا ألقينا نظرة على الطبقة الأولى منهم بعد قراءة تاريخهم العلمى وجدنا شخصياتهم العلمية مختلفة : فعمربن الخطاب — مثلاً — لا نجد له كثيراً من الأقوال فى تفسير القرآن ، كما لا نجده كثيراً فى جمع الحديث ، ولكن ميزته الكبرى على ما يظهر لنا قوته الفطرية فى الحكم على الأشياء ، واصابته فى معرفة العدل والظلم ، وخبرته الواسعة بالعالم الذى يحيط به ، « يقول أبو ذر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ان الله وضع الحق على لسان عمر يقول به »

وهذه الميزة تفسر لنا بوضوح مواضع كفايته ، فعقله عقل قضائى ، كان يفتى الناس حتى فى حياة رسول الله ، ورويت عنه أحكام كثيرة فى مشكلات المسائل ، وفراسته فى الناس وفيمن يوليه الاعمال فراسة فى منتهى الصدق جاء فى العقد الفريد « كان عبد الله بن عباس من أحب الناس الى عمر بن الخطاب ، وكان يقدمه على الأكابر من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم — ولم يستعمله قط ، فقال له يوماً كدت أستعملك ولكن أخشى أن تستحل الفىء على التأويل ، فلما صار الأمر الى على استعمله على البصرة فاستحل الفىء على تأويل قول الله تعالى « وَاعْلَمُوا أَنَّ مَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ » — كذلك ادارته للمملكة الاسلامية على سعتها ومواجهته لأمر عظام نشأت عن الفتح لم تكن فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ولا أبى بكر تحتاج الى عقل كبير فى تصريفها والتشريع لها — كل هذا ونجاحه فيه يجعلنا — من غير شك نقرأ فى عمر سعة العلم ، ويجعلنا نتصور نوع العلم الذى كان به ممتازاً

على العكس من ذلك نرى ابنه عبد الله ، وهو أحد علماء الصحابة ، فهو يعطينا صورة علمية غير صورة عمر ، جماع الحديث ، يتلمسه حيث كان ، ويتحرى

ألفاظ النبي صلى الله عليه وسلم بدقة يقول أبو جعفر « لم يكن أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا سمع من رسول الله حديثاً أجدر أن لا يزيد فيه ولا ينقص منه ولا ، ولا ، من عبد الله بن عمر بن الخطاب ولكنه كما قال الشعبي « كان جيد الحديث ولم يكن جيد الفقه »^(١) ، حمله الورع والخوف من الله ألا يكثُر من الفتوى وألا يدخل في شيء من الفتن ، يقول ابن الأثير « وكان ابن عمر شديد الاحتياط والتوقى لدينه في الفتوى وكل ما تأخذه به نفسه ، حتى أنه ترك المنازعة في الخلافة مع كثرة ميل أهل الشام اليه ومحبتهم له ، ولم يقاتل في شيء من الفتن ، ولم يشهد مع عليّ شيئاً من حروبه »^(٢) كما اشتهر بأنه ثقة في رواية الحوادث التاريخية التي وقعت في صدر الاسلام ، لاتصاله برسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده واهتمامه بتعرفها ، فترى من هذا أن شخصيته العلمية كانت كثرة الجمع ودقة النقل ، لا كثرة الاستنباط ، ولا وفرة الفتوى

ونموذج آخر نراه في عبد الله ابن عباس ، كما تصوره لنا كتب السير والتفسير فقد كان واسع الاطلاع في نواح مختلفة ، يعرف الشعر والأنساب وأيام العرب ، ويجهّد في تعرف ما عند الصحابة من حديث وعلم ، يقول « وجدت عامة حديث رسول الله عند الأنصار ، فان كنت لآتي الرجل فأجده نائماً لو شئت أن يؤقظ لي لأوقظ ، فأجلسُ على بابه تسفني على وجهي الريح حتى يستيقظ متى ما استيقظ ، وأسأله عما أريد ثم أنصرف » كذلك كان يعلم ماورد في تفسير القرآن وأسباب نزوله وحساب الفرائض والمغازي ، ويعرف شيئاً من الكتب الأخرى كالتوراة والانجيل — وكانت أكثر حياته حياة علمية يتعلم ويعلم ، لم يشتغل بالامارة الا قليلاً لما استعمله عليّ على البصرة ، وعُمّر طويلاً فقد مات نحو سنة ٥٧٠ هـ عن نحو سبعين

(١) طبقات ابن سعد جزء ٢ ص ١٢٥

(٢) أسد الغابة جزء ٣ ص ٢٢٨

عاماً وكان عبد الله بن عمر يتهمة بالجرأة في تفسير القرآن ثم عدل عن ذلك ^(١) فترى من هذا صورة أخرى غير السابقتين ، ترى فيها ضرباً من تخصيص الحياة للعلم وضرباً من سعة الاطلاع في نواح علمية مختلفة — نعم قد أحيط اسمه ببعض المبالغات — على ما يظهر — نشأت في الدولة العباسية لَمَّا كان جدّ الخلفاء العباسيين ، ولكنّ لهذه المبالغات أساساً صحيحاً من سعة العلم وقوة الحجة ، وأكثر ما اشتهر به أقواله في تفسير القرآن

وشخصية رابعة هي أصعب ما يكون تصويراً ، دخلها من المبالغات والأكاذيب ما وقف المؤرخ حائراً ، تلك هي شخصية علي ابن أبي طالب — فليس هناك من الشخصيات في ذلك العصر ما دار حوله الجدل ، وأفرط فيه المحبون والكارهون ، واختلق حوله المختلقون ، وتأسست من أجله المذاهب الدينية ، كالذي كان لشخصية عليّ ، فقد رووا عنه ٦٨٦ حديثاً مسنداً الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يصح منها الا نحو خمسين ^(٢) ونسبوا اليه ديوان شعر ، ويقول المازني انه لم يصح أنه تكلم بشيء من الشعر غير بيتين

تِلْكَمُ قُرَيْشٌ تَمَنَّانِي لِتَقْتُلَنِي فَلَا وَرَبِّكَ مَا بَرُّوا وَلَا ظَفَرُوا
فَإِنْ هَلَكَتْ فَرَهْنُ ذِمَّتِي لَهُمْ بِذَاتٍ وَدَقِينٍ لَا يَعْفُو لَهَا أَثَرُ ^(٣)

ونسبوا اليه ما في نهج البلاغة ، وهو يشتمل على كثير من الخطب والأدعية والكتب والمواعظ والحكم ، وقد شك في مجموعها النقاد قديماً وحديثاً كالصفدي وهوار Huart ^(٤) ، واستوجب هذا الشك أمور ، ما في بعضه من سجع منمق ، وصناعة لفظية ، لا تعرف لذلك العصر ، كقوله « أكرم عشيرتك فانهم جناحك

(١) انظر الاتقان جزء ٢ (٢) الفصل في الملل والنحل لابن حزم جزء ٤ ص ١٣٧

(٣) ذات ودقين الداهية (٤) في كتابه الادب العربي

الذى به تطير ، وأصلك الذى اليه تصير » وما فيه من تعبيرات انما حدثت بعد أن نقلت الفلسفة اليونانية الى العربية ، وبعد أن دونت العلوم ، كقوله « الاستغفار على ستة معان ، والإيمان على أربع دعائم » وكالذى فيه من وصف الدار وتحديد حدوده بحدود هى أشبه بتحديد الموثقين ، كقوله « وتجمع هذه الدار حدود أربعة ، الحد الأول ينتهى الى دواعى الآفات » الخ هذا الى ما فيه من معان دقيقة منمقة على أسلوب لم يعرف الا فى العصر العباسى كما ترى فى وصف الطاووس — كما نسبوا اليه كتاباً فى الجفر يذكّر فيها الحوادث التى تحدث الى انقراض العالم ، وحكايته مع أبى الأسود الدؤلى فى وضع النحو معروفة مشهورة — كل هذا يجعل من العسير على المؤرخ الناقد وصف شخصيته العلمية وصفا يطمئن اليه ، أى ما فى نهج البلاغة لعلّ وأيها ليس له ؟ وأى ماروى عنه من الحكم والأمثال له وأيها ليس له ؟ وأى الأحاديث وما صدر عنه من الأحكام وما استشاره فيه الخلفاء من الشؤون يصح عنه وأيها لا يصح ؟ كل هذه الأشياء لا تزال مجالاً للبحث

وعلى كل حال اذا نحن رجعنا الى كتب السير الموثوق بها كطبقات ابن سعد نرى أنه كان كذلك ذا عقل قضائى ، فقد ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم قضاء اليمن ، وله آراء ثبتت صحتها فى مشاكل قضائية عديدة ، حتى قيل فيه « قضية ولا أبا حسن لها » وحكى علقمة عن عبد الله قال « كنا نتحدث أن من أقضى أهل المدينة على » وفوق هذا كان يهتم بالقرآن يعرف معانيه وفيم نزل حتى « زعموا أنه كتبه على تنزيله » ^(١) وهو فى هذا كان أستاذاً لعبد الله بن عباس أخذ عنه كثيراً ، ويقارنون بينهما فيقولون « ان عبد الله بن عباس كان أعلمهما بالقرآن ،

(١) طبقات ابن سعد جزء ٢ — القسم الثانى — ص ١٠١

وكان علىّ أعلمهما بالمهمات»^(١)

ويطول بنا القول لو وصفنا الميزة العلمية لكل من مشهورى الصحابة ، أمثال عبد الله بن مسعود وزيد بن ثابت وأبي الدرداء ومعاذ بن جبل وأبي ذرٍّ وأبي موسى الأشعري ولكن يمكننا أن نقول اجمالاً أن الشخصيات السابقة تبين أشهر النواحي العلمية ، وهؤلاء الذين سمينا يشا كلونهم فيها أو بعضها . روى عن أبي البختري أنه قال « أتينا علياً فسألناه عن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فقال عن أيهم ؟ قال قلنا حدثنا عن عبد الله بن مسعود ، قال علم القرآن والسنة ثم انتهى ، وكفى بذلك علماً ، قلنا حدثنا عن أبي موسى قال صبغ في العلم صبغة ثم خرج منه ، قال قلنا حدثنا عن عمار بن ياسر ، فقال مؤمن نسي وإذا ذكر ذكر ، قال قلنا حدثنا عن حذيفة فقال أعلم أصحاب محمد بالمناققين ، قال قلنا حدثنا عن أبي ذر قال وعى علماً ثم عجز فيه ، قال قلنا أخبرنا عن سلمان قال أدرك العلم الأول والعلم الآخر بحر لا ينزح قعره ، منا أهل البيت ، قال قلنا فأخبرنا عن نفسك يا أمير المؤمنين ، قال إياها أردتم كنت إذا سألت أعطيت وإذا سكت ابتدئت»^(٢) ولكن لا بأس أن نذكر كلمة عن عالين لكل منهما ناحية خاصة في العلم ، وهما عبد الله بن سلام وسلمان فأما عبد الله فكان يهودياً ، ويظهر أنه كان مثقفاً بالثقافة اليهودية ، فقد عده المفسرون في أوائل الذين قال الله فيهم « أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ » أسلم على أثر هجرة الرسول الى المدينة (على أحد الأقوال) ، وصحب عمر في سفره الى الشام ، ووقف خطيباً في المتألمين على عثمان يدافع عنه ويخذل الثائرين ، ومات نحو سنة ٤٠ هـ واشتهر بين الصحابة بالعلم حتى رأيت أن معاذاً عده رابع أربعة

(١) المصدر نفسه ص ١٢١

(٢) يريد اذا سألت النبي أجابني واذا سكت بدأ يسألني ليفيدني

يُطلب عندهم العلم ، وتقل المسلمون عنه كثيراً تدل على علمه بالتوراة وما حولها ،
وتجمع حول اسمه كثير من الاسرائيليات ، وتقل عنه الحديث أبو هريرة وأنس
ابن مالك ، وينسب اليه ابن جرير الطبري في تاريخه كثيراً من الأقوال في المسائل
التاريخية الدينية

وعلى كل حال فهو يمثل لنا ناحية خاصة دخل منها على المسلمين بعض أقوال
التوراة وما اليها ، ولصق بعضها بتفسير القرآن وبالقصص ، وسنعرض لذلك بعد
أما سلمان الفارسي — ان صح ما يروى محمد بن اسحاق — فانه تنقل في أديان
مختلفة قبل أن يسلم ، كان مجوسياً مخلصاً للمجوسية (حتى كان قاطن النار التي
يوقدها أهله) ، ثم كان نصرانياً مخلصاً للنصرانية متصلاً بأتقي رجالها ، ثم كان عبداً
مملوكاً ليهودي من بني قُرَيْظَةَ (ولكنه لم يتهود) ثم أسلم فأخلص في اسلامه —
كذلك يروى أنه قبل أن يسلم تنقل في بلاد كثيرة فهو من أصبهان (على رواية)
ثم انتقل في طلب النصرانية الى الشام ، ثم الى الموصل ثم الى نصيبين ثم الى
عمورية من أرض الروم ، ثم الى جزيرة العرب يطلب الاسلام فنزل بوادي القرى ،
وهناك غدر به قوم من كلب فباعوه ، ثم انتهى الى المدينة فأسلم^(١)

فترى من هذا أن قد كان له علم بديانات مختلفة ولعل هذا هو ما عناه على
ابن أبي طالب بقوله فيه « من لكم بمثل لقمان الحكيم ، علم العلم الأوّل ، والعلم
الآخر ، وقرأ الكتاب الأول ، وقرأ الكتاب الآخر ، وكان بحر لا ينزف »

وتدلنا سيرته على أن نزعتة الدينية كانت نزعة زهد وورع وقد مات بالمداين

في خلافة عثمان

وقد اتخذ الفرس مثلكم — كما اتخذ مسلمو الحبشة بلالا ، والروم صهيبة —

(١) تجد القصة بطولها في طبقات ابن سعد في المجلد الرابع ص ٥٣ وما بعدها

وفخرت به الشعوبية ، وربطه الشيعة بعليّ والحسن والحسين ، وعده الصوفية أحد مؤسسيها ، وبالغ فيه الفرس كثيراً ، ونسبوا إليه كثيراً

وهذا القدر يكفي في الدلالة على أنه كان بين الصحابة حركة علمية ، وإن هذه الحركة أكثرها ديني ، وأنه كان لها نواح مختلفة وشخصيات مختلفة

هؤلاء العلماء وأمثالهم من الصحابة تفرقوا في المملكة الإسلامية — في جميع أنحاءها ، وإن شئت فقل وزّعوا على الأمصار قصداً إلى تعليمها ، فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم في مدن جزيرة العرب ، فأرسل إلى اليمن وإلى البحرين وإلى مكة بعد فتحها — وكذلك فعل عمر بن الخطاب عندما اتسعت الفتوح وكثرت الأمصار ، عن سالم بن عبد الله قال : كنا مع ابن عمر يوم مات زيد بن ثابت فقلت مات عالم الناس اليوم ، فقال ابن عمر رحمه الله اليوم ، فقد كان عالم الناس وجبرها ، فرقمهم عمر في البلدان^(٢)

وعن عمر بن الخطاب أنه قال حين خرج معاذ بن جبل إلى الشام لقد أخل خروجه بالمدينة وأهلها في الفقه وما كان يفتيهم به ، ولقد كنت كلمت أبا بكر رحمه الله أن يحبس له حاجة الناس إليه فأبى عليّ ، وقال رجل أراد جهاداً يريد الشهادة فلا أحبسه فقلت والله إن الرجل ليرزق الشهادة وهو على فراشه الخ — وكتب عمر إلى أهل الكوفة أني بعثت إليكم بعبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً ، وآثرتكم به على نفسي فخذوا عنه ، فقدم الكوفة ونزلها وابتنى بها داراً إلى جانب المسجد « إلى كثير من أمثال ذلك

هؤلاء الصحابة العلماء الذين تفرقوا في الأمصار أنشأوا حركة علمية في كل مصرٍ

نزله وكونوا مدارس^(١) وكان لهم تلاميذ ينقلون عنهم العلم ، فتخرج عليهم التابعون ثم تابعوهم مما سنعرض له عند الكلام على مراكز الحركة العقلية وعندئذ دخل عنصر الموالي وأولادهم في الحركة العلمية ، واتسع نطاقها فكان منهم كثير من سادة التابعين وتابعي التابعين

الموالي والعلم — كان سكان البلاد كما علمنا يتكونون من عنصرين : عنصر عربي ، وهو العنصر الفاتح ، وعنصر أعجمي ، وكان أكثر حملة العلم في عصر الصحابة العرب ، لأن أكثر الصحابة عرب ، فلما أخذ علماء الصحابة يعلمون في الأمصار المفتوحة ، اشترك العرب والعجم في تلقى العلم عنهم ، حتى اذا كان عصر التابعين وتابعيهم كان بعض حملة العلم عرباً وأكثرهم من الموالي أو أبناء الموالي ويقول ابن خلدون في تعليل هذا « والسبب في ذلك أن الملة في أولها لم يكن فيها علم ولا صناعة ، لمقتضى أحوال السذاجة والبداءة ، وانما أحكام الشريعة التي هي أوامر الله ونواهيه كان الرجال ينقلونها في صدورهم ، وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة بما تلقوه من صاحب الشرع وأصحابه ، والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا أمر التعليم والتأليف والتدوين ولا دفعوا اليه ، ولا دعتهم اليه حاجة ، وجرى الأمر على ذلك زمن الصحابة والتابعين ، وكان يسمون المختصين بحمل ذلك ونقله القُرَّاء أي الذين يقرءون الكتاب وليسوا أميين لأن الأمية يومئذ صفة عامة في الصحابة ، بما كانوا عرباً ، فقليل حملة القرآن يومئذ قراء ، ثم صارت هذه العلوم كلها ملكات محتاجة الى التعليم ، فاندرجت في جملة الصنائع ، وقد كنا قدمنا أن الصنائع من منتحل الحضرة ، وأن العرب أبعد الناس عنها فصارت العلوم لذلك حضرية ، وبعد عنها العرب ، والحضر لذلك العهد هم العجم أو من في معنائهم من الموالي وأهل

(١) نستعمل المدرسة هنا بمعناها الواسع ونعني بها دائرة الحركة العلمية لا البناء الخاص بالتعليم

الحواضر . . . لانهم أقوم على ذلك للحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس . . .
فكان صاحب صناعة النحو سيبويه والفارسي من بعده والزجاج من بعدهما ، وكلهم
عجم في أنسابهم ، . . . وكذا حملة الحديث وعلماء أصول الفقه ، وحملة علم الكلام
وأكثر المفسرين ، ولم يبق بحفظ العلم وتدوينه إلا الاعاجم ، أما العرب الذين أدركوا
هذه الحضارة وسوقها فشغلهم الرياسة في الدولة العباسية » اه مختصراً

وهو وإن كان يتكلم عن عصر التدوين ، ويعنى به على ما يظهر العصر العباسي
فعلته كذلك صحيحة في العصر الأموي ، عصر التابعين ومن بعدهم ، إلا أنه تغالى
في نظريته وسلب العرب ما كان لهم من حظ في المشاركة في العلوم
كان في العصر الأموي عرب من أشهر العلماء كسعيد بن المسيب وعلقمة
وشريح ومسروق والنخعي وغيرهم ، ولكن الأكثرين كانوا موالى أو في حكمهم —
فكان في المدينة سليمان بن يسار ، وكان من أعلم الناس وأفقههم وأبوه مولى
ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم — ونافع مولى عبد الله بن عمر والذي روى
عنه أكثر أحاديثه ، وأصله من الديلم ، — وربيعة الرأي وهو شيخ الامام مالك
وأبوه فرثوخ من الموالى

ومن علماء مكة مجاهد بن جبر ، وكان مولى لبني مخزوم ، وهو من أكثر
رواة التفسير عن ابن عباس — وعكرمة مولى ابن عباس والذي روى عنه أكثر
علمه — وعطاء بن أبي رباح مولى بني فهر من مولدى الجند^(١) وكان أسود —
وأبو الزبير محمد بن مسلم بن تدرس مولى حكيم بن حزام وكان من أحفظ
الناس للحديث

واشتهر من علماء أهل الكوفة سعيد بن جبير ، مولى بني وائلة وكان أسود

(١) الجند بليدة باليمن

— واشتهر بالبصرة الحسن بن يسار ، مولى زيد بن ثابت — ومحمد بن سيرين وكان.
أبوه من سبي ميسان ، وأمه صفية مولاة أبي بكر الصديق ، وهو من فقهاء البصرة.
وكذلك الحسن البصري وكان أبوه أيضا من سبي ميسان
واشتهر من أهل الشام مكحول بن عبد الله ، وهو معلم الأوزاعي ، وأبوه.
من أهل هراة ، وأمه ابنة ملك من ملوك كابل
واشتهر في مصر

يزيد بن حبيب مولى الأزدي ، كان مفتي أهل مصر ، وعنه أخذ الليث بن
سعد وكان يزيد بربري الاصل ، أبوه من أهل دثله (١)
وهناك غير هؤلاء كثير من العلماء من أبوين عربي وعجمي كالذي رأيت
من حكاية سالم بن عبد الله بن عمر الخطاب ، والقاسم بن محمد بن أبي بكر ، وعلى
ابن الحسين بن علي بن أبي طالب المعروف بزين العابدين ، فان الزمخشري يروي.
أن أمهاتهم بنات يزديجرد ، وكالشعبي علامة التابعين فان أباه عربي وأمه من
سبي جلولا .

ويطول بنا القول لو أنا أحصينا من كان من علماء هذا العصر من العرب
ومن كان من الموالى ، ولكن نظرة في أنسابهم عامة تدلنا على أن أكثرهم موال
جاء في العقد الفريد « وقال ابن أبي ليلى قال لي عيسى بن موسى وكان ديانا
شديد العصبية (أى للعرب) من كان فقيه البصرة ؟ قلت الحسن بن أبي الحسن .
قال ثم من ؟ قلت محمد بن سيرين ، قال فما هما ؟ قلت موليان ، قال فمن كان فقيه
مكة ؟ قلت عطاء بن أبي رباح ومجاهد وسعيد بن جبير وسليمان بن يسار ، قال .
فما هؤلاء ؟ قلت موال ، قال فمن فقهاء المدينة ؟ قلت زيد بن أسلم ومحمد بن

(١) رجعنا في نسب هؤلاء ومحل إقامتهم الى ابن خلكان وأعلام الموقعين وطبقات ابن سعد

المنكدر ونافع بن أبي نجيح ، قال فما هؤلاء ؟ قلت موال ، فتغير لونه ثم قال فمن أفقه أهل قُبَاء ؟ قلت ربيعة الرأي وابن أبي الزناد ، قال فما كانا ؟ قلت من الموالى ، فأرْبَدَّ وجهه ، ثم قال فمن فقيه اليمن ؟ قلت طاووس وابنه وابن منبه ، قال فما هؤلاء ؟ قلت من الموالى ، فانتفخت أوداجه وانتصب قاعداً ، قال فمن كان فقيه خراسان ؟ قلت عطاء بن عبد الله الخراساني ، قال فما كان عطاء هذا ؟ قلت مولى ، فازداد وجهه ترَبُّداً واسود اسوداداً حتى خفته ، ثم قال فمن كان فقيه الشام ؟ قلت مكحول ، قال فما كان مكحول هذا ؟ قلت مولى ، قال فتنفس الصُّعداء ، ثم قال فمن كان فقيه الكوفة ؟ قلت فوالله لولا خوفه لقلت الحكم بن عتبة وعمار بن أبي سليمان ، ولكن رأيت فيه الشر ، فقلت ابراهيم (النخعي) والشعبي ، قال فما كانا ؟ قلت عريبان ، قال الله أكبر ، وسكن جأشه

ونظير هذا ما جاء في معجم ياقوت في مادة خراسان « قال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم لما مات العبادلة عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمرو بن المعاص صار الفقه في جميع البلدان الى الموالى ، فصار فقيه أهل مكة عطاء ابن أبي رباح ، وفقيه أهل اليمن طاووس ، وفقيه أهل اليمامة يحيى بن كثير ، وفقيه أهل البصرة الحسن البصري ، وفقيه أهل الكوفة النخعي ^(١) وفقيه أهل الشام مكحول وفقيه أهل خراسان عطاء الخراساني ، الا المدينة فان الله تعالى خصها بقرشي فكان فقيه أهل المدينة غير مدافع سعيد بن المسيب »

وهناك قصص أخرى كثيرة كهذه لا تحلو من نزعة شعوبية ولكن أساسها صحيح وهو أن أكثر العلماء من الموالى — ولذلك سبب آخر غير الذي ذكره ابن خلدون — وهو أن الصحابة كما علمت — استكثروا من الموالى يستخدمونهم

(١) هكذا ورد وهو يدل على أن النخعي من الموالى ، والذي في ابن خلكان أنه من النخع ، وهي قبيلة كبيرة من مذحج باليمن وأمه كذلك نخعية ، وقيل في نسبه غير ذلك وهذا هو الصحيح

في بيوتهم وفي أعمالهم ، فاذا كان الصحابي تاجراً فهو اليه أعوانه في التجارة ، واذا كان عالماً كانت مواليه تلاميذه وأعوانه في العلم ، ومتى كان عندهم حسن استعداد نبغوا فيه بحكم مخالطتهم لسادتهم في السر والعلن ، وملازمهم لهم في الإقامة والسفر ، ودليلنا على ذلك نافع مولى عبد الله بن عمر ، فقد أخذ عنه أكثر علمه ، ويسمى المحدثون رواية الشافعي عن مالك عن نافع عن ابن عمر سلسلة الذهب — وعكرمة مولى بن عباس ، فقد مات عبد الله بن عباس وعكرمة على الرق ، فباعه ولده على ابن عبد الله بن عباس من خالد بن يزيد بن معاوية بأربعة آلاف دينار ، فأتى عكرمة مولاه علياً فقال له ما خير لك ، بعت علم أبيك بأربعة آلاف ، فاستقاله فأقاله فأعتقه — الى غير ذلك من الأمثلة

وسياتي الكلام على الحركة الدينية بشيء من التفصيل في الباب الآتي

(الحركة الثانية) حركة تاريخية ، ولسنا نغني بها حركة تأليف الكتب التاريخية ، وانما نغني ما انتشر في المملكة الاسلامية في هذا العهد من أخبار الأمم الماضية والأجيال الغابرة ، والأحداث التي كانت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده ، ونظرة فيما روى في ذلك العصر تبين أنها كانت حركة واسعة ، وأنها كانت الأساس الذي بنيت عليه المؤلفات التي ألفت بعد ككتب ابن اسحاق وابن جرير وأمثالهما ، يدل على ذلك أنك لو تتبعنا في ابن جرير الطبري — مثلاً — سلسلة روايته وجدت أن الرواة الثلاثة أو الأربعة الذين يتصلون بحياته كانوا في العصر العباسي ، وهؤلاء يروون عن قبلهم ممن كانوا في عهد الأمويين أو الخلفاء الراشدين ، أعني بذلك أن هذه الحوادث التاريخية التي دونت كانت معروفة في عصرنا الذي تؤرخه، وابن اسحاق وأمثاله انما رووا ما كان معروفاً وجمعه

وقد نبعت هذه الحركة التاريخية من جملة مصادر

(أولها) شعور بعض الخلفاء بالحاجة في سياسة الدولة الى تعرف أخبار الملوك في الأمم الأخرى وسياساتهم ونظامهم ، وهذا كان ضرورياً بعد أن اتسعت المملكة الإسلامية هذا الاتساع الكبير — كانت الحركة المالية في جزيرة العرب قبل الفتح حركة ضعيفة لا تكفي لتسيير الحركة الكبيرة التي كانت بعد الفتح ، فكان لابد من علم بطرق تحصيل الأموال وحفظها وصرفها ، وكذلك الشأن في إدارة البلاد وتنظيمها وطرق حكمها ، فلجأ بعض خلفاء المسلمين الى الوقوف على ما كان من ذلك عند الأمم الأخرى ، كالذي روى المسعودي عن معاوية أنه بعد أن يفرغ من عمله « كان يستمر الى ثلث الليل في أخبار العرب وأيامها ، والعجم وملوكها ، وسياستها لرعيتهما وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة ، ثم تأتيه الطُّرف الغريبة من عند نسائه من الحلوى وغيرها من المآكل اللطيفة ، ثم يدخل فينام ثلث الليل ، ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها ، والحروب والمكائد ، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون ، وقد وُكِّلُوا بحفظها وقراءتها ، فتمر بسمعه كل ليلة جل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات » اهـ ولا شك أنه تسرب بهذه الطريقة بعض المعلومات التاريخية الى الخاصة من المسلمين

(ثانيها) وهو أهم من الأول أن كثيراً من الشعوب المختلفة ذوات التاريخ دخلت في الاسلام ، فأخذوا يدخلون تاريخ أممهم ويثبثونه بين المسلمين ، اما عصبية لقومهم أو نحو ذلك ، فكثير من اليهود أسلم وهم يعلمون كثيراً من تاريخ اليهودية وأخبار الحوادث حسبما روت التوراة وشروحها ، فأخذوا يحدثون المسلمين بها ، وهؤلاء ربطوها بتفسير القرآن أحياناً ، وبتاريخ الأمم الأخرى أحياناً ، ان شئت فاقرا ما في الجزء الأول من تاريخ الطبري تجد منه الشيء الكثير مثل « حدثني المثنى بن ابراهيم قال حدثنا عبد الله بن صالح حدثني أبو معشر عن سعيد بن أبي سعيد عن

عبد الله بن سلام أنه قال «ان الله بدأ بالخلق يوم الأحد ، فخلق الأرضين في الأحد والاثنين ، وخلق الأقوات والرواسي في الثلاثاء والأربعاء ، وخلق السموات في الخميس والجمعة ، وفرغ في آخر ساعة من يوم الجمعة ، فخلق فيها آدم على عجل ، فتلك الساعة التي تقوم فيها الساعة » وكثير من هذا النوع روى حول ما ورد في القرآن من قصص الانبياء ، كذلك كان للفرس تاريخ وكان لهم أساطير ، فلما أسلموا رروا تاريخهم ، ورووا أساطيرهم ، وكذلك فعل النصارى فكانت هذه الروايات والأساطير عن الأمم المختلفة مبسوثة بين المسلمين ومصدراً من مصادر الحركة التاريخية عندهم وهذان النوعان هما بالقصص أشبه منهما بالتاريخ

(ثالثها) وهو أهمها ، أن المسلمين بدءوا من أول أمرهم يجمعون الحديث ، وفي الحديث مناح شتى من القول ، ففيه ما كان يفعله النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من عبادات وتشريع في المعاملات والجنايات ، وفيه أقوال للوعظ والارشاد ، وفيه قسم تاريخي لا يستهان به ، فأحاديث تتعلق بحياة النبي في مكة وهجرته ، وحياته في المدينة وغزواته ، وأعمال لأبي بكر وفتوحات عمر ونحو ذلك ، وكلها حوادث تاريخية نثرت في الحديث ، وعنى بها بعض الصحابة كالذي رأيت في عبد الله بن عمر — وكانت هذه الأحاديث التاريخية أساساً لما أُلّف بعد من كتب السير والمغازي ، فقد أفرِدت وأضيف إليها ما لم يُتحر فيه تحرى ثقات المحدثين — والدليل على أن أصل هذه السير والمغازي هو الحديث ما تجده من وجوه شبه كبير في الأسلوب وفي طريقة سرد الوقائع وحكايتها

وقد عني المسلمون من العصر الأول بأفراد ما يتعلق بالسير والمغازي في كتب خاصة فقد روى أن وهب بن منبه (٣٤ — ١١٠ هـ) ألف كتاباً في المغازي ، كما

رووا ان عروة بن الزبير بن العوام (٢٣ - ٩٤ هـ) وهو من أشهر فقهاء المدينة ومحدثيها كان أقدم من أُلّف في سيرة رسول الله، ومثله معاصره أباّن بن عثمان بن عفان (٢٢ - ١٠٥ هـ) فقد جمع له تلميذه عبد الرحمن بن المغيرة (المتوفى قبل سنة ١٢٥ هـ) كتابه في سيرة الرسول

كذلك رووا أن ابن شهاب الزهري (٥١ - ١٢٤ هـ) جمع كتاباً في المغازي ومثله موسى بن عقبة (المتوفى سنة ١٤١ هـ)^(١)

ويظهر أن النمط الذي اتبع في تأليف هذه الكتب كان جمع الأحاديث المتعلقة بالسيرة أو المغازي لا أكثر من ذلك، وعلى الجملة فلعل هذا الباب كان أقرب من سابقه الى معنى التاريخ

وكل ذلك يدلنا على ما ذكرت من انتشار حركة تاريخية واسعة وان لم تصبغ بالصبغة العلمية الدقيقة

القصص - ويتصل بهذا النوع ما يعرف في ذلك العهد بالقصص - وقد استُحدث في صدر الاسلام، فقد روى عن ابن شهاب أن « أول من قص في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تميم الداري، استأذن عمر أن يُذكر الناس فأبى عليه، حتى كان آخر ولايته فأذن له أن يُذكر الناس في يوم الجمعة قبل أن يخرج عمر، فاستأذن تميم عثمان بن عفان فأذن له أن يُذكر يومين في الجمعة فكان تميم يفعل ذلك » وفي رواية أخرى عن الحسن أنه سئل متى أحدث القصص؟ قال في خلافة عثمان فسئل من أول من قص؟ قال تميم الداري

وتميم هذا كان نصرانياً من نصارى اليمن أسلم في سنة تسع من الهجرة وقد ذكر للنبي صلى الله عليه وسلم قصة الجساسة والدجال^(٢) وكان يترهب حتى قال

(١) وقد عثر على قطعة من مغازي موسى طبعت سنة ١٩٠٤ م
(٢) الاصابة جزء ١ ص ١٩١ وحديث الجساسة فيما يذكر أن تميماً حدث أنه ركب

عنه أبو نعيم أنه راهب أهل عصره — وهي نزعة نصرانية بقيت عنده في الاسلام ،
ويذكرون أيضاً أنه أول من أسرج السراج في المسجد

وتكاد الروايات تتفق على أنه أول قاص ، ولم أقف على ما كان يقصه ،
ولكن نظرة في حديث الجساسة والدجال وفي أقوال له أخرى كثيرة منشورة كالذي
روى أن رَوْح بن زُبَاع زار تيماء الداري فوجده يُنْقِي شعيراً لفرسه وحوله أهله.
فقال له روح أما كان في هؤلاء من يكفيك ؟ قال بلى ولكني سمعت رسول الله
صلى الله عليه وسلم يقول ما من امرئ مسلم يُنْقِي لفرسه شعيراً ثم يعلقه عليه الا كتب
الله له لكل حبة حسنة ^(١) تدلنا على عقليته ونوع قصصه ومنحاه فيما يروى

وصورة هذا القصص أن يجلس القاص في المسجد وحوله الناس فيذكرهم
بالله ويقص عليهم حكايات وأحاديث وقصصاً عن الأمم الأخرى وأساطير ونحو ذلك ،
لا يعتمد فيها على الصدق بقدر ما يعتمد على الترغيب والترهيب ، قال الليث بن سعد
« هما قصصان : قصص العامة وقصص الخاصة ، فأما قصص العامة فهو الذي يجتمع
اليه النفر من الناس يعظهم ويذكرهم فذلك مكروه لمن فعله ولن استمعه ، وأما
قصص الخاصة فهو الذي جعله معاوية ، ولّى رجلاً على القصص فإذا سلم من صلاة
الصبح جلس وذكر الله عز وجل وحمده ومجده وصلى على النبي صلى الله عليه
وسلم ، ودعا للخليفة ولأهل ولايته وحشمه وجنوده ودعا على أهل حربيه وعلى
المشركين كافة » ^(٢)

في سفينة بحرية مع ثلاثين رجلاً من لحم وجذام فلعب بهم الموج شهراً في البحر ثم أرفقوا إلى
جزيرة في البحر حين مغرب الشمس فجلسوا في أقرب السفينة فدخلوا الجزيرة فلقبتهم دابة أهلب
(كثيرة الشعر وذكر الصفة لان الدابة تطلق على المذكر والمؤنث) كثيرة الشعر فقالوا ويلك
ما أنت ؟ فقالت أنا الجساسة — وسميت الجساسة لانها تتجسس الاخبار فتأتي بها الدجال

(١) أسد الغابة جزء ١ ص ٢١٥

(٢) خطط المقرئ جزء ٢ ص ٢٥٣ طبعة أميرية

وقد نما القصص بسرعة لأنه يتفق وميول العامة ، وأكثر القصاص من الكذب حتى روى أن علي بن أبي طالب طردهم من المساجد واستثنى الحسن البصري لتحريره الصدق في قوله

ويظهر أنه اتخذ أداة سياسية من عهد الفتن بين علي ومعاوية ، يستعين بها كل على ترويح حربه والدعوة له — يدلك على ذلك ما نقلنا عن الليث بن سعد وما روى ابن لهيعة عن يزيد بن حبيب أن علياً رضي الله عنه قنت فدعا على قوم من أهل حربه ، فبلغ ذلك معاوية ، فأمر رجلاً يقصر ، بعد الصبح وبعد المغرب يدعو له ولأهل الشام

وارتفع شأن القصص حتى رأيناه عملاً رسمياً يعهد به الى رجال رسميين يعطون عليه أجراً ، فترى في كتاب القضاة للكندى أن كثيراً من القضاة كان يعينون خصاصاً أيضاً ، فيقول أن أول من قص بمصر سليمان بن عثر التُّجِيبِيّ في سنة ٥٣٨ هـ ، وجمع له القضاء الى القصص ، ثم عزل عن القضاء وأُفرد بالقصص

ولا تهمنا هذه النواحي الرسمية إنما يهمنا ما كان منه من صبغة تشبه العلمية ، وترى أن هذا القصص هو الذي أدخل على المسلمين كثيراً من أساطير الأمم الأخرى كاليهودية والنصرانية كما كان باباً دخل منه على الحديث كذب كثير ، وأفسد التاريخ بما تسرب منه من حكاية وقائع وحوادث مزيفة أتعبت الناقد وأضاعت معالم الحق

ولا بد أن نشير هنا الى منبعين كبيرين لهؤلاء القصاص وأمثالهم ، تجد ذكرهما كثيراً في رواية القصص وفي التاريخ وفي الحديث وفي التفسير ، هما وهب بن منبه وكعب الأحبار

فأما وهب بن منبه فيمنى من أصل فارسي ، وكان من أهل الكتاب الذين أسلموا

وله أخبار كثيرة وقصص تتعلق بأخبار الأول ومبدأ العالم وقصص الأنبياء ، وكان يقول قرأت من كتب الله اثنين وسبعين كتاباً ، وقد توفي حول سنة ١١٠ هـ بصنعاء .
وأما كعب الأخبار أو كعب بن مآتيه فيهودي من اليمن كذلك ، ومن أكبر من تسربت منهم أخبار اليهود الى المسلمين ، أسلم في خلافة أبي بكر أو عمر على خلاف في ذلك — وانتقل بعد اسلامه الى المدينة ثم الى الشام ، وقد أخذ عنه اثنان هما أكبر من نشر علمه : ابن عباس — وهذا يعلل ما في تفسيره من اسرائيليات — وأبو هريرة — ولم يؤثر عنه أنه ألف ، كما أثر عن وهب بن منبه ، ولكن كل تعاليمه — على ما وصل إلينا — كانت شفوية ، وما نقل عنه يدل على علمه الواسع بالثقافة اليهودية وأساطيرها . جاء في الطبقات الكبرى حكاية رجل دخل المسجد فاذا عامر بن عبد الله بن عبد القيس جالس الى كتب وبينها سفر من أسفار التوراة وكعب يقرأ^(١) وقد لاحظ بعض الباحثين أن بعض الثقات كابن قتيبة والنووي لا يروى عنه أبداً . وابن جرير الطبري يروى عنه قليلاً ، ولكن غيرهم كالثعلبي والكسائي ينقل عنه كثيراً في قصص الانبياء ، كقصة يوسف والوليد بن الريان وأشبه ذلك . ويروى ابن جرير أنه جاء الى عمر بن الخطاب قبل مقتله بثلاثة أيام وقال له اعهد فانك ميت في ثلاثة أيام ، قال وما يدريك ؟ قال أجده في كتاب الله عز وجل ، في التوراة — قال عمر انك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة ؟ قال اللهم لا ، ولكن أجده صفتك وحليتك وانه قد فني أجلك .

وهذه القصة ان صحت دلت على وقوف كعب على مكيدة قتل عمر ، ثم وضعها هو في هذه الصبغة الاسرائيلية ، كما تدلنا على مقدار اختلاقه فيما ينقل وعلى الجملة فقد دخل على المسلمين من هؤلاء وأمثالهم في عقيدتهم وعلمهم

(١) طبقات ابن سعد مجلد ٧ ص ٧٩

كثير كان له فيهم أثر غير صالح

وقد ألقى باللوم كثير من العلماء على القصاص والوعاظ ، كما فعل الغزالي في كتابه « الأحياء » فقد عد عملهم من منكرات المساجد ، لما كانوا يقتربون من كذب ، واستثنى الحسن البصري وأمثاله

والحق أن الحسن البصري كان قاصاً من نوع آخر ، فلم يكن ينحو منحى الذين يعتمدون على الاسرائيليات والنصرانيات ، انما كان يعتمد على التذكير بالآخرة ونحوها ، ويستخرج العظة مما يقع حوله من حوادث ، فقد كان يجلس في آخر المسجد بالبصرة وحوله الناس يسألونه في الفقه وفي حوادث الفتن التي كانت في عهده ، ويحدثهم بما صح عنده من حديث ، ويقص عليهم فيعظهم ويذكرهم ، فما أثر من قصصه قوله « يا ابن آدم لا تُرَضَّ أحداً بسخط الله ، ولا تطيعن أحداً في معصية الله ، ولا تحمدن أحداً على فضل الله ، ولا تلومن أحداً فيما لم يؤتك الله ، ان الله خلق الخلق فمضوا على ما خلقهم عليه ، فمن كان يظن أنه مزداد بحرصه في رزقه فليزدد بحرصه في عمره ، أو يغير لونه أو يزد في أركانه أو بنانه » وكقوله « يا ابن آدم لم تكن فكوّنتَ ، وسألتَ فأعطيتَ ، وُسئلتَ فمَنَعْتَ فبئس ما صنعت » ثم يكرر ذلك مراراً ، وله أقوال كثيرة من هذا النحو مشبوة في كتب الأدب

وهنا أمر لا بد أن يكون قد استرعى نظرك ، وهو أن أكثر من ذكرنا من منابع القصص كتميم الداري ووهب بن منبه وكعب الأخبار من أهل الكتاب من اليمن ، فما السر في ذلك ، ولم كان ما يروى عن يهود اليمن في هذا النوع أكثر مما يروى عن يهود الحجاز ؟ لعل السبب أن اليمن كانوا أكثر حضارة كما علمت ، وقد استتبع هذا وجود مدارس يهودية أرقى مما كان لليهود الحجاز (وهذه المدارس

اليمنية ثابتة تاريخياً) فكان من نتيجة ذلك انتشار الثقافة اليهودية في اليمن ، بما فيها من شروح للتوراة وأساطير ونحو ذلك على نمط أوسع مما كان ليهود الحجاز ، فلما دخل يهود اليمن في الاسلام رووا ما تعلموا فكان لهم أكبر الأثر

(الحركة الثالثة) الحركة الفلسفية ، وهي أقل الحركات - على ما يظهر - انتشاراً وكان مظهرها . أولاً . في المدارس السريانية التي كانت منتشرة في أماكن كثيرة من المملكة الاسلامية كما بينا قبل ، وعنهم أخذ المسلمون ، وكان من أثر ذلك ظهور بعض المذاهب الدينية التي سيأتي تفصيلها ، وقد روينا ما كان لخالد بن يزيد بن معاوية من دراسة فلسفية

ونلاحظ أنه في هذا العصر ظهر كثير من أطباء النصارى في بلاط الخلفاء ، وكان أكثرهم فلاسفة وأطباء معاً ، لأن دراستهم الطبية لم تكن منفصلة عن دراستهم الفلسفية ، كما كان الشأن في فلاسفة المسلمين بعد كابن سينا والكِنْدِي ، ومن هؤلاء الاطباء الذين خدموا في البلاط الأموي ابن أثال وكان طبيباً نصرانياً في دمشق ، ولما ملك معاوية اصطفاه لنفسه ، وكان كثير الافتقار له ، والاعتقاد فيه والمحاذة معه ليلاً ونهاراً ، و « عبد الملك بن أبجر الكِنَانِي ، وكان طبيباً عالمًا ماهراً وكانت في أول أمره مقبلاً بالاسكندرية وكان متولى التدريس فيها ، ولما استولى المسلمون على البلاد وملكوا الاسكندرية أسلم ابن أبجر على يد عمر بن عبد العزيز وكان حينئذ أميراً قبل أن تصل اليه الخلافة وصحبه ، فلما أفضت الخلافة اليه نقل التدريس الى أنطاكية وحرَّان ، وتفرق في البلاد ، وكان عمر بن عبد العزيز يستطبه ويعتمد عليه في صناعة الطب »^(١)

وحكى القفطى في أخبار الحكماء أن ماسرجويه الطبيب البصرى كان اسرئلياً

(١) عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة

في زمن عمر بن عبد العزيز وربما قيل في اسمه ما سرجيس ، وكان عالماً بالطب
تولى لعمر بن عبد العزيز ترجمة كتاب أهرن القس في الطب وهو كُنَّاش فاضل
من أفضل الكنانيش القديمة — وقال ابن جلجل الأندلسي ماسرجويه كان
سريانياً يهودي المذهب ، وهو الذي تولى في أيام مروان في الدولة المروانية تفسير
كتاب أهرن القس بن أعين الى العربية ، ووجده عمر (بن عبد العزيز) في
خزائن الكتب فأمر بإخراجه ، ووَضَعَه في مصلاه واستخار الله في إخراجه الى
المسلمين لينفع به ، فلما تم له في ذلك أربعون يوماً أخرجه الى الناس وبثه في أيديهم
— ولما سرجويه من التصانيف كتاب قُوى الأطعمة ومنافعها ومضارها ، وكتاب
قوى العقاقير ومنافعها ومضارها

هذا وأمثاله كوّن حركة ثالثة هي التي سمينها بالحركة الفلسفية ويدخل فيها
ما رأيت من الجدل بين فرق النصارى والمسلمين ولكنها على كل حال — كانت
أقل من الحركتين السابقتين

وهناك حركة رابعة هي الحركة الأدبية موضوعها قسم خاص من كتابنا هذا

وهذه الحركات جميعاً كانت تتساند ويعاون بعضها بعضاً ، فأصحاب المذاهب
الدينية اعتمدوا في تعاليمهم على الفلسفة وتعاليم الكتاب والسنة ، والمفسرون والمحدثون
والفقهاء كان يستعينون بالشعر والأدب على تفهم معاني القرآن والحديث ، والمؤرخون
والقصاص يستمدون بعض معلوماتهم من القرآن والحديث وهكذا ، وقلّ أن تجد
في هذا العصر ما نسميه الآن تخصصاً ، فليس هناك عالم بالتفسير فقط أو الحديث
فقط ، لأن هذا الدور انما يكون بعد تنظيم البحث ، وهو دور لم يصلوا اليه في
هذا العصر

وكذلك كانت الدروس فيها تفسير وفيها حديث وفيها فقه وفيها لغة وفيها جدال ديني

والذي يظهر أن الأمويين لم يشجعوا من هذه الحركات الثلاث إلا الحركة الأدبية والقصاص الرسمي ، ففتحوا أبوابهم للشعراء والخطباء وبذلوا لهم الأموال ، وعينوا القصاص في المساجد ، ولم يفعلوا شيئاً من ذلك للعلماء والفلاسفة ، ولعل السبب في ذلك أمران (الأول) أن حكم الأمويين بني على الضغط والقهر فكانت حاجتهم إلى الشعراء والقصاص أشد ، لأنهم هم الذين يبشرون بهم ، ويشيدون بذكورهم ، ويقومون في ذلك مقام الصحافة لأحزابها ، ومن أجل هذا لم يكن ينال الخطوة عند خلفاء بني أمية إلا من كان مادحاً لهم ، فأما الشعراء العلويون والزيريون ونحوهم فيحمدون الله أن سلموا منهم (الثاني) أن نزعة الأمويين نزعة عربية جاهلية لا تتلذذ من فلسفة ولا من بحث ديني عميق ، إنما يأنس لها الشعر الجيد والخطبة البليغة والحكمة الرائعة . قال المسعودي « كان عبد الملك بن مروان يحب الشعر والفخر والتقريض والمدح ، وكان عماله على مثل مذهبه » وشأن أكثر بني أمية شأن عبد الملك — نستثنى منهم خالد بن يزيد بن معاوية فقد كان له نزعة فلسفية كما أسلفنا فوق نزعته الأدبية ، قال فيه الجاحظ في البيان والتبيين « وكان خالد بن يزيد بن معاوية خطيباً شاعراً ، وفصيحاً جامعاً ، وجيد الرأي كثير الأدب ، وكان أول من ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء »

كما نستثنى عمر بن عبد العزيز فقد كانت نزعته دينية وقد شقى به الشعراء ، دخل عليه النصيب بعد ما ولي الخلافة فقال له إيه يا أسود أنت الذي تشهر النساء بنسبائك؟ فقال إني قد تركت ذلك يا أمير المؤمنين وعاهدت الله أن لا أقول ، وشهد له بذلك من حضر فأعطاه

إذا عدونا هذين (خالداً وعمر) لم نجد كبير أثر للامويين في تشجيع الحركة الفلسفية والدينية والتاريخية كالذى نجده للعباسيين مثلاً . ومع هذا فقد نشطت هذه الحركات من نفسها ، أما الحركة الدينية فللباعث الدينى ، وكان قوياً اذ ذاك ، وأما الحركة الفلسفية فلأن الدين فى آخر عهد الأمويين اضطر الى استخدام الفلسفة لمجادلة اليهود والنصارى ، ولحاربة الفرق الاسلامية بعضها لبعض ، وأما الحركة التاريخية فلما كان لها من صبغة دينية

فى هذا العصر كان العلم - ولا سيما الدينى - يدرس فى المساجد ، يجلس الأستاذ فى المسجد وحوله الآخذون عنه على شكل حلقة ، وتكبر الحلقة وتضجر تبعاً لقدر الأستاذ ، فالسيوطى فى الاتقان يحدثنا أن عبد الله بن عباس كان يجلس بفناء الكعبة وقد اكتنفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن ، ويحدثنا ابن خلكان أن ربيعة الرأى كان يجلس فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة ويأتیه مالك والحسن وأشرف أهل المدينة ويحدثق الناس به - وكانت حلقة وافرة - وكذلك كان مجلس الحسن البصرى فى مسجد البصرة ، وقد يكون فى المسجد جملة حلقات تجتمع كل حلقة على شيخ ، كما حدثونا أن عمرو بن عبيد ونفراً معه كانوا يجلسون فى حلقة الحسن البصرى ثم اعتزلوا حلقة الحسن وحلّقوا (أى أنشؤا لهم حلقة خاصة) وكذلك كان يفعل جعفر الصادق فى المدينة . قالوا وكان يشتغل بالكيمياء والزجر والفأل ، ومثل هؤلاء كثيرون موزعون فى الأمصار اتخذوا المساجد مدارس يعلمون فيها العلوم المختلفة ، ولم أر ما يدل على أن المسلمين أنشؤا فى هذا العصر مدارس خاصة للعلم الا ما نقل المقرئى « عن الواقدى أن عبد الله ابن أم مكتوم قدم مهاجراً الى المدينة مع مصعب بن عمير ، وقيل قدم بعد بدر بقليل

فنزل دار القراء « ولم نعلم كثيراً عن دار القراء هذه وهل خصصت للمدارسة أو لا .
وحكى السيد أمير على فى كتابه « مختصر تاريخ العرب » أن الحر بن يوسف بن
الحكم بن أبى العاص بن أمية — وكان عاملاً لهشام بن عبد الملك على الموصل —
بنى مدرسة بالموصل « ولكن لم يذكر له مستنداً ، والذي فى ابن الأثير أن الحر
هذا بنى المنقوشة ، وهى دار يسكنها ، وسميت المنقوشة لأنها كانت منقوشة بالساج
والرخام والفصوص الملونة وما شاكلها ، ولم يذكر أنه بنى مدرسة ، والذي نعرفه أن
بعض المدارس التى كانت فى الممالك قبل الفتح ظلت على حالها بعد الفتح كبعض
مدارس السريانيين ، أما الأمويون فلا نعلم أنهم أنشؤا مدارس ، ولكن كانت
الدراسة العلمية فى البيوت والمساجد

التدوين^(١) : ذهب بعضهم الى أن تدوين العلوم والاخبار لم يحدث الا فى
منتصف القرن الثانى للهجرة ، وهذا على ما يظهر لنا غير صحيح ، فان التدوين بدأ
من القرن الأول ، بل كان قبل الاسلام تدوين ، وكان هذا التدوين كثيراً فى
البلاد المتحضرة كالين والحيرة ، وقليل فى بلاد الحجاز ، فالحميريون فى اليمن دونوا
كثيراً من أخبارهم وحوادثهم ، ونقشوها على الأحجار ولا تزال آثارهم فى ذلك
تستكشف بين حين وحين — وقد حدثناك من قبل أن النبى صلى الله عليه وسلم
لقى سويد بن صامت وكان معه مجلّة لقمان ، أعنى صحيفة فيها حكم لقمان ، فلما جاء
الاسلام اتخذ النبى صلى الله عليه وسلم كتبة للوحى فكانوا يكتبون على الرقاع
والاضلاع وسعف النخل والحجارة الرقاق البيض ، ثم جمعت هذه الصحف فى
عهد أبى بكر ، وعنى بعض الصحابة بكتابة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

(١) نعى بالتدوين ما هو أوسع معنى من التأليف فعنى به تقييد الاخبار والآثار بالكتابة .

كعبد الله بن عمرو بن العاص فإنه كان يدون ما يسمع من رسول الله ، قال أبو هريرة ما أجد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر حديثاً مني إلا ما كان من عبد الله بن عمرو ، فإنه كان يكتب وقال عبد الله بن عمرو كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حفظه — الحديث — بل قد رأيت أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا بعض أصحابه أن يتعلم العبرية والسريانية ليدون بها رسائله

فهذا تدوين للقرآن والحديث والرسائل التي كانت ترسل من النبي صلى الله عليه وسلم ، وبعد هذا الزمن بقليل نرى أن المسلمين طرّقوا موضوعات أخرى يدونونها ، فابن النديم يحدثنا في كتابه الفهرست أن عبّيد بن شَرِيّة الجُرهُمِي كان في زمان معاوية وأدرك النبي صلى الله عليه وسلم ولم يسمع منه شيئاً ، ووفد على معاوية بن أبي سفيان فسأله عن الأخبار المتقدمة وملوك العرب والعجم وسبب تبلبل الألسنة وأمر افتراق الناس في البلاد ، وكان استحضره من صنعاء اليمن فأجابه إلى ما أمر ، فأمر معاوية أن يدوّن وينسب إلى عبّيد بن شَرِيّة ، وعاش عبّيد إلى أيام عبد الملك بن مروان ، وله من الكتب كتاب الأمثال وكتاب الملوك وأخبار الماضين

ويقول في موضع آخر أن صُحاراً العبدي كان خارجياً وكان أحد النسابين والخطباء في أيام معاوية بن أبي سفيان وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم حديثين أو ثلاثة وله من الكتب — كتاب الأمثال — .

ويقول في موضع ثالث أنه كان بمدينة الحديث رجل يقال له محمد بن الحسين جماعة للكتب ، له خزانة لم أر لأحد مثلها كثرة ، تحتوي على قطعة من الكتب العربية في النحو واللغة والأدب ، والكتب القديمة ، فلقبت هذا الرجل دفعات ،

فأنس بي ، وكان نفوراً ضنيناً بما عنده ، خائفاً من بني حمدان ، فأخرج لي قطراً كبيراً فيه نحو ثلثمائة رطل جلود وصكّاك وقرطيس وورق صيني وورق تهامي وجلود آدم فيها تعليقات عن العرب ، وقصائد مفردات من أشعارهم ، وشيء من النحو والحكايات والأخبار والأسماء والأنساب وغير ذلك من علوم العرب وغيرهم ، فرأيتها وقلبتها فرأيت عجباً إلا أن الزمان قد أخلقها وأحرفها ، وكان على كل جزء أو ورقة أو مدرج توقيع بخطوط العلماء واحداً أثر واحد ورأيت في جملتها مصحفاً بخط خالد ابن أبي الهياج صاحب عليّ ، ورأيت فيها بخط الامامين الحسن والحسين ، ورأيت عنده أمانات وعهوداً بخط أمير المؤمنين عليّ عليه السلام ، وبخط غيره من كتاب النبي صلى الله عليه وسلم ومن خطوط العلماء في النحو واللغة مثل أبي عمرو بن العلاء وأبي عمرو الشيباني . . . ورأيت ما يدل على أن النحوي عن أبي الأسود ما هذه حكايته : وهي أربعة أوراق أحسبها من ورق الصين ترجمتها هذه فيها كلام الفاعل والمفعول من أبي الأسود رحمه الله عليه بخط يحيى بن يعمر ، وتحت هذا الخط بخط عتيق هذا خط علّان النحوي ، وتحت هذا خط النضر بن شميل ، ثم لما مات هذا الرجل فقدنا القمطر وما كان فيه فاسمعنا له خبراً . ولا رأيت منه غير المصحف ، هذا على كثرة بحثي عنه اه باختصار

هذا في عصر الصحابة فلما جاء عصر التابعين ومن بعدهم قويت الحركة العلمية بسبب الفتوح ، ودخول الأمم المتحضرة في الاسلام ، والحاجة الى تشريع واسع يتفق وما أحدثت المدينة من أحداث لم تكن ، فكثر التدوين ، فابن خلكان يحدثنا أن وهب بن منبه المتوفى سنة ١١٠ هـ وعمره تسعون سنة ألف في ترجمة الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم

وابن سعد في الطبقات يذكر لنا أن هشام بن عروة بن الزبير « قال أحرق

أبى يوم الحرّة كتب فقه كانت له ، قال فكان يقول بعد ذلك لأن تكون عندي أحب اليّ من أن يكون لي مثل أهلي ومالي»^(١)

ويقول في موضع آخر عن عبد الرزاق (قال سمعت معمرأ قال كنا نرى أنا قد أكثرنا عن الزهرى حتى قتل الوليد ، فاذا الدفاتر قد حملت على الدواب من خزائنه ، يقول ، من علم الزهرى)^(٢)

ويقول ابن خلكان أيضاً أن ابن شهاب الزهرى « كان اذا جلس في بيته وضع كتبه حوله فيشتغل بها عن كل شيء من أمور الدنيا ، فقالت له امرأته يوماً والله لهذه الكتب أشد على من ثلاث ضرائر » وقد توفي سنة ١٢٤ هـ وأن أبا عمرو ابن العلاء وقد ولد نحو سنة سبعين للهجرة كانت كتبه التي كتب عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتاً له الى قريب من السقف ، ثم أنه تقرّأ أى تنسك فأخرجها^(٣) كلها ، فلما رجع الى علمه الأول لم يكن عنده الا ما حفظه بقلبه ، وكانت عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية » وقد رويننا من قبل أن خالد بن يزيد بن معاوية كتب ثلاث رسائل في الكيمياء وما إليها ، وذكر ابن النديم أن زياد بن أبيه ألف كتاباً في علم الأنساب في مثالب العرب وطعن فيه في أنسابهم لما طعن الناس فيه هؤلاء وأمثالهم كانوا في العصر الأموى ، وهذه الأخبار وان كان بعضها محلاً للشك فهي في جملتها تدلنا على أن التدوين لم ينشأ في العصر العباسى كما يزعم بعضهم ولكنه كان قبل ذلك — ويظهر مما عثرنا عليه أن التدوين بدأ بتقييد العلم من غير أن تظهر فيه للمؤلف شخصية ما ، وليس له الا الجمع ، وكانت الكتب عبارة عن صحف يكتب عليها وقد تكون صحفاً مفردة مبعثرة ، فلما دخل الفرس والروم في الاسلام وكانوا ذوى حضارة قديمة وكتب مؤلفة من قبل أدخلوا على اللغة

(١) جزء ٥ ص ١٣٣ (٢) جزء ٢ قسم ٢ ص ١٣٦ (٣) لعلاه أحرقها

العربية بعد أن تعلموها نظام تأليف الكتب بالمعنى الذى نفهمه الآن من جمع ما يتعلق بالموضوع الواحد فى كتاب واحد

ولكن ما كتب فى عصر الأمويين لم يصل الى أيدينا منه الا القليل، وأغلب هذه الكتب أخذت عن العلماء من طريق الرواية، وأدجت فى كتب العباسيين التى كانت أتم نظاماً، وأرقى فى فن التأليف، وبعض هذه الكتب الأموية كانت موجودة فى العصر العباسى وما بعده، فابن النديم يقول أنه رأى صفحات أبى الأسود الدؤلى فى النحو، وأنه رأى كتاب عبيد بن شريه فى الأمثال، وابن خلكان يقول انه رأى كتاب وهب بن منبه فى تاريخ اليمن ولكن فى عهدنا هذا لم يصلنا شىء يصح أن يوثق به الا قليلا

هذا مجمل الحركة العلمية فى ذلك العصر وسيأتى بعض تفصيل لها فى الأبواب

التالية

الفصل الثاني

مراكز الحياة العقلية

نلاحظ أن الدين والفن والعلم والأدب تتبع دائماً من المدن ، وتزهر فيها ، كان ذلك في القديم ، وهو كذلك في الحديث ، فأنت الآن ترى الأفكار الجديدة وآراء المصلحين انما تنشأ في المدن أولاً ، وكذلك معاهد العلم والأدب والفن من مدارس وجامعات ومكتبات وصحف ومتاحف انما تعظم وتكثر في المدن لا في القرى — ولذلك أسباب أهمها أن المدن أكثر ناساً وأوفر عمراناً — وقد نشأت كثرة الناس والعمران من وفرة المؤن اما لسبب مباشر كخصب الأرض وجودتها وكثرة غلاتها ، أو غير مباشر كأن تتبادل المدينة مصنوعات مع أمة أخرى خصبة الأرض كثيرة الغلات أو نحو ذلك ، وكثرة السكان على هذا النحو تستتبع نوعاً من الغنى يستطيع معه أهله أن يجدوا زمناً يصرفونه في غير كسب القوت ، كما يستتبع نوعاً من الرقي السياسي يستطيع الناس معه أن يتبادلوا الآراء والأفكار ، وينظروا الى الحياة غير هذا النظر المادى الوضعي ، فينشأ الرأي وينشأ العلم ويزهر الأدب^(١) كذلك تختلف المدن في نوع ما تمتاز به من العلوم فقد تمتاز مدينة بعلم ، وأخرى بعلم آخر ، وثالثة بفن أو أدب وهكذا ، فأنت اذا رأيت الحديث مثلاً ونوعاً من التاريخ الاسلامي كان يكثر في الحجاز في ذلك العصر وأن المذاهب الدينية

(١) أضف الى ذلك ما يذكره ابن خلدون من « أن الحضارة تفيد عقلاً ، لأن الحضارة متجمعة من صنائع في شأن تدبير المنزل ومعاشرة أبناء الجنس وتحصيل الآداب في مخالطتهم ثم القيام بأمور الدين واعتبار آدابها وشرائطها ، وهذه كلها قوانين تنظم علوماً فيحصل منها زيادة عقل » اهـ

نبت أكثرها في العراق ، وأن النخيل نبت في البصرة ، فلا تظن أن ذلك كان مجرد اتفاق ، بل الواقع أن هناك أسباباً طبيعية أنتجت ذلك ولم يكن في الامكان أن يكون غير ما كان ، واختلاف المدن في الشهرة العلمية ونوع العلم الذي تمتاز به يرجع الى أسباب : أهمها — بالنظر الى العصر الذي نبحث فيه — تكون المدنية الاسلامية على أطلال مدينتي قديمة طبعت البلاد بطابع خاص ، كالذي كان في مدن العراق والشام ، فلما فتحها المسلمون لم تتجرد من طابعها وعقليتها القديمة ، ولكن أثر فيها الاسلام أثراً جديداً ، فكانت العقلية الجديدة نتيجة العاملين معاً — ومنها — أن العلماء الأولين من الصحابة ومن يلحق بهم مع اختلاف شخصياتهم العلمية التي بينا نزلوا في البلاد المختلفة ، وكونوا فيها مدارس ومذاهب تبعاً لمزاجهم العقلي ، فتأثرت البلاد التي نزلوا فيها بشخصياتهم ، ونهجوا في العلم مناهجهم — ومنها — ظهور أحداث سياسية وغير سياسية كان لها أثر كبير في امتياز بعض المدن بنوع من العلم ، ونمط من التفكير ، فظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة ، وهجرته الى المدينة ، جعل لمكة والمدينة صبغة علمية خاصة ، وكثرة الأحداث السياسية في العراق وتلاحق الفتن فيه كان له الأثر الكبير في نشوء المذاهب الدينية به ، وقرار الخلافة الأموية في دمشق لم يخل من أثر في تكييف الحياة العلمية فيها وهكذا مما سنعرض لبيانها بعد — وعلى الجملة فقد كانت أهم المراكز العقلية في ذلك العصر مكة والمدينة في الحجاز ، والبصرة والكوفة في العراق ، ودمشق في الشام والفسطاط في مصر

الحجاز : قطر فقير خلا من الأنهار ، وكسيت أرضه غالباً بالصخور والرمال ، واشتدت حرارته ، فلم يسمح للنبات أن ينمو الا في وديان بعثرت هنا وهناك ، يعيش أكثر أهله عيشة بدوية ، لم يتصلوا بالعالم الذي حولهم الا بالقدر الذي أنبأه

من قبل ، ولم تتعاقب عليهم مدينيات مختلفة تورثهم حضارة وعلماء ، ولم يصل اليهم من العالم المتحضر الا أثارة من اليهودية والنصرانية ، وقليل من الحكمة والفلسفة من طريق غير مُعَبَّد ، ومع هذا فاتهم وان لم يرثوا مدنية وعلماء عن أمم حكموهم وتعاقبوا عليهم فقد أورثهم استقلالهم أنفة وعزة واعتداداً بالنفس وحرية جاوزت الحد « حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكاً أجمعين »

جاء الاسلام فكان لمدينتي الحجاز — أعنى مكة والمدينة — شأن علمي كبير ولكنه العلم الديني المطبوع بالطابع العربي ، فأما مكة فلأنها كانت منبع الاسلام وبها كانت نشأة محمد صلى الله عليه وسلم ، وبها كانت الاحداث الأولى من دعوة قريش الى الاسلام ومناهضتهم للدعوة ، وبها كان التشريع المكي ، وهو لا يفهم فهما حقاً حتى يفهم ما كان يحيط به من ظروف مكية ، وبعض هذا التشريع الاسلامي انما هو اقرار لما كان يفعل في مكة قبل الاسلام ككثير من مناسك الحج وأما المدينة فمهاجر النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وبها كان أكثر التشريع الاسلامي ، وكانت منبعاً لاكثر الأحداث التاريخية في صدر الاسلام ، وبها حدثت النبي صلى الله عليه وسلم أكثر حديثه ، وهو لا يفهم تمام الفهم الا أن يفهم ما أحاط به من ظروف مدنية ، وكانت مركز الخلافة في أهم عصر من عصور الاسلام أيام أبي بكر وعمر وعثمان ، وبها كان كثير من أكابر الصحابة قد شاهدوا ما فعل النبي وسمعوا ما قال ، وكانوا شركاء في بعض ما وقع من أحداث كفريات وفتوح ، فهم يتحدثون بما سمعوا وشاهدوا

فلا غرو اذن ان كانت مكة والمدينة مركزين من أهم مراكز الحياة العلمية في ذلك العصر ، يقصدهما طلاب الحديث وطلاب الفقه وطلاب التاريخ — وقد فاقت المدينة مكة في ذلك ، لأن أشهر من أسلم من أهل مكة هاجر مع النبي صلى

الله عليه وسلم الى المدينة ، وكان من يسلم بعد الهجرة من أهل مكة يهاجر كذلك ،
خصوصاً اذا كان من رجالات قريش وعقلائها ، ثم كانت المدينة مقصد من يريد
الاسلام في عهد النبي من سكان جزيرة العرب ، وكثير منهم كانت تدعوه الحماسة
الدينية أن يقيم بجوار النبي يتعلم منه ويتعبد معه ويسمع من قوله ويشاركه في غزواته ،
وبعد وفاة الرسول كانت مقرّ الخلافة ، ومركز كبار الصحابة ، حتى يحرم عمر على
كبار قريش أن يبرحوها الا لحاجة ماسة ، وكانت في عهد الفتوح الكبيرة
مورداً للأسرى ، وقد رأيت أن عمر كان يحرم أن توزع الأسرى في مواطن
الحروب ، فكان يأتي بهم أولاً الى المدينة ، وكثير من هؤلاء الأسرى من الفرس
والروم كانوا من الطبقة الارستقراطية في قومهم ، وكانوا متعلمين على النمط الذي
ساد في أمّتهم وعصرهم ، فأقام منهم بالمدينة كثيرون عد منهم ابن سعد في طبقاته
عدداً كبيراً ، وكانوا موالى لكبار الصحابة وأسلموا على أيديهم فصبغوا الحياة
الاسلامية بعقليتهم التي تخالف من بعض الوجوه عقلية العرب ، وكانوا قد ألفوا في
قومهم علماً منظماً وكتباً مدونة فأخذوا يتبعون هذا في تعاليم الاسلام — كل هذا
جعل المدينة تفوق مكة من هذه الناحية العلمية ، أضف الى ذلك أن المهاجرين
كانوا يكرهون في أول عهد الاسلام — ديناً — أن يتحولوا من المدينة الى مكة ،
روى ابن سعد « قال محمد بن عمر لا نعلم أحداً من المهاجرين من أهل بدر رجع
الى مكة — يعني بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فنزلها غير أبي سبرة فانه رجع
الى مكة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فنزلها ، فكره ذلك له المسلمون ، وولده
ينكرون ذلك ، ويدفعون أن يكون رجع الى مكة فنزلها بعد أن هاجر منها ،
ويغضبون من ذكر ذلك »

لهذا كانت مدرسة المدينة أغزر علماً ، وأبعد شهرة ، تخرج فيها أكثر علماء ذلك العصر في التفسير والحديث والفقه والتاريخ ، يقصدها طلبة العلم من أقاصي البلدان لتلقى العلم عن علمائها ، فابن الأثير يحدثنا أن عبد العزيز بن مروان بعث ابنه « عمر » إلى المدينة للتأدب بها ، وكتب إلى صالح بن كيسان أن يتعاهده ، فأبطأ عمر يوماً عن الصلاة فقال ما حبسك ؟ فقال كانت مرَجَلَتِي تصلح شعري ، فكتب إلى أبيه بذلك ، فأرسل أبوه رسولا فلم يزل به حتى حلق شعره ، ونرى محمد بن اسحاق والواقدي نشأ بالمدينة وتخرجوا في مدرستها ، فكان عليهما اعتماد كل من كتب بعدهما في المغازي والسير — وهذا طبيعي ، فمن أحفظ لحديث رسول الله وأخبر بغزواته ، وأعرف بحياته وحياته خلفائه من أهل المدينة ، وبين سمعهم وبصرهم كانت هذه الاحداث ؟ والآن نذكر طرفاً من أخبار مدرسة مكة ومدرسة المدينة وأشهر علمائها

مدرسة مكة : لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة خلف فيها معاذاً يفتق أهلها ويعلمهم الحلال والحرام ويقرئهم القرآن ، وكان معاذ من أفضل شباب الانصار علماً وحلماً وسخاء ، وقد شهد المشاهد كلها مع رسول الله ، وكان يعدّ من أعلم الصحابة بالحلال والحرام ، ومن أقرئهم للقرآن ، ومن جمع القرآن على عهد الرسول ، وقد روى عنه ابن عباس وعمر وابن عمر ومات شاباً في طاعون عمواس

كذلك علّم بمكة عبد الله بن عباس في أخريات أيامه ، فقد علّم في البصرة وعلم في المدينة ، ثم لما كان الخلاف بين عبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير ذهب إلى مكة وعلم بها ، فكان يجلس في البيت الحرام ويعلم التفسير والحديث والفقه والأدب ، وإلى عبد الله بن عباس وأصحابه يرجع الفضل فيما كان لمدرسة مكة من شهرة علمية — وأشهر من تخرج في هذه المدرسة من التابعين مجاهد بن جبر

وعطاء بن أبي رباح وطاوس بن كيسان^(١) وثلاثهم من الموالى ، فجهاد مولى بنى مخزوم ، وقد اشتهر برواية أقوال ابن عباس فى تفسير القرآن ، وروى أنه قال عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات ، أفقه عند كل آية أسأله فم نزلت وكيف كانت

وعطاء كان من مولدى الجند ، وكان مولى لبنى فهر ، وكان أسود أفس مفل الشعر ، ومن جلة فقهاء مكة وزهادها ، وكان يعد من أعلم الناس بمناسك الحج ، وكان يجلس فى المسجد الحرام ويجمع الناس حوله فيفتيهم ويحدثهم ويعلمهم وطاوس كان من أبناء الفرس فى اليمن ، وقد أدرك كثيراً من الصحابة وأخذ عنهم ثم انقطع الى ابن عباس وكان من خاصة تلاميذه ، ثم كان من سادة التابعين ومن فقهاء مكة ومفتيها

واستمرت هذه المدرسة قائمة تتلقى العلم فيها طبقة عن طبقة ، ويطول بنا القول لو عددنا مشهورى العلماء من كل طبقة وترجمة حياتهم ، غير أنا نذكر هنا أنه كان من مشهورى الطبقة الخامسة سفيان بن عيينة ومسلم بن خالد الزنجى ، وكلاهما كان من الموالى ، وعليهما أخذ الامام الشافعى القرشى علمه فى نشأته الأولى ، فقد ولد بغزة ثم حملته أمه صغيراً الى مكة فتعلم الأدب فى باديتها ، يحفظ الأشعار ويتعلم اللغة ، ثم نشأ فى مدرستها يأخذ الحديث والفقه عن ذكرنا من علمائها ، ولما قارب العشرين من عمره تحول الى المدينة يتم فيها دراسته

مدرسة المدينة : قلت ان مدرسة المدينة كانت أكثر علماً وأوفر شهرة وأبنت السبب فى ذلك ، وقد اشتهر فيها كثير من الصحابة العلماء كعمرو وعلى ،

(١) عد الذهبى طاوساً من علماء اليمن وفقهائها ومفتيها وقال أنه اتفق موته بمكة فى الحج وكذلك ابن سعد وجرينا هنا على ما قاله ابن القيم الجوزية من أنه من فقهاء مكة ومفتيها

ولكن أشهر من امتاز بالعلم فيها وتخصص للحياة العلمية وكثر بها أصحابه وتلاميذه زيد بن ثابت ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، ولكن كلاهما يختلف في منجاء العلمى عن الآخر ، فزيد بن ثابت أنصارى صحب النبى صلى الله عليه وسلم منذ صباه ، وتعلم السريانية والعبرية ولكن لا ندرى الى أى حد كان مثقفاً بثقافتهما ، فهم يحدثوننا أنه تعلم اليهودية في نصف شهر والسريانية في سبعة عشر يوماً ، وهى أيام قليلة لا تكفى لحذق لغة والقدرة على تفهم آدابها ، فهل استمر يتعلم حتى نال قسطاً من آداب اللغتين ؟ ذلك ما لا ندرى ، كان ضليعاً في فهم تعاليم الاسلام وله القدرة الفائقة على استخراج الأحكام من الكتاب والسنة ، ومن رأى اذا لم يكن كتاب ولا سنة ، حتى قال سليمان بن يسار « ما كان عمر ولا عثمان يقدّمان على زيد بن ثابت أحداً في القضاء والفتوى والفرائض والقراءة » وقال القاسم « كان عمر يستخلف زيد بن ثابت في كل سفر يسافره ، وكان يفرق الناس في البلدان . . . ويطلب اليه الرجال المُسمّون (النابهون) فيقال له زيد بن ثابت ، فيقول لم يسقط على مكان زيد ، ولكن أهل البلد يحتاجون الى زيد فيما يجدون عنده فيما يحدث لهم ما لا يجدون عند غيره » وقال قبيصة « كان زيد بن ثابت مترسلاً بالمدينة في القضاء والفتوى والقراءة والفرائض في عهد عمر وعثمان وعلى في مقامه بالمدينة وبعد ذلك خمس سنين حتى ولى معاوية سنة ٤٠ فكان كذلك أيضاً حتى توفى زيد سنة ٤٥ » وكان ابن عباس يأخذ بركابه ويقول هكذا يفعل بالعلماء والكبراء — وكان ذا عقل رياضى ، فكان أعلم الناس بالفرائض (المواريث وتقسيمها) وولى قسمة الغنائم في اليرموك ، وعلى الجملة فكان عالماً وفقياً معاً أعنى واسع الاطلاع قادراً على استنباط المعانى ، ذا رأى فيما لم يردفيه أثر ، ويروى أن حسان ابن ثابت رثاه فقال :

فَدَنَّ للقوافي بعد حسانَ وابنه ومن للمعاني بعد زيد بن ثابت ؟
وهذه « المعاني » التي وردت في هذا البيت هي الميزة التي امتاز بها عن
عبد الله بن عمر ، فقد كان عبد الله عالماً فقط . يجمع الأحاديث ويرويها ويكتبها
ويتخرج من الفتوى وابداء الرأي ، وهما نزعتان ظلتا تسيران جنباً الى جنب
عهداً طويلاً كما سيأتى بيانه .

على هؤلاء العلماء من الصحابة في المدينة تخرج كثير من علماء التابعين
من أشهرهم سعيد بن المسيب — وكان من تلاميذ زيد بن ثابت يحفظ قضاياه
وفتاويه ويفضل قوله على قول غيره — وعروة بن الزبير بن العوام وكان من أعلم
أهل المدينة وأورعهم — وعن هذه الطبقة أخذ ابن شهاب الزهري القرشي وقد
حفظ فقه علماء المدينة وحديثهم ، وكان من أسبق العلماء الى تدوين العلم ، واتصل
بكثير من خلفاء بني أمية ، وكان موضع احترامهم ، كعبد الملك بن مروان وهشام ،
واستقضاه يزيد بن عبد الملك وقال فيه عمر بن عبد العزيز انكم لا تجدون أحداً
أعلم بالسنة الماضية منه

وأخيراً أنجبت هذه المدرسة مالك بن أنس امام دار الهجرة

بجانب هذه الحياة الجليلة الوقور التي تصفها لنا كتب طبقات المحدثين والفقهاء
والمفتين ، كانت تسود في الحجاز حياة أخرى هي حياة فرح ومرح وطرب وشراب ،
تصفها لنا كتب الأدب وخاصة كتاب الأغاني ، فمن الحق أن تصور هذا العصر
من جميع جهاته كما كان ، كان بالحجاز زهد وورع وتقوى وحديث وفقه ، وكان
بالحجاز شراب وتشبيب بالنساء حتى في موسم الحج وهو ولعب كثير ، وكما أنتجت
الحياة الأولى علماً كثيراً أنتجت الحياة الثانية فناً بديعاً من غناء وتنادر وأدب ،

ومن العجيب أن يفوق هذا الفن في الحجاز مثيله في العراق والشام -- على ما يظهر لنا -- فقد امتلأت مكة والمدينة وضواحيهما بالمغنين والمغنيات ، حتى يروى لنا أبو الفرج أن المغنين كانوا يخرجون الى الحج قوافل ، واشتهر في عصر واحد أربعة من كبار المغنين ابن سُرَيْج والغريض ومَعْبَدٌ وَحْنَيْنٌ ، وكان الثلاثة الاولون بالحجاز والأخير وحده بالعراق ، فاجتمع الاولون فتذاكروا ، وكتبوا لحنين يقولون نحن ثلاثة وأنت وحدك فأنت أولى بزيارتنا فشخص اليهم . . . واجتمعوا بمنزل سَكِينَةَ فلما دخلوا أذنت للناس اذناً عاماً ففصت الدار بهم . . . وازدحم الناس على السطح وكثروا لسمعوه ، فسقط الرواق على من تحته ومات حنين تحت الهدم^(١) -- واجتمع في زمن واحد من مشهورى المغنين والمغنيات في الحجاز جميلة وهَيْتٌ وَطُوَيْسٌ والدَّالُّال وبرد الفؤاد ونومة الضحى ورحمة وهبة الله ومعبد ومالك وابن عائشة ونافع ابن طنبورة وعزّة الميلاء وحبابة وسلامة وبليلة ولذّة العيش وسعيدة والزرقاء الخ ويروون ان هؤلاء حجوا فتلقاهم في مكة سعيد بن مسجح وابن سُرَيْج والغريض وابن مُحَرَّز ، وخرج أبناء أهل مكة من الرجال والنساء ينظرون الى حسن هيئتهم الخ^(٢) ويقول أبو الفرج أن الناس اجتمعوا عند جميلة فضربت ستارة وأجلست الجوارى كلهن ، فضر بن وضربت ، فضر بن على خمسين وتراً فتزلزلت الدار ثم غنت على عودها ، وهن يضر بن على ضربها الخ^(٣)

وكان لمغنى مكة مذهب في الغناء ولمغنى المدينة مذهب ، وكان بين الفريقين مفاخرة ، وأقبل الناس على الغناء يسمعون حتى يروى لنا أبو الفرج أيضاً أنه نَمَى الى عبد الملك أن رجلاً أسود بمكة يقال له سعيد بن مسجح أفسد فتیان قریش

(١) أنظر الأغاني جزء ٢ ص ١٢٢ و ١٢٣

(٢) ترى الحديث بطوله في الأغاني جزء ٧ ص ١٢٨ وما بعدها

(٣) جزء ٧ ص ١٣٢

وأنفقوا عليه أموالهم ، فكتب الى عامله أن اقبض ماله وسَيِّره ^(١) وحتى يروى لنا أن الامام مالك بن أنس قال نشأت وأنا غلام حدث أتبع المغنين وآخذ عنهم ، فقالت لي أمي يا بني ان المغنى اذا كان قبيح الوجه لم يُلْتَفَت الى غنائه ، فدع الغناء واطلب الفقه فإنه لا يضر معه قبح الوجه ؛ فتركتُ المغنين واتبعت الفقهاء فبلغ الله بي عز وجل ما ترى ^(٢)

والى الغناء كان التنادر والفكاهة الحلوة ، فكان الناصري مُنْذِر أهل المدينة ومضحكهم ، ثم خلفه أشعب فملاً الحجاز ملجأً ووادراً كما أمتع أهله بحسن صوته ، وخلف لنا فى كتب الأدب نوارد ممتعة أضحك بها أهل المدينة فى مجالسهم والحق أن الحجاز كان غنياً بِفَنِّ الغناء والمنادرة كما كان غنياً بالفقه والحديث ، وكان أكثر المغنين فى قصور أمراء بنى أمية وخلفائهم ممن تخرجوا فى مدرسة الحجاز — وليس عجيباً أن يكثر الفقه والحديث فى الحجاز لما بيننا ، انما كان عجيباً أن يبرز الحجازُ العراق والشام فى الغناء وما اليه ، فقد كان أقرب الى الذهن أن يكون العراق وارثُ المدنيات المتتابعة ، أو الشام وقد تحضر بحضارة الرومانيين ، أسبق من الحجاز فى اجادة الغناء وما يحيط به من لهو ومجون ، والحجاز كما قدمنا أقرب الى البداوة ، وهو اذا قورن بالعراق أو الشام كان فقيراً مجدباً فما السر فى ذلك ؟ لعل السبب ما نراه فى ثنايا الكتب من ظُرف أهل الحجاز ورقة شعورهم وأنهم فى ذلك العصر فاقوا أهل العراق والشام ، حتى لقد كان فقهاء الحجاز أوسع صدراً ، وأكثراً تسامحاً فى الغناء والمجون من أهل العراق ، وقد رأينا قبل ما لأهل العراق من تشدد فى الدين كان وليدَ الفرس ، جاء فى الأغاني أن عبيد الله بن عمر العُمَري قال خرجت حاجاً فرأيت امرأة جميلة تتكلم بكلام رفشت فيه ،

فأدريت ناقتي منها ثم قلت لها يا أمة الله ألسن حاجة ، أما تخافين الله ؟ فسفرت
عن وجه يبهر الشمس حسناً ثم قالت : تأمل يا عمي فاني ممن عنى العرجي بقوله
مِنَ اللَّاءِ لَمْ يَحْجُجْنَ يَبْغِينَ حِسْبَةً وَلَكِنْ لِيَقْتُلَنَّ الْبَرِيءَ الْمُغْفَلَ

قال فقلت لها فاني أسأل الله ألا يعذب هذا الوجه بالنار ، وبلغ ذلك سعيد
ابن المسيب (مفتي المدينة) فقال أما والله لو كان من بعض بُغْضَاءِ أَهْلِ الْعِرَاقِ
لَقَالَ لَهَا اعْزُبِي قَبْحَكَ اللَّهُ ، وَلَكِنْ ظَرَفَ عَبْدُ الْحِجَازِ^(١) . وروى في موضع آخر
عن داود الثقي قال كنا في حلقة ابن جريج وهو يحدثنا وعنده جماعة فيهم عبدالله
ابن المبارك وعدة من العراقيين اذ مر به ابن مِيزَنَ المَغْنِي . . . فدعاه ابن جريج
فقال له احب أن تسمعني ، قال أنا مستعجل ، فألح عليه . . . فغناه وقال لولا مكان
هؤلاء الثقلاء عندك لأطلت معك حتى تقضى وطرك ، فالتفت ابن جريج الى أصحابه
فقال : لعلمكم أنكرتم ما فعلت ! فقالوا إنا لننكره عندنا بالعراق ونكرهه ، قال
فما تقولون في الرجز يعني الحُداء ؟ قالوا لا بأس به عندنا ، قال فما الفرق بينه
وبين الغناء ؟^(٢) ويحكى الاغاني أيضا أن حنيناً خرج الى الشام واجتمع بالفتيان فقلب
لهم الغناء على جميع ألوانه فلا فكهوا له ولا سروا به ، وتمنوا أبا منبه فلما حضر غنى
لهم غناء سخيفاً فطربوا له ، فأقسم ألا يبيت في هذا البلد^(٣)

وقد يكون السبب أن الحجاز كان به ارسطراطية العرب وهم العنصر الفاتح
وقد نال هؤلاء الارستقراطيون خير الجوارى وأرفعهن نسباً ، وأكثرهن تأديباً ،
ومنهن من تربي بيت الملوك والامراء ، وتأديب بآداب الحضارة ، فنقلن ذلك الى
الحجاز وصبغنه بالصبغة العربية ، وكانت لهم الفضل في تأسيس مدرسة الغناء
في الحجاز

(١) الاغاني جزء ١٧ ص ١٢١

(٢) الاغاني جزء ١ ص ١٥٧

(٣) انظر الحكاية بطولها في جزء ٢ ص ١١٩

وقد تكون العلة ان البدو اذا تحضروا وبسط لهم في العيش أسرفوا في اللهو،
شأن كثير ممن غني بعد الحرمان

وربما كان السبب أن الأمويين تبوءوا الخلافة وحصروها فيهم بل في بيت
من بيوتهم ، وضيقوا على من عداهم من بطون قريش، وحجروا عليهم التفكير في
الشؤون السياسية، وكان الشام هو العنصر المؤيد لخلفاء بني أمية ، والعراق هو العنصر
المعارض، فانصرف فتیان الحجاز بما لهم من مال وفيروجاه عزيز عن الامارة والخلافة
والسياسة الى اللهو ، فكان الظرف وكان الغناء وكان الشراب وكان المجون

وقد يكون من الحق أن تكون كل هذه أسباباً أنتجت ما ذكرنا
وكان لهذا النوع من الحياة أثر في الأدب كبير ليس من شأننا هنا التعرض له
العراق : هو الجزء الجنوبي من وادي دجلة والفرات ، خصبت أرضه وغزر
ماؤه ، واعتدل جوه ، فكان من أسبق الأقاليم مدنية وعمراناً ، فقديمًا تعاقبت عليه
الأمم المتحضرة من نحو ثلاثين قرنًا قبل الميلاد ، فالبابليون والأشوريون
والكلدانيون والفرس واليونان كل هؤلاء انشؤوا في العراق ممالك تختلف صبغتها
وكانت مدنياتهم مناراً يلتقي أشعته على ما حوله من البلدان

وقديمًا عرفه العرب فنزلت فيه قبائل من بكر وربيعة ، ثم كونوا فيه امارة
هي امارة المناذرة في الحيرة ، وهي التي وصفناها قبل ، ثم استولوا عليه بعد الاسلام
في عهد عمر ، وأنشؤوا فيه البصرة والكوفة فأسرعا اليهما النمو ، وتحولت اليهما
كنوز المدائن ، وحضارة بابل والحيرة وتركزت فيهما مدنية العراق في عهد
الأمويين ، حتى كان اذا قيل العراق فعناه البصرة والكوفة ، وكانوا أحياناً يطلقون
عليهما « العراقيين »

لما فُتح العراق وسمع العرب بغناه رغبوا في الرحلة اليه ، جاء في الطبري

« بعث عتبة أنس بن حُجَّيَّة إلى عمر بمنطقة مرزبان دسنت ميسان فقال له عمر كيف المسلمون ؟ فقال اثاليت عليهم الدنيا فهم يهياون الذهب والفضة ، فرغب الناس في البصرة فأتوها » وترك عمر الأرض في يد أهلها ووضع عليها الخراج فجعل على جريب النخل^(١) عشرة دراهم وعلى جريب القصب ستة دراهم وعلى جريب البر أربعة دراهم وعلى جريب الشعير درهين فبلغ الخراج — على مايقولون — مائة مليون درهم ، وضرب على أهلها الجزية ، فكان من تجب عليهم الجزية ٥٥٠ ٠٠٠ وتختلف قيمة الجزية — كما علمت — بين ٤٨ ديناراً في السنة و ٢٤ و ١٢ حسب الثروة ، فترى من هذا مقدار ثروة العراق وغناه ، مما حجب إلى العرب سكناه

رحل العرب إلى العراق يحملون بين جنوبهم العصبية القبليَّة^(٢) ، وارستقراطية الفاتح ، فكان من مظاهر الأمر الأول أن البصرة والكوفة خطط كل منهما تخطيطاً قبلياً ، فقد قسمت الكوفة مثلاً قسمين : القسم الشرقي وكان خير القسمين ، والقسم الغربي ، فاقترح على من يأخذ خير القسمين ، اليمينيون أم النزاريون ، فقال القسم الشرقي اليمين ، والقسم الغربي نزار ، ثم اختط كل فريق جزءاً من أرضه حسب القبائل^(٣) ويروى الشعبي أن اليمينين بالكوفة كانوا أكثر من النزاريين فكان اليمينيون اثني عشر ألفاً ، والنزاريون ثمانية آلاف^(٤) ، وكانت هذه العصبية مثاراً للنزاع الشديد كما رأيت مما حكينا عن ابن أبي الحديد ، وكان عرب الكوفة

(١) الجريب نحو ٣٦٠٠ ذراع مربع

(٢) القبلي نسبة إلى القبيلة

(٣) ترى توزيع القبائل على الخطط في الطبرى جزء ٤ ص ١٩٢ طبع مصر وفي فتوح البلدان للبلاذرى

(٤) فتوح البلدان ص ٢٧٦ طبع أوروبا

إذا قاتلوا عرب البصرة انحازت كل قبيلة ناحية وقاتلت مثيلتها في الجانب الآخر ،
فيمَنُ الكوفة يقاتلون يمن البصرة ، وربيعة الكوفة تقاتل ربيعة البصرة ، ومضر
الكوفة تقاتل مضر البصرة^(١)

وأما ارستقراطية الفاتح فكان مظهرها في موقف العرب أزاء الموالي ، فقد كان
أكثر سكان العراق من الفرس ، والعرب فيه أقلية ، فقد رأيت أنه أحصى من
تجب عليه الجزية في العراق فكانوا خمسمائة ألف وخمسين ألفاً ، هذا عدا من أسلموا
من الفرس ولم تجب عليهم الجزية ، هؤلاء الموالي كانوا يحالفون العرب ويدخلون
في ولائهم لحمايتهم ، ويعدونهم سادتهم ، ويتعصب كل قوم منهم للقبيلة التي حالفوها
من العرب يقول البلاذري « حالفت الأساورة^(٢) الأزدي ثم سألوا عن أقرب
الحين من الأزدي وبنى تميم نسباً إلى النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء وأقربهم مدداً
فقال بنو تميم فحالفوهم » وكان هؤلاء الموالي هم القائمين بالحرف والصناعات والتجارة
في العراق ، وكانت العنصر السائد المشرف على الأمر الذي بيده زمام الحرب
هم العرب

تحولت هذه العصبية القبلية إلى عصبية للمدينة التي سكنوها ، فعرب الكوفة
ومواليها يتعصبون للكوفة ، وعرب البصرة ومواليها يتعصبون للبصرة ، يفخر كل
منهما بطبيعة الأرض وموقعها الجغرافي ، ويفخر كل بما كان على يده من فتوح
للبلدان ، ويفخر كل بمن نزل عندهم من صحابة رسول الله ، ويعير كل الآخر ما نبئت
عنده من دعاة للضلالة ، وأخيراً كانوا يتفاخرون بالعلم^(٣) وظهرت هذه المفاخرات

(١) الطبري جزء ٥ ص ٢٠٧

(٢) الأساورة قوم من فرسان الفرس نزحوا إلى البصرة ويقابلهم الأحامرة بالكوفة

(٣) أنظر في هذه المفاخرات كتاب البلدان للهمداني المعروف بابن الفقيه ص ١٦٣ وما بعدها

ففيه مفاضلة ممتعة بين البصرة والكوفة

العلمية والمناظرات وتعصب كل مدينة لعلمائها ظهوراً بيناً في كثير من فروع العلم ،
فالبصريون والكوفيون في النحو ، والبصريون والكوفيون في الفقه ، والبصريون
والكوفيون في المذاهب الدينية وعلم الكلام ، والبصريون والكوفيون في الأدب ،
يقول أعشى همدان

اكسع البصريّ ان لاقيته	انما يكسع من قلّ وذل
واجعل الكوفيّ في الخيل ولا	تجعل البصريّ الا في النفل
واذا فآخرونا فاذكروا	ما فعلنا بكم يوم الجمل
بين شيخ خاضب عثونه	وقى ابيض وصاح رفل
جاءنا يخطر في سابعة	فدبحناه ضحى ذبح الحمل
وعفونا فنسيتم عفونا	وكفرتم نعمة الله الاجل

ويظهر أن العراق — على الجملة — كان أكثر البلاد الاسلامية ثروة علمية
وأدبية ، اذا استثنينا بعض فروع تفوق فيها أهل الحجاز ، ولثروة العراق العلمية
أسباب أهمها : —

(أولا) أن العراق — كما علمنا — أسس على مدنيات قديمة لها علم ماثور ،
فكان طبيعياً أن ينهض أهله بعد ثورة الفتح فيستعيدوا حضارتهم القديمة ، وعلمهم
الموروث ، كان السريانيون منتشرين في أرض العراق قبل الفتح ولهم مدارس
يدرسون فيها الآداب اليونانية ، وكانت في العراق مذاهب نصرانية تتجادل في
كثير من العقائد كالذي رأيت ، وكان في الحيرة يونان مثقفون ، من أسارى الحروب
الفارسية اليونانية ، فكان لا بد أن تتخلف من هذا جميعه آراء وأفكار خدت
أثناء الحروب ثم استيقظت بعد أن قربت سياسة البلاد ، وكان كثير من أهل العراق
دخل في الاسلام ، فأخذت هذه الآراء تصطبغ بالصبغة الاسلامية ، يزهرتها مايتفق

والاسلام ويزيل منها ما يخالفه

أضف الى ذلك أن العراق — كما علمت — قطر غنى يتوافر فيه العيش

فيجد الناس من أوقاتهم ما يسمح لهم بالعلم

(ثانياً) لعل العراق كان أكبر الأقاليم الاسلامية ميداناً للحروب والفتن في

عهد الدولة الأموية ، فمنذ مقتل عثمان وهو مشتعل ، ذهب عائشة وطلحة والزبير

الى البصرة ، فذهب عليّ الى الكوفة ، وكانت بين البصرة والكوفة وقعة الجمل ،

وذهب الحسين الى الكوفة فكان بها مقتله ، وخرج المختار الثقفي بالكوفة يطلب

بثأر الحسين ، واستولى مصعب بن الزبير على البصرة وسار الى الكوفة فقتل المختار ،

وجهز عبد الملك جيشاً وسار الى العراق فقتل مصعباً ، وتغلب عبد الرحمن بن الأشعث

على الكوفة فسار اليه الحجاج وتغلب عليه ، كان من أثر ذلك طبيعياً أن يتساءل

الناس من المخطئ ومن المصيب ؟ هل أخطأ قتلة عثمان أو أصابوا ؟ هل لعل يد

في دم عثمان ؟ هل لطلحة والزبير وعائشة حق في قتال علي ؟ هل أصاب عليّ في

التحكيم ؟ هل يصح الخروج على عبد الملك لظلم واليه الحجاج وسفكه للدماء ؟

وهل أصاب من فعل ذلك وخرج مع ابن الأشعث ؟ كل هذه أسئلة كانت تثار ،

وكانت تثار بكثرة حتى في دروس الأساتذة في المساجد ، واذ كان العراق ميداناً

لأكثر هذه الحروب كان أهله أكثر الناس جدالاً في هذا ، فكان طبيعياً أن

يكون منبعاً للكثير من المذاهب الدينية ، لأن كثيراً منها بنى على نحو هذا الأساس

كما سيأتي بيانه — جاء في طبقات ابن سعد أن الحسن البصري كان من دروس

العلماء في الفتن والدماء — ودخل عليه قوم فقالوا له يا أبا الحسن ، ما تقول في هذا

الطاغية (يعني الحجاج) الذي سفك الدم الحرام ، وأخذ المال الحرام ، وترك الصلاة

وفعل وفعل ؟ الخ وقال « سأل رجل الحسن ما تقول في الفتن ؟ مثل يزيد بن المهلب

وابن الأشعث ؟ فقال لا تكن مع هؤلاء ولا مع هؤلاء ؟ فقال رجل من أهل الشام
ولا مع أمير المؤمنين يا أبا سعيد ؟ فغضب ثم قال بيده فخطر بها ثم قال ولا مع أمير
المؤمنين يا أبا سعيد ! نعم ولا مع أمير المؤمنين^(١) الى كثير من أمثال ذلك
(ثالثاً) كان العراق عرباً وموالى — كما علمت — وكانت السيادة للعرب ،

فاضطر الموالى لتعلم اللغة العربية لدينهم ولدنياهم ، فكانوا مضطرين الى نوع من
العلم يسهل لهم طريق التعلم ، فمست الحاجة الى وضع علم النحو ، وكان طبيعياً أن
ينشأ ذلك في العراق ، لافي الحجاز ولا في الشام ، لأن الحجاز لم يكن في حاجة الى
قواعد يقيم بها لسانه ، ولأن موالى العراق أكثر رغبة من موالى الشام ، لما علمت من
أن رغبة الفرس في العربية كانت أكثر من رغبة سواهم ، ولأن الآداب السريانية
كانت في العراق قبل الاسلام ، وكان لها قواعد نحوية ، فكان من السهل أن
توضع قواعد عربية على نمط القواعد السريانية ، خصوصاً واللغتان من أصل سامى
واحد ، لهذا كان السابقون الى وضع النحوم البصريين أولاً ثم الكوفيين ، وفاق
البصريون لقربهم من بادية العرب وبعُد الكوفيين عن البادية الفصيحة

والآن نستعرض باختصار الحركة العلمية في البصرة والكوفة من مبدئها
الكوفة — نزل الكوفة من أصحاب رسول الله كثيرون ، وكان أشهرهم في العلم
على بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود ، فأما على فكان عمله السياسى في العراق
واشتغاله بالحرب وشؤونهما مانعاً له من التفرغ للتعليم ، وأما ابن مسعود فهو أكثر
الصحابة أثراً علمياً فيها ، كان ابن مسعود من أول الناس اسلاماً ، حتى روى أنه
سادس ستة أسلموا ، وهاجر الى الحبشة مع من هاجر ، والى المدينة ، ولازم النبي
صلى الله عليه وسلم يخدمه ، وسَمَحَ له أن يدخل بيته حين لا يسمح لغيره . وشفف

بالقرآن يحفظه ويتفهمه . كل ذلك جعله يفهم من تعاليم الاسلام ومعاني القرآن وأعمال الرسول ما عدَّ من أجله من كبار علماء الصحابة ، بعثه عمر بن الخطاب الى أهل الكوفة يعلمهم ، فأخذ عنه كثير من الكوفيين ، ولزمه تلاميذ له يتعلمون عنه العلم ويتأدبون بأدبه ، قال فيهم سعيد بن جبير « كان أصحاب عبد الله سُرُجَ هذه القرية » (يعنى الكوفة) وكان يعلم الناس القرآن ويفسره ، ويروى أحاديث سمعها من رسول الله ، ويُسأل عن منوات فيفتي فيها استنباطاً من الكتاب أو السنة أو برأيه اذا لم يرد فيها كتاب ولا سنة ، واشتهر من مدرسته هذه ستة ، كانوا يعلمون القرآن ويفتون الناس . علقمة والأسود ومسروق وعبيدة والحارث بن قيس وعمرو بن شرحبيل ، وهؤلاء خلفوا عبد الله بن مسعود في التعليم بالكوفة ، ولم يكن كل علماء الكوفة أخذ عن عبد الله بن مسعود ، بل كثير منهم كانوا في المدينة وأخذوا عن عمر بن الخطاب وعلى بن أبي طالب وعبد الله بن عباس ومعاذ ونحوهم فتكونت في الكوفة حركة علمية كبيرة ، واشتهر من علمائها شريح والشعبي والنخعي وسعيد بن جبير . ولم تزل هذه الحركة تنمو وتنضج حتى توجت بأبي حنيفة النعمان الكوفي

البصرة — كذلك نزل في البصرة عدد كبير من الصحابة ، أشهرهم في العلم أبو موسى الأشعري وأنس بن مالك

فأما أبو موسى فيمضى ، قدم مكة وأسلم وهاجر الى الحبشة مع من هاجر ، وكان يعد من أعلم الصحابة ، وقد قدم البصرة وعلم بها ، سأل عمر بن الخطاب أنس بن مالك كيف تركت الاشعري فقال تركته يعلم الناس القرآن فقال انه كبير ولا تُسمعها اياه^(١) ، ويدل ما روى عنه من قضاء بين الناس وفصل في الخصومات على

(١) طبقات ابن سعد جزء ٤ ص ٨٠

أنه كان فقيهاً فوق معرفته القرآن والحديث ، أما أنس بن مالك فكان أنصاريّاً
وكان صبياً لما قدم النبي المدينة وخدمه نحو عشر سنين ، وقد نزل البصرة وُحُمِرَ
فيها طويلاً ، وكان آخر من توفي بالبصرة من الصحابة ، وتوفي سنة ٩٢ هـ ولكن
يظهر أنه لم يبلغ في العلم مبلغ أبي موسى الأشعري ولا عبد الله بن مسعود في الكوفة ،
وكان محدثاً أكثر منه فقيهاً ، وأشهر من خرجته مدرسة البصرة في عهد الأمويين
الحسن البصري وابن سيرين ، وكلاهما من أبناء الموالى من سبي ميسان ، وكلاهما
أتاه العلم عن طريق الولاء ، فأبو الحسن البصري كان مولى لزيد بن ثابت ، وهو
من أشهر علماء الصحابة ، وسيرين أبو محمد كان مولى لأنس بن مالك وهو من علمت
صحبة وحديثاً ، وكلاهما كانت له شخصية ظاهرة في البصرة ، فالحسن البصري اشتهر
بمتانة خلقه وصلابه وعلمه وفصاحته ، فأما متانة خلقه فتظهر في أنه لم يكن يخشى أحداً
في ابداء رأيه ، سئل عن ولاية يزيد بن معاوية فلم يستصوبها على حين أن الشعبي
وابن سيرين لم يجروا على ابداء رأيهما ، وقد رأيت قبل أن سأئلا سأله عن الدخول
في الفتن فكان لا يرى الدخول فيها ، فسأله ولا مع أمير المؤمنين فقال ولا مع أمير
المؤمنين ، وكان يقارن بالحجاج في فصاحته ، وفوق ذلك كان ورعاً تقياً يعده الصوفية
أحدهم ، ويتمثلون بحكمه وجمله ، ويعده المعتزلة رأسهم لأنه تكلم في القضاء والقدر
وكان يذهب الى أن الانسان حر الارادة ، وكان فقيهاً يستفتى فيما يعرض من
الحوادث فيفتى بعلم ، وكان قصاصاً يعد من سادة القصاص وأصدقهم ، لذلك كان
الحسن شخصية ممتازة في كل ناحية من النواحي التي ذكرنا ، ويروى ابن خلكان
أنه لما مات (سنة ١١٠ هـ) تبع أهل البصرة كلهم جنازته حتى لم يبق بالمسجد
من يصلي العصر

وأما ابن سيرين فقد تعلم على زيد بن ثابت وأنس بن مالك وشريح وغيرهم

وكان محدثاً ثقة وفاقها يفتى فيما يعرض عليه من الشؤون ، وكان معاصراً للحسن البصرى ، وكانا صديقين حيناً ، وبينهما وحشة حيناً ، وسبب الوحشة على ما يظهر اختلاف طباعهما فقد كان الحسن صريحاً شديداً حزيناً غضوباً ، لا يخشى أن يقول ما يعتقد حتى في المسائل السياسية الخطرة ، وكان ابن سيرين حليماً ضحواً يتحرج أن يقول ما يؤخذ عليه^(١) وقد اشتهر فيما بعد بتفسير الاحلام وزيف عليه كتاب في ذلك ، وقد ذكره ابن النديم في الفهرست ونسبه اليه ، ولكننا لانجد أثراً لشهرته في تعبير الرؤيا في كتب المتقدمين أمثال طبقات ابن سعد ، ومات سنة ١١٠ هـ وكان الحسن وابن سيرين يعدان سيدى أهل البصرة

وكان في العراق حركة غير الحركة الدينية تعد كأنها امتداد للحياة العقلية الجاهلية ، مصبوغة بالصبغة الاسلامية ، فقد كان للقبائل العربية النازلة بالبصرة والكوفة رؤساء ، وكان هؤلاء الرؤساء أشبه شيء برؤساء القبائل في الجاهلية ، في السيادة على قبائلهم ، والتفاف الناس حولهم ، والخضوع لشارتهم في السلم والحرب ، ووقوف الشعراء ببابهم يتغنون بمدحهم وينشرون مفاخرهم ويهجون أعداءهم ، ويتغنى هؤلاء السادة بالسيادة والمروءة وبذل المال وما الى ذلك ، كالأحنف بن قيس سيد تميم البصرة ، والحكم بن المنذر بن الجارود سيد عبد القيس البصرة ، ومالك ابن مسعم سيد بكر البصرة ، وقتيبة بن مسلم سيد قيس البصرة ، ومحمد بن عمير ابن عطار بن حاجب بن زُرارة سيد تميم الكوفة ، وحسان بن المنذر من ضبة الكوفة وحجر بن عدي ومحمد بن الأشعث سيدى كندة الكوفة وغيرهم ، وهؤلاء وأمثالهم كانوا مصدراً لحياة أدبية قوية ، من شعر يشبه الشعر الجاهلى وحكم تشبه

(١) استنتجنا هذا من سيرة الحسن وابن سيرين في طبقات ابن سعد وانظر في ذلك خاصة

التي تروى عن أكرم بن صيفي ، وليس هذا موضع شرح هذه الحركة الأدبية ولكن لا بأس من تصوير شخصية من هذه الشخصيات الكبيرة ، ليتبين لنا منحاها في الحياة وتأثيرها في الأدب ، ولتكن شخصية الأحنف بن قيس

كان الأحنف كما ذكرت — سيد بني تميم في البصرة وكان كما يقولون اذا غضب غضب لغضبه مائة ألف سيف لا يدرون فيم غضب ، يدخل بنو تميم الحرب مع من أحب الأحنف ، ويكفون اذا كف ، وعرف معاوية منزلته في قومه وسيادته فقر به وأكرمه ، وأوصى ولاته بذلك حتى كان يعزل الوالي اذا غضب عليه الأحنف ، ويحتمل منه معاوية الكلمة القارصة ويداريه ، قال له معاوية يوماً والله يا أحنف ما أذكر يوم صفين الا كانت حزاة في قلبي (لأن الأحنف كان مع علي) فقال الأحنف والله يا معاوية ان القلوب التي أبغضناك بها لفي صدورنا ، وان السيوف التي قاتلناك بها لفي أعمادها ، وان تدن من الحرب فترأ ندن منها شبراً ، وان تمش اليها نهول لها — وكان له فضل في التأليف بين كثير من القبائل المتعادية في البصرة — وكان مثلاً في علو النفس والاحتفاظ بالكرامة والمروءة ولما مات قيل « مات سيرُ العرب » وأبنته امرأة فقالت « لقد كنت في الحى مسوداً ؛ والى الخليفة موفداً ، ولقد كانوا لقولك مستمعين ، ولرايك متبعين » وله من الأقوال الماثورة والحكم ما ملا كتب الأدب مثل « لا خير في لذة تُعقب ندماً » « لن يفتقر من زهد » « أنصف من نفسك قبل أن يُنتصف منك » « ما أقبح القطيعة بعد الصلة » « أنفق في حق ولا تكن خازناً لغيرك » « لراحة لحسود ولا مروءة لكذوب » الخ

أما الحركة الفلسفية في العراق فسنشير اليها عند الكلام على المذاهب الدينية

وقد أُنِعت في الدولة العباسية حتى نبغ من الكوفة كثيرون من الفلاسفة ، ونبغ من البصرة جماعة اخوان الصفاء

الشام : قطر غنى ، خصب الارض كثير المياه ، معتدل الجو ، كان مبعثاً لكثير من الانبياء ، فتنشروا فيه تعاليمهم الدينية ^(١) ، وتعاقت عليه المدنات المختلفة فأورثته علمها وحضارتها ، ففينيقيون وكلدانيون ومصريون وعبريون ويونانيون ورومانيون ، كل هؤلاء كانت لهم مدينة ، وكان لهم علم ، وانتشر علمهم في البلاد ، وكان من أهل الشام أنفسهم من شارك في العلم ونبغ فيه ، وبارى علماء الامم المستعمرة ، واشتهر في الشام كثير من المدن كان مركزاً للعلم والحركة العقلية ، كصور وانطاكية وصيدا وبيروت ودمشق وحمص ، أورثها الفينيقيون حروف الكتابة ، والعبريون التعاليم الآلهية ، واليونان المذاهب الفلسفية ، والرومان النظريات الفقهية ، فكان لذلك كله الأثر الكبير في عقلية الشاميين ، وقد ذكرنا قبل ذلك طرفاً مما كان للسريانيين من حركة علمية في هذه البقاع وما حولها

وقد عرف العرب في جاهليتهم هذه البلاد فزحفوا اليها طمعاً في خيراتها ، وأنشؤا ولايات بها في حمص وبطرة من أول القرن الثاني قبل الميلاد، ثم كانت في القرن الخامس الميلادي امارة الغساسنة وقد سبق ذكرها ، وقد تأقلموا بأقليمها واعتنقوا النصرانية بعد انتشارها في ربوع الشام، وتمدنوا بشيء من مدنياتها وتكلموا بلغة هي خليط من الآرامية والعربية ، وعدوا أنفسهم سوريين يرتبطون بسوريا أكثر مما يرتبطون بجزيرة العرب

فتح الاسلام هذه البلاد ونشر لغته وتعاليمه بها ، فأخذ عرب الشام يتعلمون

(١) نعى بالشام ما يعمل فلسطين كما هو اصطلاح كتاب العرب كياقوت

لغة قریش ، وبدأ أهل الشام انفسهم يتعلمونها ويتكلمون بها مع لغتهم الآرامية أو اليونانية ، كذلك أخذ الاسلام يحل فيها محل النصرانية واليهودية ، ودخل كثير من الشاميين في الاسلام وبعث عمر اليهم من يعلمهم الدين الجديد ، شأنه مع كل الممالك التي فتحت في عهده

أورد البخارى في التاريخ أن يزيد بن سفيان كتب الى عمر « قد احتاج أهل الشام الى من يعلمهم القرآن ويفقههم فأرسل معاذاً وعباداً وأبا الدرداء » فكان هؤلاء أول مؤسسى المدرسة الدينية بالشام ، فأما معاذ فقد قرأت طرفاً من سيرته العلمية عند الكلام على مدرسة مكة ، وقد قضى آخر حياته في الشام معلماً ، وأما عبادة بن الصامت فهو كذلك أنصارى كان ممن جمع القرآن ، وولاه ابو عبيدة امرة حمص ، وولى قضاء فلسطين ، وكان من أفقه الناس في دين الله كما كان شديداً في الحق ، أنكر على معاوية كثيراً من اموره فشكاه الى عثمان ، ومات بالشام وأما أبو الدرداء فأنصارى كذلك كان من أفضل الصحابة وفقهائهم ، وقد ولى القضاء بدمشق وتوفى بها — وقد تفرق هؤلاء الثلاثة في بلاد الشام يعلمون أهلها ، فقد نزلوا جميعاً أولاً في حمص ، ثم خلفوا بها عبادة وخرج أبو الدرداء الى دمشق ، ومعاذ الى فلسطين ، ثم خرج عبادة بعداً الى فلسطين — وقد بعث عمر بعد هؤلاء عبد الرحمن بن عُثْم ، فتخرج على يدهم جميعاً كثير من التابعين كأبي ادريس الخولاني ثم مكحول الدمشقي وعمر بن عبد العزيز ورجاء ابن حيوة ، وتخرج في هذه المدرسة امام أهل الشام عبد الرحمن الأوزاعي الذي يقرن بمالك وأبي حنيفة ، وقد ولد بعلبك وعاش في دمشق وبيروت ولقب « بامام أهل الشام » وقلده أهلها ، وانتشر مذهبه في المغرب والأندلس ، ولكن هزمه مذهب الشافعي ومالك ، فأسرع اليه الفناء

كانت دمشق مركز الخلافة في عهد الدولة الأموية ، فكان طبيعياً أن يقصدها العلماء من كل صقع ، ولكن خلفاء بني أمية لم يشجعوا الحركة العلمية لما يينا قبل ، إنما شجعوا الشعر والخطابة وفنون الأدب فكانت الحركات العلمية الأخرى تنمو من نفسها ، وأهم هذه الحركات الحركة الدينية ، وكان الباعث على نموها الحماسة الدينية وحاجة الناس الى معرفة الحلال والحرام ، وخاصة فيما يعرض من الحوادث التي لم تكن تعرض في صدر الاسلام

وكان بالشام نصارى كثيرون ، احتفظوا بدينهم ، ورضوا بدفع الجزية عن رؤوسهم والخراج عن أرضهم ، ودخل كثير من نصارى الشام في الاسلام ، وكان من هؤلاء وهؤلاء مثقفون بالثقافة النصرانية ؛ وقامت المساجد بجانب الكنائس ، فسرعان ما كان الاحتكاك بين الاسلام والنصرانية وكان بينهما جدال وحوار وخصومة ، يدل عليها ما أثر من كتابة يحيى الدمشقي النصراني كما أسلفنا ، وقد سبب هذا الاحتكاك ظهور الكلام في القضاء والقدر أو الجبر والاختيار ، والكلام في صفات الله هل هي عين الذات أو غيرها ، ولعل هذا هو الاساس الأول لعلم الكلام في الاسلام

مصر : فتح المسلمون مصر والثقافة اليونانية الرومانية منتشرة فيها ، وقد ذكرنا قبل شيئاً عن مدرسة الاسكندرانيين ومذهبهم وتعاليمهم ، فلما تم فتحها أقبل العرب عليها لما سمعوا بغناها وخصب أرضها ، وخططوا الفسطاط حسب قبائلهم ، ونزلوا بالمدن والأرياف ، واستوطنوها واتخذوا الزرع معاشاً ، ودخل كثير من القبط في الاسلام ، واختلطت أنساب العرب بأنساب المصريين بما كان بينهم من تزاوج^(١)

(١) أنظر خطط المقرئى جزء ١ ص ٨٢ طبعة ميرى

أصبحت مصر منذ دخول العرب اليها مركزاً علمياً في المملكة الإسلامية كما هي مركز سياسي ، ولكن الحركة العلمية في بدء عهدها لم تكن حركة فلسفية ولا دنيوية إنما كان شأنها شأن جميع المراكز العقلية اذ ذاك ، فأكبر شيء قيمة هو الدين ، فكان طبيعياً أن يكون العلم السائد في هذا العصر في جميع الأقطار هو علم الدين وما اليه ، ولكن ليس معنى هذا أن الثقافة اليونانية الرومانية التي كانت منتشرة في مصر والشام والعراق قد بادت ولم يعد لها من أثر ، إنما أصابتها دهشة الفتح وخضعت لقوة الحركة الدينية ، فلما هدأت النفوس أخذت هذه الثقافة اليونانية الرومانية تستعيد نشاطها وقوتها بعد أن صبغت بالتعاليم الإسلامية ، وعدلت حسب ما يتفق والإسلام ، ولكن هذا النشاط لم يظهر إلا آخر الدولة الأموية وصدر الدولة العباسية

كان من الصحابة الذين نزلوا بمصر علماء علّموا بها ، وكانوا أساس مدرستها ، وأشهرهم عبد الله بن عمرو بن العاص ، وقد كان عبد الله هذا من أكثر الناس حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يدوّن ما يسمع ، قال مجاهد (رأيت عند عبد الله بن عمرو صحيفة فسألته عنها فقال هذه الصادقة ، فيها ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بيني وبينه فيها أحد)^(١) وكان مع هذا كثير الإطلاع في غير الحديث ، فابن حجر في الإصابة يروي لنا أنه كان يقرأ التوراة ، وابن سعد في طبقاته يروي لنا عن شريك أنه قال رأيت عبد الله بن عمرو يقرأ بالسريانية ، وقد روى عنه الحديث كثير من الصحابة والتابعين في المدينة والشام ومصر ، وقد خرج مع أبيه إلى مصر عند ما ولّاه إياها معاوية ، ولما حضرت الوفاة عمراً استعمل ابن عبد الله عليها ، فأقره معاوية ثم عزله

(١) طبقات ابن سعد ج ٧ ص ١٨٩

وكان يحج ويعتمر ويأتي الشام ثم يرجع الى مصر ، وابتنى فيها داراً فلم يزل بها حتى مات فدفن في داره في مصر — على أحد الأقوال — في خلافة عبد الملك ابن مروان — ويُعد بحق مؤسس المدرسة المصرية — فقد أخذ عنه كثير من أهل مصر وكانوا يكتبون عنه ما يحدث. روى المقرئ (عن حيوة بن شريح قال دخلت على حسين بن شفي بن مائع الأصبحي وهو يقول فعل الله بفلان ، فقلت ماله ؟ فقال عمد الى كتابين كان شفي سمعهما من عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه ، أحدهما قضى رسول الله في كذا وقال رسول الله كذا ، والآخر ما يكون من الأحداث الى يوم القيامة فأخذهما فرمى بهما بين الحولة والرباب)^(١)

وقد اشتهر من مدرسة مصر بعد الصحابة يزيد بن أبي حبيب وهو نوبى الأصل من دنقلة وقد أخذ العلم عن بعض الصحابة المقيمين بمصر ، قال الكندي أنه أول من نشر العلم بمصر في الحلال والحرام ومسائل الفقه ، وكانوا قبل ذلك انما يتحدثون في الفتن والترغيب ، وكان ثالث ثلاثة جعل عمر بن عبد العزيز الفتيا اليهم بمصر ، رجلا من الموالى ورجل من العرب ، فأما العربى فجعفر بن ربيعة وأما المولىان فيزيد بن أبي حبيب وعبد الله بن أبي جعفر ، فكأن العرب أنكروا ذلك فقال عمر بن عبد العزيز ما ذنبى ان كانت الموالى تسمو بأنفسها صغداً وأتم لا تسمون^(٢) وقد كان يزيد عالماً بالفتن والحروب وخاصة ما يتعلق بفتح مصر وشؤونها وولاتها ، وهو أحد الاركان الذين نقل عنهم الكندي كتابه « ولاية مصر وقضاتها »

(١) المقرئ ج ٢ ص ٣٣٣ ، قال أبو سعيد بن يونس: يعنى بقوله الحولة والرباب مركبين كبيرين من سفن الجسر كانا يكونان عند رأس الجسر مما يلي القسطنطينية تجوز من تحتها لكبرهما المراكب

(٢) أنظر خطط المقرئ ج ٢ ص ٣٣٣ طبعة ميرى

وكان من أشهر تلاميذ يزيد هذا عبد الله بن لهيعة والليث بن سعد ، فأما عبد الله فعربي أصله من حضرموت — وما أكثر الحضارمة كانوا في مصر — وقد قابل كثيراً من التابعين وأخذ عنهم ، وكان يدون ما يسمع

وكثير من المحدثين كالبخاري والنسائي لا يثق به ، ومن الأسف أن كثيراً من حوادث تاريخ العرب في مصر نقلت عنه وكان هو العمدة في روايتها — وقد ولى القضاء بمصر نحو تسع سنين

وأما الليث بن سعد فمن الموالى على أصح الأقوال ، أصله من أصفهان في فارس ولكن الراجح أنه هو ولد في مصر في قلقشندة وقد طوّف في كثير من البلدان لأخذ العلم ، فرحل إلى مكة وبيت المقدس وبغداد ، ولقي تسعة وخمسين تابعياً حدث عنهم ، وكان له اتصال بالامام مالك في المدينة يكتبه في مسائل في التشريع ويحاجه ، ويروون أن الشافعي قال الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به ، وكان ذا منزلة رفيعة في قومه ، يستشيره الولاة والقضاة في عظام الأمور ، ثقة لم يشك أحد في صدقه وأمانته — وكان له مذهب خاص يعرف به ، وقد قلده المصريون واتبعوه ولكن ضاع مذهبه كما ضاع مذهب الأوزاعي في الشام

نأخذ مما تقدم أنه بعد فتح الممالك تفرق الصحابة في الأمصار وكان من هؤلاء الصحابة علماء رحلوا للتعليم فكانوا نواة لمدارسها ، وأن هؤلاء الصحابة العلماء كانت لهم شخصيات علمية مختلفة كان لها أثرها في مدارسهم ، وأن أكبر الشخصيات تأثيراً في الأمصار هي عبد الله بن عمر في المدينة ، وعبد الله بن مسعود في الكوفة ، وعبد الله بن عباس في مكة ، وعبد الله بن عمرو بن العاص في مصر — لم يكن هؤلاء الصحابة يحيطون علماً بكل ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم وفعله ،

وبكل ما يتعلق بتعاليم الدين ، بل كان منهم من صحب النبي في بعض الأوقات دون بعض ، ففاته حين لم يصحبه علم حمله غيره ، لذلك علم كل منهم شيئاً وغاب عنه شيء ، واستتبع هذا أن بعض الأمصار كان يعرف من الحديث ما لم يعرفه الآخر ، خلف هؤلاء الصحابة التابعون فتلقوا عنهم ، وحلوا محلهم في رفع لواء العلم ، وشعر كثير منهم بأن في الأمصار الأخرى علماً غير علمهم فأكثروا من الرحيل ، فكانت هناك حركة دائمة للعلماء ، فمصرى يرحل الى المدينة ، ومدنى الى الكوفة ، وكوفى الى الشام ، وشامى الى هنا وهناك ، وهكذا عملوا على توحيد الوطن العلمى ، وكان من أثر هذا التقليل من الفروق التى سببتها الشخصيات العلمية المختلفة للصحابة ، وأخذ عن التابعين طبقات أتت بعدهم سارت على مناهجهم

وبعد ، فماذا كان يُعلم في المدارس المختلفة في هذه الأمصار تفصيلاً ؟ وعلام كانت تدور الحركات العلمية اذ ذاك ؟ وهل كان هناك تأثير للأمصار المختلفة في العلم ؟ وهل تأثر العلم في الشام ومصر بمدنية الرومان ؟ وهل تأثر في العراق بمدنية الفرس ؟ وهل تأثر في الحجاز ببساطة العرب ؟ وهل كان للعقائد الدينية المنتشرة كانت في هذه الأقطار قبل الاسلام أثر في المذاهب الدينية التى نشأت بعد الاسلام ؟ ذلك مطلب عسير سنحاول الاجابة عنه في البابى التالى ان شاء الله

مصادر هذا الباب

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد

(٢) الاصابة في أخبار الصحابة

(٣) أسد الغابة لابن الأثير

(٤) فتوح البلدان للبلاذرى

(٥) معجم البلدان لياقوت

- (٦) كتاب البلدان للهمداني المعروف بابن الفقيه
 - (٧) التنبيه والاشراف للمسعودي
 - (٨) تاريخ ابن جرير الطبري
 - (٩) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد
 - (١٠) دائرة المعارف الاسلامية في مادة العراق والبصرة والكوفة والشام ومصر وغير ذلك
 - (١١) ابن خلكان
 - (١٢) خطط القريري
 - (١٣) أخبار ولاية مصر وقضايتها للكندي
 - (١٤) الأغاني والعقد الفريد والجزء الأول والثاني من عيون الأخبار لابن قتيبة
 - (١٥) أعلام الموقعين لابن القيم
 - (١٦) فهرست ابن النديم
 - (١٧) طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة
 - (١٨) أخبار الحكماء للقفطي
 - (٢٩) الاعلاق النفيسة لابن رسته
- وهناك كتب غير هذه تجد ذكرها في أثناء البحث
-

الباب السادس

الحركة الدينية

تفصيلاً

قدمنا أن الحركة الدينية في صدر الاسلام كانت أكثر الحركات انتشاراً ، وأوسعها ميداناً ، وأن أكثر العلماء الذين ظهوروا في هذا العصر كانوا علماء دين ، وأن السبب في ذلك أن الدين ملك على الناس نفوسهم ورأوا فيه سبب وحدتهم وعلة نهضتهم ، لولاه لظل العرب شيعاً وأحزاباً يضرب بعضهم بعضاً ، ولولاه لقبعوا في كسر بيتهم ، ولما تعدوا حدود بلادهم ، ولما فتحوا الأمصار ودوخوا الممالك ، فهو هو عزهم في الدنيا ورجاؤهم في الآخرة ، وأخلص له قوم من غير العرب فاعتنقوه. وآمنوا أنه هو السبيل لسعادتهم ، فأقبل هؤلاء وهؤلاء على القرآن يتفهمونه ، والحديث يجمعونه ويشرحونه ، وأخذوا يستنبطون منهما أحكام ما يعرض في هذه الدولة المترامية الأطراف من حوادث ، فأما العلوم الدنيوية والفلسفية فكان ضعيفاً شأنها ، بل كانت ما ينمو منها إنما يحتاج في نموه الى الدين يعتمد عليه. ويصطبغ به ، يستخير الله عمر بن عبد العزيز أياماً ليخرج للناس كتاباً في الطب. عثر عليه ، وتتخذ أخبار الفتن والملاحم والغزوات والفتوح شكل الحديث وهكذا. — وقد وصفنا قبل هذه الحركة الدينية اجمالاً فلنعرض لها الآن بشيء من التفصيل. كان أهم ما تدور عليه هذه الحركة ثلاثة أشياء : القرآن وتفسيره ، والحديث وجمعه وتبويبه ، واستنباط الأحكام لما يعرض من أحداث وهو الذي نسميه بالتشريع .

الفصل الأول

القرآن وتفسيره

نزل القرآن مُنَجَّمًا على رسول الله في نحو عشرين سنة ، وكان ينزل حسب الحوادث ومقتضى الحال ، وتوفي رسول الله ولم يجمع القرآن في مصحف ، بل كان في صحف مفرقة كتبها كتاب الوحي ، وفي صدور الحفاظ من الصحابة ، وفي عهد أبي بكر أمر بجمع القرآن ، ولكن لا في مصحف واحد بل جمعت الصحف المختلفة التي فيها آيات القرآن وسوره . وكتب منها ما كان في صدور الرجال ، وأودعت الصحف الكثيرة التي فيها القرآن عند أبي بكر ، وقد تولى جمعه هذا زيد بن ثابت وانتقلت من أبي بكر الى عمر ، ثم الى حفصة بنت عمر ، حتى اذا تولى عثمان أخذ الصحف من حفصة وعهد الى جمع من الصحابة منهم زيد بن ثابت وعبد الله ابن الزبير وسعيد بن العاص بجمعها في مصحف واحد ، وكتب منه نسخا كثيرة وزعت على الأمصار ، وأحرق ما يخالفه من الصحف : في حديث طويل ليس هذا محل تفصيله.

نزل القرآن بلغة العرب وعلى أساليب العرب في كلامهم ، فألفاظه عربية ، إلا ألفاظا قليلة عُرِّبت وأخذت من اللغات الأخرى ، ولكن هضمتها العرب وأجرت عليها قوانينها ، وأساليبه هي أساليب العرب في كلامها ، ففيه الحقيقة وفيه المجاز وفيه الكناية الخ على نمط العرب في حقيقتهم ومجازهم ، وهذا طبيعي لأنه أتى يدعو العرب - أولا - الى الاسلام ، فلا بد أن يكون بلغة يفهمونها « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ »

ومع هذا فلم يكن القرآن جميعه في متناول الصحابة جميعاً يستطيعون أن يفهموه — اجمالاً وتفصيلاً — بمجرد أن يسمعه ، وليس بصحيح ما يقوله ابن خلدون من « أن القرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه »^(١) لأن نزول القرآن بلغة العرب لا يقتضى أن العرب كلهم يفهمونه في مفرداته وتراكيبه ، والدليل على ذلك ما هو حاصل في مشاهداتنا الأولى ، فليس كل كتاب مؤلف بلغة يستطيع أهل اللغة كلهم أن يفهموه ، فكم من كتب انجليزية وفرنسية لا يستطيع الانجليز أو الفرنسيون أنفسهم أن يفهموها ، لأن فهم الكتاب لا يتطلب اللغة وحدها . وإنما يتطلب درجة عقلية خاصة تتفق ودرجة الكتاب في رقيه ، وهكذا كان شأن العرب أمام القرآن فلم يكونوا كلهم يفهمونه اجمالاً وتفصيلاً ، إنما كانوا يختلفون في مقدار فهمه حسب رقيهم العقلي ، بل أن ألفاظ القرآن أنفسها لم يكن العرب كلهم يفهمون معناها ، كما لم يدع أحد أن كل فرد في أمة يعرف جميع ألفاظ لغتها ، وحسبنا على ذلك « ما روى عن أنس بن مالك أن رجلاً سأل عمر بن الخطاب عن قوله تعالى « وَفَاكِهَةً وَأَبًّا » ما الأب ؟ فقال عمر نهينا عن التكاف والتعق ، وروى عن عمر أيضاً أنه كان على المنبر فقرأ « أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ » ثم سأل عن معنى التَّخَوُّف فقال له رجل من هذيل — التخوف عندنا التنقص ثم أنشده

تَخَوُّفَ الرَّحْلِ مِنْهَا تَأْمِكًا قَرْدًا كَمَا تَخَوُّفَ عُودِ النَّبْعَةِ السَّفْنِ^(٢)

ونحن نعلم قدر عمر في الدين والعلم فكيف بغيره من الصحابة — إنما كان

(١) المقدمة ص ٣٦٦

(٢) الحكايتان وردتا في كتاب المواقفات ج ٢ ص ٥٧ ، ٥٨ طبع مصر ، والسفن الحديدة التي يبرد بها خشب القوس والفرد الكثير الفردان ، والتامك العظيم السنام ، يقول ان الرحل تنقص الناقة كما تأكل الحديدة خشب القسي

كثير من الصحابة يكتفون بالمعنى الاجمالى للآية ، فيكتفون من قوله تعالى « وفاكهة وأبا » بأنه تعداد لنعم الله ، ولا يلزمون أنفسهم بتفهم معانى الآيات تفصيلاً وفوق ذلك ، ففي القرآن آيات كثيرة لا يكفى فى تفهمها معرفة ألفاظ اللغة وأساليبها ، مثل « وَالْعَادِيَّاتِ ضَبْحًا » « وَالذَّارِيَّاتِ ذُرْوًا » وما المراد بالليلالى العشر فى قوله تعالى « وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ » وما المراد بليلة القدر ؟ الى كثير من أمثال ذلك ، وفيه اشارات كثيرة الى أشياء فى التوراة والانجيل وردت عليهم ليس يكفى فى فهمها معرفة اللغة ، والله تعالى يقول « هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ . الْآيَةُ » (١)

الحق أن من البديهي أن الصحابة رضى الله عنهم كانوا يتفاوتون مقدرة فى فهم القرآن ومعرفة معانيه .

ولم يكن شائعاً فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم حفظ القرآن جميعه كما شاع بعد ، انما كانوا يحفظون السورة أو جملة آيات ويتفهمون معانيها فاذا حذقوا ذلك انتقلوا الى غيرها فكان حفظ القرآن موزعاً على الصحابة ، قال أبو عبد الرحمن السلمي حدثنا الذين يقرأون القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا اذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل — وقال أنس كان الرجل اذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ فى اعيُننا (رواه احمد فى مسنده) وأقام ابن عمر على حفظ البقرة ثمان سنين (٢) ذلك أنه

(١) أحسن تفسير للمحكم أنه المكشوف المعنى الذى لا يتطرق اليه أشكال واحتمال ، والمتشابه ما تطرق اليه الاحتمال (٢) الاتقان جزء ٢ ص ٢٠٨

انما كان يحفظ ولا ينتقل من آية الى آية حتى يفهم .

فى القرآن آيات كثيرة محكمة واضحة المعنى وهى التى تتعلق بأصول الدين .
وأصول الأحكام . وخاصة منها الآيات المسكية التى تدعو الى أصول الدين كسورة
الانعام . وهذا النوع من الآيات يستطيع فهمه جمهور الناس ولا سيما من كانوا عربا
بسليقتهم ، وفى القرآن آيات غامضة هى التى سميت متشابهة ، صعب فهمها ولم يصل
الى معرفتها الا الخاصة

وكان الصحابة — على العموم — أقدر الناس على فهم القرآن لأنه نزل بلغتهم
ولأنهم شاهدوا الظروف التى نزل فيها القرآن

ومع هذا فقد اختلفوا فى الفهم على حسب اختلافهم فى أدوات الفهم وذلك
(١) أنهم كانوا يعرفون العربية على تفاوت فيما بينهم وان كانت العربية
لفتهم ، فمنهم من كان يعرف كثيراً من الأدب الجاهلى ويعرف غريبه ويستعين
بذلك فى فهم مفردات القرآن ، ومنهم من كان دون ذلك

(٢) كذلك منهم من كان يلزم النبى صلى الله عليه وسلم ويقيم بجانبه ويشاهد
الأسباب التى دعت الى نزول الآية ، ومنهم من ليس كذلك ، ومعرفة أسباب التنزيل
من أكبر ما يعين على فهم المقصود من الآية ، والجهل بها يوقع فى الخطأ ، روى أن
عمر استعمل قدامة بن مظعون على البحرين فقدم الجارود على عمر فقال أنت
قدامة شرب فسكر ، فقال عمر من يشهد على ما تقول ؟ قال الجارود : أبو هريرة
يشهد على ما أقول ، فقال عمر ياقدامة انى جالك ، قال والله لو شربت كما يقولون
ما كان لك ان تجلدى ، قال عمر ولم ؟ قال لأن الله يقول « لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقُوا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقُوا وَأَحْسِنُوا » فأنا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا ، شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرًا واحدًا والخندق والمشاهد ، فقال عمر ألا تردون عليه قوله ؟ فقال ابن عباس أن هذه الآيات أنزلن عذرًا للماضين ، وحجة على الباقين ، لأن الله يقول يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ » قال عمر صدقت — وجاء رجل الى ابن مسعود فقال تركت في المسجد رجلا يفسر القرآن برأيه ، يفسر هذه الآية « يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ » قال يأتى الناس يوم القيامة دخان فيأخذ بأنفاسهم حتى يأخذهم كهيئته الزكام ، فقال ابن مسعود من علم علماً فليقل به ومن لم يعلم فليقل الله أعلم ، انما كان هذا لأن قريشاً استعصوا على النبي صلى الله عليه وسلم فدعا عليهم بسنين كسنى يوسف ، فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام ، فجعل الرجل ينظر الى السماء فيرى بينه وبينها كهيئته الدخان من الجهد (١)

(٣) كذلك اختلافهم في معرفة عادات العرب في أقوالهم وأفعالهم ، فمن عرف عادات العرب في الحج في الجاهلية استطاع أن يفهم آيات الحج أكثر ممن لم يعرف وهكذا ، وكذلك الآيات التي وردت في التبديد بمعبودات العرب وطريقة عبادتهم لا يكمل فهمها الا لمن عرف ماذا كانوا يفعلون

(٤) ومثل هذا معرفة بما كان يفعله اليهود والنصارى في جزيرة العرب وقت نزول الآيات ، ففيها اشارة الى أعمالهم ورد عليهم ، وهذا لا يتم فهمه الا بمعرفة ما كانوا يفعلون — من ذلك ونحوه كان الاختلاف بين الصحابة في الفهم وكان التابعون ومن بعدهم أشد اختلافًا

مصادر التفسير — هناك تفسير يسمى بالتفسير بالمنقول ويعنون به

أولاً — تفسيراً نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم مثل الذى روى أن رسول الله قال الصلاة الوسطى صلاة العصر ، ومثل ما روى عن علي قال سألت رسول الله عن يوم الحج الأكبر فقال يوم النحر، وما روى أى الاجلين قضى موسى؟ قال أوفاهما وأبرهما الخ وهذا النوع كثير وردت منه أبواب فى كتب الصحيح الستة وزاد فيه القصاص والوضاع كثيراً ، وتقد ذلك علماء الحديث فمنها ما صححوه ومنها ما ضعفوه، وأهم ما يدل على دخول الوضع فى هذا الباب أنك ترى فى الآية الواحدة تفسيرين متناقضين لا يمكن أن يصدر عن رسول الله ، مثل الذى روى عن أنس أن رسول الله سئل عن قوله تعالى « والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة » قال القنطار ألف أوقية، ورووا عن أبى هريرة أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم القنطار اثنا عشر ألف أوقية^(١) — بل أن بعض العلماء أنكر هذا الباب بتاتاً ، أعنى أنه أنكر صحة ورود ما يروونه من هذا الباب، فقد روى أن الامام احمد بن حنبل قال « ثلاثة ليس لها أصل ، التفسير والملاحم والمغازى »^(٢) ومما يدل على عدم ثقة المفسرين بما ورد فى هذا الباب أنهم لم يوقفوا عند ماورد ، بل أتبعوا ذلك بما أداه اليه اجتهادهم ، ولو كان ذلك صحيحاً فى نظرهم لوقفوا عند حدود النص

وبمرور الزمان تضخم هذا التفسير المنقول فدخل فيه أيضاً ما نقل عن الصحابة والتابعين وهكذا ، حتى كانت كتب التفسير المؤلفة فى العصور الأولى مقصورة على هذا النحو من التفسير

(الثانى) من مصادر التفسير الاجتهاد وان شئت فقل رأى ، يعرف المفسر

(١) أخرج الحديث الاول الحاكم والثانى احمد وابن ماجه

(٢) الأتقان جزء ٢ ص ٢١١ ونقل أن المحققين من أصحاب احمد قالوا أن مراده أن الغالب

أنه ليس لها أسانيد صحاح متصلة

كلام العرب ومناحيهم في للقول ، ويعرف الألفاظ العربية ومعانيها بالوقوف على ماورد في مثله من الشعر الجاهلي ونحوه ، ويقف على ما صح عنده من أسباب نزول الآية مستعيناً بهذه الأدوات ويفسرها حسب ماأداه اليه اجتهاده ، وكثير من الصحابة كان يفسر الآيات من القرآن بهذا الطريق ، مثل كثير مما ورد عن ابن عباس وابن مسعود ، فمثلاً يفسر المفسرون الطور في قوله تعالى « وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ » بتفسيرات مختلفة فمجاهد يفسر الطور بالجبل مطلقاً ، وابن عباس بجبل بعينه وآخر يقول أن الطور ما أنبت من الجبال ، فأما ما لم ينبت فليس بطور ، فهذا الاختلاف نتيجة اختلاف في الرأي لا نتيجة اختلاف في المنقول ، وقد اختلفوا في معاني الآيات خلافاً في معاني الألفاظ

نعم ان الصحابة والتابعين انقسموا في ذلك قسمين ، فمنهم من تورع أن يقول في القرآن شيئاً برأيه كالنبي روى عن سعيد بن المسيب أنه كان اذا سئل عن شيء من القرآن قال أنا لا أقول في القرآن شيئاً ، وقال ابن سيرين سألت عبدة عن شيء من القرآن فقال اتق الله وعليك بالسداد فقد ذهب الذين يعلمون فيم أنزل القرآن ، وعن هشام بن عروة بن الزبير قال ما سمعت أبي تأول آية من كتاب الله — ولكن كان بجانبهم من يرى حل ذلك ويستبيحه ، بل يرى كتمان ما وصل اليه اجتهاده كتماناً للعلم وهم الأكثرون ، وعلى هذا كان رأى ابن مسعود وابن عباس وعكرمة وغيرهم ، انما كره هؤلاء وأمثالهم أن يتعرضوا للتفسير من لم يستكمل أدواته ، كأن لم يبلغ في معرفة كلام العرب مبلغاً يمكنه من صحة الفهم ، أو لم يدرس القرآن درساً يستطيع معه أن يحمل مجمله على مفصله ، كذلك كرهوا أن يعتنق الرجل مذهباً من المذاهب الدينية كالأعتزال والارضاء والتشيع ويجعل ذلك أصلاً يفسر القرآن على مقتضاه ، والواجب أن تكون العقيدة تابعة للقرآن لا أن يكون القرآن تابعاً للعقيدة

وهذا الاجتهاد هو الذى سبب الاختلاف بين الصحابة والتابعين فى تفسيرهم
لألفاظ القرآن وآياته اختلافاً واضحاً تكاد تلمسه فى كل صفحة من صفحات تفسير
ابن جرير الطبرى

فالأدب الجاهلى من شعر ونثر ، وعادات العرب فى جاهليتها وصدر اسلامها ،
وما قابلهم من أحداث وما لقي رسول الله من عداو ومنازعات وهجرة وحروب
وفتن ، وما حدث فى أثناء ذلك مما استدعى أحكاماً واستوجب نزول قرآن ، كل
هذا كان مصدراً لعلماء الصحابة والتابعين يستمدون منه القدرة على التفسير

(الثالث) وهناك منبع آخر من منابع التفسير استمد منه المفسرون كثيراً ،
ذلك أن شغف العقول وميلها للاستقصاء دعاها عند سماع كثير من آيات القرآن
أن تتساءل عما حولها ، فإذا سمعوا قصة كلب أصحاب الكهف قالوا ما كان لونه ؟ وإذا
سمعوا « فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا » تساءلوا ما ذلك البعض الذى ضَرَبُوا به ، وما قدر
سفينة نوح ، وما اسم الغلام الذى قتله العبد الصالح فى قصة موسى معه ، وإذا تلى عليهم
« فَخَذُّ أَرْبَعَةٍ مِنَ الطَّيْرِ » قالوا ما أنواع هذا الطير ، وما هى الكواكب التى
رآها يوسف فى منامه ، وكذلك اذا سمعوا قوله تعالى فى قصة مومى مع شعيب سألوا
أى الأجلين قضى موسى ، وهل تزوج الصغرى أو الكبرى وهكذا ، كذلك كانوا
اذا سمعوا اشارة الى بدء الخليفة طلبوا بقية القصة ، وإذا تليت عليهم آية فيها اشارة
الى حادثة لنبي لم يقتنعوا الا باستقصائها ، وكان الذى يسد هذا الطمع هو التوراة
وما علق عليها من حواش وشروح ، بل وما أدخل عليها من أساطير ، وقد دخل بعض
هؤلاء اليهود فى الاسلام فتسرب منهم الى المسلمين كثير من هذه الأخبار ، ودخلت
فى تفسير القرآن يستكملون بها الشرح ، ولم يتخرج حتى كبار الصحابة مثل ابن
عباس من أخذ قولهم ، نعم روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « اذا حدثكم

أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم» ولكن العمل كان على غير ذلك ، وأنهم كانوا يصدقونهم وينقلون عنهم ، وإن شئت مثلاً لذلك فاقراً ما حكاه الطبري وغيره عند تفسير قوله تعالى « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ » وقد رأيت أن ابن عباس كان يجالس كعب الأحبار ويأخذ عنه ، ويعجبني في ذلك ما قاله ابن خلدون « أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم ، وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية ، وإذا تشوقوا إلى معرفة شيء مما تشوق إليه النفوس البشرية في أسباب المكنونات وبدء الخليفة وأسرار الوجود فأنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ، ويستفيدونه منهم ، وهم أهل التوراة من اليهود ، ومن تبع دينهم من النصارى ، وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم ، ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب ، ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية ، فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التي يحتاطون لها ، مثل بدء الخليفة وما يرجع إلى الحدثن والملاحم وأمثال ذلك ، وهؤلاء مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه وعبد الله بن سلام وأمثالهم ، فامتلات التفاسير من المنقولات عندهم في أمثال هذه الأغراض ، أخبار موقوفة عليهم وليست مما يرجع إلى الأحكام فيتحرى في الصحة التي يجب بها العمل ، وتساهل المفسرون في مثل ذلك ، وملتوا كتب التفسير بهذه المنقولات الخ^(١)

المفسرون في هذا العصر — أشهر عدد قليل من الصحابة بالقول في تفسير القرآن ، وأكثر من روى عنه منهم علي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس وعبد الله ابن مسعود وأبي بن كعب ، وأقل من هؤلاء زيد بن ثابت وأبو موسى الأشعري وعبد الله بن الزبير ، ولنقص قولنا على الأربعة الأولين لأنهم أكثر من غذى

التفسير في مدارس الامصار المختلفة ، والصفات العامة التي مكنت هؤلاء الأربعة الاولين من التبحر في التفسير قوتهم في اللغة العربية ، واحاطتهم بمناحيها وأساليبها ، ومخالطتهم للنبي صلى الله عليه وسلم مخالطة مكنتهم من معرفة الحوادث التي نزلت فيها آيات القرآن، وعدم تخرجهم من أن يجتهدوا ويقرروا ما أداه اليه اجتهادهم — نستثنى من ذلك ابن عباس فانه استعاض عن ملازمة النبي في شبابه بملازمة علماء الصحابة يأخذ عنهم ويروى لهم — ولو أنا رتبنا هؤلاء الأربعة حسب كثرة ما روى عنهم لكان ابن عباس أولهم ، ثم عبدالله بن مسعود ، ثم علي بن أبي طالب ، ثم أبي -- هذا بالنسبة لما روى لا بالنسبة لما صح ، ويظهر أنه وضع علي ابن عباس وعلي أكثر مما وضع علي غيرهما ، ولذلك أسباب : أهمها أن علياً وابن عباس من بيت النبوة فالوضع عليهما يكسب الموضوع ثقة وتقديساً لا يكسبهما الاسناد الى غيرهما ، ومنها أنه كان لعلي من الشيعة ما لم يكن لغيره . فأخذوا يضعون وينسبون له ما يظنون أنه يعلى من قدرة العلمى ، وابن عباس كان من نسله الخلفاء العباسيون يتقرب اليهم بكثرة المروى عن جدهم — ان شئت فانظر الى ما روى ابن أبي جمرة عن علي أنه قال لو شئت أن أقر سبعين بعيراً من تفسير أم القرآن (الفاتحة) لفعلت ، وما روى عن أبي الطفيل قال شهدت علياً يخطب وهو يقول سلوني فوالله لا تسألوني عن شيء الا أخبرتكم ، وسألوني عن كتاب الله فوالله ما من آية الا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار أم في سهل أم في جبل — ومجرد رواية هذين الحديثين يغنى عن التعليق عليهما ، وقد روى عن ابن عباس ما لا يحصى كثرة ، فلا تكاد تخلو آية من آيات القرآن الا ولا ابن عباس فيها قول أو أقوال ، وكثر الرواة عنه كثرة جاوزت الحد ، واضطرت النقاد أن يتبعوا سلسلة الرواة فيعدّلون بعضاً ويجرّحون بعضاً ، فيقولون مثلاً ان طريق معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس من أجود الطرق ، وقد اعتمد عليها البخارى ،

ورواية جوير عن الضحاك عن ابن عباس غير مرضية، وابن جرير في جمعه لم يقصد الصحة، وإنما روى ما ذكر في كل آية من الصحيح والسقيم، ورواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أوهى طرقه، فإن انضم إلى ذلك رواية محمد بن مروان السدي الصغير فهي سلسلة الكذب إلى كثير من أمثال ذلك

وقد روى من طريق ابن عبد الحكم قال سمعت الشافعي يقول لم يثبت عن ابن عباس في التفسير إلا شبيه بمائة حديث^(١) — فإن صح هذا دلنا على مقدار ما كان يخلق الوضعون وإلى أي حد بلغت جرأة الناس على الاختلاق

ومن أدلة الوضع أنك ترى روايتين نقلتا عن ابن عباس أحياناً وهما متناقضتان، لا يصح أن تنسبا إليه جميعاً، فترى في ابن جرير مثلاً عند تفسير قوله تعالى « فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً » عن معاوية عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال إنما هو مثل، قال قطعهن ثم اجعلن في أرباع الدنيا، ربعا ههنا وربعا ههنا ثم ادعن يأتينك سعياً — وقال بعد قليل، حدثنا محمد بن سعد قال حدثني أبي قال حدثني عمي قال حدثني أبي عن أبيه عن ابن عباس فصرهن إليك، صرهن أوثقهن^(٢) اه فهو يفسر صرهن مرة بقطعهن ومرة بأوثقهن، ومن العسير أن تتكلف القول بأنه فسر هذا زمناً وفسر ذلك آخر، وأمثال ذلك كثير في ابن جرير

على أن هذا التفسير الموضوع — والحق يقال — لا يخلو من قيمته العلمية، فلم يكن الوضع مجرد قول يلقي على عواهنه، إنما هو في كثير من الأحيان نتيجة اجتهاد علمي قيم، والشئ الذي لا قيمة له فقط هو اسناده إلى علي أو ابن عباس وإذا نحن ألقينا بنظرة عامة على ما روى من التفسير عن ابن عباس وغيره

(١) الاثنان جزء ٢ ص ٢٢٥ (٢) ابن جرير ج ٣ ص ٣٧ و ٣٨

وجدنا منبعه هو الأشياء الثلاثة التي ذكرناها قبل ، نقل عن رسول الله أو رواية حوادث وقعت أمامهم توضح معنى الآية ، واجتهادهم في الفهم معتمدين على الأدب الجاهلي ومعرفتهم بلغة العرب والعادات التي كانت فاشية في الجاهلية وصدر الاسلام، والاسرائيليات وما إليها

بعد عصر الصحابة اشتهر بعض التابعين في الرواية عن ذكرنا من الصحابة ، فأكثر من يروى عن ابن عباس مجاهد وعطاء بن أبي رباح وعكرمة مولى ابن عباس وسعيد بن جبير ، وهؤلاء كانوا من تلاميذ في مكة ، وكلهم من الموالى ، وهم يختلفون في الرواية عن ابن عباس قلة وكثرة ، كما يختلف العلماء في مقدار الثقة بهم ، فمجاهد من أقلهم رواية عن ابن عباس ومن أوثقهم ، ولهذا يعتمد على تفسيره الشافعي والبخاري وغيرهما من أهل العلم ، ولكن كان بعض العلماء لا يأخذ بتفسير مجاهد ، فقد روى ابن سعد في طبقاته أن الأعمش سئل : ما لهم يتقون تفسير مجاهد قال كانوا يرون أنه يسأل أهل الكتاب^(١) ، ولكن لم نر أحداً طعن عليه في صدقه — كذلك كان كل من عطاء وسعيد ثقة صادقاً ، أما عكرمة فكان أكثرهم رواية عن ابن عباس وهو مولا ، وكان أصله من البربر بالمغرب ، واختلف العلماء في توثيقه ، فكان بعضهم لا يثق به ولا يروى له شيئاً ، ويوثقه البخاري ويروى له ، ويرى آخرون أنه جرىء على العلم يزعم أنه يعلم كل شيء « في القرآن » سأل رجل سعيد بن المسيب عن آية في القرآن فقال لا تسألني عن آية من القرآن ، سل من يزعم أنه لا يخفى عليه شيء منه يعني عكرمة^(٢) — واشتهر من تلاميذ عبد الله بن مسعود في التفسير في العراق مسروق بن الأجدع وهو عربي من همدان ، وكان ورعاً زاهداً ثقة صادقاً وكان

(١) جزء ٥ ص ٣٤٤

(٢) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٢٩

يسكن الكوفة ويستشير شريح القاضي في معضلات المسائل، واشتهر كذلك قتادة ابن دعامة السدوسي الأكمه، وهو عربي الأصل كان يسكن البصرة، وشهرته في التفسير جاءت من تضلعه في اللغة العربية، فكان واسع الاطلاع في الشعر العربي وأيام العرب وأنسابهم، وكان ثقة الا أن بعضهم كان يتخرج من الرواية عنه لخوضه في القضاء والقدر

وفي هذا العصر — أعني عصر التابعين تضخم التفسير بالاسرائيليات والنصرانيات لكثرة من دخل منهم في الاسلام وميل النفوس لسماع التفاصيل عما يشير اليه القرآن من أحداث يهودية ونصرانية، وقد تتبعنا في تفسير ابن جرير كثيراً من الآيات التي وردت عن بني اسرائيل فاذا بطل الرواية فيها وهب بن منبه، وقد ذكرنا قبل انه كان من يهود اليمن وأسلم، فكان يقص ما جاء في كتب اليهود وأحاديثهم من غير تحر دقيق، ومن غير أن تصبغ روايته صبغة علمية، وتساهل المسلمون في أخذهم عنه كما أشار اليه ابن خلدون، لأنه لا يترتب على ما يحكى استنباط لحكم شرعي أو نحوه، كما تتبعنا كثيراً من الآيات التي وردت عن النصارى فاذا كثير مما يرويه الطبري عن ابن جريج، وابن جريج هذا هو عبد الملك ابن عبد العزيز بن جريج، ويقول الذهبي في تذكرة الحفاظ « انه من أصل رومي » فهو نصراني الأصل، ويقول عنه بعض العلماء أنه كان يضع الحديث وانه تزوج تسعين امرأة زواج متعة » ويقال أنه أول من صنف الكتب في الاسلام^(١) وولد سنة ٨٠ وتوفي حول سنة ١٥٠ هـ بعد أن طوف في كثير من البلاد، فقد ولد بمكة ورحل الى البصرة واليمن وبغداد

(١) ابن خلكان جزء ١ ص ٤٠٥

وبعد عصر الصحابة وكبار التابعين أخذ العلماء يؤلفون كتب التفسير على طريقة واحدة ، هي ذكر الآية ونقل ما روى في تفسيرها عن الصحابة والتابعين بالسند ، مثل تفسير سفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح وعبد الرزاق وغيرهم ، ولم تصل إلينا هذه التفسيرات إنما وصل إلينا ما تلا هذه الطبقة ، وأشهرهم ابن جرير الطبري

وبعد فيظهر أن تفسير القرآن كان في كل عصر من العصور متأثراً بالحركة العلمية فيه ، وصورة منعكسة لما في العصر من آراء ونظريات علمية ومذاهب دينية ، من ابن عباس إلى الاستاذ الشيخ محمد عبده ، حتى لتستطيع إذا جمعت التفسيرات التي ألقت في عصر من العصور أن تتبين فيها مقدار الحركة العلمية وأي الآراء كان سائداً شائعاً وأيها غير ذلك وهكذا

فلو تتبعنا ما نقل عن الصحابة وصدر التابعين من تفسير وجدتهم يقتصرون في تفسير الآية على توضيح المعنى اللغوي الذي فهموه من الآية بأخصر لفظ ، مثل قولهم « غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِأُثْمٍ » أي غير متعرض لمعصية ومثل قولهم في قوله تعالى « وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ » كان أهل الجاهلية إذا أراد أحدهم خروجاً أخذ قِدْحاً فقال هذا يأمر بالخروج فان خرج فهو مصيب في سفره خيراً ، ويأخذ قِدْحاً آخر فيقول هذا يأمر بالكموت فليس يصيب في سفره خيراً ، والمنيح بينهما ، فنهى الله عن ذلك — فان زادوا شيئاً فما روى من سبب نزول الآية ثم زاد من بعدهم التوسع في أخبار اليهود والنصارى — ولا تجد في التفسير عن هؤلاء أثراً من الاستنباط العلمي لحكم فقهي ولا انتصاراً لمذهب ديني ، فلما جاء العصر الذي يليه وظهر الكلام في القدر ونحوه رأيت التفسير قد حمل هذه المذاهب ، فأصبح كل يفسر القرآن على مذهبه في الجبر والاختيار وهكذا ، ولما عظمت الحركة الفقهية رأيت المفسرين من

الفقهاء يتعرضون للآيات يذكرون ما يستنبط منها من الأحكام ، وقل مثل ذلك
في قواعد النحو والبلاغة وقواعد الأخلاق

مصادر هذا الفصل

الاتقان في علوم القرآن

المستصفي للغزالي

الموافقات للشاطبي

طبقات المفسرين لحمد بن علي الداوودي المالكي (نسخة خطية في دار الكتب)

كشف الظنون

طبقات ابن سعد

تفسير ابن جرير

مقدمة ابن خلدون

تذكرة الحفاظ للذهبي

ابن خلكان

الفصل الثاني

الحديث

يراد بالسنة أو الحديث ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير ، وبعد عصر الرسول ضم الى الحديث ما ورد عن الصحابة ، فالصحابه كانوا يعاشرون النبي صلى الله عليه وسلم ويسمعون قوله ، ويشاهدون عمله ، ويحدثون بما رأوا وما سمعوا ، وجاء التابعون بعدُ فعاشروا الصحابة وسمعوا منهم ورأوا ما فعلوا ، فكان من الأخبار عن رسول الله وصحابته « الحديث »

للحديث قيمة كبرى في الدين تلى رتبة القرآن ، فكثير من آيات القرآن مجملة أو مطلقة أو عامة فجاء قول رسول الله أو عمله فبيّنها أو قيدها أو خصصها ، فالقرآن مثلاً لم يبين تفاصيل الصلاة إنما أمر بها مجملة وفعل النبي أوضح أوقاتها وكيفياتها ، وحرم القرآن الخمر بقوله تعالى « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه » ولكن ما المراد بالخمر؟ وأى المقادير يحرم ونحو ذلك ؟ كل هذا بينه الحديث

كذلك كانت تعرض لرسول الله حوادث يقضى فيها ، وأسئلة يجيب عنها ومبادلة أخذ وعطاء ، وتصرف في الشؤون السلمية والحربية ، كل هذه كانت أحياناً ينزل فيها قرآن وأحياناً لا ينزل ، وهذا النوع الثانى كالأول مرجع للمشرعين ، فافتضى ذلك جميعه العناية بالحديث

لم يدون الحديث في عهد النبي صلى الله عليه وسلم كما دون القرآن ، فأنا نرى أن رسول الله اتخذ كتبة للوحى يكتبون آيات القرآن عند نزولها ولكنه لم يتخذ

كتبه يكتبون ما ينطق به من غير القرآن ، بل قد وجدنا أحاديث كثيرة تنهى عن تدوين الحديث ، منها ما رواه مسلم في صحيحه « عن أبي سعيد الخدري أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تكتبوا عني ، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه ، وحدثوا عني فلا حرج ، ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » وروى البخاري عن ابن عباس قال « لما اشتد بالنبي صلى الله عليه وسلم وجعه قال اثبتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده ، قال عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم غلبه الوجع وعندنا كتاب الله حسبنا »

نعم وجدت أحاديث تدل على أنه كتبت صحف من الحديث في عهد رسول الله كالذي روى البخاري عن أبي هريرة أن خزاعة قتلوا رجلاً من بني لبيث عام فتح مكة ، بقتيل منهم قتالوه ، فأخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم فركب راحلته فخطب فقال ان الله حبس عن مكة القتلى^(١) وسلط عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون ، وانها لم تحل لأحد قبلي ولم تحل لأحد بعدى ، ألا وانها أحلت لي ساعة من نهار وانها ساعتى هذه ، حرام ، لا يُختلى^(٢) شوكتها ولا يعصده^(٣) شجرها ولا تلتقط ساقطتها الا لمنشد^(٤) فمن قتل له قتيل فهو بخير النظرين اما أن يعقل واما أن يُقاد أهل القتل ، فجاء رجل من أهل اليمن فقال أكتب لي يا رسول الله (يريد أنت يكتب له الخطبة التي سمعها منه) فقال (صلى الله عليه وسلم) اكتبوا لأبي فلان ، وكذلك ما روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص من أنه كان يكتب كل ما سمع من رسول الله

وقد أراد بعض العلماء التوفيق بين هذه الأحاديث المتضاربة فقالوا ان النهي

(١) شك البخاري في أنها القتل أو القيل (٢) لا يقطع
(٣) لا يقطع (٤) أي لمن أراد التعريف عن الساقط

عن الكتابة كان وقت نزول القرآن خشية التباس القرآن بالحديث
على كل حال لم يكن تدوين الحديث شائعاً في هذا العصر ، ولم يوضع له
نظام خاص لتدوينه كالذي وضع للقرآن

نشأ عن هذا أنه كان بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاب مدون
هو القرآن ، وأحاديث غير مدونة تروى عن رسول الله ، وكانت تروى في الغالب
من الذاكرة لا من صحيفة

فكان اذا عرض حادث ليس له حكم في القرآن وعرف بعض الصحابة أنه
حادث نظيره لرسول الله وكان له فيه حكم حدث بذلك الحديث ، وكذلك كانوا
يحدثون بما وقع في عهده من غزوات ومن وعد ووعد ونحو ذلك

وكان بعض الصحابة يكره كثرة الرواية عن رسول الله خشية الكذب عليه
وخشية أن يصددهم ذلك عن القرآن روى القرطبي في كتابه « جامع بيان العلم »
(عن قُرَظَةَ بن كعب قال خرجنا نريد العراق فمشى معنا عمر الى « حرار » فتوضأ
فغسل اثنتين ثم قال أتدرون لم مشيت معكم ؟ قالوا نعم : نحن أصحاب رسول الله
مشيت معنا ، فقال انكم تأتون أهل قرية لهم دَوِيٌّ بالقرآن كدوى النحل فلا
تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم ، جودوا القرآن وأقلوا الرواية عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، امضوا وأنا شريككم ، فلما قدم قرظة قالوا حدثنا قال نهانا عمر بن
الخطاب (بل كان بعض الصحابة كذلك اذا حدث حديثاً عن رسول الله طلب
دليلاً على صحة ما يروى ، كالذي روى الحاكم قال جاءت الجدة الى أبي بكر فقالت
ان لي حقاً في مال ابن ابن مات ، قال ما علمت لك في كتاب الله حقاً ، ولا سمعت
من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه شيئاً ، وسأل فشهد المغيرة بن شعبة
أن رسول الله أعطاهما السدس قال ومن سمع ذلك معك ؟ فشهد محمد بن مسلمة

فأعطاهما أبو بكر السدس، وروى البخارى ومسلم عن أبي سعيد الخدرى قال كنت جالساً فى مجلس من مجالس الأنصار فجاء أبو موسى فزعا فقالوا ما أفرعك ؟ قال « أمرنى عمر أن آتية فأتيته، فاستأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لى ، فرجعت فقال ما منعك أن تأتينا ؟ فقلت انى أتيت فسلمت على بابك ثلاثاً فلم تردوا علىّ فرجعت، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع » قال (عمر) لتأتينى على هذا بالبينة، فقالوا لا يقوم الا أصغر القوم، فقام أبو سعيد معه فشهد له فقال عمر لأبى موسى انى لم أتهمك ولكنه الحديث عن رسول الله — وروى عن على أنه كان يُخلف من حديثه بحديث عن رسول الله

نشأ من عدم تدوين الحديث فى كتاب خاص فى العصور الأولى واكتفاهم بالاعتماد على الذاكرة وصعوبة حصر ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أو فعل فى مدة ثلاثة وعشرين عاماً من بدء الوحي الى الوفاة ، أن استباح قوم لأنفسهم وضع الحديث ونسبته كذباً الى رسول الله ، ويظهر أن هذا الوضع حدث حتى فى عهد الرسول ، فحديث «من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» يغلب على الظن أنه انما قيل لحادثة حدثت زور فيها على الرسول ، وبعد وفاته صلى الله عليه وسلم كان الكذب عليه أسهل، وتحقيق الخبر عنه أصعب، روى مسلم عن ابن عباس انه قال « انا كنا نحدث عن رسول الله اذ لم يكن يُكذَّبُ عليه ، فلما ركب الناس الصعب والذلول تركنا الحديث عنه، وفى حديث آخر أن بشيرا العدوى جاء الى ابن عباس فجعل يحدث ويقول قال رسول الله قال فجعل ابن عباس لا يأذن لحديثه^(١) ولا ينظر اليه ، فقال يا ابن عباس ما لى لا أراك تسمع لحديثى ؟ أحدثك

(١) لا يصنى اليه

عن رسول الله ولا تسمع؟ فقال ابن عباس انا كنا مرة ^(١) اذا سمعنا رجلاً يقول قال رسول الله ابتدرته أبصارنا، وأصغينا إليه بآذاننا، فلما ركب الناس الصعبة والذلول لم نأخذ من الناس الا ما نعرف ^(٢) وروى عن سفيان بن عيينة أن ابن عباس أتى بكتاب فيه قضاء على فمحاء الا قدر ^(٣) وأشار سفيان بذراعه ^(٤) (يريد أن ما في الدرج المستطيل كله كان كذباً على على الا قدر ذراع وان ما محاه ابن عباس انما هو القدر الكاذب — فلما فتحت الفتوح ودخل في الاسلام من لا يحصى كثرة من الأمم المفتوحة من فارسي ورومي وبربري ومصري وسوري وكان من هؤلاء من لم يتجاوز ايمانهم حناجرهم كثر الوضع كثرة مزعجة وسال الوادي حتى طم على القرى (قال ابن عدي لما أخذ عبد الكريم بن أبي العوجاء الوضع لتضرب عنقه قال لقد وضعت فيكم أربعة آلاف حديث أحرم فيها وأحل ^(٥) — وكان عبد الكريم هذا خال معن بن زائدة واتهم بالمانوية ، وكان يضع أحاديث كثيرة بأسانيد يغتر بها من لا معرفة له بالجرح والتعديل ، وتلك الأحاديث التي وضعها كلها ضلالات في التشبيه والتعطيل وفي بعضها تغيير أحكام الشريعة ^(٦) — وحسبك دليلاً على مقدار الوضع أن أحاديث التفسير التي رويها عن احمد بن حنبل أنه لم يصح عنده منها شيء قد جمع فيها آلاف الأحاديث ، وأن البخاري وكتابه يشتمل على نحو سبعة آلاف حديث ، منها نحو ثلاثة آلاف مكررة ، قالوا انه اختارها وصحت عنده من ستمائة ألف حديث كانت متداولة في عصره ، وقال سفيان سمعت جابراً يحدث بنحو من ثلاثين ألف حديث ما أستحل أن أذكر منها شيئاً وان كان لي كذا

(١) زمناً

(٢) صحيح مسلم

(٣) قدر منصوب غير منون معناه محاه الا قدر ذراع والظاهر أن هذا الكتاب كان مدرجاً

مستطيلاً

(٤) صحيح مسلم (٥) شرح مسلم الثبوت (٦) الفرق بين الفرق ص ٢٥٦

وكذا - ويظهر أن بعض الوضاعين لم يكونوا يرون الوضع عن رسول الله نقيصة خلقية ، ولا معرة دينية ، روى مسلم عن محمد بن يحيى بن سعيد القطان عن أبيه قال لم نر الصالحين في شيء أكذب منهم في الحديث ، وفسر مسلم هذا بأنه « يجرى الكذب على لسانهم ولا يتعمدون الكذب » وبعضهم كان سليم النية يجمع كل ما أتاه على أنه صحيح وهو في ذاته صادق فيحدث بما سمع فيأخذه الناس عنه مخدوعين بصدقه ، كالذي قيل في عبد الله بن المبارك ، فقد قيل أنه ثقة صدوق اللسان ولكنه يأخذ عن أقبل وأدبر^(١) وقوم كانوا يتحرون فقط أن يكون الكلام حقاً في ذاته فيستجيزون نسبته إلى رسول الله ، قال خالد بن يزيد سمعت محمد بن سعيد الدمشقي يقول إذا كان كلام حسن لم أر بأساً أن أجعل له اسناداً^(٢) وكان أبو جعفر الهاشمي المديني يضع أحاديث كلام حق^(٣) وقوم جوزوا وضع الحديث في الترغيب والترهيب قال النووي « وقد سلك مسلكهم بعض الجهلة المتسمين بسمّة الزهاد ترغيباً في الخير في زعمهم الباطل »

على كل حال كان الوضع كثيراً ، وقد حمل الوضع على الوضع أمور : أهمها (١) الخصومة السياسية ، فالخصومة بين علي وأبي بكر ، وبين علي ومعاوية وبين عبد الله بن الزبير وعبد الملك ، ثم بين الأمويين والعباسيين ، كل هذه كانت سبباً لوضع كثير من الحديث ، قال ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة « واعلم أن أصل الكذب في حديث الفضائل كان من جهة الشيعة ، فانهم وضعوا في مبدأ الأمر أحاديث مختلفة في صاحبهم ، حملهم على وضعها عداوة خصومهم ، نحو حديث السطل وحديث الرمانة وحديث غزوة البئر التي كان فيها الشياطين . . . وحديث غسل سلمان الفارسي وطى الأرض ، وحديث الجمجمة ونحو ذلك ، فلما رأت البكرية

(١) مسلم (٢) النووي على مسلم ج ١ ص ٣٢ (٣) مسلم

ما صنعت الشيعة وضعت لصاحبها أحاديث في مقابلة هذه الأحاديث نحو « لو كنت متخذاً خليلاً » فانهم وضعوه في مقابلة حديث الأخاء ، ونحو سد الأبواب فانه كان لعل قلبته البكرية الى أبي بكر فلما رأت الشيعة ما قد وضعت البكرية أوسعوا في وضع الأحاديث ، فوضعوا حديث الطوق الحديد الذي زعموا أنه قتله في عنق خالد وحديث الصحيفة التي علقت عام الفتح بالكعبة وأحاديث مكذوبة كثيرة تقتضي نفاق قوم من أكابر الصحابة والتابعين الأولين وكفرهم ، وعلى أدون الطبقات فسقهم ، فقابلتهم البكرية بمطاعن كثيرة في على وفي ولديه ، ونسبوه تارة الى ضعف العقل وتارة الى ضعف السياسة ، وتارة الى حب الدنيا والحرص عليها ، ولقد كان الفريقان في غنية عما اكتسباه واجترحاه ، ولقد كان في فضائل على^(١) الثابتة الصحيحة وفضائل أبي بكر المحققة المعلومة ما يغني عن تكلف العصبية لها) اهـ^(١)

وتلمح أحاديث كثيرة لاتكاد تشك وأنت تقرؤها أنها وضعت لتأييد الامويين . أو العباسيين أو العلويين أو الحط منهم ، كالخبر الذي روى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في معاوية اللهم قه العذاب والحساب ، وعلمه الكتاب ، وكالذي روى أن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان آكل أبي طالب ليسوا لي بأولياء . انما ولي الله وصالح المؤمنين — وقد قال ابن عرفة أن أكثر الأحاديث الموضوعة في فضائل الصحابة افتعلت في أيام بني أمية تقريباً اليهم بما يظنون انهم يرغبون به أنوف بني هاشم

ويتصل بهذا النحو أحاديث وضعها الوضعون في تفضيل القبائل العربية ، ذلك أن هذه القبائل كانت تتنازع الرياسة والفخر والشرف فوجدوا في الأحاديث باباً

(١) شرح ابن أبي الحديد جزء ٣ ص ١٧ باختصار

يَدْخُلُونَ مِنْهُ إِلَى الْمَفَاخِرَةِ كَالَّذِي وَجَدُوهُ فِي الشَّعْرِ ، فَكَمْ مِنَ الْأَحَادِيثِ وَضَعَتْ فِي
فَضْلِ قُرَيْشٍ وَالْأَنْصَارِ وَجُهَيْنَةَ وَمَزِينَةَ وَاسْلَمَ وَغَفَارَ وَالْأَشْعَرِيَّينَ وَالْحَمِيرِيِّينَ
وَكَمْ مِنْ حَدِيثٍ وَضَعَ فِي تَفْضِيلِ الْعَرَبِ عَلَى الْعَجَمِ وَالرُّومِ ، فَقَابِلَهَا هَؤُلَاءِ بِوَضْعِ
أَحَادِيثٍ فِي فَضْلِ الْعَجَمِ وَالرُّومِ وَالْحَبَشَةِ وَالتُّرْكِ^(١)

وَمِثْلُ ذَلِكَ الْعَصْبِيَّةُ لِلْبَلَدِ ، فَلَا تَكَادُ تَجِدُ بَلَدًا كَبِيرًا إِلَّا وَفِيهِ حَدِيثٌ بَلِ
أَحَادِيثُ فِي فَضْلِهِ ، فَهَكَذَا وَالْمَدِينَةُ وَجَبِلُ أُحُدُ وَالْحِجَازُ وَالْيَمَنُ وَالشَّامُ وَبَيْتُ
الْمَقْدِسِ وَمِصْرُ وَفَارِسُ وَغَيْرُهَا كُلُّ ذَلِكَ وَرَدَتْ فِيهِ الْأَحَادِيثُ الْمُتَعَدِّدَةُ فِي فَضْلِهِ
وَعَلَى الْأَجْمَالِ فَالْعَصْبِيَّةُ الْحَزْبِيَّةُ وَالْقَبَلِيَّةُ ، وَالْعَصْبِيَّةُ لِلْمَكَانِ كَانَتْ سَبَبًا مِنْ أَهَمِّ
أَسْبَابِ الْوَضْعِ

(٢) الْخِلَافَاتُ الْكَلَامِيَّةُ وَالْفَقْهِيَّةُ ، فَثَلَا اخْتَلَفَ عُلَمَاءُ الْكَلَامِ فِي الْقَدَرِ أَوْ
الْجَبْرِ وَالْإِخْتِيَارِ ، فَأَجَازَ قَوْمٌ لَأَنْفُسِهِمْ أَنْ يُؤَيِّدُوا مَذْهَبَهُمْ بِأَحَادِيثٍ يَضَعُونَهَا يَنْصُونَ
فِيهَا حَتَّى عَلَى التَّفَاصِيلِ الدَّقِيقَةِ الَّتِي لَيْسَ مِنْ مَسَلِكِ الرَّسُولِ التَّعَرُّضُ لَهَا ، وَحَتَّى
يَنْصُونَ فِيهَا عَلَى اسْمِ الْفِرْقَةِ الْمُنَافِضَةِ لَهُمْ ، بَلِ وَاسْمِ رَأْسِهَا وَلَعْنَهُ وَلَعْنَهُمْ وَكَذَلِكَ فِي الْفَقْهِ
فَلَا تَكَادُ فِرْعَا فُقْهِيًّا مُخْتَلَفًا فِيهِ إِلَّا وَحَدِيثٌ يُؤَيِّدُ هَذَا وَحَدِيثٌ يُؤَيِّدُ ذَاكَ ، حَتَّى مَذْهَبُ
أَبِي حَنِيفَةَ الَّذِي يَذْكُرُ الْعُلَمَاءُ أَنَّهُ لَمْ يَصْحَ عِنْدَهُ إِلَّا أَحَادِيثُ قَلِيلَةٌ قَالَ ابْنُ خَلْدُونِ « أَنَّهَا
سَبْعَةٌ عَشْرَ » مِثْلَتْ كُتُبُهُ بِالْأَحَادِيثِ الَّتِي لَا تَعُدُّ ، وَأَحْيَانًا بِنُصُوصٍ هِيَ أَشْبَهُ مَا يَكُونُ
بِمَتْنِ الْفَقْهِ ، وَيَطُولُ بِنَا الْقَوْلِ لَوْ ذَكَرْنَا أَمْثَلَةً عَلَى هَذَا النِّحْوِ مِنَ الْوَضْعِ فَتُكْتَفَى
هُنَا بِالْإِشَارَةِ إِلَيْهَا

(٣) مُتَابَعَةُ بَعْضٍ مِنْ يَتَسَمَّوْنَ بِسَمَةِ الْعِلْمِ لَهْوَى الْأَمْرَاءِ وَالْخُلَفَاءِ يَضَعُونَ لَهُمْ
مَا يَعْجَبُهُمْ رَغْبَةً فِيمَا فِي أَيْدِيهِمْ ، كَالَّذِي حَكَى عَنْ غِيَاثِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى

(١) انْظُرِ الْأَحَادِيثَ فِي هَذَا الْبَابِ فِي الْجُزْءِ الثَّلَاثِ مِنْ « تَيْسِيرِ الْوُصُولِ »

المهدي بن المنصور وكان يعجبه اللعب بالحمام ، فروى حديثاً لاسبق الا في خوف أو حافر أو جناح ، فأمر له بعشرة آلاف درهم ، فلما قام ليخرج قال المهدي أشهد أن قفاك قفا كذاب على رسول الله ، ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « جناح » ولكنه أراد ليتقرب إلينا (١)

(٤) تساهل بعضهم في باب الفضائل والترغيب والترهيب ونحو ذلك مما لا يترتب عليه تحليل حرام أو تحريم حلال ، واستباحتهم الوضع فيها ، فملئوا كتب الحديث بفضائل الأشخاص حتى من لم يرهم النبي صلى الله عليه وسلم كوهب بن منبه ، وبفضائل آيات القرآن وسوره ، كالذي روى عن أبي عصمة نوح بن أبي مريم أنه وضع أحاديث في فضائل القرآن سورة سورة بعنوان ان من قرأ سورة كذا فله كذا وروى ذلك عن عكرمة عن ابن عباس وتارة يروى عن أبي بن كعب — وهي الأحاديث التي نقلت في تفسير البيضاوي عند ختم كل سورة — فلما سئل من أين هذه الأحاديث ؟ قال لما رأيت اشتغال الناس بفقهاء أبي حنيفة ومغازي محمد بن اسحق وأعرضوا عن حفظ القرآن وضعت هذه الأحاديث حسبة لله تعالى (٢)

ومثل هذا ما ترى في كتب الأخلاق والتصوف من أحاديث في الترغيب والترهيب لا يحصى له عد ، ومن هذا الباب أدخل القصاص في الحديث كثيراً (٥) يخيّل إلى أنه من أهم أسباب الوضع تعالى الناس إذ ذاك في أنهم لا يقبلون من العلم الا على ما اتصل بالكتاب والسنة اتصالاً وثيقاً وماعداً ذلك فليس له قيمة كبيرة ، فأحكام الحلال والحرام اذا كانت مؤسسة على مجرد « الاجتهاد »

(١) شرح مسلم الثبوت جزء ٢ ص ١٥٢

(٢) شرح المسلم جزء ٢ ص ١٢٥

لم يكن لها قيمة ما أسس على الحديث ولا ما يقرب منه بل كثير من العلماء في ذلك العصر كان يرفضها ولا يمنحها أية قيمة ، بل بعضهم كان يشنع على من ينحو هذا النحو ، والحكمة والموعظة الحسنة اذا كانت من أصل هندي أو يوناني أو فارسي أو من شروح من التوراة أو الانجيل لم يؤبه لها ، فحمل ذلك كثيراً من الناس أن يصبغوا هذه الأشياء كلها صبغة دينية حتى يقبلوا عليها ، فوجدوا الحديث هو الباب الوحيد المفتوح على مصراعيه ، فدخلوا منه على الناس ، ولم يتقوا الله فيما صنعوا ، فكان من ذلك أن ترى في الحديث الحكم الفقهي المصنوع والحكمة الهندية والفلسفة الزرادشتية والموعظة الاسرائيلية أو النصرانية

روعت هذه الفوضى في الحديث عن رسول الله جماعة من العلماء الصادقين فنهضوا لتنقية الحديث مما ألمَّ به وتمييز جيده من رديئه ، وسلكوا في ذلك جملة مسالك

منها أنهم طالبوا بأسناد الحديث ، أعنى أن يعينوا رواة الحديث ، فيقول المحدث حدثني فلان عن فلان عن رسول الله أنه قال كذا ، ليتمكنوا بذلك من معرفة قيمة المحدث صدقاً وكذباً ، ولينظروا هل المحدث ينتسب الى بدعة وضع الحديث ترويحاً لها ونحو ذلك جاء في مقدمة صحيح مسلم « عن ابن سيرين قال لم يكونوا يسألون عن الاسناد فلما وقعت الفتنة قال سموا لنا رجالكم فينظر الى أهل السنة فيؤخذ حديثهم ، وينظر الى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم »

ثم أخذوا يشرّحون الرجال فيجرّحون بعضاً ويعدّلون بعضاً « وألزموا أنفسهم الكشف عن معاييب رواة الحديث وناقلي الأخبار »

وأكثر هؤلاء النقاد عدّلوا الصحابة كلهم اجمالاً وتفصيلاً ، فلم يتعرضوا لأحد

منهم بسوء، ولم ينسبوا لأحد منهم كذباً، وقليل منهم أجرى على الصحابة ما أجرى على غيرهم قال الغزالي « والذي عليه سلف الأمة وجاهير الخلف أن عدائهم (أى الصحابة) معلومة بتعديل الله عز وجل إياهم وثنائه عليهم فى كتابه ، فهو معتقدنا فيهم الا أن يثبت بطريق قاطع ارتكاب واحد لفسق مع علمه بذلك ، وذلك مما لا يثبت فلا حاجة لهم الى التعديل . . . وقد زعم قوم أن حالهم كحال غيرهم فى لزوم البحث، وقال قوم حالهم العدالة فى بداية الأمر الى ظهور الحرب والخصومات، ثم تغيرت الحال وسفكت الدماء فلا بد من البحث . . . ثم فسر الصحابي المعنى بهذا بمن كثرت محبته للنبي صلى الله عليه وسلم »^(١)

ويظهر أن الصحابة أنفسهم فى زمنهم كان يضع بعضهم بعضاً موضع النقد وينزلون بعضاً منزلة أسمى من بعض ، فقد رأيت قبل أن منهم من كان اذا روى له حديث طلب من المحدث برهاناً ، بل روى ما هو أكثر من ذلك فقد روى أن أبا هريرة روى حديثاً « من حمل جنازة فليتوضأ » فلم يأخذ ابن عباس بخبره ، وقال لا يلزمنا الوضوء فى حمل عيدان يابسة ، وكذلك روى أنه حدث بحديث جاء فى الصحيحين وهو « متى استيقظ أحدكم من نومه فليغسل يده قبل أن يضعها فى الاناء فان أحدكم لا يدري أين باتت يده » فلم تأخذ به عائشة وقالت كيف نصنع بالمهراس^(٢) وكالذى روى أن فاطمة بنت قيس روت أن زوجها طلق فبت الطلاق فلم يجعل رسول الله لها نفقة وسكنى. وقال لها اعتدى فى بيت ابن أم مكتوم فانه رجل أعمى فردها أمير المؤمنين عمر قائلاً لا نترك كتاب ربنا وسنة نبينا بقول امرأة لا ندري أصدقت أم كذبت حفظت أم نسيت — وقالت لها عائشة ألا

(١) المستصفى جزء ١ ص ١٦٥

(٢) شرح مسلم الثبوت ج ٢ ص ١٧٨ والمهراس هو حجر منقور ضخم لا يقبله الرجال ولا يجركونه لثقله ، يملثونه ماء ويتطهرون منه

تتقين الله الخ^(١) ومثل هذا كثير

على كل حال فالذى جرى عليه العمل من أكثر نقاد الحديث وخاصة المتأخرين أنهم عدلوا كل صحابي ولم يرموا أحداً منهم بكذب ولا وضع انما جرحوا وتقدوا من بعدهم — وقد بدأ الكلام فى الجرح والتعديل من عهد الصحابة ، فقد رويت أقوال فى ذلك عن عبد الله بن عباس وعبادة بن الصامت وأنس ، وكثر القول فى ذلك من التابعين كالشعبي وابن سيرين والحسن البصرى وسعيد بن المسيب ، ثم تتابع القول فيه وكان الاختلاف المذهبي أثر كبير فى التعديل والتجريح ، فأهل السنة يجرحون كثيراً من الشيعة ، حتى أنهم نصوا على أنه لا يصح أن يُروى عن علي مارواه عنه أصحابه وشيعته ، انما يصح أن يُروى مارواه عنه أصحاب عبد الله بن مسعود ، وكذلك كان الشيعة مع أهل السنة ، فكثير منهم لا يثق الا بما رواه الشيعة عن أهل البيت وهكذا ، ونشأ عن هذا أن ما يعدله قوم قد يجرحه آخرون ، قال الذهبي « لم يجتمع اثنان من علماء هذا الشأن على توثيق ضعيف ولا على تضعيف ثقة » ومع ما فى قوله من المبالغة فهو يدلنا على مقدار اختلاف الانظار فى التجريح والتعديل ، ولنضرب لك مثلاً محمد بن اسحق — أكبر مؤرخ فى حوادث الاسلام الأولى — قال فيه قتادة لا يزال فى الناس علم ما عاش محمد بن اسحق ، وقال النسائي ليس بالقوى وقال سفيان ما سمعت احداً يتهم محمد بن اسحاق وقال الدارقطني لا يحتج به وبأبيه ، وقال مالك أشهد أنه كذاب الخ

وقد وضع العلماء للجرح والتعديل قواعد ليس هنا محل ذكرها ولكنهم — والحق يقال — عنوا بنقد الاسناد أكثر مما عنوا بنقد المتن ، فقل أن تظفر منهم بنقد من ناحية أن ما نسب الى النبي صلى الله عليه وسلم لا يتفق والظروف التي

(١) أنظر شرح النووى على مسلم وشرح مسلم الثبوت

قلت فيه ، أو أن الحوادث التاريخية الثابتة تناقضه ، أو أن عبارة الحديث نوع من التعبير الفلسفي يخالف المؤلف في تعبير النبي ، أو أن الحديث أشبه في شروطه وقيوده بمتون الفقه وهكذا ، ولم نظفر منهم في هذا الباب بعشر معشار ما عنوا به من جرح الرجال وتعديلهم ، حتى نرى البخاري نفسه على جليل قدره ودقيق بحثه يثبت أحاديث دلت الحوادث الزمنية والملاحظة التجريبية على أنها غير صحيحة لاقتصاره على نقد الرجال كحديث « لا يبقى على ظهر الأرض بعد مائة سنة نفس منقوسة » وحديث « من اصطبغ كل يوم سبع تمرات من عجوة لم يضره سم ولا سحر ذلك اليوم الى الليل »

كذلك قسموا الحديث بحسب قوته والأخذ به الى أقسام وسموا كل نوع أسما ، فقسموه الى متواتر وآحاد ، فالمتواتر ما رواه جماعة يؤمن من تواطئهم على الكذب عن جماعة كذلك الى رسول الله ، وهذا يفيد العلم . وقد قال قوم أن هذا النوع لم يوجد وعد منه قوم حديث من كذب على متعمداً فليتبوا مقعده النار ، وزاد بعضهم أحاديث لا تتجاوز السبعة ، وأما أحاديث الآحاد فهي غير المتواترة ، وهي لا تفيد العلم عند أكثر الأصوليين والفقهاء ، وإنما يجوز العمل بها عند ترجيح صدقها . وقد قسموا أحاديث الآحاد الى درجات حسب قوتها لا نطيل بذكرها

وقد اختلف الصحابة في الحديث عن رسول الله كثرة وقلة ، وأكثرهم حديثاً أبو هريرة وعائشة أم المؤمنين وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وجابر وأنس بن مالك ، فحديث أبي هريرة ٥٣٧٤ حديثاً ، ولعائشة ٢٢١٠ ولعبد الله بن عمر وأنس بن مالك ما يقرب من مسند عائشة ولكل من جابر بن عبد الله وعبد الله بن عباس أزيد من ١٥٠٠ على حين أنا نجد مثلاً لعمر بن الخطاب ٥٣٧ حديثاً لم يصح منها الا

نحو الحسين^(١) ومما ساعد هؤلاء المكثرين في الحديث طول حياتهم بعد النبي صلى

الله عليه وسلم وكثرة من أخذ عنهم

أما أبو هريرة فيمنى الأصل من قبيلة دوس واسمه عبد الله أو عبد الرحمن ،
ولقب بأبي هريرة لهريرة صغيرة كانت له ، يقول كنت أرعى غنم أهلى وكانت لى

هريرة صغيرة فكنت أضعها بالليل فى شجرة فاذا كان النهار ذهبت بها معى فلببت
بها فكنونى أبا هريرة^(٢) أسلم فى السنة السابعة من الهجرة ولازم النبى صلى الله

عليه وسلم ، وقد استعمله عمر بن الخطاب على البحرين ثم عزله ثم أراد على العمل

فامتنع وكان يسكن المدينة وتوفى بها نحو سنة ٥٧ هـ

ويقول ابن قتيبة فى كتابه «المعارف» أن أبا هريرة قال « نشأت يتيما وهاجرت

مسكيناً ، وكنت أجيراً لبصرة بنت غزوان بطعام بطنى وعقبة رجلى ، فكنت أخدم

إذا نزلوا ، وأحدوا إذا ركبوا فزوجنيها الله فالحمد لله الذى جعل الدين قواماً وجعل

أبا هريرة اماماً » وروى ابن قتيبة أيضاً أن أبا هريرة كان مزاحاً وحكى له شيئاً

من ملحه^(٣)

وكان كما قلنا أكثر الناس حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان

لا يكتب ، فكان يعتمد فى روايته على ذاكرته ، ويظهر أنه لم يكن يقتصر على ما سمع

من رسول الله بل يحدث عن رسول الله بما أخبره به غيره فقد روى مرة أن رسول

الله قال « من أصبح جنباً فلا صوم له » فأنكرت ذلك عائشة وقالت كان رسول الله

يدركه الفجر فى رمضان وهو جنب من غير احتلام فيغتسل ويصوم ، فلما ذكر ذلك

(١) ابن حزم فى الملل والنحل جزء ٤ ص ١٣٨

(٢) أسد الغابة

(٣) المعارف ص ٩٤

لأبي هريرة قال انها أعلم مني، وأنا لم أسمع من النبي صلى الله عليه وسلم وسمعت من الفضل بن عباس^(١)

وقد أكثر بعض الصحابة من تقده على الأكثر من الحديث عن رسول الله وشكوا فيه، كما يدل على ذلك ما روى مسلم في صحيحه أن أبا هريرة قال انكم تزعمون أن أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله - والله الموعِد^(٢) - كنت رجلاً مسكيناً أخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ملء بطني وكان المهاجرون يشغلهم الصفق بالأسواق^(٣) وكانت الأنصار يشغلهم القيام على أموالهم - وفي حديث آخر في مسلم أيضاً أن أبا هريرة قال يقولون أن أبا هريرة قد أكثر - والله الموعِد - ويقولون ما بال المهاجرين والأنصار لا يتحدثون مثل أحاديثه، وسأخبركم عن ذلك، ان اخواني من الأنصار كان يشغلهم عمل أرضهم، وأما اخواني من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق، وكنت ألزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ملء بطني فأشهد اذا غابوا وأحفظ اذا نسوا

والحنفية يتركون حديثه أحياناً اذا عارض القياس، كما فعلوا في حديث المَصْرَاة^(٤) فقد روى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا تُصِرُّوا الابل والغنم، من ابتاعها بعد ذلك فهو بخير النظرين بعد أن يحلبها، فان رضيها أمسكها وان سخطها ردها وصاعاً من تمر » قالوا (أبو هريرة غير فقيه، وهذا الحديث مخالف للاقيسة بأسرها، فان حلب اللبن تعدى، وضمان التعدي يكون بالمثل أو القيمة،

(١) مسلم الثبوت وشرحه جزء ٢٠ ص ١٧٥

(٢) أي يحاسبني ان تعمدت كذباً ويحاسب من ظن السوء بي

(٣) أي التبايع والعمل في التجارة

(٤) المصرة الناقة أو البقرة يجمع اللبن في ضرعها ويحبس ولا تحلب أياماً لأيهام المشتري أنها

والصاع من التمر ليس بواحد منهما)

وقد انتهر الوضع فرصة اكثاره فزوروا عليه احاديث لا تعد

وأما عائشة أم المؤمنين فكانت أحب أزواج النبي اليه ، بنى بها بعد الهجرة بستة أشهر أوسبعة ، وظلت معه طول مدته بالمدينة ، وتوفي النبي عنها وهي بنت ثمان عشرة سنة ، واشتركت في الحياة السياسية بعد وفاته ، فنقدت عثمان وحاربت علياً وكانت كما يفهم من سيرتها تتوقد ذكاء ، تعلمت القراءة وعرفت كثيراً من الأدب الجاهلي وكان لها بين الصحابة منزلة عالية يستشيرونها في مسائل دينية وقضائية — وقد مكنها ذكاؤها وخلطتها بالنبي صلى الله عليه وسلم أن تروى عنه كثيراً ، خصوصاً فيما يتعلق بشؤونه البيتية التي لم يتيسر للصحابة الاطلاع عليها وتوفيت سنة ٥٨ هـ ويطول بنا القول لو ترجمنا للباقيين ، وقد تقدم طرف من أخبار كثير منهم عند

الكلام على مراكز الحياة العقلية

كان لهؤلاء الصحابة تلاميذ يختصون بهم ويروون عنهم ، وتكونت على مر العصور سلاسل من المحدثين فضل علماء الحديث بعضها على بعض ، فأصح أسانيد أبي بكر اسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عن أبي بكر ، وأصح أسانيد عمر الزهري عن سالم عن أبيه عن جده (وهو عمر) وأصح أسانيد أبي هريرة الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة ، وأصح أسانيد عائشة عبيد الله بن عمر عن القاسم عن عائشة وهكذا

مضى القرن الأول الهجري جميعه ولم يجعل أحد من الخلفاء للحديث صبغة رسمية ، أغنى أن يعهد الى جمع من الصحابة أو كبار التابعين أن يستوثقوا مما في أيدي الناس من الحديث ويجمعوا ماصح عندهم منه ويكتبوه في كتاب ويرسلوا

نسخاً منه الى الأمصار كما فعلوا في المصحف، ويمنعوا الناس عن أن يحدثوا بغير ما فيه، ولعله خطر لبعضهم لذلك ولكن رأى هذا العمل في منتهى الصعوبة، فانهم يروون أن رسول الله قبض وعدد الصحابة الذين سمعوا منه ورووا عنه ١١٤٠٠٠ كل منهم عنده الحديث والحديثان والأكثر، وقد حدث النبي قوما بما لم يحدث به آخرين، ووقع من الحوادث أمام قوم ما لم يره آخرون وقد تفرق الصحابة في مختلف الأمصار، فجمع الحديث يقتضى استعراض هؤلاء جميعاً واستماع قولهم وتدوين حديثهم، وذلك مطلب عسير المنال، وأيضاً لو فعل هذا فكيف يقص الصحابي جميع ما سمع ورأى، وهو إنما يعتمد في ذلك على ذاكرته وإنما يذكر بالمناسبات، الى غير ذلك من أسباب تكاد تحيل هذا العمل، ومع هذا يظهر لنا مما حدث بعد من فوضى الحديث أن لو كان قد اقتصر على تدوين ما عرفه كبار الصحابة وجمع ومنع الناس أن يحدثوا بغير ما فيه لكان خيراً للمسلمين

ويظهر أن هذه الفكرة التي ذكرنا عرضت لعمر بن الخطاب فقد روى عن الزهري قال أخبرني عروة بن الزبير أن عمر بن الخطاب أراد أن يكتب السنن، واستشار فيه أصحاب رسول الله فأشار عليه عامتهم بذلك، فلبث شهراً يستخير الله في ذلك شاكاً فيه، ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له، فقال انى كنت ذكرت لكم من كتابة السنن ما قد علمتم ثم ذكرت فاذا أناس من أهل الكتاب من قبلكم قد كتبوا مع كتاب الله كتباً فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله، وانى والله لا ألبس كتاب الله بشئ.

وعرضت بعد لعمر بن العزيز في الموطن أن عمر بن عبد العزيز كتب الى أبي بكر ابن محمد بن عمرو بن حزم أن انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أو سنته فاكتبه فانى خفت دروس العلم وذهاب العلماء، وأخرج أبو نعيم في تاريخ

أصبهان عن عمر بن عبد العزيز أنه كتب الى أهل الآفاق أنظروا الى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجمعوه

ولكننا لم نر لأمره هذا أثراً فلعله عوجل عنه ولم يأبه لذلك من خلفه ، ولما جاء أبو جعفر المنصور عاودته هذه الفكرة ، فابن سعد في الطبقات يروى عن مالك بن أنس (قال لما حج المنصور قال لى : قد عزمت على أن أمر بكتبتك هذه التى وضعها فتنسخ ، ثم أبعث الى كل مصر من أمصار المسلمين منها نسخة ، وأمرهم أن يعملوا بما فيها ولا يتعدوه الى غيره ، فقلت يا أمير المؤمنين لا تفعل هذا ، فان الناس قد سبقت اليهم أقاويل وسمعوا أحاديث ورووا روايات ، وأخذ كل قوم بما سبق اليهم ، ودانوا به ، فدع الناس وما اختار أهل كل بلد منهم لانفسهم) بل يظهر أن النية لم تكن متجهة فقط الى جمع الحديث فى كتاب وحمل الناس عليه وترك ماعداه بل كانت متجهة أيضاً الى أن يكون فى كتب الامام مالك أساس لقانون واحد اسلامى عام تحكم به المملكة الاسلامية ، ويتخذ صبغة رسمية ، ويتطور بتطور الزمان — ولعل هذا المعنى يزداد وضوحاً بما روى فى كتاب الحلية عن مالك بن أنس قال شاورنى هارون الرشيد فى أن يعلق الموطأ فى الكعبة ويحمل الناس على ما فيه فقلت لا تفعل ، فان أصحاب رسول الله اختلفوا فى الفروع وتفرقوا فى البلدان وكل مصيب

على كل حال مضى العصر الأول ولم يكن تدوين الحديث شائعاً ، انما كانوا يروونه شفاهاً وحفظاً ، ومن كان يدون فانما يدون لنفسه

وفى القرن الثانى بدأت جماعة فى الأمصار المختلفة تجمع الحديث لا بالمعنى الذى ذكرنا قبل ، ولكن بمعنى أن كل عالم جمع الأحاديث الذى رويت له وصحت عنده . قال ابن حجر فى شرح البخارى « وأول من جمع ذلك الربيع بن صبيح (المتوفى سنة ١٦٠ هـ) وسعيد بن أبى عروبة (سنة ١٥٦) الى أن انتهى الأمر الى كبار

الطبقة الثالثة وصنف الامام مالك الموطأ بالمدينة وعبد الملك بن جريج بمكة والأوزاعي بالشام وسفيان الثوري بالكوفة وحماة بن سلمة بن دينار بالبصرة ، ثم تلاهم كثير من الائمة في التصنيف كل على حسب ما سنع له وانتهى اليه علمه « فمنها ما رتب حسب أبواب الفقه كالموطأ والبخارى ومسلم ، ومنها ما رتب حسب الرواة فيجمع ما روى أبو هريرة مثلاً ثم ما روى أنس بن مالك وهكذا كمسند الامام احمد ولا نتعرض لوصف هذه الكتب فانها ألقت بعد عصرنا الذي نؤرخه

وبعد فقد كان للحديث — سواء منه ما كان صحيحاً أو موضوعاً — أكبر الأثر في نشر الثقافة في العالم الاسلامي ، فقد أقبل الناس عليه يتدارسون اقبالا عظيماً ، وكانت حركة الأمصار العلمية تكاد تدور عليه ، وكل علماء الصحابة والتابعين كانت شهرتهم العلمية مؤسسة على التفسير والحديث — والحديث كان أوسع دائرة — وسبب حرص الناس على رواية الحديث رحلة العلماء الى أقاصى المملكة وطوافهم في البلدان يأخذ بعضهم عن بعض ، فكان من ذلك تبادل الآراء العلمية ووقوف كل علماء مصر على ما عند الآخرين حتى لتكاد الحركة العلمية تُوحَّد — روى احمد أن جابر بن عبد الله الأنصارى بلغه عن عبد الله بن أنيس الجهني حديثاً سمعه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاشترى بغيراً ثم شد رحله وسار اليه شهراً حتى قدم عليه الشام وسمعه منه^(١) ولا تكاد تقرأ ترجمة كبير من المحدثين الا وجزء عظيم من حياته يتضمن رحلته — أضف الى ذلك ما كان بينهم من مراسل ، فمالك بن أنس في المدينة يكتب الى الليث بن سعد في مصر والليث يرد عليه ويتبادلان الحجاج في الحديث والفقه وهكذا

(١) القسطلاني جزء ١ ص ٢٠٦

عن طريق الحديث هذا انتشرت في العالم الاسلامي أنواع من الثقافة عدة ،
فالتاريخ الاسلامي بدأ بشكل حديث كالذي ترى في كتب الحديث من مغاز
وفضائل أشخاص وفضائل أمم ، ثم تطور الى أن صار التاريخ كتباً قائمة بنفسها ، ودليلنا
على ذلك أن كتب التاريخ الأولى كسيرة بن هشام وما يروى ابن جرير عن ابن
اسحاق والبلاذري في فتوح البلدان يكاد يكون نمطها وأسلوبها نمط حديث
وأسلوب حديث — وقصص الانبياء وما اليهم جاءت في القرآن وتوسع فيها الحديث
ثم توسع القصص فكان القصص — والحكم وقواعد الأخلاق وشيء من فلسفة
اليونان والهند والفرس وضعت في الحديث وضعاً وانتشرت بين الناس على أنها
دين ، فكان لها من الأثر في الناس ما ليس للتعاليم الدنيوية ، وفوق ذلك كانت
الحديث أوسع منبع للتشريع في العبادات والمسائل المدنية والجنائية ، وغير ذلك
مما يطول شرحه

وعلى الجملة فقد كان الحديث أوسع مادة للعلم والثقافة في ذلك العصر

أهم مصادر هذا الباب

فتح الباري على البخاري
القسطلاني على البخاري
مسلم وشرح النووي عليه
تيسير الوصول الى جامع الأصول
المستصفي للغزالي
شرح مسلم الثبوت
المواقفات للشاطبي

أسد الغابة لابن الأثير

الاصابة لابن حجر

المعارف لابن قتيبة

ميزان الاعتدال للذهبي

طبقات ابن سعد

مقدمة ابن خلدون

الملل والنحل لابن حزم

مسند الامام احمد

دائرة المعارف الاسلامية في مادة «حديث»

شرح ابن أبي الحديد على نهج البلاغة

جامع بيان العلم وفضله للقرطبي



الفصل الثالث

التشريع

كان عرب الحجاز — في الجاهلية كما رأيت — بدوا أو شبه بدو ، فلم تكن لهم حكومة منظمة ، ولا ملوك يمنعون من تعدى بعضهم على بعض بما لهم من قوة تنفيذية ، انما كانوا قبائل ، اذا كثرت عددها انقسموا الى بطون وأفخاذ وعشائر ، والرابطة بين أفراد القبائل هي رابطة الدم ، فكل من كانوا من دم واحد — ولو في زعمهم — عدّوا كتلة واحدة ، لأفرادها الحق في التمتع بحمايتها ، والاستصراخ بها ، وعليها أن تدافع عنه ، وتطالب بدمه ، وعليه الذود عنها ، والخضوع لعرفها ودينها — وكان لكل قبيلة شيخ هو صاحب السيادة على أفراد القبيلة ، مكنته من هذه السيادة ولادته من بيت الرياسة أو سنه وحكمته ، وهو الذي يمثلها في علاقاتها الخارجية بالقبائل الأخرى ، وانما كان يستمد قوته ونفوذه من الرأي العام لقبيلته ، لا بماله من جيش وجنود ونحو ذلك

وكان لكل قبيلة عرف وتقاليد تشترك أحيانا في أمور وتختلف في أخرى ، تبعا لبعدها عن البداوة وقربها منها — وكانت للقبيلة حاكم يحكم بين من تنازع منهم حسب تقاليدهم وتجاربهم ، فالأغاني يقول في أكرم بن صَيْفِيّ « أنه كان قاضي العرب يومئذ » والميداني يقول في عامر بن الظرب « كان من حكماء العرب ، لا تعدل بفهمه فهما ، ولا بحكمه حكما » ولو تتبعنا كتب الأدب لرأينا فيها أن العرب كانوا تارة يتحاكمون الى شيخ القبيلة ، وتارة الى الكاهن ، وتارة الى من عرف بجودة الرأي واصالة الحكم ، ومن الصعب وضع حدود فاصلة

لاختصاص كلِّ ، بل مما نشك فيه كثيراً أنه كان هناك حدود فاصلة في الواقع هؤلاء الحكم لم يكونوا يحكمون بقانون مدون ، ولا قواعد معروفة ، إنما يرجعون الى عرفهم وتقاليدهم التي كوتتها تجاربهم أحياناً ، ومعتقداتهم أحياناً ، وما وصل اليهم عن طريق اليهودية أحياناً ، ولم يكن لهذا القانون الجاهلي المؤسس على العرف والتقاليد جزاء ، ولا المتخاصمون ملزمون بالتحاكم اليه والخضوع لحكمه ، فان تحاكموا اليه فيها والا لا ، وان صدر الحكم أطاعه ان شاء ، وان لم يطعه فلا شيء أكثر من أن يحل عليه غضب القبيلة

وقد روت لنا كتب الأدب كثيراً من قضاياهم في الخصومات الأدبية ، وهي أن يتنازع سيدان أيهما أسود فيتحاكمان الى حكم ، فمن حكم له كان الفضل والشرف له ولعشيرته ، والنل والعار للمنفور ، وهذه القصص تدلنا على أن هؤلاء الحكم كانوا من قبيل ما نسميهم بالمحكمين ، فلم يكن لهم سلطة مستمدة من الحكومة ، اذ لا حكومة لهم تدمهم بالسلطان ، ولا الخصوم ملزمون بالتقاضى أمامهم وكل ما في الأمر أن الرجل اذا عرف بسداد الرأي وصحة الحكم وسعة العلم بوقائعهم^{٢١} ونسبهم نصبوه حكماً — وروى لنا البخارى قضية جنائية حدثت قبيل الاسلام^(١) فقد روى أن رجلاً من بني هاشم استأجره رجل من قريش من فخذ أخرى ، فانطلق معه في أبله ، فمر به رجل من بني هاشم — وقد انقطعت عروة جوالقه ، فقال أغثنى بعقال أشد به عروة جوالقي لا تنفر الابل ، فأعطاه عقلاً فشدَّ به ، فلما نزلوا عقلت الابل الا بعيراً واحداً ، فقال الذي استأجره : ما بال هذا البعير لم يعقل ؟ فقال ليس له عقال ، فقال فأين عقاله ؟ وحذفه بعصا كان فيها أجله ، فمر به (بالمقتول) رجل من أهل اليمن قال . . . فهل أنت مبلغ عنى رسالة مرة من

الدهر؟ قال نعم، قال اذا شهدت الموسم فناد يا لقریش، فاذا أجابوك فناديا لبني هاشم، فاذا أجابوك فاسأل عن أبي طالب، فأخبره أن فلاناً قتلني في عقال، ومات المستأجر، فلما قدم الذي استأجره أتاه أبو طالب فقال ما فعل صاحبنا؟ قال مرض فأحسنتم القيام عليه ووليت دفنه، قال قد كانت أهل ذلك منك، فمكث حيناً، ثم ان الرجل الذي أوصى اليه وافي الموسم . . . حتى جاء أبا طالب، قال أمرني فلان أن أبلغك رسالة: ان فلاناً قتله في عقال فأتاه (المستأجر) أبو طالب، فقال اختر منّا احدي ثلاث، ان شئت أن تؤدى مائة من الابل، فانك قتلت صاحبنا، وان شئت حلف خمسون من قومك انك لم تقتله، فان أبيت قتلناك به الخ الحديث

وهذه القصة تدلنا على أنواع كثيرة من النظام القضائي عندهم ويظهر أن مكة قبيل الاسلام بلغت شيئاً من الرقي في نظامها الحكومي، يومنه القضاء، كما يدلنا على ذلك ما روى من توزيع الأعمال على عشرة رجال من عشرة أبطن^(١) كالْحِجَابَةِ وَالسَّقَايَةِ وَالرَّفَادَةَ وَالنَّدْوَةَ وَاللَّوَاءَ، وكان من هذه الأعمال شيء يتعلق بالقضاء عهد به الى أبي بكر في الجاهلية، فقد ذكروا أنه عهد اليه بالأشئاق، وهى الديات والمغارم، ويدلنا على ذلك أيضاً ما روى لنا من اجتماع قریش على حلف الفضول، فقد تحالفوا على ألا يظلم بمكة غريب ولا قريب ولا حر ولا عبد الا كانوا معه حتى يأخذوا له بحقه، ويؤدوا اليه مظلمته، من أنفسهم ومن غيرهم

كذلك كان التشريع في المدينة قبل الاسلام راقياً رقيقاً نسبياً، لا اختلاط العرب فيها باليهود، وكان عندهم من التوراة وشروحها كثير من الأحكام، وكانوا

(١) انظر ذلك في العقد الفريد

خاضعين في شؤونهم للقانون اليهودي

وقد تعرض الاسلام للقانون الجاهلي وبعبارة أخرى لعرف العرب وتقاليدهم في الجاهلية ، فأقر بعضاً وأنكر بعضاً ، وعدّل بعضاً ، مثال ما أقره القسامة وهي التي حكينا عن البخاري قصتها من قبل ، فقد أخرج مسلم والنسائي عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن رسول الله أقر القسامة على ما كانت عليه في الجاهلية ، وقضى بها بين ناس من الأنصار في قتل ادعوه على يهود خيبر (١) — وعدّل الاسلام بعض شريعة الجاهلية في الحج والزواج والطلاق والمهر والخلع والأيلاء ، وألغى نظام التبني المعروف كان في الجاهلية ، كما ألغى البيع بالقاء الحجر والملازمة والمنابذة ، ويطول بنا القول لو ذكرنا ما يروى من هذه النظم في الجاهلية وما أدخلها عليه الاسلام من تعديل أو إلغاء.

جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقام بمكة نحو ثلاث عشرة سنة ؛ ثم أقام بالمدينة نحو عشرين سنة ، وهذا العصر أعنى العصر الذي عاش فيه النبي صلى الله عليه وسلم بعد الرسالة هو عصر التشريع حقاً ، ففيه كان ينزل القرآن بالأحكام ، وتصدر عنه الأحاديث مبينة لما يعرض من الحوادث . وهذان المصدران — الكتاب والسنة — هما أعظم مصادر التشريع الاسلامي

القرآن : نزل القرآن — كما رأيت — منجماً في نحو ثلاث وعشرين سنة ، منه ما نزل بمكة ويبلغ نحو ثلثي القرآن ، ومنه ما نزل بالمدينة ويبلغ نحو الثلث ، ونحن اذا تتبعنا الآيات المكية نجد أنها لا تكاد تتعرض لشيء من التشريع في المسائل المدنية والأحوال الشخصية والجنائية ، انما تقتصر على بيان أصول الدين

(١) تيسير الوصول ج ٣ ص ٢٠١

والدعوة اليها ، كالايمان بالله ورسوله واليوم الآخر ، والأمر بمكارم الأخلاق كالعدل والأحسان ، والوفاء بالوعد ، وأخذ العفو ، والخوف من الله وحده ، والشكر ، وتجنب مساوئ الأخلاق ، كالزنا والقتل وواد البنات والتطفيف في الكيل والميزان ، والنهي عن كل ما هو كفر أو تابع للكفر ، حتى ما شرع في مكة من عبادات كالصلاة والزكاة لم يكن على التفصيل والبيان الذي عرف في المدينة ، فالزكاة في مكة كانت بمعنى الصدقة والاتفاق في سبل الخير من غير أن يحدد لها جزء معين ولا نظام خاص ، وكذلك الصلاة ، إنما أمر المسلمون أول أمرهم بنوع من الصلاة لم يحدد بانه خمس في اليوم وهكذا — ولعل أوضح ما يبين التعاليم التي كان يدعو اليها الاسلام في مكة سورة الأنعام المكية

أما التشريع في الأمور المدنية من بيع واجارة وربا ونحو ذلك ، والجنائية من قتل وسرقة ، والأحوال الشخصية من زواج وطلاق ، فكل ذلك كان بعد أن هاجر النبي صلى الله عليه وسلم الى المدينة ، ولعل خير ما يوضح هذا النوع من التشريع سورتا البقرة والنساء المدينتان — والعلة في ذلك واضحة ، فان أصول الدين وهي التي جاء بها التشريع المكي مقدمة في الأهمية وفي المنطق على أصول الأحكام التي جاء بها التشريع المدني — وأيضاً ، فان الأحكام هي أشبه ما تكون بقوانين الدولة ، وهي إنما توضع بعد تكون الدولة وقرارها ، ولم يكن الحال كذلك الا في المدينة ، أما في مكة فقد تقضى زمن النبي صلى الله عليه وسلم بها في دعوة الناس الى الدين الجديد ، ولم يدخل فيه في السنوات الأولى الا العدد القليل

وهذه الآيات القانونية أو كما يسميها الفقهاء آيات الأحكام ليست كثيرة في القرآن ، ففي القرآن نحو ستة آلاف آية ، ليس منها مما يتعلق بالأحكام الا نحو مائتين ، وحتى بعض ما عده الفقهاء آيات أحكام لا يظهر أنها كذلك ، وليس

عدها من آيات الأحكام الاتغالياً في الاستنتاج لايساعد عليه سياق الآيات ، وذلك كاستنتاج أن لفظ « أشهد » من ألفاظ اليمين من قوله تعالى « إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً » وكاستنتاج حرمة لحم الخيل والبغال والحمير من قوله تعالى « وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » واستنتاج وجوب الأضحية من قوله تعالى « إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر » الى كثير من أمثال ذلك

وترتيب القرآن توقيفى ، لم يراع فيه تاريخ النزول ، ولا اتحاد الموضوع ، لذلك لا ترى الآيات القانونية قد جمعت فى موضع واحد ، ولا الآيات المتعلقة بموضوع واحد فى مقام واحد أو مقامين الانداراً ، كآيات المواريث وآيات الطلاق والسبب فى ذلك على ما يظهر أن القصد الأول للقرآن تأسيس أركان الدين ، والدعوة الى التوحيد ، وتهذيب النفوس ووضع مبادئ للاخلاق ، فأما القصد التشريعى فىللى هذا ، ومن ثم كان كثير من آيات التشريع وارداً فى سياق القصد الأول ، وعلى أسلوب الدعوة والهداية لا على الاسلوب القانونى المؤلف مثل « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ . وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَلَى رِسُولِنَا الْبَلَغُ الْمُبِينُ »

وكان التشريع أكثر ما يكون بمناسبة حوادث تحدث ، فيتحاكم فيها المتخاصمون الى الرسول ، فتنزل الآية أو الآيات ناطقة بالحكم ، مثل ما روى أن

رجلا من غطفان كان عنده مال كثير لابن أخ له يتيم ، فلما بلغ اليتيم طلب المال فمنعه عمه ، فترافعا الى النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت « وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ الْآيَةُ » وكالذى روى أن أهل المدينة فى الجاهلية وفى أول الاسلام كانوا اذا مات الرجل وله امرأة جاء ابنه من غيرها أو قرابته من عصبته فألقى ثوبه على تلك المرأة فصار أحق بها من نفسها ومن غيره ، فان شاء أن يتزوجها تزوجها بغير صداق الا الصداق الذى أصدقها الميت ، وان شاء زوجها غيره وأخذ صداقها ولم يعطها شيئا وان شاء عضلها وضارها لتفتدى منه بما ورثت من الميت ، أو تموت هى فيرثها ، فتوفى أبو قيس بن الأسلت الأنصارى وترك امرأته كُبَيْشَةَ ^(١) فقام ابن له من غيرها فطرح ثوبه عليها ، فورث نكاحها ، ثم تركها فلم يقربها ولم ينفق عليها ، يضارها لتفتدى منه بما لها فأتمت كُبَيْشَةَ الى رسول الله وقصت قصتها ؛ فقال لها رسول الله اقعدى حتى يأتى فيك أمر الله ، فانصرفت وسمعت بذلك نساء المدينة فأتين رسول الله ، وقلن ما نحن الا كُبَيْشَةُ فأنزل الله « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِيَتَذَهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْنَهُنَّ » الْآيَةُ ^(٢)

وأحيانا تحدث حادثة جزئية تستدعى نزول آيات تبين أحكام الموضوع كله ، كآيتى الميراث « يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ » الْآيَةُ ولعلك لمحت معنى مما ذكرت من حادثة كُبَيْشَةَ أن الناس حتى فى المدينة كانوا

(١) ترد فى بعض الكتب « كبشة » وفى بعضها « كبشة » وهما اسمان لها كما فى الإصابة لابن حجر

(٢) تجدهذا وكثيرا مثله فى أسباب النزول للواحدي النيسابورى

يسرون فيما لم يرد فيه حكم اسلامي على المؤلف عندهم في الجاهلية حتى يغيره الاسلام
أو يقره ، بل قد روى لنا أن بعض من ينتسب الى الاسلام في العهد الأول بالمدينة
كان يريد أن يسير على النمط الجاهلي في التقاضي وفي الحكم ، فقد جاء في الطبري
أن رجلاً من الأنصار يقال له قيس ورجلاً من اليهود تخاصما فتنافرا الى كاهن بالمدينة
ليحكم بينهما ، وتركاه نبي الله صلى الله عليه وسلم ، وكان اليهودي يدعو الى نبي
الله وقد علم أنه لن يجور عليه ، وجعل الانصاري يأبى عليه وهو يزعم أنه مسلم ،
ويدعوه الى الكاهن ، فأنزل الله تعالى « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا
بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ
وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا » الى
أن يقول « فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي شَجَرِ بَيْنِهِمْ ثُمَّ
لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » وفي موضع آخر
« أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ »
ولعل هذه الآيات هي أول ما نبه الى وجوب رجوع المسلمين في تقاضيتهم الى
أحكام الاسلام

ويمكننا أن نقول أن آيات الاحكام بالمدينة كانت تنزل حسب تطور جماعة المسلمين
بالمدينة ، ولو وقفنا على تاريخ نزول آيات الاحكام بها وتتبعنا تسلسل الآيات تبعاً
لتسلسل الحوادث لفهمنا أصدق فهم حالة المسلمين الاجتماعية وتدرجها في الرقي ، وفهمنا
بحق مجمل الآيات ومفصلها ، ومطلقها ومقيدها ، ولعل هذا المعنى هو الذي يرمى اليه
« الشاطبي » في كتابه « الموافقات » من قوله « المدنى من السور ينبغى أن يكون منزلاً
في الفهم على المكي وكذلك المكي بعضه مع بعض ، على حسب ترتيبه في التنزيل الخ ^(١)

— فالدعوة السلمية في مكة ثم تشريع الحرب والجهاد في أول عهد الاسلام بالمدينة ، ثم التوسع في أحكام الحرب بعد ذلك ، والأمر بالزكاة على وجه عام ليس فيه تقدير ما في مكة ، ثم تحديد القدر و بيان مصارف الزكاة في المدينة ، كل هذا — ونحوه كثير — كان تابعا لنمو جماعة المسلمين ورفقهم ، فكان التشريع ينزل طبقا لحالتهم ، وقل مثل ذلك فيما ورد من آيات مُسَالِمة لليهود أول الأمر ، ثم آيات شدة وحرب لما ناصب اليهود المسلمين العداء وهكذا ، بل ترك الاسلام الناس يأتون بعبادات جاهلية لا يحبها كالحجر استدراجا لهم وتأليفا لقلوبهم حتى اذا نضجوا وأصبح من الممكن تنفيذ الأمر والنهي أمر ونهى

وهذا التدرج ومراعاة حال جماعة المسلمين هي التي تفسر لنا العلة في تشريع النسخ ، وهو أداة لا بد منها في القوانين الالهية والوضعية ، يقول الله تعالى « مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا » ويقول « وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » ويقول الطبري في تفسير النسخ « أَنْ يُحَوَّلَ الْحَرَامُ حَلَالًا ، وَالْحَلَالُ حَرَامًا ، وَالْمُبَاحُ مُحْظُورًا ، وَالْمُحْظُورُ مَبَاحًا » وعللوا جواز النسخ بأن المصلحة قد تختلف باختلاف الأوقات ، وقد حدث ذلك فعلا في الشريعة الاسلامية ، فقد أمرت المرأة أن تعتد حولا اذا مات عنها زوجها « وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ » ثم نسخ باعتدادهما أربعة أشهر وعشرًا في قوله تعالى « وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا » وحصل مثل ذلك في الحديث « كُنتَ نَهَيْتُكُمْ عَنْ ادْخَارِ لَحُومِ الْأَضَاحِيِّ فَالآنَ ادْخُرُوهَا » و « كُنتَ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا »

وقد لاحظ الشاطبي — بحق — أن التشريع المكي قل أن يتعرض للنسخ ،

والعلة في ذلك ما علمنا أن التشريع المكي إنما يتعرض لأصول الدين من توحيد وترك أوثان ودعوة الى مكارم الأخلاق وهذه غير معقول فيها نسخ ، إنما يحصل النسخ أحياناً للأحكام الدينية التفصيلية ، وذلك كان في المدينة

تعرض القرآن في آيات الأحكام الى جميع أنواع ما يصدر عن الانسان من أعمال ، الى العبادات من صلاة وصوم وزكاة وحج ، الى الأمور المدنية كبيع وإجارة وربا ، الى الأمور الجنائية من قتل وسرقة وزنى وقطع طريق ، الى نظام الأسرة من زواج وطلاق وميراث ، الى الشؤون الدولية كالقتال وعلاقة المسلمين بالمحاربين وما بينهم من عهود وغنائم الحرب — وهو في هذا كله لا يتعرض كثيراً للتفاصيل الجزئية ، إنما يتعرض غالباً للأمور الكلية ، فهو لا يتعرض في الصلاة مثلاً الى أوقاتها وهيئاتها ، وفي الزكاة الى مقدار الواجب فيها وأنواع ما يجب ، وهكذا في بقية الأبواب ، بل ترك ذلك الى الرسول يبينه بقوله وفعله

وهو في كثير من شؤون التشريع مجدّد مصلح ، قد أدخل على النظام الجاهلي تغييرات وتعديلات يطول شرحها ، فهو يقلل عدد الزوجات ، ويزيد في حرية المرأة ، ويغير كثيراً من عادات الجاهلية في زواجهم وطلاقهم ، ويضع نظاماً للارث يخالف النظام الجاهلي ، فقد كانوا في الجاهلية — مثلاً — لا يورثون النساء ، ولا الصغار من أبناء الميت ، إنما يورثون من يلاقى العدو ويقاتل في الحروب^(١) ، فشرع الاسلام توريث المرأة وكان ذلك شديداً على النفوس ، فقد روى عن ابن عباس أنه قال لما نزلت الفرائض التي فرض الله فيها للولد الذكر والأثني والأبوين كرهها الناس وقالوا تعطى المرأة الربع والثلث ، وتعطى الابنة

(١) أنظر الطبري جزء ٤ ص ١٨٥

النصف ، ويعطى الغلام الصغير ، وليس من هؤلاء أحد يقاتل القوم ولا يحوز الغنيمة الخ^(١) ومن أجل هذا أكد القرآن اعطاء المرأة نصيبها وكرر ذلك في أكثر من موضع — وهكذا في كثير من الشؤون التي تعرض القرآن لبيان أحكامها ، ولسنا نستطيع هنا ذكر جميع ما شرعه القرآن من الأحكام^(٢)

وهناك نوع آخر من التشريع كان في عهد رسول الله وهو التشريع بالسنة ، ويختلف عن الكتاب في أن القرآن ألفاظه ومعانيه بوحي من الله ، وأما السنة فالألفاظ من عند الرسول ، فالسنة أو أحاديث الرسول بينت كثيراً من آيات القرآن كالذي رأيت في آيات الصلاة والزكاة ، فالقرآن لم يبين هيئات الصلاة ولا أوقاتها ولم يبين المقادير الواجبة في الزكاة ولا شروطها إنما بين ذلك النبي بقوله أو فعله ، كذلك حدثت حوادث وخصومات قضى فيها النبي بالحديث لا بالقرآن فكان قضاؤه في ذلك تشريعاً ، فكل ما قاله النبي أو فعله أو حدث أمامه واستحسنه كان تشريعاً ، ومتى ثبت ذلك عن رسول الله كان في القوة بمنزلة القرآن ، ولكن قل أن يثبت ثبوتاً لا يحتمل الشك لما بينا قبل في كلامنا على الحديث

ويتصل بهذا النوع ما ارتضاه أكثر الأصوليين من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يجتهد برأيه حيث لا يكون وحي ، وأنه كان أحياناً يخطئ في رأيه واستدلوا على ذلك بأنه عوتب في أسرى بدر بقوله تعالى « مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُفْخَرَ فِي الْأَرْضِ » وكان قد أشار عليه عمر بالقتل ، ولو

(١) تفسير الطبري جزء ٤ ص ٨٦ (٢) أفرد قوم آيات الأحكام بالتأليف مثل « التفسيرات الأحمدية في الآيات الشرعية فاقصر على آيات الأحكام وتفسيرها وبيان ما يستنبط منها وانظر كذلك « التفسير الأسامي » للمرحوم الأستاذ الحضري فقد كتب فيه فصلاً مطولاً عن الأحكام التي وردت في الكتاب

كان حكم بمقتضى الوحي ما عوتب ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال في حق مكة « لا يُخْتَلَى خَلَاهَا وَلَا يُعْضَدُ شَجَرُهَا » فقال العباس الا الإذخر فقال صلى الله عليه وسلم الا الإذخر — ونزل صلى الله عليه وسلم منزلاً للحرب فقبل له ان كان بوحى فسمعاً وطاعة ، وان كان باجتهاد ورأى فليس منزل مكيدة ، فقال باجتهاد ورأى فرحل ، وقال صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ماسقت الهدى » وقال صلى الله عليه وسلم « انكم تختصمون الى ولعل بعضكم ان يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بحق أخيه فلا يأخذ منه شيئاً ، فانما أفضى له قطعة من نار » — ولكن اتفقوا على انه صلى الله عليه وسلم لا يُقَرُّ على خطأ ، فما اجتهد فيه وأقر عليه كان — لا شك — حجة (١)

وأحاديث الأحكام كثيرة وردت في كل الانواع التى ورد فيها القرآن فبينت مجمله ، وقيدت مفصله ، وزادت أشياء كثيرة لم يذكرها القرآن وقد عني العلماء قديماً بجمعها ، ورتبوها حسب الترتيب الفقهي (٢)

هذان الأصلان — الكتاب والسنة — هما مصدرا التشريع في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ومن ذلك يتبين أن أساس القانون الاسلامى الهى ، مصدره الله فيما نص عليه من كتاب وحديث ، ليست لأية سلطة حق في مخالفتها ، ولا الخروج على ما ورد في نصوصها ، انما يجتهد المجتهدون فيما لم يرد فيه نص ، مسترشدين بما ورد في الكتاب والسنة من قواعد كلية ، وبذلك تخالف القوانين الوضعية ، ففيها

(١) انظر المستصفى للغزالي جزء ٢ ص ٣٥٥ (٢) من أقدم من عمل ذلك البخارى في صحيحه ومن خير ما ألفه المحدثون الشوكانى في كتابه نيل الاوطار فقد جمع ما فى الكتب الستة ورتبه حسب أبواب الفقه وشرحه شرحاً مستفيضاً بينا ما يستنبط منها من الاحكام

تكون السلطة التشريعية في منتهى الحرية في تفسير قانون أو تعديله أو إلغائه ، وليس الشأن كذلك في القوانين الالهية ، فحرية الفقهاء والخلفاء محدودة في دائرة فهم نصوص القرآن ، ومقدار الثقة بالحديث وعدمها . وفيما لم يرد فيه كتاب ولا سنة صحيحة

توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وانقطع الوحي ، واتسعت المملكة الاسلامية اتساعاً عظيماً وسريعاً وعجيباً ، ففي السنة الرابعة عشرة من الهجرة فتحت دمشق ، وفي السابعة عشرة تم فتح الشام كله والعراق ، وفي الحادية والعشرين تم فتح فارس ، وفي السادسة والخمسين وصل المسلمون الى سمرقند ، وفي الغرب أخذت مصر في سنة عشرين ثم امتدت الفتوح الى المغرب وأخذت اسبانيا حول سنة ٩٣ هـ ونال المسلمون من الغنى في المال والرقيق وزخرف الحياة ما لا عهد لهم به من قبل ، وكانت هذه الممالك المفتوحة غنية ، وكانت ممدنة كأرقى ما وصلت اليه المدنية في ذلك العصر ، تمثلت الحضارة الفارسية في فارس والعراق والحضارة الرومانية في مصر والشام ، ولم يكن الفتح الاسلامي سلباً ونهباً وتدميراً ، انما كان فتحاً منظماً يسير فيه القراء والمعلمون والقانونيون مع الجند الفاتحين ، ويحلون حيث حل الجند — فواجه المسلمون بهذا الفتح مسائل كثيرة — في كل شأن من شؤون الحياة — تحتاج الى تشريع لم يكونوا يحتاجون اليه وهم في جزيرة العرب ، فنظام الري يخالف ري الجزيرة ، وما كان منه في العراق يخالف ما كان منه في مصر ، ومسائل مالية عديدة معقدة لا تقارن بالشؤون المالية بجزيرة العرب ، ومسائل الجيش والفتوح ومعاملة المغلوبين وعلاقة الفاتحين بهم ، وما يؤخذ من الضرائب ممن أسلم ومن لم يسلم واحوال في الزواج لم يكن يعرفها العرب ، وأنواع في طريقة التقاضي لم يكن لهم بها عهد ، وجنایات ترتكب لم يرتكبها العرب في حياتهم البسيطة

وقل مثل ذلك في سائر الشؤون الداخلية والخارجية ، فواجه المشرعون الاولون أمراً عظيماً ، ولم يدع أحد أن القرآن والسنة الصحيحة نصاً في المسائل الجزئية على كل ما كان وما هو كائن ، فنتج عن هذا أن كان أصل آخر من أصول التشريع ، وهو الرأي الذي نظم بعدُ وسمى القياس

جری على هذا كثير من الصحابة ، فكانوا يستعملون رأيهم حيث لا نص ، وقد نقل الينا المؤرخون والمحدثون والفقهاء جملةً صالحةً من المسائل التي استعمل فيها الصحابة رأيهم ، فلم يكدر يتوفى النبي صلى الله عليه وسلم حتى رأوا أنفسهم أمام أكبر مشكلة قانونية وهي من يتولى الأمر بعده ، أمن المهاجرين أم من الانصار أم من هؤلاء أمير ومن هؤلاء أمير ، وإذا فصل في ذلك فمن هو خير من يتولاها ؟ لم يرد في ذلك نص من كتاب ولا سنة فلم يكن الا أن يستعملوا رأيهم ، وقد كان ، فالمحضر الذي ذكره المؤرخون لاجتماع السقيفة يدلنا على كيفية استعمال رأيهم وتقليب الامر على وجوهه

ولم يفرغ أبو بكر من مبايعة الناس له حتى واجه مسألة الردة ، فرأى قوماً يمتنعون عن أداء الزكاة مع اقرارهم بالاسلام واتباعهم للصلاة ، فكيف يصنع بهم ولم تحدث حادثة كهذه في عهد النبي ؟ فلجئوا الى الرأي ، فقال عمر كيف تقاتلهم وقد قال عليه الصلاة والسلام « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله فاذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم الا بحقها » فقال أبو بكر ألم يقل الا بحقها ، فمن حقها ايتاء الزكاة كما أن من حقها اقام الصلاة

وكذلك عرضت فكرة جمع القرآن في مصحف واختلف الرأي أولاً بين أبي بكر وعمر حتى شرح الله صدر أبي بكر لما يقول عمر

وعرضت لهم مسألة الجدة مع الأخوة ، هل يرث الأخوة ؟ فالقرآن لم ينص على

هذه المسألة ، انما نص على الأب مع الاخوة ، فذهب ابن عباس وأبو بكر الى أنه يحجبهم كالأب ، وذهب آخرون ومنهم زيد بن ثابت وعلى وعمر الى ارثهم معه وأرادوا أن يعطوا العطاء أعنى الغنائم التي يغنمونها في الحروب فاختلفوا ، هل يسوَّى بين المهاجرين والانصار ؟ فقال عمر لا نجعل من ترك دياره وأمواله مهاجراً الى النبي صلى الله عليه وسلم كمن دخل في الاسلام كرهاً ، فقال أبو بكر انما أسلموا لله ، وأجورهم على الله ، وانما الدنيا بلاغ ، وكان أبو بكر يعمل برأيه فيسوى بينهم ولما أفضت الخلافة الى عمر فرق بينهم ، ووزع على تفاوت درجاتهم ، ولما رفعت الى زيد بن ثابت مسألة من مات عن زوج وابوين أعطى للام ثلث ما بقي ، فقال ابن عباس أين وجدت في كتاب الله ثلث ما بقي ؟ فقال زيد أقول برأى وتقول برأىك وفي تاريخ القضاة للكندي أن عياض بن عبيد الله قاضى مصر كتب الى عمر ابن عبد العزيز في مسألة ، فكتب اليه عمر أنه لم يبلغنى في هذا شيء ، وقد جعلته لك فاقض فيه برأىك^(١) والأمثلة الواردة في هذا الباب كثيرة جداً لانطيل بسردها وعلى الجملة فقد كان كثير من الصحابة يرى أن يستعمل الرأى حيث لانص من كتاب ولاسنة ، والمتبع لما روى عن العصر الأول في « الرأى » يرى أنهم كانوا يستعملون هذه الكلمة بالمعنى الذي نفهمه الآن من كلمة « العدالة » وبعبارة أخرى مايرشد اليه الذوق السليم مما في الأمر من عدل وظلم ، وفسره ابن القيم « بأنه ما يراه القلب بعد فكر وتأمل وطلب لمعرفة وجه الصواب » وأنا أقص عليك بعض أمثلة رويت تبين كيف كانوا ينظرون الى المسائل ، وكيف يقلبونها على وجوها ، وكيف يستعملون رأيهم ، من ذلك ما روى أن عمر بن الخطاب لما استشار في ميراث الجد والاخوة ، قال زيد وكان رأى يومئذ أن الجد أولى بميراث ابن ابنه من اخوته ،

فتحاورت أنا وعمر محاورة شديدة فضربت له في ذلك مثلاً ، فقلت لو أن شجرة
تشعب من أصلها غصن ثم تشعب في ذلك الغصن خُوطَانٌ ^(١) ، ذلك الغصن يجمع
الخوطين دون الأصل ويفذوها ، ألا ترى يا أمير المؤمنين أن أحد الخوطين أقرب
إلى أخيه من الأصل ، قال زيد فانا أعذله ، وأضرب له هذه الأمثال ، وهو يابى
إلا أن الجدل أولى من الأخوة ^(٢)

ورفعت إلى عمر قصة رجل قتلته امرأة أبيه وخليها ، فتردد عمر هل يقتل
الكثير بالواحد ، فقال له عليٌّ أرايت لو أن نفرًا اشتركوا في سرقة جزور فأخذ هذا
عضواً وهذا عضواً أ كنت قاطعهم ؟ قال نعم ، قال فكذلك ، فعمل عمر برأيه
وكتب إلى عامله أن يقتلها ، فلو اشترك فيه أهل صنعاء كلهم لقتلهم ^(٣)
ولما اختلفوا في المسألة المشتركة وهي التي توفيت فيها امرأة عن زوج وأم وأخوة
لأم وأخوة أشقاء كان عمر يعطى للزوج النصف ، وللأم السدس ، وللأخوة لأم
الثلث فلا يبقى شيء للأخوة الأشقاء فقليل له : هب أن أبانا كان حماراً ، ألسنا من
أم واحدة ؟ فعدل عن رأيه وأشرك بينهم

ولما سئل على في عقوبة شارب الخمر قال من شرب هذى ، ومن هذى افتري
فأرى عليه حد المفترى (وهو القاذف) ومثل هذا كثير مما يدل على مقدار تفكيرهم
القانوني في هذا العصر

ولعل عمر بن الخطاب كان أظهر الصحابة في هذا الباب ، وهو استعمال الرأي ،
فقد روى عنه الشيء الكثير ، وكان هذا من توفيق الله للمسلمين ، فان عمر قد واجه
من الأمور المحتاجة إلى التشريع ما لم يواجه خليفة قبله ولا بعده ، فهو الذي على

(١) الخوط الغصن الغض النبات حديثاً (٢) أعلام الموقعين جزء ١ ص ٢٥٦

(٣) أعلام الموقعين

يده فتحت الفتوح ، ومصرت الأمصار ، وخضعت الأمم الممدنة من فارس والروم لحكم الاسلام ، وهى حالة لم يحدث بعد نظيرها ، فكان لعمر من التشريع فى المسائل الاقتصادية والسياسية والعمرانية ما كان أصلاً للفقهاء من بعده ، ولذلك يقول فيه الفقهاء فى باب الجهاد والسير — وهو الباب الذى تبين فيه علاقة الغالبين بالمغلوبين — « انه العمدة فى هذا الباب »

بل يظهر لى أن عمر كان يستعمل رأى فى أوسع من المعنى الذى ذكرنا ، ذلك أن ما ذكرنا هو استعمال رأى حيث لانس من كتاب ولا سنة ، ولكن ترى عمر سار أبعد من ذلك ، فكان يجتهد فى تعرف المصلحة التى لأجلها كانت الآية أو الحديث ، ثم يسترشد بتلك المصلحة فى أحكامه ، وهو أقرب شىء الى ما يعبر عنه الآن بالاسترشاد بروح القانون لا بحرفيته ، ودليلنا على ذلك ما روى عنه العلماء من أحكام نذكر بعضها

فقد قال الله تعالى « إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ » الآية فجعل المؤلفة قلوبهم مصرفاً من مصارف الزكاة وقد ثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يعطى بعض الناس يتألف قلوبهم للاسلام كما أعطى أبا سفيان والأقرع بن حابس وعباس بن مرداس وصفوان بن أمية وعيينة بن حصن ، كل واحد منهم مائة من الابل ، حتى قال صفوان : لقد أعطانى ما أعطانى وهوأ بغض الناس الىّ فما زال يعطينى حتى كان أحب الناس الىّ ، ثم فى زمن أبى بكر جاء عيينة والأقرع يطلبان أرضاً ، فكتب لهما بها ، فجاء عمر فمزق الكتاب ، وقال ان الله أعز الاسلام وأغنى عنكم ، فان ثبتم عليه والافيننا وبينكم السيف^(١) فترى من هذا أن عمر علل الدفع الى المؤلفة قلوبهم بعلّة هى المصلحة ، فلما ارتفعت هذه المصلحة

بعزة الاسلام وعدم حاجته الى من تتألف قلوبهم لم يستمر في اجراء الحكم كذلك روى عن عمر أنه لم يقطع يد السارق في عام الجماعة ، وروى أن غَلَمَةً لحاطب بن أبي بَلْتَعَة سرقوا ناقة لرجل من مَزِينَة ، فَأَتَى بِهِم عُمَرُ ، فَأَقْرَوا ، فَأَرْسَلَ إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ حَاطِبٍ فَجَاءَ ، فَقَالَ لَهُ أَنْ غَلَمَانِ حَاطِبٍ سَرَقُوا نَاقَةَ رَجُلٍ مِنْ مَزِينَةَ وَأَقْرَوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، فَقَالَ عُمَرُ يَا كَثِيرُ بْنُ الصَّلْتِ ! اذْهَبْ فَاقْطَعْ أَيْدِيَهُمْ ، فَلَمَّا وَلَّى بِهِم رَدَّهُمْ عُمَرُ ثُمَّ قَالَ أَمَا وَاللَّهِ لَوْ لَا أَنِي أَعْلَمُ أَنَّكُمْ تَسْتَعْمِلُونَهُمْ وَتَجْبِعُونَهُمْ حَتَّى إِنْ أَحَدُهُمْ لَوْ أَكَلَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ حَلَّ لَهُ لَقَطَعْتَ أَيْدِيَهُمْ ، وَإِيمَ اللَّهُ إِذَا لَمْ أَفْعَلْ لِأَغْرَمَنَّكَ غَرَامَةً تَوْجَعُكَ الْخ (١)

ومثل ذلك ما جاء في صحيح مسلم عن ابن عباس « كَانَ الطَّلَاقُ الثَّلَاثَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبِي بَكْرٍ وَسُنَّتَيْنِ مِنْ خِلَافَةِ عُمَرَ طَلَاقُ الثَّلَاثِ وَاحِدَةٌ ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِنْ النَّاسُ قَدْ اسْتَعْجَلُوا فِي أَمْرٍ كَانَتْ لَهُمْ فِيهِ أُنَاةٌ ، فَلَوْ أَمْضَيْنَاهُ عَلَيْهِمْ ، فَأَمْضَاهُ — إِلَى كَثِيرٍ مِنْ أَمْثَالِ ذَلِكَ ، وَيَكْفِينَا هَذَا الْقَدْرُ لِلدَّلَالَةِ عَلَى مَا نَقُولُ

وقد وجدت نزعة من العصر الأول لتنظيم هذا الرأي من طريق الاستشارة ؛ فقد أخرج البَغَوِيُّ عَنْ مَيْمُونِ بْنِ مَهْرَانَ قَالَ : كَانَ أَبُو بَكْرٍ إِذَا وَرَدَ عَلَيْهِ الْخُصُومُ نَظَرَ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَإِنْ وَجَدَ فِيهِ مَا يَقْضِي بَيْنَهُمْ قَضَى بِهِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي الْكِتَابِ وَعَلِمَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ذَلِكَ الْأَمْرِ سُنَّةً قَضَى بِهَا ، فَإِنْ أَعْيَاهُ خَرَجَ فَسَأَلَ الْمُسْلِمِينَ وَقَالَ أَتَانِي كَذَا وَكَذَا ، فَهَلْ عَلِمْتُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَضَى فِي ذَلِكَ بِقَضَاءٍ ؟ فَرُبَّمَا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ النَّفَرُ كُلُّهُمْ يَذْكُرُ فِيهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ قَضَاءً . . . فَإِنْ أَعْيَاهُ أَنْ يَجِدَ فِيهِ سُنَّةً عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَمَعَ رِءُوسَ

الناس وخيارهم فاستشارهم ، فان أجمع رأيهم على شيء قضى به ، وكان عمر رضى الله عنه يفعل ذلك فان أعياه أن يجد في القرآن والسنة نظر هل كان فيه لأبي بكر قضاء ، فان وجد أبا بكر قضى فيه بقضاء قضى به ، والادعاء رؤوس الناس فاذا اجتمعوا على أمر قضى به

وفي المبسوط للسرخسي « ان عمر كان يستشير الصحابة مع فقهه حتى كان اذا رفعت اليه حادثة قال ادعوا لي علياً ، وادعوا لي زيدا . . . فكان يستشيرهم ثم يفصل بما اتفقوا عليه »

وعن الشعبي قال « كانت القضية ترفع الى عمر رضى الله عنه فربما يتأمل في ذلك شهراً ويستشير أصحابه ، واليوم يفصل في المجلس مائة قضية »

وروى عن سعيد بن المسيب عن علي قال قلت يا رسول الله الأمر ينزل بنا لم ينزل فيه قرآن ولم تمض فيه منك سنة قال اجمعوا له العالمين أو قال العابدين من المؤمنين فاجعلوه شورى بينكم ، ولا تقضوا فيه برأى واحد

وعن شريح قال قال لي عمر بن الخطاب أن اقض بما استبان لك من قضاء رسول الله فان لم تعلم كل أقضية رسول الله فاقض بما استبان لك من أئمة المهتدين ، فان لم تعلم فاجتهد برأيك ، واستشر أهل العلم والصلاح .

ولكن لم يوضع — مع الأسف — نظام ملازم واضح يبين كيفية الشورى ومن الذين يستشارون وقيمة رأى المستشارين الخ مع أن الحاجة ماسة الى هذا التنظيم ، وقد سار الاندلسيون فيه خطوة سديدة بتكوين مجلس للشورى يعين أعضاؤه من قبل الخليفة ليس هنا موضع الكلام عليه

على كل حال وجد العمل بالرأى ، ونقل عن كثير من كبار الصحابة قضايا أفتوا فيها برأيهم كأبي بكر وعمر وزيد بن ثابت وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل

وكان حامل لواء هذه المدرسة أو هذا المذهب فيما نرى عمر بن الخطاب ، وأشهر من سار على طريقته عبد الله بن مسعود في العراق ، فكان يتعشق عمر ويعجب بآرائه ، وروى عنه انه قال اني لأحسب عمر ذهب بتسعة أعشار العلم . وجاء في أعلام الموقعين أن ابن مسعود كان لا يكاد يخالف عمر في شيء من مذاهبه (١) وقال الشعبي كان عبد الله لا يَقْنُتْ ، ولو قننت عمر لقننت عبد الله ، وقال أيضاً « ثلاثة كانت يستفتي بعضهم من بعض ، فكان عمر وعبد الله (بن مسعود) وزيد بن ثابت يستفتي بعضهم من بعض ، وكان علي وأبي بن كعب وأبو موسى الأشعري يستفتي بعضهم من بعض » وهذا الخبر يدلنا على أنه كان للصحابة العلماء مناح للتفكير ، كل جماعة لهم منحي يألف بعضهم بعضاً ويؤيد بعضهم بعضاً فكان عبد الله بن مسعود من منحي عمر ، وأظهر مناحيه الاعتداد بالرأي حيث لا نص كما رأيت . وهذا المنحي يظهر في ابن مسعود واضحاً أيضاً ، فقد قال أبو عمرو الشيباني كنت أجلس الى ابن مسعود حولا لا يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا قالها استقلت الرعدة (٢) وروى عن ابراهيم النخعي أنه كان لا يعدل بقول عمر وابن مسعود اذا اجتماعا فاذا اختلفا كان قول عبد الله أعجب لأنه كان ألطف وأنت اذا علمت أن علم أهل العراق كان عن عبد الله بن مسعود وأن مدرسة العراق توجت بأبي حنيفة (٣) رأيت سبباً كبيراً من الأسباب التي جعلت مدرسة العراق تشتهر بالرأي واعمال القياس

انتشرت مدرسة الرأي هذه في القرن الأول والثاني للهجرة حتى كانوا ينسبون اليها ، فسموا « ربيعة الرأي » وهو من أكبر التابعين وشيخ الامام مالك وكان من

(٢) أعلام الموقعين

(١) جزء ١ ص ٢٢

(٣) اذا تتبعنا تسلسل هذه المدرسة وجدنا أن أبا حنيفة أخذ عن حماد بن أبي سليمان وهو

أخذ عن ابراهيم النخعي و ابراهيم أخذ عن علقمة بن قيس وهو تلميذ عبد الله بن مسعود

الموالى ، وكان كثير من التابعين وتابعيهم من هذه المدرسة كالحسن البصرى ، وكان أكبر موطن لها العراق ، ويرجع ذلك الى أسباب ثلاثة : الأول ما ذكر من تأثير عبد الله بن مسعود فيهم وهو ما علمت من ميل الى رأى يشارك فيه أستاذه عمر بن الخطاب ، والثانى ما ذكره ابن خلدون من أن الحديث كان فى العراق قليلا ، وكان أكثر رواة الحديث فى الحجاز ، لانه موطن النبى صلى الله عليه وسلم وكبار الصحابة ، والثالث أن العراق قطر ممدن كما علمت قد تأثر الى درجة كبيرة بالمدينة الفارسية واليونانية ، والمدينة تضع تحت عين المشرع جزئيات كثيرة تحتاج الى التشريع لا يقاس بها القطر البدوى وما فى حكمه ، فاذا انضم الى ذلك قلة ما وصل اليهم من الحديث أنتج ذلك لا محالة اعمال الرأى

وكان لمدرسة الرأى هذه مميزات واضحة

(١) كثرة تفريعاتهم الفروع حتى الخيالى منها ، وقد ألجأ الى ذلك أولا كثرة ما يعرض لهم من الحوادث نظراً لمدينتهم ، ثم ساقهم ذلك الى الجرى وراء الفروض فأكثروا من رأيت لو كان كذا ، فيسألون المسألة ويبدون فيها حكماً ، ثم يفرعونها بقولهم رأيت لو كان كذا ، ويقلبونها على سائر وجوهها الممكنة وغير الممكنة أحياناً حتى سماهم أهل الحديث « الأرائتيون » قال الشعبي « والله لقد بغض هؤلاء القوم الى المسجد حتى هو أبغض الى من كناسة دارى ، قلت من هم يا أبا عمر ؟ قال الأرائتيون » ^(١) وقال « ما كلمة أبغض الى من رأيت » وكان مالك بن أنس لا يقدم عليه فى السؤال كثيراً ، وكان أصحابه يهابون ذلك ، قال أسد بن الفرات — وقد قدم على مالك — وكان أصحابه يجعلوننى أسأله عن المسألة فاذا أجاب يقولون قل له فان كان كذا ، فأقول له ، فضايق على يوماً فقال لى هذه سُلَيْسلة بنت

سليسة؛ ان أردت هذا فعليك بالعراق^(١) وقال ربيعة الراى لسعيد بن المسيب وقد اعترض عليه فى مسألة « أعراقى أنت ؟ » الخ وكان عمل العراقيين سبباً فى تضخيم الفقه وكثرة مسائله مما جعل الفقهاء الآخرين ينظرون فيها ويبدون حكمهم فيها على أصول مذاهبهم ، ويظهر أنه كان للمنطق السريانى الذى كان منتشرأ فى العراق قبل الفتح — كما وصفنا من قبل — أثر فى القلب الذى اتخذه العراقيون فى تفریع المسائل (٢) قلة روايتهم للحديث واشتراطهم فيما يؤخذ به من الحديث شروطاً

لا يسلم معها الا القليل

وحتى تعالى قوم فراوا عدم الأخذ بالحديث بتاتاً ، وحجتهم فى ذلك شكهم المطلق فى رواية الحديث ، وكثرة من جرحه المحدثون ، حتى يكادوا لا يتفقون على أمانة محدث وصدقه ، فقالوا لا نترك كتاب الله الثابت المقطوع به لمثل هذا الحديث المشكوك فيه ، وحتى من ظهرت أمانته ، فمن يدرينا ما دحيلة نفسه ، وكانت هذه فئة كبيرة على ما يظهر ، فقد عقد الامام الشافعى فى كتابه الأم فصلاً طويلاً عنوانه « باب حكاية قول الطائفة التى ردت الأخبار كلها » وحكى آراءهم وناقشهم فيها مناقشة طويلة وبديعة^(٢) وعقد بعده باباً آخر للرد على جماعة ذهبوا الى أنه لا يؤخذ من الأخبار إلا ما اجتمع عليه ، فأما ما اختلفوا فيه فيقدم الراى والقياس عليه^(٣) ويظهر أن خطورة هذا القول جعلت ناقلى الأخبار لا ينقلون أقوالهم فلا نعتز منها الا على القليل المجمل الغامض ، وقد نسب البغدادى القول بأنكار العمل بالحديث الى الخوارج فى كتابه « أصول الدين »

(١) المصدر نفسه ص ١٨٧

(٢) الام جزء ٧ ص ٢٥٠ وما بعدها

(٣) الام ص ٢٥٤ وما بعدها جزء ٧

كان يناهض هذه المدرسة مدرسة الحديث أو أهل الحديث ، ونرى لهذه المدرسة أصولاً في الصحابة ، كالعباس والزيير ، ثم عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمرو بن العاص ، ومن هذه المدرسة الشعبي من التابعين فإنه يقول « ما جاءكم به هؤلاء من أصحاب رسول الله فخذوه ، وما كان من رأيهم فاطرحوه في الحش » ومذهب هؤلاء أنهم اذا سئلوا عن شيء فإن عرفوا فيه آية أو حديثاً أفتوا والا لم يقولوا شيئاً ، روى أن رجلاً سأل سالم بن عبد الله بن عمر عن شيء فقال لم أسمع في هذا شيئاً ، فقال له الرجل فأخبرني أصلحك الله برأيك ، قال لا ، ثم أعاد عليه فقال اني أرضى برأيك ، فقال سالم أئني ؟ لعلي ان أخبرتك برأيي ثم تذهب فأرى بعد ذلك رأياً غيره فلا أجذك ، وروى عن عبد الله بن أحمد بن حنبل أنه قال سألت أبي عن الرجل يكون ببلد لا يجد فيه الا صاحب حديث لا يعرف صحيحه من سقيم ، وأصحاب رأى ، فتنزل به النازلة ، فقال أبي : يسأل أصحاب الحديث ولا يسأل أصحاب الرأي ، ضعيف الحديث أقوى من صاحب الرأي ^(١) ومثل هذه الأقوال كثير

وأظهر ما كانت هذه المدرسة في الحجاز لعكس الأسباب التي ذكرناها في العراق ، وكان من مميزات هذه المدرسة (١) كراهيتهم الشديدة للسؤال عن الفروض ، لأن المصدر عندهم وهو الحديث محدود ، وهم يكرهون إعمال الرأي ، وقد رويت أقوال كثيرة تدل على كراهيتهم للسؤال عن حادثة الا اذا وقعت فعلاً ، وعيبهم على العراقيين إثارة الفروض (٢) ومن مميزات الاعتداد بالحديث حتى الضعيف منه وتساهلهم في شروطه وتقديمهم ذلك على الرأي ، كالذي روينا عن أحمد بن حنبل وكانت هذه المدرسة كما أسلفنا سبباً غير مباشر لوضع الحديث ، فقد رأى

قوم لا يتحرون الصدق أن هناك مسائل لا تعد لم يرد فيها نص ، وراوا أعلام مدرستهم لا تُقدِّم على الرأي تحل به هذه المشاكل ، فوضعوا الأحاديث الكثيرة يغطون بها هذا الموقف ، قال عتيق الزبيدي : وضع مالك الموطأ عن نحو من عشرة آلاف حديث ، فلم يزل ينظر فيه كل سنة ويسقط منه حتى بقي هذا ؛ ولو بقي قليلاً لأسقطه كله ^(١) ومن أدلتنا على ذلك ما بين أيدينا من كتب الفقه حتى فقه الامام أبي حنيفة المشهور في عصره بأعمال الرأي ، فانك لا تجد فرعاً من فروعها الا وفيه الحديث عن الرسول أو الصحابي ، مع قول الثقات بأنه لم يصح عنده الا أحاديث قليلة ، وقد نبه العلماء على ضعف كثير مما ورد في هذه الكتب وتغالي أصحاب الحديث كما تغالي أصحاب الرأي حتى قال بعضهم أن السنة حاكمة على الكتاب وليس الكتاب حاكماً على السنة ، وحتى كان في العصر الثاني من يقول أن السنة تنسخ الكتاب

كان النزاع بين المدرستين شديداً ووجه كل فريق قوارص اللوم للآخرين ، ووضعت الأحاديث لتأييد كل مدرسة ، فاذا روت مدرسة الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (يوشك رجل منكم متكئاً على أريكته يحدث بحديث عني فيقول بيننا وبينك كتاب الله ، فما وجدنا فيه من حلال استحللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه ، ألا وأن ما حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل الذي حرم الله) ^(٢) روت مدرسة الرأي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (ما أتاكم عني فاعرضوه على كتاب الله فأن وافق كتاب الله فأنأقلمته وإن خالف كتاب الله فلم أقلمه

(١) الديباج المذهب في تراجم المالكية للقاضي ابن فرحون ص ٢٥

(٢) انظر كتاب نصب الراية في تخريج أحاديث الهداية للزبامى

(٣) الحديث في المواقفات للشاطبي جزء ٤ ص ٧

أنا وكيف أخالف كتاب الله وبه هداني الله؟^(١) وهذا هو الذي يفسر لنا ما نراه في الكتب من تناقض فقد روى عن أبي بكر في العمل بالرأى وفي ذم الرأى، وعن عمر في العمل بالرأى وذم الرأى، وابن مسعود كذلك^(٢) وقد أجهد بعض العلماء أنفسهم في التوفيق بين هذه الأقوال المتناقضة، ورأوا أن نوعاً من الرأى محمود ونوعاً منه مذموم، وأن ماورد عنهم في الذم إنما ينصرف الى النوع المذموم، والذي نرى أن هذه الأقوال المتناقضة إنما هو من أثر المدارس المتنازعة، ومن وضع من اندس في كل مدرسة ولم يرع الحق ولم يخش الله

وكانت بين المدرستين مناقشات طريفة نذكر لك مثلاً منها

فقد روى أن ربيعة الرأى سأل سعيد بن المسيب عن عقل^(٣) أصابع المرأة ما عقل الاصبع الواحدة؟ قال عشرة من الابل، قال فأصبعان؟ قال عشرون، قال فثلاث؟ قال ثلاثون، فأربع؟ قال عشرون، قال فعند ما عظم جرحها نقص عقلها؟ فقال له سعيد أعراقى أنت؟ إنما هي السنة

وهناك مدرسة كانت بين المدرستين لاتهمل الرأى بتاتاً وهي مع ذلك غنية بالحديث، ولا تعمل الرأى الا بشروط، والا عند ما لم يكن نص في المسألة فيما وصل اليها من حديث كثير، ومن أعلام هذه المدرسة الامام مالك ثم الامام الشافعى، وقد ارتقى البحث في الرأى ونظم ووضعت له قواعد وشروط وسمى بالقياس، وحصر الرأى بعد وضع هذه القواعد والنظم في دائرة ضيقة لا تتعدى غالباً تشبيه ما لم ينص عليه بما نص عليه لعله تجمعها

وهذه المدارس على اختلافها رقت التشريع رقياً بيناً بما بحثت واستنبطت،

(١) الحديث في الموافقات أيضاً جزء ٤ ص ٩ وقد نيه على وضعه

(٢) نقل هذه الأقوال ابن القيم في أعلام الموقعين جزء ١ (٣) العقل الدية

حتى الأحاديث الموضوعة نفسها كان لها فضل في التشريع ، فانها لم توضع اعتباطاً ولا كانت مجرد قول يقال ، انما كانت في الغالب نتيجة تفكير فقهي وبحث واجتهاد ، ثم وضع هذا الرأي وهذا الاجتهاد في قالب حديث

ولنعد الآن الى القاء نظرة عامة على تاريخ التشريع في ذلك العصر في عهد الخلفاء الراشدين كان مركز الخلافة في المدينة ، وكان فيها أكثر كبار الصحابة وأوسعهم علماً ، فلما تولى أبو بكر كانت تعرض عليه معضلات المسائل ليقتضى فيها ، وكان — كما رأيت — يستشير كبار الصحابة فيما لم يرد فيه كتاب ولا سنة ، ولم يؤثر عنه أنه عين قاضياً في ناحية من النواحي ، وقد ذكروا أنه لما كثرت عليه شؤون الأمة عهد بالشؤون القضائية الى عمر

فلما تولى عمر وفتحت الفتوح عين القضاة في الامصار ، في مصر والشام والعراق ، وكان بجانب القضاة جملة من الصحابة والتابعين في كل مصر ، عرفوا عادات المصر الذي نزلوا به ونوع معيشتهم وحالتهم الاجتماعية والاقتصادية ، وكان لهم علم بالقرآن وجملة صالحة من الحديث ، ورأى يحكمونه فيما ليس فيه نص ، فكان هؤلاء يُسْتَفْتَوْنَ فيما يعرض لهم فيفتون ، هؤلاء أصدروا فتاوى في أمور كثيرة عدت بعد تقاليد لكل مصر ، أو بعبارة أخرى سوابق قضائية تراعى اذا حدث مثلها ، وقد ذكرنا قبل أن أهل المدينة كانوا يتبعون أكثر ما يتبعون فتاوى عبدالله ابن عمر بن الخطاب ، وأهل مكة فتاوى عبد الله بن عباس ، وأهل الكوفة فتاوى عبد الله بن مسعود ، وأهل مصر فتاوى عبد الله بن عمرو بن العاص — هذه الفتاوى كانت تكثر بظهور أحداث لم يسبق صدور فتوى فيها واجتهاد العلماء في بيان حكمها

ولما جاءت الدولة الأموية نقلت مركز الخلافة الى دمشق الشام — وفي عهدها

ظهر أثر الامتزاج الذي كان بين العرب الفاتحين والأمم المفتوحة على النحو الذي
أبناءه من قبل

وساعد على هذا الامتزاج أن المسلمين كانوا بحق في عصرهم الأول متسامحين
مع غيرهم أجمل تسامح ، وسيرة عمر بن الخطاب أصدق شاهد على ذلك ، وإنما
جاءت القسوة وسوء المعاملة بعد هذا العهد — فكان من أثر ذلك أن وضع تحت
أعين المسلمين أنواع من المدينيات المختلفة ، وأنواع من الديانات المختلفة ، وأنواع من
الأنظمة المختلفة — كل هذه جعلت المسلمين وغير المسلمين يتساءلون ما حكم الاسلام
فيها ؟ ما رأى الاسلام في هذه الجزئيات الكثيرة التي أنتجتها هذه المدينيات ،
ما الذي يرضاه الاسلام وما الذي لا يرضاه ، أيها يتفق مع قواعده الكاية وأياها
لا يتفق ؟ فكان موقف الفقهاء أمام هذه المشاكل من أصعب المواقف وأشدّها
عناء ، وكانوا هم من جانبهم من أكثر الناس نشاطاً وتحملاً للعب.

يذهب بعض الباحثين من المستشرقين مثل « جولد زيهر » و « سانتلانا »
الى أن الفقه الاسلامي في هذا العصر تأثر كثيراً بالقانون الروماني ، وكان هذا الفقه
الروماني مصدراً من مصادره ، استمد منه بعض أحكامه ، قالوا كان في الشام مدارس
للقانون الروماني عند الفتح الاسلامي في قيصريّة وفي بيروت ، وكان هناك محاكم
تسير في نظامها وأحكامها حسب القانون الروماني ، واستمرت هذه المحاكم في البلاد
بعد الاسلام زمناً — قالوا — وطبيعي أن قوما لم يأخذوا من المدينة بحظ وافر إذا
فتحوها بلاداً ممدنة نظروا ما إذا يفعلون وبم يحكمون ثم اقتبسوا من أحكامهم ، —
وقالوا — ان المقارنة بين بعض أبواب الفقه وبعض أبواب القانون الروماني تقنعنا
بما نقول ، بل أن هناك قواعد نقلت من القانون الروماني بنصها مثل (البينة على
من ادعى واليمين على من أنكر) وأن كلمتي الفقه والفقهاء استعملتا وفقاً لمعنى الكلمة

المستعملة عند الرومان ، فهم يستعملون كلمة « juris » وهي تدل على الفهم والمعرفة والحكمة — وقالوا — ان الفقه الاسلامي أخذ عن القانون الروماني اما مباشرة أو من طريق التلمود فان هذا التلمود أخذ كثيراً من القانون الروماني ، واتصال المسلمين باليهود مكنهم من الأخذ ببعض أقوال التلمود الى آخر ما قالوا

ولسنا نرى أن الأدلة التي أتوا بها مقنعة، فتشابه بعض أحكام في قانونين لا يجعلنا نقطع بأخذ أحدهما عن الآخر ، سيما اذا روعي أن القوانين — الهية أو وضعية — تراعى العدالة في التقنين ، وهناك أمور واضحة العدالة يتفق فيها المشرعون كقاعدة البينة على من ادعى واليمين على من أنكر — وكلمة الفقه في أصل اللغة العربية معناها العلم بالشئ والفهم له ثم غلبت على معنى العلم بالدين والفهم له ، كما غلب الشعر على ذلك الضرب المعروف من القول ، وفي هذا المعنى استعملها القرآن قبل امتزاج العرب بالرومان فقال « فَلَوْ لَا تَفَرَّ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ » ثم غلبت على هذا النمط من العلم (علم التشريع) لأنه يتطلب فقهاً في الدين ومعرفة بالكتاب والسنة، وهذا شأن العرب في أسماء العلوم على العموم، تكون الكلمات عامة ثم تُخصَّص — ولم نعر على أحد من الأئمة المشرعين إشارة إلى القانون الروماني على سبيل النقد أو التأييد أو الاقتباس، وقد كان أولى الناس بالتأثر بالقانون الروماني الأوزاعي، فقد عاش في بيروت، موطن أكبر مدرسة رومانية في الشام ، وكان أكبر فقيه فيها ، وقد التفت بعض المستشرقين الى ذلك وقالوا — ان من دواعي الأسف أن مذهب اندثر ولو عثرنا عليه لوجدنا فيه أثراً كبيراً للقانون الروماني ، ويظهر لنا أنه قول غير وجيه ، فقد عثرتُ على جملة صالحة من مذهب في الجزء السابع من الأم ، ودلتني قراءتها على أن من الانصاف أن يعد الأوزاعي من مدرسة الحديث لا من مدرسة الرأي، عكس ما يقول « جولد زيهر » ومدرسة الحديث أبعد مظنة من التأثر بالقانون الروماني

ولسنا ننكر أن القانون الرومانى أفاد من ناحية غير هذه ، أعنى ناحية عرض المسائل على الفقهاء ليبدوا فيها رأيهم حسب القواعد السكينة للشريعة الإسلامية ، فمن المحقق أن مصر والشام كانت تحكمها محاكم رومانية بالقانون الرومانى ، فلما جاء الإسلام ودخل قوم من هؤلاء المحكومين فيه وخضع له غيرهم كان من الطبيعى أن يعرضوا تقاضيتهم القديم وآراء محكمهم القديمة على الإسلام لينظروا ما يقر منها وما لم يقر — هب اليوم أنه لداع من الدواعى غير القانون المصرى ووضعت أسس أخرى لقوانين جديدة ، فما لا شك فيه أن المتقاضين ورجال القضاء ونحوهم ممن كانوا يتقاضون حسب القانون القديم يثيرون مسائله ويعرضون رأيه ويقارنون بين التعاليم القديمة والتعاليم الجديدة — خصوصاً اذا لاحظنا أن القضاة فى صدر الإسلام كان لديهم الشئ الكثير من المرونة والتسامح فيما لم يخرج عن قواعد الإسلام ، قرأت فى ذيل كتاب قضاة مصر « أن خير بن نعيم (تولى قضاء مصر من ١٢٠ - ١٢٧) كان يسمع كلام القبط بلغتهم ويخاطبهم بها ، وكذلك شهادة الشهود منهم ، ويحكم بشهادتهم » (١)

فى هذا العهد عهد الدولة الأموية لا نرى خلفاءهم يهتمون بشئ من شؤون التشريع الا قليلاً منهم كعمر بن عبد العزيز ، فالتشريع لم يرق تحت حمايتهم ورعايتهم ، كالذى كان فى عهد الدولة العباسية ، انما رقى فى المدارس وفى حلقات الدروس المستقلة عن خلفائهم ، ولم يبذل الأمويون محاولة فى صلب تشريعهم صبغة رسمية ، فلا نرى فى الدولة الأموية مثل أبى يوسف فى الدولة العباسية ، يحميه الخلفاء ، ويؤيدونه فى التشريع ، ويوثقون الصلة بينه وبينهم ، وبينه وبين قضاة

(١) تاريخ قضاة مصر للسكنى — ذيل عليه ص ٣٤٩

الامصار ، ولا نرى من المشرعين من اتصل بالأمويين الا قليلا كالزهرى
وفي هذا العهد لم تكن المذاهب الاربعة قد تكونت ، انما كان هنالك أئمة كثيرون
مجتهدون كالأوزاعي ، اندثرت مذاهبهم ، وبدأ في آخر عهد الدولة الأموية
يظهر امامان من الأئمة الأربعة : الامام أبو حنيفة في العراق ، والامام مالك بن
أنس في المدينة ، فالامام أبو حنيفة ولد سنة ٨٠ هـ في ولاية عبد الملك بن مروان ،
وعاش نحو ١٨ سنة في ظل الدولة العباسية ، وهو من أصل فارسي ، أخذ الفقه عن
جعفر الصادق من البيت العلوي ، وعن ابراهيم النخعي من أكبر فقهاء عصره ،
وسمع الحديث من الشعبي والاعمش وقتادة ، واشتهر بقدرته التشريعية ، وقوة
حجته وحسن منطقته ودقته في الاستنتاج ، ومن أجل ذلك عد امام أهل الرأي ،
ولم يصل إلينا شيء من تأليفه القانونية ولا ثبت تاريخياً أنه دوّن مذهبه في كتاب ،
انما فعل ذلك تلميذاه من بعده أبو يوسف ومحمد

والامام مالك ولد سنة ٩٦ بالمدينة من أصل عربي ، وبها تعلم وعلم وألف ،
واشتهر بأنه حجة في الحديث ، وعد من أجل ذلك امام أهل الحديث ، ويمتاز
مذهبه باعتماده على الحديث أكثر من أبي حنيفة ، ويحتج بعمل أهل المدينة
وتوفي سنة ١٧٩ ، وخلف لنا كتاب الموطأ ، وقد اشتهر أنه كتاب حديث ولكنه
في الحقيقة كتاب فقه وان ملئ حديثاً ، فلم يكن غرضه أن يجمع فيه الأحاديث
المعروفة في عهده ، والتي صحت عنده ، انما غرضه الإتيان بالتشريع مستدلاً عليه
بالحديث ، ولذلك تجد فيه فتاواه الشخصية وآراءه في بعض المسائل

ولا نطيل بذكر ما كان بينهم من خلاف في وجهة النظر واختلاف في
الأصول التي اعتمدوا عليها ، فذلك بالعصر العباسي أليق ، انما نذكر هنا ملاحظة
دقيقة لاحظها ابن خلدون عند تعليقه لانتشار مذهب مالك في المغرب والأندلس

فقد قال « وأيضاً فالبدعوة كانت غالبية على أهل المغرب والأندلس ، ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق ، فكانوا الى الحجاز أميل ، لمناسبة البدعوة ، ولهذا لم يزل المذهب المالكي غصاً عندهم ، ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها ، كما وقع في غيره من المذاهب »^(١)

فهو يريد أن يقرر أن مدينة البلد الذي نشأ فيه الامام أو بداوته لها أثر خاص في تكوين مذهبه ، من كثرة فروع وقلتها ، بل يظهر أن لها كذلك أثراً في تكوين رأيه ، ولو استعرضنا بعض خلافات بين الفقهاء لوجدنا ذلك واضحاً ، فمن ذلك مثلاً أن أبا حنيفة يجوز أن يفتح الصلاة بالفارسية بدل أن يقول الله أكبر بالعربية ، ولو كان قادراً على قولها بالعربية ، ويجوز أن يقرأ القرآن بالفارسية ، وخالفه في ذلك الامام مالك والشافعي^(٢) ومثل تجوز الامام أبي حنيفة أن تزوج المرأة الحرة المكلفة نفسها من غير وكى ، وقال مالك والشافعي لا يجوز الا بولي^(٣)

والظاهر أن هذا المنزع أعنى تقدير الامام للظروف التي تحيط به وتأثيرها في آرائه إنما يكون حيث لا يصح نص عند الامام ، فاما اذا صح فلم يكن لهذه الظروف أثر في تكوين رأيه ، ودليلنا على ذلك مثلاً ما نرى من أن مذهب أبي حنيفة اعتبار الكفاءة في الزواج نسباً ، فقريش عنده أكفاء لبعض ، وليس سائر العرب أكفاء لقريش ، والموالي ليسوا بكفاء للعرب ، مع أن الامام مالكا يقول لا تعتبر الكفاءة الا في الدين ، لأنه صح عنده قوله عليه الصلاة والسلام « الناس سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لعربي على عجمي ، إنما الفضل بالتقوى »^(٤) — ولو كانت المسألة لتقدير الظروف فقط لانعكس المذهبان

(١) المقدمة ص ٣٧٥

(٢) الزيلعي جزء ١ ص ١٠٩

(٣) الزيلعي جزء ٢ ص ١١٧ (٤) الزيلعي جزء ٢ ص ١٢٨ ، ١٢٩

﴿ مصادر هذا الفصل ﴾

المستصفي للغزالي
مسلم الثبوت
صحيح البخارى ومسلم
مقدمة ابن خلدون .
الموافقات للشاطبي
تاريخ ولاية مصر وقضاها للكندي
خطط المقرئى
تفسير الطبرى
العقد الفريد لابن عبد ربه
تيسير الوصول فى جمع أحاديث الرسول
أسباب النزول للواحدى
التفسيرات الأحمدية فى الآيات الشرعية
أعلام الموقعين لابن القيم والطرق الحكيمية له
شرح الزيلعى على متن الكنز
فتح القدير على الهداية
الأم للإمام الشافعى
نصب الراية فى تخرىج أحاديث الهداية للزيلعى
وفيات الاعيان لابن خلكان
الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون
تاريخ التشريع الاسلامى المرحوم الشيخ محمد الحضرى
دائرة المعارف الاسلامية فى مادة « فقه »

Abdurahim, Muhammadan jurisprudence

Macdonald, Muslim Pheology

Goldziher, Le Dogma et Le Loi de L'Islam,

البَابُ السَّابِعُ

الفرق الدينية

كانت الخلافة أول مسألة اشتد فيها الخلاف بين المسلمين، وتشعبت فيها آراؤهم ، وتكوّن حولها أهم الفرق الإسلامية في العصر الأول، وهي الخوارج والشيعة ثم المرجئة فلنستعرض باختصار تام مادار فيها حتى نتبين كيف نشأت هذه الفرق ، تاركين تفصيل ذلك الى الجزء الخاص بالتاريخ السياسي من كتابنا

توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يعين من يخلفه ، ولم يبين كيف يكون اختياره ، فواجه المسلمون أشق مسألة وأخطرها ، وعلى طريق سيرهم فيها كان يتوقف نجاحهم في الحياة السياسية أو فشلهم

شعر المسلمون من لحظة وفاته صلى الله عليه وسلم بضرورة التفكير فيمن يخلفه ، وأسرع الأنصار قبل دفنه الى عقد اجتماع في سقيفة بني ساعدة ليمتوا في الأمر ، وأدركهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح وغيرهم خشية ألا ينظر الأنصار في الأمر الا من جانبهم، وفي هذه السقيفة انقسموا الى رأيين: رأى يقول يجب أن يكون الخليفة من الأنصار ، وحجتهم أن محمداً صلى الله عليه وسلم لبث في قومه في مكة نحو ثلاث عشرة سنة يدعوهم الى الاسلام فما آمن منهم الا قليل ، ولا منعوا رسول الله من الأذى ، ولا أعزوا الدين ، فلما هاجر من مكة الى المدينة نصره الأنصار وآمنوا به ، وأعزوا دينه ، ومنعوه وصحبه ممن أراد بهم سوءاً ، وكانوا معه على عدوه حتى خضعت له جزيرة العرب ، وتوفي صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، وبهم قرير عين ، فهم أولى الناس أن يخلفوه

وفريق آخر وهم المهاجرون يرون أن تكون الخلافة فيهم ، وحجتهم أنهم أول من آمن به ، وصبروا على الأذى ، ولم يستوحشوا لقلّة عددهم ، وهم قومه وعشيرته ، وهم من قريش والعرب لا تدين إلا لهم ، ولا تقر بعزة ومنعة غير عزتهم ومنعتهم ، فهم أولى بالخلافة من غيرهم — وبعد حوار طويل واقترح بعض الأنصار للتوفيق بين الرأيين أن يكون منهم أمير ومن المهاجرين أمير ، ورَفَضَ المهاجرون ذلك الاقتراح أيضاً تمت البيعة في هذا المجلس لأبي بكر التَّيْمِيّ القرشي

لم يكن عليّ حاضراً هذا الاجتماع لاشتغاله هو وأهل بيته في جهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذ العدة لدفنه ، فلما بلغه خبر البيعة لأبي بكر لم يرض عنها وتكوّن رأى ثالث وهو أن تكون الخلافة في بيت النبي ، وأقرب الناس إليه صلى الله عليه وسلم عمه العباس ابن عبد المطلب وابن عمه علي بن أبي طالب ، ولكن العباس لم يكن من السابقين إلى الإسلام ، فقد حضر غزوة بدر مع المشركين ، ولم يسلم إلا آخرأ ، فأولى الناس من قرابة النبي علي بن أبي طالب وهو من أول الناس إسلاماً ، وزوج فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم ، وجهاده وفضله وعلمه لا ينكر — وحجة أصحاب هذا الرأي أن أقرب الناس إلى النبي أولى أن يخلفوه ، وأن بيت بني هاشم خير من بيت أبي بكر ، فالعرب للاولين أطوع وأن المهاجرين احتجوا على الأنصار بأنهم قوم النبي وعشيرته فآل النبي وأقربهم اليهم أولى ، كما جاء في نهج البلاغة أن علياً سأل عما حدث في سقيفة بني ساعدة فقال فماذا قالت قريش ؟ قالوا احتجّت بأنها شجرة الرسول صلى الله عليه وسلم فقال عليّ « احتجوا بالشجرة ، وأضاعوا الثمرة » يريد أن المهاجرين احتجوا بأنهم من شجرة النبي ، فأولى بالاحتجاج من يجمعهم والنبيّ أنهم من ثمرة قريش ، وهم قرابته ، — وسواء صح هذا القول عن عليّ أو لم يصح فهو تعبير صادق عما في نفسه ، دعا

إلى هذا الرأي على^١، وأيده بعض بني هاشم، وأيده الزبير بن العوام، وعطف عليه بعض الأنصار لما كان موقفهم وموقف على^٢ سواء في ضياع الأمر من أيديهم، ولم يبايع على^٣ أبابكر إلا بعد لأي.

وظلت النظريات الثلاث تتعارض، ووجد في العصور المختلفة من يؤيدها ويدافع عنها، حتى النظرية الأولى — وهي نظرية الأنصار — فقد كان قوم يعتنقونها وإن لم يظهروا ظهوراً ييناً في التاريخ^(١) أما النظريتان الأخيرتان فكان الحرب بينهما أحكم، والجدال أشد.

لم تمت النظرية القائلة بأولوية على في عهد أبي بكر وعمر، ولكن سكنت وخذت، وساعد على خمودها عدل أبي بكر وعمر، وانتصافهما حتى من أنفسهما، وأنهما لم يعبرا العصبية القبلية أي التفات، وزاد في سكونها اشتغال الناس بالحروب والفتوح، ونجاحهم، فلم يجد الناقون مجالا يدخلون منه على الناس لاثارتهم الفتن ولما ولي عثمان تبرم على وأنصاره، وزادهم تبرماً أن عثمان — وهو أموي — استعان بالأمويين، فكان أكثر عماله منهم، وكان كاتبه وأمين سره مروان بن الحكم الأموي، ومروان هذا وشيعته هدموا كل ما بناه الاسلام من قبل، ودعمه أبو بكر وعمر، من محاربة العصبية القبلية، وبث الشعور بأن العرب وحدة، وحكموا كأمويين لا كعرب، فحرك ذلك ما كان كامناً من العداوة القديمة الجاهلية بين بني هاشم وبني أمية، وانتشرت الجمعيات السرية في آخر عهد عثمان تدعو إلى خلعه وتولية غيره، ومن هذه الجمعيات من كانت تدعو إلى على، ومن أشهر الدعاة له عبد الله بن سبأ (وكان من يهود اليمن فأسلم) فقد تنقل في البصرة

(١) أنظر شرح ابن أبي الحديد على نهج البلاغة جزء ٢ ص ٦ ففيها قصيدة شاعر يؤيد

الأنصار وينصرهم على قریش

والكوفة والشام ومصر يقول «انه كان لكل نبي وصي ، وعلى وصي محمد ، فمن أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ووثب على وصيه » — وكان من أكبر الذين ألبوا على عثمان حتى قتل

لما قتل عثمان بايع علياً كثير من المسلمين فتحققت بذلك نظرية القائلين بحق علي في الخلافة من يوم وفاة رسول الله ، وأيده كثير من كبار المهاجرين لا تطباق نظريتهم عليه أيضاً ، وخرج عليّ على طلحة والزبير ومعاوية ، وكأهم يلصق بعلي تهمة أن له ضلعاً في قتل عثمان ، وعلى أقل تقدير أنه قعد عن نصرته وكان في استطاعته رد الناس عنه ، وكان من حجة بعضهم أنه — وقد بويح — يجب عليه أن يقتص من قتلة عثمان ، ويقول كل من طلحة والزبير أنه أولى بالمطالبة بدم عثمان ، لأنه من الستة الذين انتخبهم عمر للشورى ، ومن السابقين الاولين للاسلام ، ويقول معاوية أنه أولى الناس رحماً بعثمان ، وأقوى أهل بيته على المطالبة بدمه

ووجدت في هذا الموقف طائفة من كبار الصحابة لم تبائع علياً ولم تبائع غيره ، ولم تشرك في شيء من الخلاف القائم ؛ وفضلت العزلة ، من أشهرهم عبد الله ابن عمر بن الخطاب ، ومحمد بن مسلمة ، وسعد بن أبي وقاص ؛ وأسامة بن زيد ، وحسان بن ثابت ، وعبد الله بن سلام ، ومن قول سعد بن أبي وقاص في ذلك « أن رسول الله أمرني اذا اختلف الناس أن أخرج بسيفي فأضرب به عرض أحد ، فاذا تقطع أتيت منزلي فكنت فيه لا أبرحه ، حتى تأتيني يد خاطية أومنية قاضية » فاما طلحة والزبير فقد انتهى أمرهما سريعاً بانهما وقتلتهما في وقعة الجمل ، وأما معاوية فكان أصعب منالا ، اذ كان لديه جند الشام المنظم الطائع وكان بين علي ومعاوية من وقعة صفين ما كان ، فلما أحس معاوية بأن الدائرة كادت تدور عليه أوعز الى جنوده برفع المصاحف على رؤوس الرماح ، وطلب التحكيم الى كتاب الله

هذه خلاصة تاريخية موجزة اضطررنا لذكرها لأن عليها تأسست ثلاث فرق من أكبر الفرق الإسلامية ، وهي الخوارج والشيعة والمرجئة

الفصل الأول

الخوارج

لما كانت وقعة صفين بين علي ومعاوية ، وطلب معاوية تحكيم كتاب الله اختلف أصحاب عليّ أيقبلون هذا التحكيم لأنهم يحاربون لأعلاء كلمة الله وقد دُعوا اليها ، أم لا يقبلون لأنها خُدعة حربية ، لجأ اليها معاوية وصحبه لما أحسوا بالهزيمة ، وبعد جدال وتردد قبل عليّ التحكيم ، واختار معاوية عمرو بن العاص ليثله واختار أصحاب عليّ أبا موسى الأشعري ، اذ ذاك ظهر قوم من جند عليّ أكثرهم من قبيلة تميم ، نفروا من أن يُحكّم أحد في كتاب الله ، ورأوا أن التحكيم خطأ ، لأن حكم الله في الأمر واضح جلي ، والتحكيم يتضمن شك كل فريق من المحاربين أيهما الحق ، وليس يصح هذا الشك ، لأنهم وقتلهم إنما حاربوا وهم مؤمنون — بلا شك — أن الحق في جانبهم ، هذه المعاني المختلفة في نفوسهم صاغها أحدهم في الجملة الآتية « لا حُكَمَ الا لله » فسرت الجملة سير البرق الى من يعتنق هذا الرأي ، وتجاوزتها الإنحاء ، وأصبحت شعار هذه الطائفة

طلبوا من عليّ أن يقر على نفسه بالخطأ بل بالكفر ، لقبوله التحكيم ، ويرجع عما أبرم مع معاوية من شروط ، فان فعل عادوا اليه وقتلوا معه ، فأبى عليّ ، وكان

موقفه في منتهى الدقة ، فكيف يرجع عن اتفاق أمضاء ، والدين يأمر بالوفاء بالعهود ولورجع لتفرق عنه أكثر أصحابه ، وكيف يقر على نفسه بالكفر ولم يشرك بالله شيئاً منذ آمن ، فضايقوه بالاكثر من « لا حكم الا لله » فاذا خطب في المسجد قاطعوه بقولهم « لا حكم الا لله » فتجاوبت بها أئمة المسجد ، ورآه أحدهم فتلا « وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » يُعرض به ، وزاد بعض الناس ميلا الى رأيهم فشل الحكمين في حكمهما ، وخيبة الآملين في أن التحكيم يحقن الدماء ويعيد المسلمين الى الوئام ، حتى انضم اليهم بعض القراء من جيش علي — فلما يئست هذه الجماعة من رجوع علي الى رأيهم اجتمعوا في منزل أحدهم ، وخطب خطيبهم يقول « أما بعد فوالله ما ينبغي لقوم يؤمنون بالرحمن ، وينيبون الى حكم القرآن ، أن تكون هذه الدنيا ... آثر عندهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقول بالحق ، وإن من ضرر ، فإنه من يمين ويضر في هذه الدنيا فإن ثوابه يوم القيامة رضوان الله عز وجل ، والخلود في جناته ، فاخرجوا بنا — اخواننا — من هذه القرية الظالم أهلها الى بعض كور الجبال ، أو الى بعض هذه المدائن ، منكرين لهذه البدع المضلة » ثم خرجوا الى قرية قريبة من الكوفة تسمى « حروراء » وسموا حينذاك بالحرورية نسبة الى هذه القرية ، وبالحكمة أي الذين يقولون لا حكم الا لله — وهما اسمان كثيراً ما يطلقان على الخوارج ، وأمروا عليهم رجلا منهم اسمه عبد الله ابن وهب الراسبي — واسم الخوارج جاء من أنهم خرجوا على علي وصحبه ، وإن كان منهم من يشتق اسم الخوارج من الخروج في سبيل الله أخذاً من قوله تعالى « وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ » وسموا أيضاً « الشراة » أي الذين باعوا أنفسهم لله

من قوله تعالى « وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ » وقد حاربهم على في الوقعة الشهيرة بوقعة النهروان وهزمهم وقتل منهم كثيراً ، ولكنه لم يبد لهم ولم يبد فكرتهم . وزادت هذه الهزيمة في ايمان الخوارج في كرهه على ، حتى دبوا له مكيدة قتله ، فقتله عبد الرحمن بن ملجم الخارجي ، وقد كان زوجاً لامرأة قُتِل كثير من أفراد أسرتها في وقعة النهروان

وظلت الخوارج شوكة في جنب الدولة الأموية يهددون بها ويحاربونها حرباً تكاد تكون متواصلة في شدة وشجاعة نادرة ، وأشرفوا في بعض مواقفهم على القضاء على الدولة ، وظل المهلب بن أبي صفرة يجالدهم ويعانى في قتالهم الشدائد والأهوال السنين الطوال ، مما لا محل لذكره هنا ^(١) غير أنا نشير الى أنهم كانوا فرعين : فرعاً بالعراق وما حولها ، وكان أهم مركز لهم « البطائح » بالقرب من البصرة ، وقد استولوا على كيرمان وولاية فارس وهددوا البصرة ، وهؤلاء هم الذين حاربهم المهلب ، واشتهر من رجالهم نافع بن الأزرق وقطري بن الفجاءة وفرعاً بجزيرة العرب استولوا على اليمامة وحضرموت واليمن والطائف ، ومن أشهر أمرائهم فيها أبو طالوت ونجدة بن عامر وأبو فديك ولم يتغلب الأمويون على هذين الفرعين الا بعد حروب طويلة شديدة استمرت طول عهد الدولة الأموية

ثم كانوا كذلك في الدولة العباسية ، ولكن لم يكن لهم من القوة ما كان لهم في عهد الأمويين ، فقد ضعف شأنهم ، وانحط قوادهم

تعاليمهم : ابتدأ الخوارج كلامهم في أمور تتعلق بالخلافة ، فقالوا بصحة

(١) قد ألف الاقدمون كثيراً من الكتب في أخبار الخوارج خاصة كالمدايني ولكنها لم تصل إلينا وقد جمع ابن أبي الحديد في الجزء الاول من شرح نهج البلاغة أخبارهم مطولة في موضعين من كتابه فارجع اليه

خلافة أبي بكر وعمر لصحة انتخابهما ، وبصحة خلافة عثمان في سنيه الأولى ، فلما غير وبدل ، ولم يسر سيرة أبي بكر وعمر ، وأتى بما أتى من أحداث وجب عزله ، وأقروا بصحة خلافة عليّ ، ولكنهم قالوا أنه أخطأ في التحكيم ، وحكموا بكفره لما حكم ، وطعنوا في أصحاب الجمل طلحة والزبير وعائشة ، — كما حكموا بكفر أبي موسى الأشعري وعمرو بن العاص « وقد قبض على أحدهم وقدم الى زياد بن أبيه ، فسأله زياد عن أبي بكر وعمر فقال فيهما خيرا ، وسأله عن عثمان فقال كنت أتوكل على عثمان — على أحواله — في خلافته ست سنين ، ثم تبرأت منه بعد ذلك ، وشهد عليه بالكفر ، فسأله عن أمير المؤمنين عليّ فقال أتولاه الى أن حكم ، ثم أتبرأ منه بعد ذلك ، وشهد عليه بالكفر ، فسأله عن معاوية فسبه سباً قبيحاً ^(١) الخ فترى من هذا أن كلامهم كان يدور حول تشریح أعمال الخلفاء وأنصارهم والبحث فيمن يستحق أن يكون خليفة ومن لا يستحق ، ومن يكون مؤمناً ومن لا يكون وقد وضعوا نظرية للخلافة وهي أن الخلافة يجب أن تكون باختيار حر من المسلمين ، وإذا اختير فليس يصح أن يتنازل أو يحكم ، وليس بضروري أن يكون الخليفة قرشياً ، بل يصح أن يكون من قريش ومن غيرهم ولو كان عبداً حبشياً ، وإذا تم الاختيار كان رئيس المسلمين ، ويجب أن يخضع خضوعاً تاماً لما أمر الله ، والا وجب عزله

ولهذا أمروا عليهم من اختاروه منهم ، وسموا عبد الله بن وهب الراسبي أمير المؤمنين ، ولا يكن قرشياً وإنما هو من «راسب» حى من الأسد ، وكذلك أمراؤهم من بعده — وقد خالفوا بهذا نظرية الشيعة القائلة بأنحصار الخلافة في بيت النبي عليّ وآله ، وأهل السنة القائلين بأن الخلافة في قريش — وهذه النظرية هي التي

دعيتهم الى الخروج على خلفاء بنى أمية ثم العباسيين لاعتقادهم أنهم جائرون غير عادلين ، لم تنطبق عليه شروط الخلافة في نظرهم

نرى الخوارج في أول أمرهم كانت صبغتهم سياسية محضة ، ثم نراهم في عهد عبد الملك بن مروان قد مزجوا تعاليمهم السياسية بأبحاث لاهوتية ، وأكبر من كان له أثر في ذلك الازارقة ، اتباع نافع بن الأزرق ، وأهم ما قرره الخوارج في ذلك أن العمل بأوامر الدين — من صلاة وصيام وصدق وعدل — جزء من الايمان وليس الايمان الاعتقاد وحده ، فمن اعتقد أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله ثم لم يعمل بفروض الدين وارتكب الكبائر فهو كافر

والخوارج لم يكونوا وحدة ، ولم يكونوا كتلة واحدة ، انما كان واضحا فيهم الطبيعة العربية البدوية ، فسرعان ما يختلفون ، وينضمون تحت ألوية مختلفة يضرب بعضهم بعضاً ، ولو اتحدوا لكانوا قوة في منتهى الخطورة على الدولة الأموية — لذلك لا نستطيع أن نذكر ما هو من تعاليمهم مشترك بين جميعهم الا النظريتين السابقتين ، نظرية الخلافة ، ونظرية أن العمل جزء من الايمان ، حتى هاتان النظريتان ليستا من اعتقاد جميعهم الا بقليل من التسامح ، فمنهم من يرى أن لا حاجة للامة الى امام . وانما على الناس أن يعملوا بكتاب الله من أنفسهم ، ويظهر أن هذه الفكرة هي التي كان يفهمها بعضهم من جملتهم المشهورة « لا حكم الا لله » بدليل ما روى أن علي بن أبي طالب لما سمعهم يقولون « لا حكم الا لله » قال « كلمة حق يراد بها باطل ، نعم أنه لا حكم الا لله ولكن هؤلاء يقولون لا إمرة الا لله — وإنه لا بد للناس من أمير برأو فاجر ، يعمل في أمرته المؤمن ، ويستمتع فيها الكافر ، ويبلغ الله فيها الأجل ، ويُجْمَعُ به النفي ، فيقاتل به العدو ، وتأمين به السبل ، ويؤخذ به للضعيف من القوى حتى يستريح برّاً ، ويستراح من فاجر »

وقد قال ابن أبي الحديد « أن الخوارج كانوا في بدء أمرهم يقولون ذلك ، ويذهبون الى أنه لا حاجة الى الامام ثم رجعوا عن ذلك القول لما أمروا عليهم عبد الله بن وهب الراسبي » (١)

على كل حال قد اتفق جمهور الخوارج على النظريتين السابقتين وتفرقوا الى فرق بلغت في العدد نحو العشرين ، كل فرقة تخالف الأخرى في بعض تعاليمها ولا يسع هذا المختصر ذكر جميعها (٢) غير أنا نذكر هنا أن من أشهر فرقهم الأزارقة اتباع نافع بن الأزرق ، وكان من أكبر فقهاءهم ، وقد كفر جميع المسلمين ماعداهم وقال أنه لا يحل لأصحابه المؤمنين أن يجيبوا أحداً من غيرهم الى الصلاة اذا دعاهم اليها ، ولا أن يأكلوا من ذبائحهم ، ولا أن يتزوجوا منهم ، ولا يتوارث الخارجى وغيره ، وهم مثل كفار العرب وعبيدة الاوثان لا يقبل منهم الا الاسلام والسيف ، ودارهم دار حرب ، ويحل قتل أطفالهم ونسائهم ، ولا تحل التقيّة (٣) لان الله يقول « إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً » واستحل الفدر بمن خالفه ، وكفر القعدة أى الذين يقعدون عن القتال مع قدرتهم عليه ، ولو كان هؤلاء القعدة على مذهبهم

ومن فرقهم النجدات ، اتباع نجدة بن عامر وأهم تعاليمه التى انفرد بها أن المخطئ بعد أن يجتهد معذور ، وأن الدين أمران معرفة الله ومعرفة رسوله ، وما عدا ذلك فالناس معذورون بجهله الى أن تقوم عليهم الحجة ، ومن أداه اجتهاده الى استحلال حرام أو تحريم حلال فهو معذور ، وعظم جريمة الكذب على الزنا وشرب الخمر .

(١) جزء ١ ص ٢١٥ (٢) ارجع الى ذلك فى الملل والنحل للشهرستانى والمقالات الاسلامية للاشعرى والفرق بين الفرق للبغدادى

(٣) أنظر معناها عند الكلام على الشيعة

ولنافع مع نجدة بن عامر مناقشات طويلة ممتعة حول هذه المبادئ^(١)
 كذلك من أشهر فرقهم « الأباضية » نسبة الى رئيسهم عبد الله بن أباض التميمي
 ولا يزال أتباعه في المغرب الى اليوم ، وهم لم يتغالوا في الحكم على مخالفيهم كالأزارقة ،
 بل قالوا يحل التزوج منهم ، ويتوارث الخارجى وغيره ، ونزعتهم أميل الى المسالمة ،
 فقالوا لا يحل قتال غير الخوارج وسبيهم في السر غيلةً ، ولا يجوز قتالهم الا بعد
 الدعوة واقامة الحججة وعلان القتال الخ وقد ظهر عبد الله بن إباح في النصف الثاني
 من القرن الأول للهجرة وعاش أتباعه في أكثر أحوالهم مسالمين للخليفة
 وفرقة أخرى من فرقهم « الصفريّة » أتباع زياد بن الأصفر وهم لا يختلفون
 كثيراً في تعاليمهم عن الأزارقة

وهذه الفرق الأربع الأزارقة والنجدات والاباضية والصفريّة هي أشهر فرق
 الخوارج وأكثرها دورانا في الكتب

والخوارج يقولون أن ممن اعتنق مذهبهم عكرمة مولى ابن عباس ومالك بن
 أنس الصحابي — وكان الحسن البصري يوافق الخوارج في رأيهم بأن عليا أخطأ في
 التحكيم ولكن لا يعتنق مذهبهم « وكان اذا جلس فتمكن في مجلسه ذكر عثمان
 فترحم عليه ثلاثا ، ولعن قتلته ثلاثا ، ويقول لو لم نلعنهم للعنا ، ثم يذكر عليا
 فيقول لم يزل أمير المؤمنين على رحمه الله يتعرف النصر ويساعده الظفر حتى حُكِمَ ،
 فلم تحكّم والحق معك ؟ ألا تمضى قدما — لا أبالك — وأنت على الحق ؟ »^(٢)
 وكان مما حاربهم به المهلب بن أبي صفرة اختلاق الأحاديث عليهم ، فقد
 كان يضع الحديث ليشد به أزر قومه ويضعف به من أمر الخوارج ما اشتد ،

(١) اقرأها في الجزء الثاني من الكامل المبرد و ص ٣٨٢ من الجزء الأول من ابن أبي الحديد

(٢) الكامل جزء ٢ ص ١٣٦

ويقول أن الحرب خُذعة ، وكان حى من الأزد اذا رأوا المهلب خارجا قالوا
« راح يكذب » وفيه يقول رجل منهم

أنت الفقى كل الفقى لو كنت تصدق ما تقول^(١)

ولعل هذا وأمثاله هو السرفيا ترى من أحاديث كثيرة ملئت بها كتب
التاريخ والأدب فى ذم الخوارج

كان أكثر من اعتنق مبدأ الخوارج عربا بدوا ، وقد انضم اليهم بعض
الموالى اعجابا برأيهم الديمقراطى فى الخلافة ، فليس بضرورى أن يكون من قریش
ولا من العرب ، فهم فى نظرهم الى الخلافة شعوبيون ولكن مع هذا لم ينضم اليهم
من الموالى إلا قليل ، لأهم وأكثرهم بدو شديدو العصبية لجنسهم ، يحتقرون
الموالى ويزدرونهم ، روى ابن أبى الحديد أن رجلا من الموالى خطب امرأة خارجية
فقالوا لها « فضحتنا » ، ولولا هذه العصبية العربية الجافة لتبعهم من الموالى كثير
والناظر فى تاريخهم يتبين فيهم مميزات واضحة أهمها

١ — التشدد فى العبادة والانهماك فيها ، يصفهم الشهرستانى بأنهم أهل صوم
وصلاة ، ويصفهم المبرد « بأنهم فى جميع أصنافهم يبرءون من الكاذب ، ومن ذى
المعصية الظاهرة » وقد قتل أحدهم زياد^٢ ، ثم دعا مولاه فاستوصفه أمره ، فقال
« ما أتيتك بطعام بنهار قط ، ولا فرشت له فراشا بليل قط »

ولما أرسل على عبد الله بن العباس لأهل النهر وأن من الخوارج « رأى منهم
جباها قرحة لطول السجود وأيديا كثفنيات الأبل ، عليهم قمص مرخصة وهم
مشرون » ولعل خير ما قيل فيهم ما قاله أبو حمزة الخارجى فى وصف أصحابه

(١) الحكاية فى ابن أبى الحديد جزء ١ ص ٣٨٦

« شباب والله مكتهلون في شبابهم ، غَضِيضَةٌ عن الشر أعينهم ، ثَقِيلَةٌ عن الباطل أرجلهم ، أنضاء عبادة ، وأطلاح سهر ، فنظر الله اليهم في جوف الليل منعنية أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مر أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقاً إليها ، وإذا مر بآية من ذكر النار شقق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه ، موصول كلالهم بكلالهم ، كلال الليل بكلال النهار ، قد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم ، واستقلوا ذلك في جنب الله ، حتى إذا رأوا السهام قد فوّقت ، والرماح قد أشرعت ، والسيوف قد انتضيت ، ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت ، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله ، ومضى الشاب منهم قدماً حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه ، ويخضبت بالدماء نحاس وجهه ، فأسرعت إليه سباع الأرض ، وانحطت إليه طير السماء ، فكم من عين في منقار طير طالما بكى صاحبها في جوف الليل من خوف الله ، وكم من كف زالت عن معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها في جوف الليل بالسجود لله » وقد غلوا في أنظارهم حتى عدوا مرتكب الكبيرة — وأحياناً الصغيرة — كافراً ، وخرجوا على أئمتهم للهفوة الصغيرة يرتكبونها ، وتشدد كثير منهم في النظر إلى غيرهم من المسلمين فعدهم كفاراً ، بل كانوا يعاملونهم أشد من معاملة الكفار ، ويحكمون أن واصل بن عطاء — رأس المعتزلة — وقع في أيديهم فادعى أنه (مشارك مستجير) ورأى أن هذا ينجيه أكثر مما تنجيه دعواه أنه مسلم مخالف لهم ، وكذلك كان ، واشتدوا في معاملة مخالفينهم من المسلمين حتى كان كثير منهم لا يرحم المرأة ولا الطفل الرضيع ولا الشيخ القاني بل لم يرضوا من مخالفينهم أن يقولوا أن علياً أخطأ في التحكيم ، وعثمان أخطأ فيما أحدث ، بل لا بد أن يقر بكفرهما وكفر من ناضرهما ، وطلبوا من عبد الله بن الزبير أن يتبرأ من أبيه ، ولم يكتفوا من عمر بن عبد العزيز بعدله وجمال سيرته بل طلبوا منه كذلك أن

يتبرأ مما تبرأوا هم منه، وأن يلعن أسلافه من بنى أمية ، ولعل هذا التشدد واقدامهم على سفك دماء معارضيهم هو أكبر ماشوه حركتهم

٢ — أخلصوا لعقيدتهم ، وقاتلوا دفاعاً عنها . ولهذا نظر اليهم كثير من خيرة الناس نظرة عطف واشفاق ، فقد روى أن علي بن أبي طالب في آخر أيامه قال « لا تقاتلوا الخوارج بعدى ، فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه » يريد أن الخوارج طلبوا الحق وحاموا عن عقيدة اعتقدوها وإن أخطؤا فيها ، وأما معاوية فكان لا يطلب حقاً ، وإنما كان يطلب باطلاً ويحامي عنه وقد أدركه ، وقال عمر بن عبد العزيز لبعض الخوارج (انى قد علمت أنكم لم تخرجوا مخرجكم هذا لطلب دنيا أو متاع ، ولكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم سبيلها) وقد حملهم شديد إيمانهم أن ينتهزوا كل فرصة للدعوة الى مبادئهم جهراً ، ويرسلوا الرسل الى خلفاء بنى أمية يدعونهم ، ولم يرضوا بأى نوع من أنواع التضحية ، فتاريخهم مملوء بالشجاعة النادرة . يقول صاحب العقد الفريد « وليس فى الأفرار (١) كلها أشد بصائر من الخوارج ، ولا أشد اجتهاداً ، ولا أوطن أنفساً على الموت ، منهم الذى طعن فأنفذه الرمح فجعل يسعى الى قاتله ويقول « وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى » — وأرسل معاوية رجلاً الى ابنه من الخوارج ينصحه بالرجوع عن قتال معاوية فأبى ، فأداره فصم ، فقال له أى بنى أجيئك بابنك لعلك تراه فتحن اليه ، فقال له يا أبت ! أنا والله الى طعنة نافذة أتقلب فيها على كعوب الرمح أشوق منى الى ابنى — وكان الخارجى يقاتل على السوط يؤخذ منه أشد قتال — وقال كعب « أن فتك الحرورية يفضل فتك غيرهم بعشرة أبواب — وأرسل ابن زياد أسلم ابن زُرعة فى ألفين لمحاربة فرقة من الخوارج فهزمه أبو بلال الخارجى فى أربعين

(١) جمع الجمن لفرقة

من أصحابه فقال له ابن زياد ويلك ، أتمضي في ألفين فتنهزم لجملة أربعين ؟ فكان اذا خرج أسلم إلى السوق أو مر بصبيان صاحوا به أبو بلال وراءك — واشتركت نساء الخوارج في القتال مع رجالهم ، فقد حدثنا الرواة عن كثير من نساءهم أبلين في القتال خير بلاء ، كالذي روى أبو الفرج في الأغاني أن امرأة من الخوارج كانت مع قطري بن الفجاءة يقال لها أم حكيم ، وكانت من أشجع الناس وأجهم وجهاً ، وأحسنهم بالدين تمسكا ، وخطبها جماعة من الخوارج فردتهم ولم تجبهم ، فأخبر من شاهدها في الحرب أنها كانت تحمل على الناس وترتجز

أَحْمِلُ رَأْسًا قَدْ سَمِئَتْ حَمْلُهُ وَقَدْ مَلَأْتُ دَهْنَهُ وَغَسَلَهُ
أَلَا قَتَى يَحْمِلُ عَنِّي ثِقْلَهُ

هذه الصفات أغنى الشدة في الدين والاخلاص للعقيدة والشجاعة النادرة يضاف إليها العربية الخالصة هي التي جعلت للخوارج أدباً خاصاً يمتاز بالقوة شعراً ونثراً ، تحيز للفظ ، وقوة في السبك ، وفصاحة في الأسلوب ، لج عبيد الله بن زياد في حبس الخوارج وقتلهم فكلم فيهم فأبى وقال أقمعُ النفاق قبل أن ينجم ، لكلام هؤلاء أسرع إلى القلوب من النار إلى اليراع — وأتى عبد الملك بن مروان برجل منهم فدعاه عبد الملك إلى الرجوع عن مذهبه ، ثم زاد في الاستدعاء ، فقال له الخارجي ليتغنىك الأولى عن الثانية ، وقد قلتَ فسمعتُ ، فاسمع أقل ، قال له قل فجعل يبسط له من قول الخوارج ويزين له من مذهبهم بلسان طلق ، وألفاظ بينة ، ومعان قريبة ، فقال عبد الملك « لقد كاد يوقع في خاطري أن الجنة خلقت لهم ، وأنى أولى بالجهاد منهم ، ثم رجعت إلى ما ثبت الله على من الحجة وقرر في قلبي من الحق » واشتهر منهم مصارع الخطباء كأبي حمزة وقطري بن الفجاءة وفحول الشعراء كعمران بن حطان والطريق ملاح ، ومن أشهر علمائهم باللغة والأدب

أبو عبيدة معمر بن المثنى ، وهو من أوسع أهل البصرة علماً باللغة والأدب والنحو
واخبار العرب وأيامها ، . ومن أكثر المؤلفين في صدر الدولة العباسية فقد روى له نحو
من مائتي مصنف ، وهو أحد الأفراد القلائل من الموالى الذين اعتنقوا مذهب
الخوارج فهو من أصل يهودى فارسى ، وكان يكره العرب ويؤلف في مثالبها —
وليس هنا موضع عرض أدب الخوارج والمختار من شعرهم ونثرهم وميزتهم في
الأدب عمن عداهم فموضع ذلك الجزء الخاص بالحياة الأدبية من كتابنا ان شاء الله

الفصل الثانى

الشيعة

كانت البذرة الأولى للشيعة الجماعة الذين رأوا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم
أن أهل بيته أولى الناس أن يخلفوه ، وأولى أهل البيت العباس عم النبي وعلى بن
عمه ، وعلى أولى من العباس ، لما بينا من قبل والعباس نفسه لم ينازع علياً في
ألوليته للخلافة ، وان نازعه في أوليته في الميراث في « فذلك »^(١)

وظهرت فكرة الدعوة لعلى بسببته كما يدل عليه التاريخ ، وتتلخص في أن
لا نص على الخليفة ، فترك الأمر لأعمال الرأى ، فالأنصار أداهم رأيهم الى أنهم أولى
بها ، والمهاجرون كذلك ، وأصحاب على الى أن الخلافة ميراث أدبى ، ولو كان النبي
يورث في ماله لكان أولى به قرابته ، فكذلك الارث الأدبى — ولم يرد من طريق

(١) نعم ان الراوندية نصوا على أن الخلافة من حق العباس وأولاده ولكن هذا القول

لم يظهر في أيام العباس وانما ظهر في أيام المنصور والمهدى

صحيح أن علياً ذكر نصاً — من آية أو حديث — يفيد أن رسول الله عيّنه للخلافة ولو كان لديه نص وذكره لما بقي الأنصار والمهاجرون على رأيهم ولبايعوه ، بل ما بين أيدينا من تاريخ يدل أن علياً بايع أبا بكر ، وإن كان بعد تلكؤ ، كما بايع عمر وعثمان من بعده ، وكل ما صح عن علي أنه كان يرى أنه كان أولى بالأمر منهم ، ويحتج بأنه وأهل بيته الثمرة وقريش الشجرة ، والثمره خير ما في الشجرة ، ويروى البخاري عن ابن عباس أن علياً رضى الله عنه خرج من عند النبي صلى الله عليه وسلم في وجهه الذي توفي فيه فقال الناس يا أبا الحسن كيف أصبح رسول الله ؟ فقال أصبح بحمد الله بارئاً ، فأخذ بيده العباس رضى الله عنه وقال أنت والله بعد ثلاث عبدُ العصا ، وإني والله لأرى رسول الله صلى الله عليه وسلم سيتوفى من وجهه هذا ، إني لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت ، فاذهب بنا إليه نسأله فيمن هذا الأمر ، فإن كان فينا علمناه ، وإن كان في غيرنا كلمناه فأوصى بنا ، فقال علي رضى الله عنه أما والله لئن سألتها فمُنِعْنَاهَا لا يعطيناها الناس بعده ، وإني والله لا أسأله .

وكان جمع من الصحابة يرى أن علياً أفضل من أبي بكر وعمر وغيرهما ، وذكروا أن ممن كان يرى هذا الرأي عماراً وأبا ذر وسلمان الفارسي وجابر بن عبد الله والعباس وبنوه وأبي بن كعب وحذيفة إلى كثير غيرهم

ونرى بعد هذا العصر أن الفكرة تطورت فقال شيعة علي^(١) « أن الإمامة ليست من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة ، ويتعين القائم بتعيينهم ، بل هي ركن الدين ، وقاعدة الاسلام ، ولا يجوز لنبي اغفالها ، ولا تفويضها إلى الأمة ، بل يجب عليه تعيين الامام لهم ، ويكون معصوماً من الكبائر والصغائر ، وأن علياً

(١) شيعة الرجل أصحابه وأتباعه

رضى الله عنه هو الذى عينه صلوات الله وسلامه عليه ، بنصوص ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم ، لا يعرفها جهابذة السنة ولا ثقله الشريعة ، بل أكثرها موضوع أو مطعون فى طريقه أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة»^(١)

ومن هنا نشأت فكرة الوصية ، ولقب على بالوصى ، يريدون أن النبي أوصى لعل بالخلافة من بعده ، فكان وصى رسول الله ، فعلى ليس الامام بطريق الانتخاب بل بطريق النص من رسول الله ، وعلى أوصى لمن بعده ، وهكذا كل امام وصى من قبله ، وانتشرت كلمة الوصى بين الشيعة واستعملوها ، يروون أن أبا الهيثم وكان بدريا يقول

كنا شعَارَ نبينا ودِثَّارِهِ يَفْدِيهِ مِنَّا الرُّوحُ وَالْأَبْصَارُ
إِنَّ الْوَصِيَّ إِمَامُنَا وَوَلِيُّنَا بَرِّحَ الْخَفَاءَ وَبَاحَتِ الْأَسْرَارُ
ويروون أن غلاماً خرج من جيش عائشة فى وقعة الجمل وهو يقول
نحن بنو ضبة أعداء على ذاك الذى يُعرف قِدْماً بالوصى
وفارس الخيل على عهد النبى ما أنا عن فضل على بالعمى
لكننى أنعى ابن عفان التقي ان الوليَّ طالبٌ نَارَ الولي

وقد سقنا هذا لبيان أن كلمة الوصى شاعت فى اطلاقها على على وان كنا نشك فى نسبة هذه الأبيات الى قائلها

وقد أدّاهم هذا النظر الى أمور ، منها القول بعصمة الأئمة على ومن بعده ، فلا يجوز الخطأ عليهم ، ولا يصدر منهم الا ما كان صوابا ، ومنها رفع مقام على عن غيره من الصحابة حتى أبى بكر وعمر ، ولأقص عليك مثلاً مما يقوله ابن أبى الحديد فى على مع أنه يعد من معتدلى الشيعة ، قال « يقول أصحابنا — وهم قد سلكوا

طريقة مقتصدة — أن عليا أفضل الخلق في الآخرة ، وأعلام منزلة في الجنة ، وأفضل الخلق في الدنيا ، وأكثرهم خصائص ومزايا ومناقب ، وكل من عاذه أو حاربه أو أبغضه فانه عدو لله سبحانه وتعالى وخالد في النار مع الكفار والمنافقين ، الا أن يكون ممن قد ثبتت توبته ، ومات على توبته وحبه ، فاما الأفاضل من المهاجرين والأنصار الذين ولوا الامامة قبله فلو أنه أنكر امامتهم وغضب عليهم فضلا عن أن يشهر عليهم السيف أو يدعو الى نفسه لقلنا أنهم من الهالكين كما لو غضب عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله ، لأنه قد ثبت أن رسول الله قال له (لعل) حربك حربي ، وسلمك سلمى ، وانه قال اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، وقال له لا يحبك الا مؤمن ، ولا يبغضك الا منافق ، ولكننا رأينا رضى امامتهم وبايعهم وصلى خلفهم . . فلم يكن لنا أن نتعدى فعله ولا نتجاوز ما اشتهر عنه ، ألا ترى أنه لما برى من معاوية برثنا منه ، ولما لعنه لعناه ، ولما حكم بضلال أهل الشام ومن كان فيهم من بقايا الصحابة كعمرو بن العاص وعبد الله ابنه وغيرها حكمنا أيضا بضلالهم والحاصل أنا لم نجعل بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم الارتبة النبوة ، وأعطيناه كل ما عدا ذلك من الفضل المشترك بينه وبينه ، ولم نطعن في أكابر الصحابة الذين لم يصح عندنا أنه طعن فيهم ، وعاملناهم بما عاملهم هو عليه السلام » اهـ^(١)

ودعاهم القول بأفضلية علي وعصمته الى استعراض ما حدث من الصحابة في بيعة ابى بكر وعمر وعثمان ، وكان من هؤلاء الشيعة الغالى والمقتصد ، فمنهم من اقتصر على القول بأن أبا بكر وعمر وعثمان ومن شايعهم اخطئوا ، اذ رضوا أن يكونوا خلفاء مع علمهم بفضل علي وأنه خير منهم ، ومنهم من تغالى فكفرهم وكفر من شايعهم لأنهم — وقد أوصى النبي لعل — جحدوا الوصية ، ومنعوا الخلافة

مستحقها — وأنحدروا من ذلك الى شرح حوادث التاريخ على وفق مذهبهم ، وتأويل الوقائع تأويلاً غريباً ، أسوق لك مثلاً منه « فترغم الشيعة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعلم موته ، وأنه سيترأى أبابكر وعمر في بعث أسامة لتخاو دار الهجرة منهما ، فيصفوا الأمر لعلّ عليه السلام ، ويبايعه من تخلف من المسلمين بالمدينة على سكون وطمانينة ، فإذا جاءهما الخبر بموت رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيعة الناس لعلّ بعده كانا عن المنازعة والخلافة أبعد . . . فلم يتم ما قدر ، وتناقل أسامة بالجيش أياماً مع شدة حث رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفوذه »^(١) ولم يكتف غلاة الشيعة بهذا القدر في علّ ، ولم يقنعوا بأنه أفضل الخلق بعد النبي ، وأنه معصوم ، بل ألّهوه ، فمنهم من قال « حلّ في علّ جزء الهى ، واتحد بجسده فيه ، وبه كان يعلم الغيب ، اذ أخبر عن الملاحم وصح الخبر ، وبه كان يحارب الكفار وله النبوة والظفر ، وبه قلع باب خيبر ، وعن هذا قال والله ما قلعت باب خيبر بقوة جسدانية ، ولا بحركة غذائية ، ولكن قلته بقوة ملكوتية . . . قالوا وربما يظهر علّ في بعض الأزمان . . . والرعد صوته والبرق تبسمه . . . الخ »^(٢) وهؤلاء الذين ألّهوه ذهبوا في تأليهه جملة مذاهب ، وقالوا فيه أقوالاً غريبة لا داعى للاطالة بذكرها — وقد ذكروا أن أول من دعا الى تأليه علّ عبد الله بن سبأ اليهودى^(٣) وكان ذلك في حياة علّ ، وقد رأيت قبل طرفاً من سيرة ابن سبأ هذا ، فهو الذى حرك أبابكر الغفارى للدعوة الاشتراكية ، وهو الذى كان من أكبر من ألّب الأمصار على عثمان ، والآن ألّه علّ ، والذى يؤخذ من تاريخه أنه وضع تعاليم لهدم الاسلام ، وألّف جمعية سرية لبث تعاليمه ، واتخذ

(١) شرح نهج البلاغة جزء ١ ص ٥٤ (٢) الشهرستاني جزء ١ ص ٢٠٤

(٣) يذهب بعض الباحثين الى أن عبد الله بن سبأ رجل خرافى ليس له وجود تاريخى

محقق ، ولكننا لم نر لهم من الأدلة ما يثبت مدعاهم

الاسلام ستاراً يستتر به نياته ، نزل البصرة بعد أن أسلم ونشر فيها دعوته فطرده واليها ، ثم أتى الكوفة فأخرج منها ، ثم جاء مصر فالتف حوله ناس من أهلها ، وأشهر تعاليمه الوصاية والرجعة ، فأما الوصاية فقد أبناها قبل ، وكان قوله فيها أساس تأليب أهل مصر على عثمان بدعوى أن عثمان أخذ الخلافة من عليّ بغير حق ، وأيد رأيه بما نسب الى عثمان من مثالب ، وأما الرجعة فقد بدأ قوله بأن محمداً يرجع ، وكان مما قاله « العجب ممن يصدق أن عيسى يرجع ، ويكذب أن محمداً يرجع » ثم نراه تحول — ولا ندري لأي سبب — الى القول بأن علياً يرجع ، وقال ابن حزم أن ابن سبأ قال « لما قتل عليّ لو أتيتمونا بدماعه ألف مرة ما صدقنا موته ، ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً » وفكرة الرجعة هذه أخذها ابن سبأ من اليهودية ، فعندهم أن النبي « الياس » صعد الى السماء وسيعود فيعيد الدين والقانون ، ووجدت الفكرة في النصرانية أيضاً في عصورها الأولى ، وتطورت هذه الفكرة عند الشيعة الى العقيدة باختفاء الأئمة ، وإن الامام المختفى سيعود فيملأ الأرض عدلاً ، ومنها نبعت فكرة المهدي المنتظر

والناظر الى هذا يعجب للسبب الذي دعا الى الاعتقاد بالوهمية عليّ ، مع أن أحداً لم يقل بالوهمية محمد صلى الله عليه وسلم ، وعليّ نفسه يصرح بالاسلام وتبعيته لمحمد صلى الله عليه وسلم ، والعلة في نظرنا أن شيعة عليّ رووا له من المعجزات والعلم بالمغيبات الشيء الكثير ، وقالوا أنه كان يعلم كل شيء سيكون ، ووضعوا على لسانه ما جاء في نهج البلاغة « اسألوني قبل أن تفقدوني فوالذي نفسي بيده لا تسألوني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة ولا عن فئة تهديّ مائة وتضلّ مائة الا أنباتكم بناعقها ، وقائدها وسائقها ومُنَاح ركابها ، ومحط رحالها ، ومن يقتل من أهلها قتلاً ، ومن يموت منهم موتاً الخ » ورووا له أنه أخبر بقتل الحسين ، وأخبر بكر بلاء ،

وأخبر بالحجاج ، وأخبر بالخوارج ومصيرهم ، وبني أمية وملسكهم ، وأخبر ببني بويه وأيام دولتهم ، وأخبر عبد الله بن عباس بانتقال الأمر الى أولاده « فانه لما ولد لعبد الله بن عباس ابنه عليّ أخرجه أبوه الى عليّ بن أبي طالب فأخذه وتقلّ في فيه وحنّكه بشمرة قد لاكها ودفعه اليه وقال خذ - اليك - أبا الأملاك^(١) » هذه الأخبار وأمثالها انتشرت بين الشيعة حتى ليكادون يذكرون أنه أخبر بما كان وما سيكون الى يوم الدين ، كل هذا اذا أنت ضممت الى أن أكثر شيعة عليّ كانوا في العراق ، وكانوا من عناصر متنوعة ، والعراق من قديم منبع الديانات المختلفة ، والمذاهب الغريبة ، وقد سادت فيهم من قبل تعاليم ماني ومزدك وابن ديسان ، كما رأيت من قبل ، ومنهم نصارى ويهود سمعوا المذاهب المختلفة في حلول الله في بعض الناس - كل هذه الأمور جعلت منهم من يؤله علياً ، فأما العرب فكانوا أبعد الناس عن المقالات والمذاهب الدينية ، حياتهم البسيطة وعقليتهم التي على الفطرة تأبى عليهم أن يلصقوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ألوهية وهو الذي يكرر دائماً ما جاء في القرآن « إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ » هذه العقيدة في عليّ تناقض فكرة الاسلام البسيطة الجميلة في وحدانية الله وتنزّله عن المادة ، ومن حسن الحظ أن ليست هذه المقالة في عليّ قول الشيعة جميعهم ولا أكثرهم ، بل قول فرقة قليلة منهم هم الغلاة أساس نظرية الشيعة - كما رأيت - الخليفة أو كما يسميه هم « الامام » فعليّ هو الامام بعد محمد صلى الله عليه وسلم ثم يتسلسل الأئمة بترتيب من عند الله ، والاعتراف بالامام والطاعة له جزء من الايمان - والامام في نظرهم ليس كما ينظر اليه أهل السنة ، فعند أهل السنة الخليفة أو الامام « نائب عن صاحب الشريعة

في حفظ الدين ، فهو يحمل الناس على العمل بما أمر الله ، وهو رئيس السلطة القضائية والادارية والحربية ، ولكن ليس لديه سلطة تشريعية ، الا تفسيراً لأمر أو اجتهاداً فيما ليس فيه نص ، أما عند الشيعة فللامام معنى آخر هو أنه أكبر معلم ، فالامام الأول قد ورث علوم النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو ليس شخصاً عادياً بل هو فوق الناس لأنه معصوم من الخطأ

وهناك نوعان من العلم علم الظاهر وعلم الباطن ، وقد علم النبي صلى الله عليه وسلم هذين النوعين لعليّ ، فكان يعلم باطن القرآن وظاهره وأطلعته على اسرار الكون وخفايا المغيبات ، وكل امام ورث هذه الثروة العلمية لمن بعده ، وكل امام يعلم الناس في وقته ما يستطيعون فهمه من هذه الأسرار ، ولذلك كان الامام أكبر معلم ، ولا يؤمنون بالعلم ولا بالحديث الا اذا روى عن هؤلاء الأئمة

وهم مختلفون اختلافاً كبيراً في الأئمة وتسلسلها ، لانطيل بذكرها^(١) . وأهم فرق الشيعة الزيدية والامامية : فالزيدية أتباع زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، ومذهبهم أعدل مذاهب الشيعة وأقربها الى أهل السنة ، ولعل هذا راجع الى أن زيداً — امام الزيدية — تتلمذ لواصل بن عطاء رأس المعتزلة ، وأخذ عنه كثيراً من تعاليمه ، فزيد يرى جواز امامة المفضل مع وجود الأفضل ، فقال كان عليّ بن أبي طالب أفضل من أبي بكر وعمر ، ولكن — مع هذا — امامة أبي بكر وعمر صحيحة ، ونظرهم الى الامام كذلك نظر معتدل ، فليست هناك امامة بالنص ، ولم ينزل وحى يعين الأئمة ، بل كل فاطمي عالم زاهد شجاع سخي قادر على القتال في سبيل الحق يخرج للمطالبة يصح أن يكون اماماً ، فهو يشترط في الامام الخروج على الأمراء والسلطين يطالب بالخلافة ، ولهذا كانت الامامية في نظرهم عملية ،

(١) انظرها في الملل والنحل للمهرستاني ومقدمة ابن خلدون

لا سلبية كما هي عند الأمامية تنتهي بالامام المحتفى ، وهم لا يؤمنون بالخرافات التي ألصقت بالامام فجعلت له جزءاً إلهياً ، وقد خرج زيد على هشام بن عبد الملك الخليفة الاموى فقتل وصلب سنة ١٢١ هـ وخرج بعده ابنه يحيى فقتل كذلك سنة ١٢٥ هـ ولا يزال الزيدية في اليمن الى الآن

والامامية سموا كذلك لان أهم عقائدهم أسست حول الامام ، وقد قالوا بأن محمداً صلى الله عليه وسلم نص على خلافة عليّ وقد اغتصبها ابو بكر وعمر ، وتبرءوا منهما ، وقد حوا في امامتهما ، وجعلوا الاعتراف بالامام جزءاً من الايمان ، والامامية فرق متعددة لا تتفق على أشخاص الأئمة

فمن أشهر فرقهم^(١) «الاثنا عشرية» سموا كذلك لأنهم يسلسلون أئمتهم الى اثني عشر اماماً ، وعقيدتهم هي العقيدة الرسمية لدولة ايران الى اليوم ، «والاسماعيلية» سميت كذلك لأنهم يقفون بأئمتهم عند اسماعيل بن جعفر الصادق ، وهؤلاء لعبوا دوراً طويلاً في تاريخ الاسلام ، وأخذوا مذهب الأفلاطونية الحديثة الذي شرحناه قبل وطبقوه على مذهبهم الشيعي تطبيقاً غريباً ، واستخدموا ما نقله اخوان الصفا في رسائلهم من هذا المذهب الأفلاطوني ، ووضعوا لهم تعاليم درجوها تسع درجات بتتدّى باثارة الشكوك في الاسلام كسؤالهم ما معنى رمى الجمار؟ وما العدو بين الصفا والمروءة؟ وتنتهي بهدم الاسلام والتحلل من قيوده ، وأولوا كل ما فيه فقالوا ان الوحي ليس الا صفاء النفس ، وان الشعائر الدينية ليست الا للعامة ، أما الخاصة فلا يلزمهم العمل بها ، وان الأنبياء هم سؤاس العامة ، أما الخاصة فانبياءهم الفلاسفة^(١) وليس هناك معنى للتمسك بحرفية القرآن ، فهو رموز لاشياء يعرفها العارفون ، انما يجب أن يفهم القرآن على طريقة التأويل والمجاز ، وللقرآن ظاهر

(١) ترى هذه التعاليم وتدرجها ونصوصها في الجزء الاول من خطط المقرئى

وباطن ، ويجب أن نخترق الحجب المادية حتى نصل الى أظهر ما يمكن من الروحانية ، ومن ثم سموا أيضاً «الباطنية» ولا يسعنا هنا أن نذكر أهم تعاليمهم وكيف أخذت من الأفلاطونية الحديثة فإن هذه الفرقة لم تظهر في عصرنا الذي تؤرخه انما ظهرت في الدولة العباسية ، وكان من آثار دعايتهم الدولة الفاطمية في المغرب ومنصر ، ولا يزال لهم بقايا الى اليوم في الشام والعجم والهند ، ورئيسهم الآن «أغا خان» الزعيم المشهور

والإمامية على العموم — تقول بعودة امام منتظر وان اختلفوا — باختلاف طوائفهم — فيمن هو الامام المنتظر ، فرقة ينتظرون جعفرا الصادق ، وأخرى تنتظر محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، وثالثة تنتظر محمد ابن الحنفية وتزعم انه حي لم يمت وأنه بجبل رضوى الى أن يأذن الله له بالخروج ، ومنهم كثير عزة وفي ذلك يقول :

ولا الحق أربعة سواه	ألا ان الأئمة من قریش
هم الأسباط ليس بهم خفاء	علي والثلاثة من بنيہ
وسبط غيبته كره بلاء	فيسبط سبط إيمان وبر
يقود الخيل يقدمها اللواء	وسبط لا يذوق الموت حتى
برضوى عنده غسل وماء	تغيب لا يرى فيهم زماناً

وكان السيد الحميري الشاعر الأموي المشهور يعتقد كذلك أن محمد بن الحنفية لم يمت وأنه في جبل رضوى ، بين أسد ونمر يحفظانه ، وعنده عينان نضاختان تجريان بماء وعسل ويعود بعد الغيبة فيملا العالم عدلاً كما ملئ جوراً — ولهم في ذلك سخافات يطول شرحها ، وأساس هذه العقيدة ما رأينا قبل من قول ابن سبأ بالرجعة ونقلها عن اليهودية ، وأن الشيعيين فشلوا أول أمرهم في تكوين مملكة

ظاهرة على وجه الأرض وعذبوا وشرّدوا كل مشرّد فخلقوا لهم أملاً من الامام المنتظر والمهدي ونحو ذلك

وقد اتفقت تعاليم الخوارج والشيعة على أن خلفاء بنى أمية مغتصبون ظالمون ، فاشتركوا في مناهضتهم ، ولكن الخوارج كانوا ظاهرين في حروبهم غلبت عليهم الطبيعة البدوية في الصراحة ، فأكثرهم لا يقول بالتقية ، أما الشيعة فكانوا يحاربون جهراً إذا أمكن الجهر ، فإذا لم يستطيعوا فسرّاً ، وقال أكثرهم بالتقية^(١) فكانوا بهذا أشد على بنى أمية ، وهم أدعى الى الحذر منهم ، فبشوا العيون والأرصاد على الشيعة واضطهدوهم اضطهاداً شنيعاً ، فهدسوا للحسن حتى طعن بخنجر في جنبه ولكن لم يمته ، وأوقعوا الفشل في جيشه حتى وادعهم ، ثم قتلوا الحسين في وقعة كربلاء ، ثم تتبعوا أهل البيت يستذلونهم ويمتهنونهم ويقتلونهم ويقطعون أيديهم وأرجلهم على الظنّة ، وكل من عرف بالتشيع لهم سجنوه أو نهبوا ماله أو هدموا داره ، واشتد بهم الأمر في أيام عبيد الله بن زياد قاتل الحسين «وأتى بعده الحجاج فقتلهم كل قتلة ، وأخذهم بكل ظنة وتهمة ، حتى ان الرجل ليقال له زنديق أو كافر

(١) يراد بالتقية المداراة ، كأن يحافظ الشخص على نفسه أو عرضه أو ماله بالتظاهر بمقيدة أو عمل لا يعتقد بصحته ، فمن كان على دين أو مذهب ثم لم يستطع أن يظهر دينه أو مذهبه فيتظاهر بغيره فذلك تقية ، وعد قوم منها مداراة الكفار والظلمة والتبسم في وجوههم ونحو ذلك ، وقد اختلف فيها الشيعة والخوارج وأهل السنة ، فأكثر الشيعة يقول بها بل منهم من قال يجب إظهار الكفر لأدنى مخافة أو طمع ، وحملوا بيعة على لابي بكر وعمر وعثمان على التقية ، وكان كثير من الشيعة يكتمون تشيعهم تقية ويعملون سرّاً ، وأما أكثر الخوارج فقالوا أن التقية لا تجوز ولا قيمة للنفس والعرض والمال بجانب الدين ، بل منهم من كان يرى أنه لا يصح قطع الصلاة اذا جاء سارق ليسرق متاعه وهو يصلي ، أما أهل السنة فتوسطوا وقالوا إن من خاف على نفسه أو ماله لمقيدته وجب أن يهاجر من بلده فان لم يستطع أظهر التقية بقدر الضرورة ووجب عليه أن يسعى في الخروج بدينه . . الخ الخ

أحب اليه من أن يقال له شيعة عليّ » حتى يروى أن رجلاً — يقال انه جدّ الأصمعي — وقف للحجاج فقال له أيها الأمير ، أن أهلي عَقُونِي فسموني عليّاً ، وأنى فقير بائس وأنا الى صلة الأمير محتاج فتضاحك له الحجاج وولاه عملاً ، ويقول المدائني « أن زياد بن سمية كان يتتبع الشيعة في الكوفة وهو بهم عارف ، لأنه كان منهم أيام عليّ ، فقتلهم تحت كل حجر ومدر ، وأخافهم ، وقطع الأيدي والأرجل ، وسَمَلَ العيون ، وصلبهم على جذوع النخل ، وطردهم وشردهم عن العراق ، فلم يبق بها معروف منهم ، وكتب معاوية الى عماله في جميع الآفاق ألا يجيزوا لأحد من شيعة عليّ وأهل بيته شهادة ، وكتب اليهم أن انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبيه وأهل ولايته والذين يروون فضائله ومناقبه فأدنوا بحالهم ، وقربوهم وأكرمواهم ، واكتبوا الى بكل ما يروى كل رجل منهم واسمه واسم أبيه وعشيرته ، ففعلوا ذلك حتى أكثروا من فضائل عثمان ومناقبه ، لِمَا كان يبعثه اليهم معاوية من الصلات ... وقال إنه كتب الى عماله أن انظروا الى من قامت عليه البينة أنه يحب عليّاً وأهل بيته فامحوه من الديوان واسقطوا عطاءه ورزقه » — والعباسيون كانوا أبلغ في التشكيل بهم لأنهم أعرف بخفائهم ، لما كانوا يعملون معهم في عهد بني أمية

هذه الاضطهادات كان من نتائجها احكام الشيعة للسرية ونظامها ، فهم أقدر الفرق الاسلامية على العمل في الخفاء ، وكتان عملهم حتى يتمكنوا من عدوهم — وهذه السرية استلزمت الخداع والالتجاء الى الرموز والتأويل ونحو ذلك ، وكان من أثر هذا الاضطهاد أيضاً اصطبغ أدبهم بالحزن العميق ، والنوح والبكاء ، وذكرى المصائب والآلام

وقد حاربوا الأمويين بمثل ما حاربوا به فكما وضع الأمويون الحديث في

فضائل الصحابة — عدا علياً والهاشميين — وخاصة عثمان ، وضع الشيعة أحاديث كثيرة في فضائل عليّ وفي المهدي المنتظر ، وعلى الجملة فيما يؤيد مذهبهم ، وربما فاقوا في ذلك الأمويين ، فاشتغل بعض علمائهم بعلم الحديث وسمعوا الثقات ، وحفظوا الأسانيد الصحيحة ، ثم وضعوا بهذه الأسانيد أحاديث تتفق ومذهبهم ، وأضلوا بهذه الأحاديث كثيراً من العلماء لانخداعهم بالاسناد ، بل كان منهم من سُمي بالسُّدى ومنهم من سمي بابن قتيبة فكانوا يروون عن السدى وابن قتيبة فيظن أهل السنة أنهما المحدثان الشهيران مع أن كلا من السدى وابن قتيبة الذي ينقل عنه الشيعة إنما هو رافضى غال ، وقد ميزوا بينهما بالسدى الكبير والسدى الصغير والأول ثقة والثانى شيعى وضّاع ، وكذلك ابن قتيبة الشيعى غير عبد الله ابن مسلم بن قتيبة ، بل وضعوا الكتب وحشوها بتعاليمهم ونسبوها لأئمة أهل السنة ككتاب « سر العارفين » الذى نسبوه للغزالي ، ومن هذا القبيل ما نراه مشهوراً في الكتب من اسناد كل فضل وكل علم الى عليّ بن أبى طالب إما مباشرة وإما بواسطة ذريته ، فعلم المعتزلة جاء من أن واصل بن عطاء — رأس المعتزلة — تلقى العلم عن أبى هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية ، وأبو هاشم تلميذ أبيه وأبوه تلميذ عليّ ، وأبو حنيفة أخذ العلم عن جعفر الصادق ، ومالك بن أنس قرأ على ربيعة الراى وقرأ ربيعة على عكرمة وعكرمة على عبد الله بن عباس وعبد الله قرأ على عليّ ، وبهذه الطريقة ينسب فقه الشافعى الى الامام عليّ لأنه تلميذ مالك ، بل فقه عمر بن الخطاب يرجع الى عليّ لأنه كان يرجع اليه فيما أشكل من المسائل وكان يقول لولا عليّ لهلك عمر — وتفسير القرآن أخذ أكثره عن عبد الله بن عباس وهو أخذه عن عليّ ، فقد قيل لابن عباس أين علمك من علم ابن عمك ؟ فقال كنسبة قطرة من المطر الى البحر المحيط — والتصوف منسوب اليه وقد نسب اليه الشبلى والجنيّد

وسرّني وأبو يزيد البسطامي، وينسبون الخرقة التي هي شعارهم إليه — وأبو الاسود الدؤلي واضع علم النحو أخذه عن علي بن أبي طالب، فقد أُملي عليه الكلام كله ثلاثة أشياء اسم وفعل وحرف، وعلمه تفسير الاسم الى معرفة ونكرة وتقسيم الاعراب الى الرفع والنصب والجر والجزم — وعلى الجملة فليس هناك من علم الا وأصله علي بن أبي طالب، كأن العقول كلها أجذبت وأصيبت بالعمم الا علي بن أبي طالب وذريته، وعلي رضي الله عنه من ذلك براء.

. والحق ان التشيع كان مأوى يلجأ اليه كل من أراد هدم الاسلام لعداوة أو حقد، ومن كان يريد ادخال تعاليم آبائه من يهودية ونصرانية وزرادشتية وهندية، ومن كان يريد استقلال بلاده والخروج على مملكته، كالذي كان في المغرب قبل انتقال الفاطميين الى مصر — كل هؤلاء كانوا يتخذون حب أهل البيت ستاراً يضعون وراءه كل ماشاءت أهواؤهم، فاليهودية ظهرت في التشيع بالقول بالرجعة، وقال الشيعة أن النار محرمة على الشيعة الا قليلا، كما قال اليهود لن تمسنا النار الا أياماً معدودات، والنصرانية ظهرت في التشيع في قول بعضهم أن نسبة الامام الى الله كنسبة المسيح اليه، وقالوا أن اللاهوت اتحد بالناسوت في الامام، وأن النبوة والرسالة لا تنقطع أبداً فمن اتحد به اللاهوت فهو نبي، وتحت التشيع ظهر القول بتناسخ الأرواح وتجسيم الله والحلول، ونحو ذلك من الأقوال التي كانت معروفة عند البراهمة والفلاسفة والمجوس من قبل الاسلام، وتسترّ بعض الفرس بالتشيع وحاربوا الدولة الاموية، وما في نفوسهم الا الكره للعرب ودولتهم والسعي لاستقلالهم قال المقرئزي « واعلم أن السبب في خروج أكثر الطوائف عن ديانة الاسلام أن الفرس كانت من سعة الملك وعلو اليد على جميع الأمم وجلالة الخطر في أنفسها بحيث أنهم كانوا يسمون أنفسهم الأحرار والأسياد، وكانوا يعدون سائر الناس عبيداً

لهم ، فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدي العرب ، وكان العرب عند الفرس أقل الأمم خطراً تعاضمهم الأمر ، وتضاعفت لديهم المصيبة ، وراموا كيد الاسلام بالحاربة في أوقات شتى وفي كل ذلك يظهر الله الحق ... فرأوا أن كيده على الحيلة أنجح ، فأظهر قوم منهم الاسلام واستمالوا أهل التشيع باظهار محبة أهل البيت واستبشاع ظلم عليّ ثم سلكوا بهم مسالك شتى حتى أخرجوهم عن طريق الهدى » (١)

وقد ذهب الأستاذ ولهوسن Wellhausen الى أن العقيدة الشيعية نبتت من اليهودية أكثر مما نبتت من الفارسية ، مستدلاً بأن مؤسسها عبدالله بن سبا وهو يهودي ، ويميل الأستاذ دوزي Dozy الى « أن أساسها فارسي ، فالعرب تدين بالحرية والفرس يدينون بالملك ، وبالوراثة في البيت المالك ، ولا يعرفون معنى لانتخاب الخليفة ، وقد مات محمد ولم يترك ولداً فأولى الناس بعده ابن عمه علي بن أبي طالب ، فمن أخذ الخلافة منه كأبي بكر وعمر وعثمان والامويين فقد اغتصبها من مستحقها ، وقد اعتاد الفرس أن ينظروا الى الملك نظرة فيها معنى إلهي ، فنظروا هذا النظر نفسه الى عليّ وذريته وقالوا أن طاعة الامام أول واجب وأن اطاعته اطاعة الله »

والذي أرى — كما يدلنا التاريخ أن التشيع لعلي بدأ قبل دخول الفرس في الاسلام ، ولكن بمعنى ساذج وهو أن علياً أولى من غيره من وجهتين : كفايته الشخصية وقربته للنبي ، ، والعرب من قديم تفخر بالرياسة ويبت الرياسة ، وهذا الحزب كما رأينا وجد من بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ونما بمرور الزمان وبالمطاعن في عثمان ، ولكن هذا التشيع أخذ صبغة جديدة بدخول العناصر الأخرى في الاسلام من يهودية ونصرانية ومجوسية ، وأن كل قوم من هؤلاء كانوا يصبغون التشيع بصبغة دينهم ، فاليهودية تصبغ الشيعة يهودية ، والنصرانية نصرانية وهكذا ، وإذا

كان أكبر عنصر دخل في الاسلام هو العنصر الفارسي كان أكبر الأثر في التشيع
انما هو للفرس

ومن أشهر الادباء والشعراء المتشيعين في هذا العصر أبو الأسود الدؤلي وفي علي
وبنيه يقول

يَقُولُ الْأَرْذَلُونَ بَنُو قَشِيرٍ طَوَالَ الدَّهْرِ لَا تَنْسَى عَلِيًّا
بَنُو عَمِ النَّبِيِّ وَأَقْرَبُوهُ أَحَبُّ النَّاسِ كُلِّهِمْوُ إِلَيَّا
أَحِبُّهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ حَتَّى أَجِيءَ إِذَا بُعِثْتُ عَلَى هَوِيَّا
فَإِنْ يَكُ حُبُّهُمْ رُشْدًا أُصِيبُهُ وَلَسْتُ بِمُخْطِئٍ إِنْ كَانَ غِيَا

وكذلك كان كثير عزة وقد قرأت قبل شعره في الرّجعة ، والكُميت وكان
شيعةً غالباً ومن شعره في الخلافة

يَقُولُونَ لَمْ يُورَثْ وَلَوْلَا تَرَاثُهُ لَقَدْ شَرَكْتُ فِيهِ بِجَيْلٍ وَأَرْحَبُ (١)
وَلَا نَتَشَلَّتْ عَضْوِينَ مِنْهَا يَحَابِرُ وَكَانَ لَعَبْدِ الْقَيْسِ عَضْوُ مُؤَرَّبُ
فَإِنْ هِيَ لَمْ تَصْلُحْ لِحَيٍّ سِوَاهُمُوُ إِذَا فَدَوُ الْقَرَبِيِّ أَحَقُّ وَأَقْرَبُ
فَيَا لَكَ أَمْرًا قَدْ أُشْتُتْ جُمُوعُهُ وَذَارًا تَرَى أَسْبَابَهَا تَتَقَضَّبُ
تَبَدَّلَتْ الْأَشْرَارَ بَعْدَ خِيَارِهَا وَجَدْتُهَا مِنْ أُمَّةٍ وَهِيَ تَلْعَبُ

(١) بجيل وأرحب قبيلتان

الفصل الثالث

المرجئة

رأينا قبل أن الشيعة والخوارج كان أول أمرها حزبين سياسيين تكونا حول الخلافة ، وأن رأى الخوارج فيها رأى ديمقراطي ، ورأى الشيعة رأى ثيوقراطي ، أما المرجئة فكانت كذلك أول أمرها ، أعني حزباً سياسياً محايداً له رأى فيما شجر بين المسلمين من خلاف ، يروى ابن عساكر في توضيح رأيهم « أنهم هم الشكّاك الذين شكّوا وكانوا في المغازي ، فلما قدموا المدينة بعد قتل عثمان وكان عهدهم بالناس وأمرهم واحد ليس بينهم اختلاف فقالوا تركناكم وأمركم واحد ، ليس بينكم اختلاف وقد منا عايكم وأنتم مختلفون ، فبعضكم يقول قتل عثمان مظلوماً ، وكان أولى بالعدل وأصحابه ، وبعضكم يقول كان عليّ أولى بالحق وأصحابه ، كلهم ثقة ، وعندنا مصدق . فنحن لا نتبرأ منها ولا نلعنهما ، ولا نشهد عليهما ، ونرجى أمرهما الى الله حتى يكون الله هو الذي يحكم بينهما »

فهرى من هذا أنه حزب سياسي لا يريد أن يغمس يده في الفتن ، ولا يريق دماء حزب ، بل ولا يحكم بتخطة فريق وتصويب آخر ، وأن السبب المباشر في تكوينه هو اختلاف الأحزاب في الرأي ، والسبب البعيد هو الخلافة ، فلو لا الخلافة ما كانت خوارج ولا شيعة واذن لا يكون مرجئة

وكلمة المرجئة مأخوذة من أرجأ بمعنى أمهل وأخر ، سموا المرجئة لأنهم يرجئون أمر هؤلاء المختلفين الذين سفكوا الدماء الى يوم القيامة ، فلا يقضون بحكم على هؤلاء ولا على هؤلاء ، وبعضهم يشتق اسمهم من أرجأ بمعنى بعث الرجاء لأنهم كانوا

يقولون لا تضر مع الايمان معصية كما لاتنفع مع الكفر طاعة فهم يؤمنون كل مؤمن عاص — والأول أنسب لما حكينا عن ابن عساكر --

نشأت المرجئة لما رأت خوارج يكفرون عليا وعثمان والقائلين بالتحكيم ، ورأت من الشيعة من يكفر أبا بكر وعمر وعثمان ومن ناصروهم ، وكلاهما يكفر الامويين ويلعنهم ، والامويون يقاتلونهم ويرون أنهم مبطلون ، وكل طائفة تدعى أنها على الحق ، وأنها وحدها على الحق ، وأن من عداها كافر وفي ضلال مبين فظهرت المرجئة تسالم الجميع ، ولا تكفر طائفة منهم ، وتقول أن الفرق الثلاث : الخوارج والشيعة والامويين — مؤمنون ، وبعضهم مخطيء وبعضهم مصيب ، ولسنا نستطيع أن نعين المصيب ، فلنترك أمرهم جميعاً الى الله ، ومن هؤلاء بنو أمية ، فهم يشهدون أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله ، فليسوا إذن كفاراً ولا مشركين ، بل مسلمين نرجى أمرهم الى الله الذي يعرف سرائر الناس ويحاسبهم عليها ، وينتج من هذا أن موقفهم أزاء حكم الأمويين موقف تأييد ، ولكنه تأييد سلبي لا ايجابي ، فليسوا ينحازون اليهم ويحملون سيوفهم يقاتلون في جيوشهم ، ولكنهم أزاء الامويين مثلهم أزاء الشيعة والخوارج ، وهم — على ما يظهر — يرون حكومة الامويين حكومة شرعية — وكفى بذلك تأييداً —

ونواة هذه الطائفة كانت بين الصحابة في الصدر الاول ، فانا نرى أن جماعة من أصحاب رسول الله امتنعوا أن يدخلوا في النزاع الذي كان في آخر عهد عثمان مثل أبي بكر وعبد الله بن عمر وعمران بن الحصين ، وروى أبو بكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ستكون قتن ، القاعد فيها خير من الماشي ، والماشي فيها خير من الساعي اليها ، ألا فاذا نزلت أو وقعت ، فمن كان له ابل فليلحق بأبله ، ومن كانت له غنم فليلحق بغنمه ، ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه ، قال فقال

رجل يارسول الله من لم تكن له ابل ولا غنم ولا أرض ؟ قال يعيد الى سيفه فيدق على حده بحجر ، ثم لينج أن استطاع النجاء »

هذه النزعة الى عدم الدخول في الحروب التي بين المسلمين بعضهم وبعض هي الأساس الذي بنى عليه مذهب الارزاء^(١) ولكنه لم يتكون كمذهب — كما رأينا — الا بعد ظهور الخوارج والشيعة

وبعد أن كان مذهباً سياسياً أصبح بعدُ يبحث في أمور لاهوتية ، وكانت نتيجة بحثهم تتفق ورأيهم السياسي ، فأهم ما بحثوا فيه تحديد «الايان» و «الكفر» والمؤمن والكافر وقد دعا الى هذا البحث أنهم رأوا الخوارج يكفرون من عداهم والشيعة كذلك ، غلا الخوارج فعدوا كل كبيرة كفرأ ، وغلت الشيعة فعدوا الاعتقاد بالامام ركناً أساسياً من أركان الايمان ، فكانت النتيجة الطبيعية أن يعرض على بساط البحث ما الكفر وما الايمان ، فرأى كثير من المرجئة أن الايمان هو المعرفة بالله وبرسله ، فمن عرف أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله فهو مؤمن ، وهذا رد من المرجئة على الخوارج الذين يقولون أن الايمان معرفة بالله وبرسله ، والايان بالفرائض ، والكف عن الكبائر ، فمن آمن بالله ورسله وترك الفرائض وارتكب شيئاً من الكبائر كان مؤمناً عند المرجئة ، كافرأ في نظر الخوارج ، ورد أيضاً على الشيعة الذين يعتقدون أن الايمان بالامام والطاعة له جزء من الايمان ، بل غلا بعض المرجئة أكثر من ذلك فقالوا أن الايمان الاعتقاد بالقلب « وان أعلن الكفر بلسانه ، وعبد الأوثان أو لزم اليهودية والنصرانية في دار الاسلام ، وعبد الصليب ، وأعلن التثليث في دار الاسلام ، ومات على ذلك فهو مؤمن كامل

(١) يقول النووي على مسلم أن القضايا (يريد قضايا الفتن التي كانت بين الصحابة) كانت مشبهة حتى أن جماعة من الصحابة تحيروا فيها فاعتزلوا الطائفتين ولم يقاتلوا ولم يتيقنوا الصواب الخ

الايان عند الله عز وجل ولي الله عز وجل ، من أهل الجنة ^(١) « فترى من هذا أن هؤلاء لا يعدون أيماناً الا الاعتقاد القلبي بالله ورسله وليست الأعمال الظاهرة جزءاً من الايمان

ولهذا الكلام كله نتيجة تتفق ورأيهم السياسى ، فهم لا يحكمون بالكفر على الأمويين ولا على الخوارج والشيعة ، بل لا يجزمون بكفر الأخطل ونحوه من النصارى واليهود لأن الايمان محله القلب ، وليس يطلع عليه الا الله وذلك يدعو الى مسالة الناس جميعاً

وقد لاحظ بعض المستشرقين أن الكلام على طائفة المرجئة وبدء تكونها وشرح عقائدها أحيط بشيء من الغموض ، وغلل ذلك بأن الدولة العباسية دمرت هذه الطائفة وأمائت القول بهذه العقيدة لأنها تناصر الأمويين الى حد ما ، وعلى كل حال فهذه الفرقة تدخلت بعد العصر الأموى فى الفرق الأخرى وذابت فيها ولم يعد لها وجود مستقل محسوس

وقد اشتهر من شعراء بنى أمية بالقول بالارجاء ثابِتُ قُطْنَةٌ وكان فى صحابة يزيد ابن المهلب يوليه أعمالاً من أعمال الثغور فيحمد فيها مكانه لكتابته وشجاعته ، وله قصيدة فى الارجاء تعد وثيقة قيمة فى توضيح مذهبهم ، رواها أبو الفرج فى الأغاني ، منها

يَا هِنْدُ فَاسْتَمِعِي لِي إِنَّ سِيرَتَنَا	أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ لَمْ نُشْرِكْ بِهِ أَحَدًا
نُرْجِي الْأُمُورَ إِذَا كَانَتْ مَشَبَّهَةً	وَنَصْدُقُ الْقَوْلَ فِيمَنْ جَارَ أَوْ عَنَدًا
الْمُسْلِمُونَ عَلَى الْإِسْلَامِ كُلُّهُمْ	وَالْمُشْرِكُونَ اسْتَوَوْا فِي دِينِهِمْ قِدَادًا
وَلَا أَرَى أَنَّ ذَنْبًا بَالِغٌ أَحَدًا	مِنَ النَّاسِ شَرٌّ كَمَا إِذَا مَا وَحَدُوا الصِّمْدَا

لَا نَسْفِكُ الدَّمَ إِلَّا أَنْ يُرَادَ بِنَا
مَنْ يَتَّقِي اللَّهَ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ لَهُ
وَمَا قَضَى اللَّهُ مِنْ أَمْرٍ فَلَيْسَ لَهُ
كُلُّ الْخَوَارِجِ مُخْطِئٌ فِي مَقَالَتِهِ
أَمَّا عَلِيٌّ وَعُمَانُ فَأُنْهَمَا
وَكُنَّ بَيْنَهُمَا شُغْبٌ وَقَدْ شَهِدَا
يَجْزِي عَلِيًّا وَعُثْمَانًا بِسَعِيهِمَا
اللَّهُ يَعْلَمُ مَاذَا يَحْضُرَانِ بِهِ
سَفَكُ الدِّمَاءِ ، طَرِيقًا وَاحِدًا جَدَدًا
أَجْرَ التَّقَى إِذَا وَفَّى الْحِسَابَ غَدًا
رَدُّ وَمَا يَقْضِي مِنْ شَيْءٍ يَكُنْ رَشَدًا
وَلَوْ تَعَبَّدَ فِيمَا قَالَ وَاجْتَهَدَا
عَبْدَانِ لَمْ يُشْرَكَ بِاللَّهِ مَذْ عَبَدَا
شَقَّ الْعَصَا وَبَعَيْنِ اللَّهِ مَا شَهِدَا
وَلَسْتُ أَذْرِي بِحَقِّ آيَةٍ وَرَدَا
وَكُلَّ عَبْدٍ سِيلَقِي اللَّهِ مُنْفَرِدَا

ونحن اذا حللنا قصيدته لنتبين منها معنى الارزاء وجدناه يقول أنه لا يحكم
على أحد من المسلمين بالكفر مهما أذنب ، وأن الذنب مهما عظم لا يذهب بالايمان ،
وأنه لا يسفك دم أحد من المسلمين الا دفاعا عن نفسه ، وأنه اذا اشتبهت الامور
وكفرت كل طائفة أختها فيما فعلت أرجأنا أمرهم جميعاً الى الله يحكم بينهم يوم القيامة
فيما كانوا فيه يختلفون ، أما الجور البين والعناد الواضح والأعمال الظاهرة فنصدر
أحكامنا عليها في صراحة ، ونبين الخطأ فيها من الصواب ، وأن الخوارج أخطأوا
اذ حكموا على عليٍّ وعثمان بالكفر ، فأنهما عبدان لله لم يشركا به منذ عرفاه ، ولكن
كان بينهما شغب لم يخرج بهما عن الايمان ، فترك أمرهما الله يقدر عملهما
ويكافئ عليه .

الفصل الرابع

القدرية أو المعتزلة

يدلنا تاريخ الفكر البشرى على أن من أولى المسائل التى تعرض للعقل عند ما يبدأ التعقق فى البحث مسألة الجبر والاختيار ، هل أرادتنا حرة تعمل ما تشاء وتترك ما تشاء ، وتشكل عملها كما تشاء ، أو أنا مجبرون على عمل ما نعمل فلا نستطيع أن نعمل غيره ، وأن أرادتنا معلولة بعلى فاذا حصلت العلى حصل المعلول لا محالة ؟ وهى مسألة شغلت الفلاسفة ورجال الدين جميعاً فى العصور المختلفة ، تعترضك فى الاخلاق وفى القانون ، وفى فلسفة التاريخ ، وفى علم الكلام ، وفى الفلسفة على العموم — وقد نشأت الابحاث الدينية فى هذا الموضوع لما نظر الانسان فرأى أنه — من ناحية — يشعر بأنه حر الارادة يعمل ما يشاء ، وأنه مسئول عن عمله ، وهذه المسؤولية تقتضى الحرية ، فلا معنى لأن يعذب ويثاب اذا كان كالريشة فى مهب الريح لا بد أن تتحرك بحركته وتسكن بسكونه — ومن ناحية أخرى رأى أن الله عالم بكل شىء ، أحاط علمه بما كان وما سيكون ، فعلم ما سيصدر عن كل فرد من خير أو شر ، وظن أن هذا يستلزم حتماً أنه لا يستطيع أن يعمل الا على وفق ما علم الله ، فخار فى ذلك بين الجبر والاختيار ، وأخذ يفكر هل هو مجبر أو مختار

وقد وردت آيات فى القرآن قد تشعر بالجبر مثل « خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » « وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ، هُوَ

رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» «أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي
النَّارِ» «وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ
فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ» — وهناك آيات تشعر
بالاختيار وأن الانسان مسئول عن عمله «إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا»
«وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ،
ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» «فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ»
«وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا، وَمَنْ
يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهِ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا» الى كثير من
أمثال هذه الآيات، ووردت أحاديث كثيرة ان صحت تدل على تعرضه عليه السلام
لمسألة القدر تصريحًا أو تلميحًا فعن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا يؤمن
عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره، وحتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما
أخطأه لم يكن ليصيبه» وعن عليّ قال «كنا في جنازة بقيق الفرقد فأتانا
رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقعده وقعدنا حوله وبيده محصورة فجعل ينكت بها
الأرض، ثم قال ما منكم من أحد الا وقد كُتب مقعده من النار ومقعده من الجنة،
فقالوا يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا فقال اعملوا فكلٌ ميسر لما خلق له. أما
من كان من أهل السعادة فسيصير الى عمل السعادة وأما من كان من أهل الشقاء
فسيصير الى عمل الشقاء ثم قرأ «فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى»
فلما انتهى المسلمون من الفتح وهدؤوا وأخذوا يفكرون ظهرت هذه المسألة،
وكان قد تكلم فيها من قبل فلاسفة اليونان ونقلها عنهم السريان يون، وتكلم فيها
الزرادشتيون كما بحث فيها النصارى. فظهر في الاسلام قوم يقولون بحرية الارادة
معارضين في ذلك الفكرة الشائعة بأن الانسان مسير لا مخير، روى عن نافع قال

جاء رجل الى ابن عمر فقال أن فلانا يقرأ عليك السلام — لرجل من أهل الشام — فقال ابن عمر أنه بلغني أنه قد أحدث التكذيب بالقدر ، فإن كان قد أحدث فلا تقرأ مني عليه السلام » ، وقد سمي هؤلاء الذين يقولون بأن الانسان حر الارادة وبعبارة أخرى أن الانسان له قدرة على أعماله « بالقَدَرِيَّة » وسماهم بذلك خصومهم لحديث ورد « القدرية مجوس هذه الأمة » وكان الأولون الذين يقولون بحرية الارادة يرون أن أولى الناس بأن يطلق عليه اسم القدرية هم الذين يقولون بأن القدر يحكم جميع أعمال الانسان من خير وشر ، وعلى كل حال فقد لصق الاسم بالطائفة الأولى وصار لقباً لها

وقد ذكروا أن من أسبق الناس قولاً بالقدر معبد الجهنى وغيلان الدمشقي أما معبد فقد قال عنه الذهبي في ميزان الاعتدال « أنه تابعي صدوق لكنه سن سنة سيئة فكان أول من تكلم في القدر ، قتله الحجاج صبراً لخروجه مع بن الأشعث » فترى من هذا أن قتله كان قتلاً سياسياً وإن كان كثير يذكرون أنه قتله لزندقته ، وكان يجالس الحسن البصري أولاً وقد سلك سبيله كثير من أهل البصرة وقال ابن نباتة في « سرح العيون » « قيل أن أول من تكلم في القدر رجل من أهل العراق كان نصرانياً فأسلم ثم تنصر ، وأخذ عنه معبد الجهنى وغيلان الدمشقي » وأما غيلان الدمشقي فكان يسكن دمشق وأبوه كان مولى لعثمان بن عفان « قال الأوزاعي قدم علينا غيلان القدرى في خلافة هشام بن عبد الملك فتكلم غيلان وكان رجلاً مفوهاً ، ثم أكثر الناس الوقعة فيه والسعاية بسبب رأيه في القدر وأحفظوا هشام بن عبد الملك عليه فأمر بقطع يديه ورجليه وقتله وصلبه »

وقد روى أن غيلان وقف يوماً على ربيعة (الرأى) فقال له أنت الذى تزعم أن الله يحب أن يعصى فقال له ربيعة أنت الذى تزعم أن الله يعصى قسراً ، وحكى

أن عمر بن عبد العزيز بلغه أن غيلان وفلاتاً نطقا في القدر فأرسل اليهما وقال ما الأمر الذي تنطقان به ؟ فقالا هو ما قال الله يا أمير المؤمنين ، قال وما قال الله ؟ قالا قال « هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً » ثم قال « إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً » ثم سكتا ، فقال عمر اقرأ فقرءا حتى بلغا « إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ، وَمَا تَشَاوُنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » الى آخر السورة قال عمر كيف تريان ؟ تأخذان الفروع وتدعان الأصول ؟ — قال ابن مهاجر ثم بلغ عمر أنهما أسرفا فأرسل اليهما وهو مغضب ، فقام عمر وكنت خلفه قائماً حتى دخلا عليه وأنا مستقبلهما فقال لهما ألم يكن في سابق علم الله حين أمر الله ابليس بالسجود أن لا يسجد ؟ قال فأومأت اليهما برأسي أن قولاً نعم والافهو الذبح ، فقالا نعم فقال أولم يكن في سابق علم الله حين نهى آدم وحواء عن الشجرة أن يأكلا منها فألهمهما أن يأكلا منها ؟ فأومأت اليهما برأسي فقالا نعم ، فأمر باخراجهما وأمر بالكتاب الى سائر الأعمال بخلاف ما يقولان ، وأمسكا عن الكلام فلما يلبثا الا يسيراً حتى مرض عمر ومات ولم يُفد الكتاب ، وسال بعد ذلك منهما السيل

فترى من هذا انتشار القول في القضاء والقدر في هذا العصر وشدة الجدل في هذا الأمر بين المتخاصمين — وقد اختلف الباحثون في منبع هذه الحركة هل هو العراق أو الشام ؟ فيذهب بعضهم الى أن العراق منبع ذلك ، بدليل أن هذه الحركة تكونت حول الحسن البصري وهو يسكن البصرة ، وأن منشأ الاعتزال كذلك كان فيها ، ويؤيد ذلك ما رواه ابن نباتة من أن منشأ القول في ذلك نصراني من العراق أسلم وأخذ عنه معبد وغيلان — ويذهب آخرون الى أن الحركة ظهرت في دمشق متأثرة بمن كان يخدم من النصارى في بيت الخلفاء كيحيى الدمشقي .

وعلى كل حال فأنا نرى أن القول في القضاء والقدر سال سيله في العراق والشام في هذا العصر ومن العسير تعيين أسبقهما ، وقد قال ابن «تَيْمِيَّة» «ان أكثر الخوض في القدر كان بالبصرة والشام وبعضه في المدينة»

وعلى العكس من هؤلاء القَدَرِيَّة طائفةُ الجَبَرِيَّة وكان من أولهم جهم بن صفوان ، ولذلك تسمى هذه الفرقة الجهمية ، وكان يقول أن الانسان مجبور لا اختيار له ولا قدرة ، وأنه لا يستطيع أن يعمل غير ما عمل ، وأن الله قدر عليه أعمالاً لا بد أن تصدر منه ، وأن الله يخلق فيه الأفعال كما يخلق في الجماد ، فكما يَجْرِي الماء ويتحرك الهواء ، ويسقط الحجر فكذلك تصدر الأفعال عن الانسان ، يُصدرها الله فيه وتُنسب الى الانسان مجازاً كما تنسب الى الجمادات ، فكما قال أثمرت الشجرة وجري الماء وطلعت الشمس وأمطرت السماء وأنبئت الأرض كذلك يقال كتب محمد وقضى القاضي وأطاع فلان وعصى فلان ، كلها من نوع واحد على طريق المجاز — والثواب والعقاب جبر ، كما أن الأفعال جبر ، والله قدّر لفلان فعل كذا وقدر له أن يثاب ، وقدر على الآخر المعصية وقدر أن يعاقب

واشتهر بهذا القول جهم بن صفوان ، وهو من أهل خراسان ، من الموالى وأقام بالكوفة وكان فصيحاً خطيباً يدعو الناس فيجذبهم الى قوله ، ظهر مذهبه في ترمذ وكان كاتباً (وزيراً) للحارث بن سُرَيْج ، وقد خرج الحارث هذا على بنى أمية في خراسان واتبعه كثير من أهلها وكان يدعو الى العمل بكتاب الله وسنة رسوله واستعمال أهل الخير والفضل ، وقد هُزم الحارث واستمر جهم بن صفوان فقتل ، ثم قتل الحارث سنة ١٢٨ هـ — ومن هذا ترى أن الجهم أيضاً قتل لأمر سياسي لا علاقة له بالدين

ولم يشتهر الجهم بمسألة الجبر فحسب بل تعرض لشيء آخر لا يقل عنه خطراً

وهو القول بنفى صفات الله ، ذلك أنه وردت في القرآن آيات كثيرة تدل على أن الله صفات من سمع وبصر وكلام الخ . فنفي جهم أن يكون لله صفات غير ذاته ، وقال أن ما ورد في القرآن مثل سميع وبصير ليس على ظاهره ، بل هو مؤول لأن ظاهره يدل على التشبيه بالخلق وهو مستحيل على الله ، فيجب تأويل ذلك ، وقال لا يصح وصف الله بصفة يوصف بها خلقه لأن ذلك يقتضى التشبيه ، وقال أن القرآن مخلوق خلقه الله ، وكان ذلك نتيجة طبيعية لنفيه الصفات فإذا كان الله لا يتكلم فليس القرآن كلام الله القديم الا على التأويل ، وإنما خلقه الله ، وأنكر أن الله يرى يوم القيامة وقال « إن الجنة والنار يفنيان بعد دخول أهلها فيها ، وتلذذ أهل الجنة بنعيمها ، وتألم أهل النار ببحيمها ، اذ لا يتصور حركات لا تنهاى آخر كما لا تتصور حركات لا تنهاى أولا »

وقد نهض كثير من العلماء لمقاومة هذه الحركة ونشطوا للرد على الجهمية نشاطاً عظيماً ، ولعل أهم ما حملهم على الرد مسألتان مسألة الجبر لأنها تدعو الى التعطيل ، وترك العمل ، والركون الى القدر ، ومسألة المغالاة في تأويل الآيات التي تثبت لله صفات ، وفي هذا التأويل خطر على القرآن وتفهم معانيه

ذابت القدرية والجهمية في غيرها من المذاهب ولم يعد لها وجود مستقل ، وظهر على أثرهما مذهب المعتزلة ، وكثيراً ما يسمى المعتزلة بالقدرية لأنهم وافقوا القدرية في قولهم « أن للانسان قدرة توجد الفعل بانفرادها واستقلالها دون الله تعالى ، ونفوا أن تكون الأشياء بقدر الله تعالى وقضائه — وأحياناً يلقب المعتزلة بالجهمية لا لأنهم وافقوا الجهمية في القدر لأن الجهمية كما علمت جبرية ولكن لأن المعتزلة وافقوا الجهمية في نفي الصفات عن الله وفي خلق القرآن ، وقولهم أن الله لا يرى ، وقد ألف البخارى والامام احمد كتابين في الرد على الجهمية وعنينا بهم المعتزلة ،

والمعتزلة يبرأون من هذين الاسمين ، فلا يرضون أن يسموا بالقدرية ويقولون كما رأيت — أن مثبت القدر أولى بالانتساب اليه من نافية ، ويتبرأ بشر بن المعتز ، — أحد رؤساء المعتزلة — من الجهمية في أرجوزته اذ يقول

ننفيهمو عنا ولسنا منهم ولا هو منا ولا نرضاهم
إمامهم جهم وما لجهم وصحب عمرو^(١) ذى التقى والعلم

واسم المعتزلة يذهب بعضهم الى أنه أتى من « أن واصل بن عطاء كان يجلس الى الحسن البصرى ، فلما ظهر الاختلاف وقالت الخوارج بتكفير مرتكب الكبائر وقالت الجماعة بأنهم مؤمنون وفسقوا بالكبائر ، خرج واصل بن عطاء عن الفريقين وقال أن الفاسق من هذه الأمة لا مؤمن ولا كافر ، منزلة بين المنزلتين ، فطرده الحسن من مجلسه ، فاعتزل عنه ، وجلس اليه عمرو بن عبيد فقبل لهما ولأتباعهما معتزلون »^(٢) وملخص هذا أنهم يريدون أن يقولوا أنهم سموا معتزلة لأنهم اعتزلوا مجلس الحسن ، وينذهب البغدادي في كتابه « الفرق بين الفرق » الى أنهم سموا معتزلة لأنهم اعتزلوا قول الأمة ، ويفهم من قول المسعودي في مروج الذهب أنهم سموا بالمعتزلة لقولهم بأن صاحب الكبيرة اعتزل عن الكافرين والمؤمنين ، فالمعتزلة هم القائلون باعتزال صاحب الكبيرة

ولنا « فرض » آخر في تسميتهم المعتزلة ، لفتنا اليه ماقرأناه في خطط المقرئى من أن بين الفرق اليهودية (التى كانت منتشرة فى ذلك العصر وقبله) طائفة يقال لها الفرّوشيم وقال أن معناها المعتزلة^(٣) « ومن مذهبهم القول بما فى التوراة على

(١) يريد عمرو بن عبيد أحد رؤساء المعتزلة .

(٢) ابن خلكان نقلا عن السمعاني (٣) خطط المقرئى جزء ٢ ص ٤٧٦ طبعة أميرية

معنى ما فسرہ الحكماء من أسلافهم « اه وقد أكدت هذا المعنى المعاجم اللغوية الحديثة فقد ذكرت « أن معنى اللفظ الفروشم Pharisees هو Separated وهو ينطبق على المعنى الذى تؤديه كلمة معتزلة » وذكر بعضهم عن هذه الفرقة أنها كانت تتكلم فى القدر وتقول ليس كل الأفعال خلقها الله^(١) فلا يبعد أن يكون هذا اللفظ قد أطلقه على المعتزلة قوم ممن أسلم من اليهود لما رأوه بين الفرقتين من الشبه فى القول بالقدر ونحو ذلك ، وربما يؤيد هذا ما جاء فى موضع آخر من المقرئى اذ قال « قال ابن منبه اعتزل عمرو بن عبيد وأصحاب له الحسن فسموا المعتزلة » ، فهل ابن منبه الذى يعنيه المقرئى هو وهب بن منبه ؟ ان كان كذلك وكان هو وقومه هم الذين سموهم كان فى ذلك تأييد لما تقول ، فان وهب بن منبه — كما نعلم — ممن أسلم من يهود صنعاء

على كل حال لم يكن كثير من المعتزلة يرضى عن هذه التسمية ، وانما كانوا يسمون أنفسهم أهل العدل والتوحيد ، أما التوحيد فلا أنهم نقوا صفات الله وعدوا القول بها تعديداً لله ، وأما العدل فلا أنهم نزهاوا الله عما يقوله خصومهم من أنه قدّر على الناس المعاصى ثم عذبهم عليها ، وقالوا أن الانسان حر فيما يفعل ، ومن أجل هذا عُدّب على ما يفعل ، وهذا عدل

اشتهر من أوائل الداعين الى الاعتزال واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد^(٢) فأما

(١) انظر دائرة المعارف البريطانية فى مادة Pharisees

(٢) لاحمد بن يحيى المرتضى كتاب اسمه المنية والأمل فى شرح كتاب الملل والنحل طبع منه جزء فى طبقات المعتزلة ، وهو ينسب الى أن مذهب الاعتزال يرجع الى الصدر الاول للإسلام فقد عد من الطبقة الاولى للمعتزلة الخلفاء الاربعة وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وغيرهم ، ومن الطبقة الثانية الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية وسعيد بن المسيب وغيرهم ، ومن الطبقة الثالثة الحسن بن الحسن وعبد الله بن الحسن وأبا هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية ، وهو الذى أخذ عنه واصل ، ومن الطبقة الرابعة غيلان الدمشقي وواصل بن عطاء الخ والذى يظهر من كلامه أنه يريد أن يعد معتزلياً كل من ذكر له من الصحابة والتابعين قول يدل على أن الانسان حر الارادة ،

واصل فكان من الموالى ، ولد فى المدينة سنة ٨٠ هـ ثم انتقل الى البصرة ، وسمع من الحسن البصرى وغيره وتوفى سنة ١٣١ وكان خطيباً بليغاً مقتدرأً على الكلام سهل الألفاظ يقول فيه بعضهم .

عَلِمَ بِإِبْدَالِ الْحُرُوفِ وَقَامِعٌ لِكُلِّ خَطِيبٍ يَبْلُغُ الْحَقَّ بَاطِلُهُ
وقد ألف كتباً كثيرة لم يصلنا منها شئ .

وأما عمرو بن عبيد فمولى كذلك ، تتلمذ للحسن البصرى واعتنق رأى واصل ابن عطاء فى الاعتزال ، وألف كتباً كثيرة لم تصلنا واشتهر بالزهد والورع ، وفيه يقول ابو جعفر المنصور

كُلُّكُمْ يَطْلُبُ صَيِّدَ غَيْرِ عَمْرِو بْنِ عُبَيْدٍ

وتوفى سنة ١٤٥ هـ فى رجوعه من الحج

وكلاهما (واصل وعمرو) عرف بالتقوى والصلاح ، ويعتدان بحق مؤسسى مذهب الاعتزال

وتتلخص تعاليم المعتزلة فى الأصول الآتية

(١) القول بالمنزلة بين المنزلتين أى أن مرتكب الكبيرة ليس بكافر ولا مؤمن ، لكنه فاسق ، والفاسق يستحق النار بفسقه

وقد دعا الى اثاره هذا القول أن الحروب السياسية من مقتل عثمان ووقعة الجمل ووقعة صفين جعلت الناس يتساءلون من الحق ومن الخطىء ، ثم انتقلوا من ذلك الى القول بأن الخطىء كافر أو مؤمن ، فكانت الحوارج تقول بكفر مرتكبى الذنوب

أو يدل على أنه يرى الحسن والقبح العقليين ، لانه استدل مثلاً على أن أبابكر وابن مسعود يريان مذهب الاعتزال بأنهما قالوا فى المرأة المفوضة فى مهرها برأيهما ، أى أنهما يقولان بالحسن والقبح العقليين ولذلك حكما بالرأى ، واستدل على أن ابن عباس منهم بانه ناظر القائلين بالجبر من الشاميين وألزمهم الحجة ، وليس يريد أن مذهب الاعتزال بهذا الاسم وبصفته مذهباً كان من عهد أبى بكر

والمرجئة يقولون بأنه مؤمن ، وقال الحسن البصري أنه منافق ، فقال واصل أنه فاسق وله منزلة بين الكفر والايان ؛ وقال أنه يخلد في النار

(٢) القول بالقدر وأن الله لا يخلق أفعال الناس ، وإنما هم الذين يخلقون أعمالهم ، وأنهم من أجل ذلك يثابون أو يعاقبون ، ولهذا وحده يستحق أن يوصف الله بالعدل ، ولعل الذي حملهم على هذا القول ما رأوا من تعالى جهنم بن صفوان وأصحابه في سلب الانسان قدرته وجعله كالجماد تجري الأعمال على يديه كما تجري على الحجر ، وقد روى أن واصل بن عطاء أرسل بعض أصحابه الى خراسان لمباحثة جهنم ومجادلته

(٣) القول بالتوحيد فنفوا أن يكون لله تعالى صفات أزلية من علم وقدره وحياة وسمع وبصر غير ذاته ، بل الله عالم وقادر وحى وسميع وبصير بذاته ، وليست هناك صفات زائدة على ذاته ، والقول بوجود صفات قديمة قول بالتعدد ، والله واحد لا شريك له من أى جهة كان ، ولا كثرة في ذاته البتة ، وتأولوا الآيات التي تثبت هذه الصفات والتي يفهم منها أن له صفات كصفات المخلوقين — وربما كان قد دعاهم الى هذا القول ماشاع في عصرهم من ذهاب قوم الى تجسيد الله تعالى وأثبت صفات له كصفات المخلوقين ، كقاتل بن سليمان الذي عاصر واصل

(٤) قولهم بسلطة العقل وقدرته على معرفة الحسن والقيح ، ولو لم يرد بهما شرع ، وللشيء صفة فيه جعلته حسناً أو قبيحاً . فالصدق فيه صفة ذاتية جعلته حسناً والكذب فيه صفة ذاتية جعلته قبيحاً ، ولذلك يشترك العقلاء في حسن الاحسان الى الفقير واتخاذ الغريق ، ويستقبحون كفران الجميل وايلام البريء ، ولو لم يصلهم في ذلك شرع ، بل ولو كانوا ملحدين ، والشرع لم يجعل الشيء حسناً بأمره به ، ولا القبيح قبيحاً بنهي عنه ، بل الشرع انما أمر بالشيء لحسنه ، ونهى عن الآخر

لقبحه ، ولا يستطيع الشرع أن يعكس ، لأن أمره ونهيه تابعان لما في الشيء ذاته من حسن وقبح

وربما دعاهم الى وضع هذا المبدأ ما رأوا من تغالى قوم وجمودهم على ماورد من حديث ولو موضوع ، ووقوفهم عند النص ، فاذا لم يجدوا نصا لم يجرؤوا على ابداء رأى ، وقد رأيت هذه النزعة عند كلامنا على مدرسة الحديث ، فأحس المعتزلة بالخطر الذى يصيب الناس من شل العقل الى هذا الحد فوضعوا هذا الأساس ، ولذلك كان علماء الحديث من أشد خلق الله كرهاً للمعتزلة ، والعكس ، ولما كانت الدولة للمعتزلة فى عهد المأمون والمعتصم نكلوا بأهل الحديث تنكيلا فى فتنة خلق القرآن ، ولما دالت دولتهم نكل بهم المحدثون

كذلك تعرض المعتزلة للامور السياسية التى سبقت عصرهم وأدلو فيها بأرائهم ولم يجاروا الحسن البصرى فى قوله « تلك دماء طهر الله منها أسيافنا فلا نلطح بها أسنتنا » بل قالوا أن الصحابة أنفسهم كان يخطئ بعضهم بعضاً ويحارب بعضهم بعضاً . وقد روى عن عمرو بن عبيد فى نقد الرجال الشيء الكثير ، فقد سب أبا هريرة ، وطعن فى روايته ، وخون عمرو بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان ونسبهما الى سرقة مال الفىء ، الى كثير من أمثال ذلك — وعلى الجملة قد أباحوا لأنفسهم تشريح الصحابة وتقديم الحكم على أعمالهم وحروبهم ، وكان أكثرهم جرية فى ذلك من اعتنق الاعتزال من الشيعة^(١) ونحن نذكر لك طرفا من آرائهم فى المسائل السياسية فقد اتفقوا — تقريباً — على أن بيعة أبى بكر صحيحة شرعية وأنها لم تكن عن نص من النبى صلى الله عليه وسلم وإنما كانت بالاختيار ، واختلفوا

(١) ان أردت مثالا لذلك فاقرأ الرسالة التى نقلها ابن ابى الحديد عن ابى جعفر فى شرح نهج البلاغة جزء ٤ ص ٤٥٤ وما بعدها

في أيهما أفضل أبو بكر أم علي ، فقال قدماء البصريين كعمرو بن عبيد والنظام والجاحظ وهشام الفوطي أن أبا بكر أفضل من علي ، وقال البغداديون كبش بن المعمّر وأبي الحسين الخياط أن علياً أفضل ، ولهم في ذلك حجاج طويل ، ولما وصلوا الى وقعة الجمل كان واصل بن عطاء يقول أن أحد الفريقين فاسق بقتاله لا محالة ، ولكن لم أستطع الجزم أي الفريقين هو الفاسق ، وأما عمرو بن عبيد فقال بفسق الفرقتين المتقاتلتين جميعاً — وتبرأ المعتزلة من عمرو ومعاوية وخطوئهما وأتباعهما ، وهكذا حللوا كثيراً من الأعمال في التاريخ الاسلامي وأبدوا فيها رأيهم ، واختلفوا فيما بينهم ، وأدلى كل بالحجج التي يعزز بها رأيه مما يطول ذكره

وقد نشأ الاعتزال كما رأيت في البصرة . وسرعان ما انتشر في العراق ، واعتنقه من خلفاء بني أمية يزيد بن الوليد ومروان بن محمد ، وفي العصر العباسي تكونت للاعتزال مدرستان كبيرتان : مدرسة البصرة ومدرسة بغداد ، وكان بين معتزلي البصرة ومعتزلي بغداد جدال وخلاف في كثير من المسائل

وكان المعتزلة أسرع الفرق للاستفادة من الفلسفة اليونانية وصبغها صبغة اسلامية ، والاستعانة بها على نظرياتهم وجدلهم ، وكان من أشهر من استخدم الفلسفة في ذلك أبو الهذيل العلاف والنظام والجاحظ ، ولسنا نستطيع هنا أن نبين النظريات اليونانية وكيف نقلها أئمة المعتزلة فوضع ذلك الكلام على الحركة العقلية في صدر الدولة العباسية ان شاء الله

والحق أن المعتزلة هم الذين خلقوا علم الكلام في الاسلام ، وأنهم أول من تسلح من المسلمين بسلاح خصومهم في الدين ، ذلك أنه في أوائل القرن الثاني للهجرة ظهر أثر من دخل في الاسلام من اليهود والنصارى والمجوس والديهرية ،

فكثير من هؤلاء أسلموا ورددوهم مملوءة بأديانهم القديمة ، لم يزد عليهم الا النطق بالشهادتين ، فسرعان ما أثاروا في الاسلام المسائل التي كانت تثار في أديانهم ، وكانت هذه الأديان التي ذكرناها قد تسلمت من قبل بالفلسفة اليونانية والمنطق اليوناني ونظمت طريق بحثها ، وتعمقت في ذلك كثيراً ، فهاجموا الاسلام وهو الدين الذي يمتاز ببساطة عقيدته فأثاروا حوله الشكوك ، وليس هؤلاء الذين أسلموا هم الذين فعلوا ذلك فقط بل كانت البلاد الاسلامية مملوءة بدوى الأديان المختلفة الذين ظلوا على دينهم ، وكان منهم كثيرون في بلاط الدولة الأموية يشغلون مناصب خطيرة ، هؤلاء وهؤلاء أثاروا مسألة القدر على هذا النمط الفلسفي وكانت معروفة في دينهم ، وأثاروا مسألة صفات الله وخلق القرآن ولها نظير في النصرانية ، وأثار الزرادشتيون كثيراً من مسائلهم

كل هذا دعا المعتزلة أن يتسلحوا بسلاح عدوهم فجادلوهم جدالاً علمياً وردوا هجمات القائلين بالجبر والمنكرين لله ، وما أثار اليهود والنصارى والمجوس من شكوك ، ونشطوا لهذا العمل نشاطاً بديعاً ، فواصل بن عطاء يقول عنه المرتضى « أنه كان أعلم الناس بكلام غالية الشيعة ، ومارقة الخوارج ، وكلام الزنادقة والدهرية والمرجئة وسائر المخالفين » فأخذ بعد معرفة أقوالهم يرد عليهم في فصاحة من القول يصفها بشار بقوله فيه

وَقَالَ مُرْتَجِلًا تَغْلِي بَدَاهَتُهُ كَمِ جَلِ الْقَيْنِ لَمَّا حُفَّ بِاللَّهَبِ

وتصفه زوجه فتقول : كان اذا جنه الليل صف قدميه يصلى ، ولوح ودواة بجانبه ، فاذا مرت به آية فيها حجة على مخالف جلس فكتبها ثم عاد الى صلاته . ولم يكتف بذلك بل بعث دعائه الى الأمصار يجادلون أصحاب التمايم المخالفة وينشر مبادئه ، فبعث عبدالله بن الحارث الى المغرب ، وحفص بن سالم الى خراسان يناظر

جهما القائل بالجبر ، كما بعث الى اليمن والى الجزيرة والى أرمينية — وأخذ واصل
يؤلف الكتب فى ذلك حتى ليزكرون أنه ألف كتاباً فيه ألف مسألة للرد على
المانوية — وكذلك كان عمرو بن عبيد يجادل مخالفه ويدعو الى الاعتزال فى مهارة ،
يقول واصفه كان عمرو اذا رأته مقبلاً توهمته جاء من دفن والديه ، واذا رأته جالساً
توهمته أجلس للقود ، واذا رأته متكماً توهمته أن الجنة والنار لم يخلقها الا له ، وقد
أبى هو وأصحابه الأولون — على ما يظهر — أن يتولوا للحكومة عملاً ، وأرادوا أن
يكون عملهم لله خالصاً ، فابن قتيبة يحدثنا « أن عمرو بن عبيد قال لأبى جعفر
المنصور أن الله أعطاك الدنيا بأسرها ، فاشتر نفسك ببعضها ، واذا كر ليلة تَمْخَضُ
عن يوم لا ليلة بعده ، فوجم أبو جعفر من قوله ، فقال له الربيع يا عمرو غنممت أمير
المؤمنين ، فقال عمرو « ان هذا صحبتك عشرين سنة ، لم يرك عليك أن ينصحك
يوماً واحداً ، وما عمل وراء بابك بشيء من كتاب الله ولا سنة نبيه ، قال أبو جعفر
فما أصنع ؟ قد قلت لك خاتمى فى يدك فتعال وأصحابك فاكفى ، قال عمرو ادعنا
بعداك تسخ أنفسنا بعونك ، ببابك ألف مظلمة ، اردد منها شيئاً نعلم انك صادق (١)
ولكنهم مع هذا كانوا مكروهين من كثير من المسلمين لأسباب : أهمها أنهم
خالفوا أهل الحديث فى كثير من آرائهم فحمل عليهم المحدثون حملات عنيفة ،
ومنها أنهم حولوا العقيدة الاسلامية البسيطة الى عقيدة فلسفية عميقة ، ومنها أنهم
فى أيام سلطتهم فى عهد المأمون والمعتصم نكلوا بالناس فى القول بخلاق القرآن ولم
يسيروا سيرة فلسفية فى الاكتفاء بتأييد رأيهم بالحجة ، بل حملوا الناس على القول برأيهم
بالسيف ، وكان فى ذلك ذهاب دولتهم وسمعتهم ، ولعل من هذه الأسباب أنهم أنزلوا
الصحابة منزلة سائر الناس فلم يقرأوا لهم بعصمة ، وجرءوا عليهم يشرحون أعمالهم

ويحكمون بصواب بعضها وخطأ بعضها، فقد رأيت ما قال عمرو بن عبيد، وجاء بعده النظام فنقد عمر وأبا بكر وابن مسعود في بعض أقوالهم وأكذب حذيفة وأبا هريرة في حديث طويل^(١)

وقد فشا في العصر الأموي الجدل في هذه المذاهب التي ذكرنا من خوارج وشيعة ومرجئة ومعتزلة وغيرهم، وملئت كتب التاريخ والأدب والملل بما كان يدور بينهم من حوار شديد، فابن أبي الحديد يروي لنا أن الخوارج في حرب المهلب لهم كانوا يضعون السيف من حين لآخر ثم يلتقون بخصومهم ويتجادلون ويدعون إلى مذهبهم، ويحدثنا الاغانى أن ثابت قُطْنَة استمع لقوم من الخوارج كانوا يجتمعون بقوم من المرجئة بخراسان فيتجادلون فال إلى قول المرجئة وأحبه، وقال قصيدته التي ذكرناها في الأرجاء. ويحدثنا أيضاً أن شيعياً ومرجئاً اختصما واحتكما إلى أول من يطلع عليهما فطلع «الدَّالَّال» فقالا له أيهما خير الشيعي أم المرجي؟ فقال لا أدري إلا أن أعلاى شيعي وأسفل مرجي^(٢) ويحدثنا ابن نباتة أن هذا الخلاف وصل إلى الشعراء فقد كان ذو الرمة قدريا، وكان رؤبة جبرياً، وأنهما اختصما فقال رؤبة والله ما فخص طائر أْفُحُوصاً ولا تقرمص سبع قُرْمُوصاً إلا بقضاء الله وقدره، فقال ذو الرمة والله ما قدر الله على الذئب أن يأكل حَلُوبية عيايل ضرائك^(٣)

ويقول الراجز

يأيها المضر كهماً لا تُهمَّ إنك إن تُقدَّرْ لَكَ الحُمَّى تُحمَّ

(١) ترى هذا القول مطولا ومردودا عليه في كتاب تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٢١

وما بعدها

(٢) يريد أن عقله وهواه مع علي، وشهواته مع المرجئة لأنها لا تكفر بالذنوب

(٣) العيايل جمع عيل وهو ذو العيال وضرائك جمع ضريك وهو الفقير

وَلَوْ عَلَوْتَ شَاهِقًا مِنَ الْعِلْمِ كَيْفَ تَوَقَّيْكَ وَقَدْ جَفَّ الْقَلَمُ

ويروى الاغانى أنه كان بالبصرة ستة من أصحاب الكلام ، عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء و بشار الأعمى وصالح بن عبد القدوس وعبد الكريم بن أبى العوجاء ورجل من الأزدي (هو جزير بن حازم) فكانوا يجتمعون فى منزل الأزدي ويختصمون عنده ، فأما عمرو وواصل فصارا الى الاعتزال ، وأما عبد الكريم وصالح فصححا التوبة ، وأما بشار فبقى متحيراً مخطئاً ، وأما الأزدي فمال الى قول السُّمْنِيَّةِ (وهو مذهب من مذاهب الهند) قال وكان عبد الكريم يفسد الاحداث بدعوتهم الى دينه . وما زال عمرو بن عبيد به حتى أخرجه من البصرة ثم دل عليه من قتله ، وروى الامام احمد أن الجهم لقي بعض السمنية فقال له السُّمْنِيُّ أَلَسْتُ تَزْعُمُ أَنَّكَ إِلهَا ؟ قال الجهم نعم ، قال فهل رأيت إلهك ؟ قال لا ، قال فهل سمعت كلامه ؟ قال لا ، قال فسمعت له رائحة ؟ قال لا ، قال فما يدريك أنه إله ، قال له الجهم أَلَسْتُ تَزْعُمُ أَنَّ فِيكَ رُوحًا قال نعم قال فهل رأيت روحك ؟ قال لا ، قال فسمعت كلامه ؟ قال لا ، قال فوجدت له حساً ، قال لا ، قال فكذلك الله

كل هذا يدلنا على أن حركة الجدل فى المذاهب الدينية والآراء السياسية المعسوبة بالصيغة الدينية كانت فى هذا العصر حركة عظيمة ، وقد كان لها أثر كبير فى العلم وفى السياسة وفى الأدب ، وقد صدرت هذه الفرق عن عقليات مختلفة من فرس وروم وسريان وعرب وغيرهم ، وكانت هذه العقليات تؤمن بأديان مختلفة من يهودية ونصرانية ومجوسية ووثنية وغيرها ، ولو ظلت الأمة الاسلامية أمة عربية فقط لرأينا فيها أمثال الخوارج وأمثال المرجئة ، ولكن ما كنا نرى فيها مذاهب الشيعة الغالية وتعاليمهم الغريبة وما كنا نرى المعتزلة وأبحاثهم الفلسفية ومذاهبهم العميقة

هذه الحركات العلمية التي شرحناها ، والفرق الدينية التي أبنا تعاليمها ، كانت في الدولة الأموية على حالة السذاجة ، لم تصل الى درجة القواعد المنظمة ، والعلوم المتميزة والشرح المحكم ، انما وصلت الى هذه الدرجة في صدر العصر العباسي لما أخذ خلفاء الدولة العباسية يناصرون الحركة العلمية ، وينهضون بالأساس الذي وضعه العلماء في الدولة الاموية ، مستعينين على ذلك بترجمة ما وصلت اليه الأمم ، قبلهم وموعدنا في الكلام على ذلك الجزء التالي ان شاء الله وهو المستعان .

مجموع مصادر هذا الباب

الملل والنحل للشهرستاني
الفصل في الملل والنحل لابن حزم
شرح ابن أبي الحديد على نهج البلاغة
الفرق بين الفرق للبغدادي
أصول الدين للبغدادي . (طبع حديثا في الاستانة)
مقالات الاسلاميين لأبي الحسن الأشعري . (يطبع الآن في الاستانة ومنه نسخة خطية في
مكتبة أيا صوفيا)
المواقف وشرحه
خطط المفريزي
مقدمة ابن خلدون
الرسالة الاثنا عشرية
شرح البخاري للقسطلاني والنووي على مسلم
تاريخ الجهمية والمعتزلة للقاسمي
ابن خلسكان
رسائل متفرقة لابن تيمية
الكامل للمبرد في أخبار الخوارج
الأغاني في مواضع متفرقة
البيان والتبيين للجاحظ
دائرة المعارف الاسلامية في مادة خوارج وشيعة وفدرية وغيرها

Macdonald, Muslim Theology

Browne, A Literary History of persia

Goldziher, Le Dogma et Le Loi de L'Islam

طبقات ابن سعد
الأحكام السلطانية للماوردي
تاريخ الطبري في الحوادث من سنة ٩٩ الى ١٣٢
تيسير الوصول الى جامع الأصول من أحاديث الرسول
شرح العيون شرح رسالة ابن زبدون
تفسير الفخر الرازي في جملة مواضع
المستصفي للغزالي
العقد الفريد لابن عبد ربه
طبقات المعتزلة للمرغني . (طبع بالهند)

لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩١٤

بشارع المبدولى رقم ٣٨ بعابدين بمصر

تليفون ٩٢ - ٢٩ بستان

كشف بمطبوعات اللجنة

تطلب جميعها من مركز اللجنة ومن المكاتب الشهيرة

تتكون لجنة التأليف والترجمة والنشر من جماعة من خيرة رجال الأدب والعلم والقانون المتأخرين بمؤلفاتهم ومقدرتهم العلمية واللجنة تتحرى دائماً قصداً واحداً وهو خدمة الوطن بالعمل على تنوير العقول وتهذيب النفوس بما تخرجه للناس من المؤلفات القيمة في مختلف الميادين والمستويات فالإقبال على اقتناء كتبها إنما هو خدمة للبلاد

- ١ - مبادئ الكيمياء الجزء الأول : - للسنة الثالثة الثانوية ١٣
- ٢ - » » الجزء الثانى : - للسنة الرابعة الثانوية تأليف الدكتورين احمد زكى الدكتور في العلوم والاختصاصى في الكيمياء من جامعة لندن ، والدكتور احمد عبدالسلام الكردانى الدكتور في الفلسفة ١٥
- ويمتاز هذان الجزءان بالدقة العلمية المصحوبة بالتبسط والجلاء ، وبهما الأشكال الكثيرة التى توضح جميع موضوعاتهما
- ٣ - سلسلة الجغرافية الحديثة : - خمسة أجزاء تتناول برامج السنوات الخمسة في التعليم الثانوى ، قامت بتأليفها شعبة الجغرافيا باللجنة وهى مؤلفة من خمسة من أكبر أساتذة الجغرافيا المعروفين بالمدارس الثانوية . وقد ظهر فضل هذه السلسلة لما تجلبى بها من الوضوح وحسن الأسلوب ودقة المعلومات ووفائها ، وهى تفيد الطالب أكبر فائدة بصفتها مرجعاً وهادياً في موضوع الجغرافيا الجزء الأول ١٦ قرشا والثانى ١٨ قرشا والثالث ٢٠ قرشا والرابع ٢٠ قرشا والخامس ٢٠ قرشا ٩٤
- ٤ - تاريخ الأدب العربى : - الطبعة الرابعة في مقرر البكالوريا وهو تأليف الأستاذ المعروف احمد افندى حسن الزيات مدير التعليم العربى بالجامعة الأمريكية ويمتاز بطريقة بحثه العلمى وعلو أسلوبه وطريقته في المقارنة والموازنة على الأسلوب التحليلى الأدبى . فليس مقتصرأ على أنه كتاب مدرسى بل هو كتاب نافع في الثقافة الأدبية العامة للبلاد العربية قاطبة ٢٠
- ٥ - تاريخ القرن التاسع عشر : - في مقرر البكالوريا تأليف الدكتور حسين حسنى والاستاذ محمد افندى فاسم الاستاذ بمدرسة المعلمين العليا . وهو يتناول تاريخ القرن التاسع عشر في أوربا والشرق بالبحث الدقيق والتحليل العلمى في أسلوب جميل مشوق يجدر بكل مطلع أن يجعله في مكتبته ٢٥

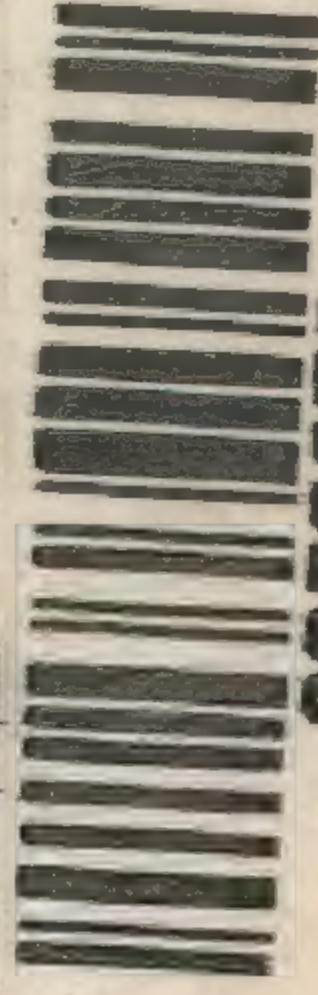
- ٢٠ — اصول التربية : — لمدارس المعلمين تأليف الاستاذ أمين مرسى قنديل الأستاذ
بمدرسة المعلمين العليا وهو بحث مستفيض في أصول التربية لا يستغنى عنه مشغل بالتعليم وهو خير
ما ظهر في اللغة العربية في ذلك الموضوع الجليل
- ١٠٠ — شرح قانون العقوبات : — لمدرسة الحقوق . يتناول الجرائم المختلفة ويبين
كل ما يختص بها بطريق تحليلي دقيق ، وقد صار اليوم أكبر مرجع في اللغة العربية في ذلك
الموضوع لرجال القضاء والمحاماة ، ويكفي للثقة به أنه تأليف الاستاذ الكبير احمد بك أمين
المستشار الملكي
- ٦ — مشاهد الطبيعة (جزءان) : — كتاب في الجغرافيا للأطفال في السنتين الاولى
والثانية الابتدائيتين جعل فيه كثير من الصور المختارة لبيان الموضوع واضحاً ماثلاً أمام عين
الطفل ولغته سهلة لا يعسر على التلميذ الصغير فهمها وهو مطبوع طبعا واضحا بحرف كبير لتسهيل
قراءته . وقد دل اقبال المدارس عليه على أنه سد فراغا في التعليم ، وهو تأليف الاستاذين
المعروفين محمد افندى فؤاد حسن مفتش مدارس الجمعية الخيرية الاسلامية ، محمد افندى فريدأبو حديد
الاستاذ بمدرسة الأمير فاروق الثانوية ثمن الجزء
- ٤ — سيمير الاطفال (سنته أجزاء) : — للمدارس الابتدائية ثلاثة أجزاء للبنين ومثلها
للبنات للسنوات الاولى والثانية والثالثة الابتدائية تأليف الاستاذ محمد افندى الهراوي ، ومطبوع
بالشكل الكامل ومحل بالصورة الديمة وهو كتاب محبوب عند الاطفال يترنمون بأشعاره العذبة التي
يقهمنها وتربي فيهم ملكة الخيال والذوق الادبي والاخلاق الكريمة وقد قررته وزارة المعارف
ومجالس المديرية وإدارات التعليم الخصوصية والاهلية ثمن الجزء
- ٢٥ — المسألة المصرية : — ترجمه الكاتب الجليل (Egypt's Ruin) تأليف
الاستاذ روثتين وترجمه الاستاذان عبد الحميد العبادي المدرس بالجامعة المصرية ، محمد بدران
المدرس بالمدرسة المسكية الثانوية في لغة عربية تجمع بين متانة الاسلوب والدقة والكتاب يشرح
أصل المسألة المصرية وتطورها من وجهة نظر غير انجليزية وهو بذلك يمتاز بتحرى وجوه
الحقيقة التاريخية
- ١٥ — آلام فرتر : — القصة العالمية للشاعر الالماني العظيم جوت وهي تعتبر من الخلفات
الحالدة في الادب في جميع بلاد العالم وقد ترجمها بقلمه البديع الاستاذ احمد حسن الزيات
- ١٢ — علم الاخلاق (الى نيقوماخوس) : — تأليف الفيلسوف الاعظم ارسططاليس
وكفى بذلك تنويهاً بالكتاب ، وقد ترجمه الى الفرنسية مع مقدمة بديعة في تاريخ علم الاخلاق
العلامة الفرنسي (سنت هيلير) وعربه وصدره بمقدمة ممتعة حضرة الاستاذ الكبير صاحب المعالي
احمد لطفى السيد بك وزير المعارف الحالي (١٩٢٨) وهذه الحقائق في ذاتها خير ما يقدم به
الكتاب الى جمهور المتأدين وأولى الثقافة
- ١٠٠ — كتاب الاخلاق : — تأليف الكاتب الانجليزي الشهير (سميلز) وتعريب

- الاستاذ محمد الصادق حسين بك ، ويمتاز الكتاب في أصله بسعة اطلاع الكاتب واختلاف ميادين تجاربه وعلمه . والترجمة بديعة وشيقة الاسلوب لا يعلها القارى بل يسره منها الاستزادة ، ولهذا كان كتاباً قيماً للتسلية والاطلاع والفائدة والادب ٢٠
- ١٤ — كتاب الاخلاق : — تأليف الاستاذ احمد أمين المدرس بالجامعة المصرية ، وهو محبوب تبويها علمياً بسيط فيه الاستاذ مباحث علم الاخلاق بسيطاً واقياً مع وضوح القصد وسهولة المنهج . وهو يفيد محب الاطلاع والتأدب كما أن فيه موضوعات برنامج علم الاخلاق بالمدارس الثانوية المقرر على طلبة السنة الثالثة ٢٠
- ١٥ — مبادئ الفلسفة : — تأليف الدكتور (رابوبورت) ألفه ليكون مقدمة لمن يدرس الفلسفة من طلبة المدارس ومن يماثلهم ، وعربه الاستاذ احمد أمين المدرس بالجامعة المصرية وهو خير ما يقرؤه من يريد الاطلاع بمبادئ علم الفلسفة ومباحثها ٨
- ١٦ — كتاب الانتصار : — يتضمن رد ابن الحياط على فضائح المعتزلة لابن الراوندى صححه وسدده بمقدمة بديعة في تاريخ المعتزلة المستشرق الدكتور نيرج الاستاذ بجامعة ايسالا بالسويد وطبع في مطبعة دار الكتب المصرية ١٥
- ١٧ — فلسفة ابن خلدون الاجتماعية : — بحث فيها وتقد لها ومقارنتها بالفلسفة الاجتماعية في الوقت الحاضر تأليف الدكتور طه حسين الاستاذ بالجامعة المصرية ١٥
- ١٨ — بسائط الطيران : — رسالة تتناول ماضيه وحاضره ومستقبله وتنضم شرح أجزاء الطيارات والمناطيد والحركات ونظرية هملها ويحتوى على ثمانين صورة تأليف الدكتور احمد عبد السلام الكردانى مهندس الطيران ١٦
- ١٩ — كتاب الحرية والدولة : — يتناول المباحث الاجتماعية كالدولة والسلطان وحقائق معنى الحرية وعلاقة الفرد بالجماعة والحكومة ونشأتها الى غير ذلك مما لا بد أن يلم به كل مدنى وقلم الكتاب سهل جميل يحمل القارى على الاستزادة ١٥
- ٢٠ — كتاب رفائيل : — هي القصة الخالدة الكبرى التى دمجها يراع الشاعر الفرنسى العبرى لامارتين ، وحسب القصة أنها من تأليفه ، وتعريب الاستاذ احمد حسن الزيات المعروف بعقدرته الفائقة فى الادب واللغة العربية ١٥
- ٢١ — القضاء الجنائى : — مجموعة قيمة من الاحكام ، الجزء الاول لشرح قانون العقوبات والجزء الثانى لشرح قانون تحقيق الجنائيات تأليف الاستاذ الكبير على زكى العرابى بك كل جزء
- رئيس نيابة استئناف مصر وفى ذلك وحده ما يدل على أن الكتاب نتيجة تجربة طويلة وعلم غزير ٧٥
- ٢٢ — الثورة الفرنسية : — رسالة تبسط حوادث الثورة الفرنسية الكبرى وتتضمن نظرات عميقة فى معانيها ومبادئها ، وقد كتبها المؤلف الاستاذ حسن جلال رئيس مكتب معالى وزير الحرية بقلمه السهل المتع فكانت بحثاً يجمع بين الدقة والسهولة ٨

- ٢٣ — صلاح الدين وعصره : — رسالة في تاريخ بطل الاسلام الكبير صلاح الدين الايوبي. تتناول وصف الدول التي كانت في وقته في الشرق والغرب وبيان أحوالها الاجتماعية. وتبين كيف نشأ ذلك البطل وكيف بنى دولته الكبيرة وتابع نضاله العالمي المشهور. وفي خاتمة الكتاب فصل شيق في تحليل شخصية ذلك الرجل العظيم ، وكل ذلك في أسلوب سهل جميل من قلم مؤلفه الاستاذ المروفي محمد فريد أبو حديد ٨
- ٢٤ — الأدب الجاهلي : بحث قيم في الادب الجاهلي تتناول طريقة جديدة في النقد الادبي وتطبيقها على الادب العربي وهو يفتح ميداناً فسيحاً أمام الباحث في الخلفات الادبية العربية ، فالكتاب أسلوب طريف في الادب العربي زيادة على ماله من القيمة العظيمة في النقد والبحث الانشائي مطبقاً على الشعراء وأصحاب النثر الجاهليين وهو من تأليف الاستاذ الكبير الدكتور طه حسين ٣٥
- ٢٥ — تاريخ اليهود في بلاد العرب : بحث علمي جديد في موضوع لم يسبق مثله في اللغة العربية ، وهو يبين علاقة اليهود ببلاد العرب منذ بدئها وبين تطورها في مختلف العصور . ألفه الاستاذ الدكتور (اسرائيل ولفسون) ١٥
- ٢٦ — الكيمياء الحديثة : في مقرر السنة الخامسة الثانوية تأليف الاستاذ أمين ابراهيم كحيل المدرس بالجامعة المصرية وهو يمتاز بدقته ووفاء اتجاهه ١٢
- كتب تحت الطبع**
- لا تزال اللجنة حادة في إصدار الكتب القيمة بين مؤلفات و مترجمات ، وسيظهر قريباً ثلاثة كتب عظيمة
- ١ — فجر الاسلام : في ثلاثة أجزاء يشمل تاريخ الدول الاسلامية في العصر الاول مدة الخلفاء الراشدين والدولة الاموية ، وتتناول مباحثه جميع الجهات بين التاريخ السياسي والتاريخ الاجتماعي والحالة العقلية وسيكون بذلك مرجعاً حجة في تاريخ هذا العصر ، ألفه الاستاذ الدكتور طه حسين « أستاذ آداب اللغة بالجامعة المصرية ، والاستاذ « احمد امين » والاستاذ « عبد الحميد العبادي » المدرسان بالجامعة المصرية
- ٢ — الشاهناماه : ترجمة الفصحة الكبرى الفارسية تأليف الشاعر الفارسي العظيم الفردوسي وتعريب الاديب القديم (البنداري) وقد قام على مراجعته وضبطه ونشره الاستاذ « عبد الوهاب عزام » المدرس بالجامعة المصرية
- ٣ — الامتيازات الأجنبية : بحث تاريخي علمي في أصل الامتيازات الاجنبية بمصر ومناقشتها من الوجهتين القانونية والاجتماعية تأليف الاستاذ « محمد عبد الباري » مؤلف كتاب الحرية والدولة



Bibliotheca Alexandrina



0252379